

الجلد 02
العدد 03
سبتمبر 2021



الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية

مجلة علمية دولية محكمة تصدر عن جامعة برج بوعريش - الجزائر

ردم د 2710-7949
رتم د 893x-2716
الإبداع الفانوني: جانفي 2020

مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية

مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن جامعة برج بوعرييج - الجزائر

(المجلد 02 - العدد: 03 - سبتمبر 2021)

عدد خاص

بالملتقى الدولي الثالث حول أعمال محمد البشير الإبراهيمي
"المواطنة وبناء الوعي في فكر محمد البشير الإبراهيمي"

محاوَر الملتقى:

- 1- المواطنة أفقا للفكر الوطني التحرري ومقاومة الاحتلال؛ تجارب من الحركة الوطنية.
- 2- جمعية العلماء ونصّ الوعي بالمواطنة في بناء واستعادة تحقّقات الهوية.
- 3- مشروع المواطنة وتقاطع العمل الإصلاحي والسياسي والاجتماعي في جهود علماء الجمعية.
- 4- شواهد الوعي المواطنيّ في كتابات محمد البشير الإبراهيمي.

روم و: ISSN: 2710 - 7949

ر.م.و: EISSN: 893-x2716

الإيداع القانوني: جانفي 2020



مدير المجلة

أ.د/ عبدالحق بوتيرة

مدير الجامعة

رئيس التحرير

د. عبد الله بن صافية

هيئة التحرير

- | | |
|---|--|
| د. علي عبد الأمير الخميس....جامعة بابل (العراق) | أ.د/ رحيم حسين جامعة برج بوعريبيج (الجزائر) |
| د. مراد تواتي جامعة المسيلة (الجزائر) | أ.د/ ضياء غني العبودي جامعة ذي قار (العراق) |
| د. مصطفى أحمد قنبر.... كلية المجتمع (قطر) | أ.د/ محمد جواد البدراني جامعة البصرة (العراق) |
| د. عبدالمالك بكاي جامعة سطيف (الجزائر) | أ.د/ ناصر بركة جامعة المسيلة (الجزائر) |
| د. سليم حمدان جامعة الوادي (الجزائر) | أ.د/ علاء الدين أحمد الغرابية جامعة الزيتونة الأردنية |
| أ. بوبكر ملياني جامعة برج بوعريبيج (الجزائر) | د. إسماعيل ميهوبي جامعة برج بوعريبيج (الجزائر) |
| أ. سومية ديرم.... جامعة برج بوعريبيج (الجزائر) | د. عبدالكريم هجرس.... جامعة برج بوعريبيج (الجزائر) |

جميع المراسلات والأبحاث توجه إلى السير:

رئيس تحرير مجلة الإبراهيمي للأدب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريبيج - الجزائر

الهاتف: 00213(0)661604837

00213(0)799280165

البريد الإلكتروني: elibrahimi.lh@gmail.com

صفحة المجلة في البوابة الجزائرية للمجلات العلمية

www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/634

مجلة "الإبراهيمي للأداب والعلوم الإنسانية"

مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية

تصدر عن جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج - الجزائر

الهيئة العلمية الاستشارية

د/ مبروك دريدي جامعة سطيف (الجزائر)
د/ جمانة بشير أبوorman...جامعة البلقاء التطبيقية(الأردن)
د/ حسين علي جبار القاصد ... جامعة المستنصرية (العراق)
د/ عدنان مهنديس جامعة فاس (المغرب)
د/ مراد قفي جامعة المسيلة (الجزائر)
د/ يوسف العايب جامعة الوادي (الجزائر)
د/ سماح بن خروف جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ محمد مدور جامعة غرداية (الجزائر)
د/ محمد بن علي جامعة غليزان (الجزائر)
د/ عبدالحميد بودرواز جامعة المسيلة (الجزائر)
د/ ياسين بغورة جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ غنية بوضياف جامعة بسكرة (الجزائر)
د/ زهرالدين رحمانى جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ فايزة لولو جامعة سوق أهراس (الجزائر)
د/ عبدالسميع موفق جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ فاطمة صغير جامعة تلمسان (الجزائر)
د/ عبدالمجيد قديدح جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ زينة بن فرج جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ موسى بن منصور جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ موسى لعور جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ محمد يزيد سالم جامعة باتنة (الجزائر)
د/ حسان الأعرج جامعة الدار البيضاء (المغرب)

أ.د/ علاء الدين أحمد الغرابية ... جامعة الزيتونة الأردنية (الأردن)
أ.د/ أحمد مسعودان جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
أ.د/ صالح هويدي ناصر معهد التراث – الشارقة (إ.ع.م)
أ.د/ تامر محمد عبدالعزيز جامعة المنيا (مصر)
أ.د/ رشيد زرواتي جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
أ.د/ مصطفى الغرافي جامعة مكناس (المغرب)
أ.د/ إبراهيم مصطفى الحمد جامعة تكريت (العراق)
أ.د/ محمد جواد البدراني جامعة البصرة (العراق)
أ.د/ مصطفى عطية جمعة .. الجامعة الإسلامية – ميسوتا (و.م.أ)
أ.د/ الجودي صاطوري جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
أ.د/ رحمن غرگان عبادي جامعة القادسية (العراق)
أ.د/ محمد بكادي جامعة تمراست (الجزائر)
أ.د/ شفيقة العلوي م.ع.أ بوزريعة (الجزائر)
د/ محمد جبر جميل جامعة المدينة العالمية – القاهرة (مصر)
د/ ميلود زكري جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ زينب رضا حمودي الجويد جامعة بابل (العراق)
د/ كمال فرشة جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د/ زينب حسين كاظم المحنا ... جامعة القادسية (العراق)
د/ بوبكر الصديق صابري ... جامعة برج بوعريريج(الجزائر)
د/ علي عبدالأمير الخميس جامعة بابل (العراق)
د/ نسيمة عميروش جامعة المسيلة (الجزائر)
د/ صادق محمد وجيه الدين جامعة إب (اليمن)

د/ نوال أقطي جامعة بسكرة (الجزائر)
د/ محمد بن لخضر جامعة الجلفة (الجزائر)
د/ زهيرة ديبج جامعة المدية (الجزائر)
د/ صالح غيلوس جامعة المسيلة (الجزائر)
د/ رايح أولادضياف جامعة قالمة (الجزائر)
د/ عادل بوديار جامعة تبسة (الجزائر)
د/ فتحي بحة جامعة الوادي (الجزائر)
د/ بشير بوقاعدة جامعة سطيف (الجزائر)
د/ بن الدين بخولة المركز الجامعي – أفلو (الجزائر)
د/ سهيلة بن عمر جامعة الوادي (الجزائر)
د/ مراد تواتي جامعة المسيلة (الجزائر)
د/ عبدالقادر خليف جامعة تبسة (الجزائر)
د/ عبد الرحيم البار جامعة جيجل (الجزائر)
د/ زهور شتوح جامعة باتنة (الجزائر)
د/ وليد شريط جامعة البليدة (الجزائر)
د/ ربيع كيفوش جامعة جيجل (الجزائر)
د/ لزهركرشو جامعة الوادي (الجزائر)
د/ محمد مكي جامعة المدية (الجزائر)
د/ محمد بن يحي جامعة الوادي (الجزائر)
د/ أمال كبير جامعة تبسة (الجزائر)
د/ عدي عدنان العوادي جامعة القادسية (العراق)
د/ أحمد عليوي صاحب كلية الإمام الكاظم (العراق)
د/ محمد سنوسي جامعة المسيلة (الجزائر)
د/ سرمد جاسم محمد الخزرجي ... جامعة تكريت (العراق)
د/ عبدالكريم أحمد مغاوري.. ج المدينة العالمية (ماليزيا)
د/ سليمة محفوظي جامعة سوق أهراس (الجزائر)
د/ عباس يداللي فارساني ..ج شهيد تشمرأناهاواز (إيران)
د/ إسماعيل أبورطبية هاني ... جامعة بني سويف (مصر)

د/ علي دغمان جامعة الوادي (الجزائر)
د/ حليلة عواج جامعة باتنة (الجزائر)
د/ أم السعود براهيمي جامعة الجلفة (الجزائر)
د/ سفيان لوصيف جامعة سطيف (الجزائر)
د/ أحمد بقار جامعة ورقلة (الجزائر)
د/ إبراهيم زلافي جامعة المسيلة (الجزائر)
د/ الحسين بركات جامعة المسيلة (الجزائر)
د/ يوسف بديدة جامعة الوادي (الجزائر)
د/ نصيرة بلبول جامعة الجلفة (الجزائر)
د/ سفيان بن صفية جامعة سطيف (الجزائر)
د/ كمال بن مارس جامعة قالمة (الجزائر)
د/ خميسي بولعراس جامعة سطيف (الجزائر)
د/ خليل عبدالكريم جامعة الوادي (الجزائر)
د/ لخضر رفاف جامعة برج بوعريج (الجزائر)
د/ سعد مردف جامعة الوادي (الجزائر)
د/ غزلان هاشمي جامعة سوق أهراس (الجزائر)
د/ حبيبة عبدلي جامعة خنشلة (الجزائر)
د/ كمال بن عمر جامعة الوادي (الجزائر)
د/ محمد الصديق معوش جامعة الوادي (الجزائر)
د/ عمرو وهدان جامعة طيبة (السعودية)
د/ عبدالله اطيبة جامعة سرت (ليبيا)
د/ دليلة مصباح حامد مصباح جامعة سرت (ليبيا)
د/ مصطفى ولد يوسف جامعة البويرة (الجزائر)
د/ الطيب بوازيد جامعة المسيلة (الجزائر)
د/ عبدالسلام عابي جامعة باتنة (الجزائر)
د/ كريم مبروكي جامعة الجلفة (الجزائر)
د/ محمود محمد عبد الراضي ... جامعة القاهرة (مصر)
د/ هناء سعداني جامعة الوادي (الجزائر)

شروط النشر في المجلة

تستقبل مجلة "الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية" كلّ البحوث والدراسات العلمية المندرجة ضمن دائرة اهتماماتها (الأدبية والإنسانية والاجتماعية)، وتستسعى إلى نشر منجزات الباحثين من داخل الجزائر وخارجها باللغات الثلاث (العربية والإنجليزية، الفرنسية) إذا استوفت الشروط الآتية:

- أن تتسم الأعمال المقدّمة بالجدّة والموضوعية والقيمة العلمية.
- أن تكون المادة العلمية المقدمة أصيلة، لم يسبق نشرها، ولم ترسل للنشر إلى جهة أخرى.
- يجب كتابة البحث بلغة سليمة ودقيقة، مع الالتزام بالأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات، وتوثيق الاقتباسات.
- أن لا يتجاوز عدد صفحات البحث (25) صفحة بما في ذلك قائمة المصادر والمراجع.
- يصنّف البحث وفق برنامج (Microsoft Word) بخط (Traditional Arabic) حجم 15 للمتن و12 للهوامش، وبالنسبة للغة الأجنبية (Times New Roman) حجم 14 للمتن و11 للهوامش، على أن تدرج الهوامش في آخر المقال.
- تخصّص الصفحة الأولى ل: عنوان البحث (وترجمته باللغة الإنجليزية)، واسم الباحث ودرجته العلمية والمؤسسة التي ينتمي إليها إضافة إلى رقم الهاتف والبريد الإلكتروني.
- يرفق البحث بملخصين للمقال (في حدود نصف صفحة على الأكثر)؛ الأول بلغة المقال (عربية / إنجليزية / فرنسية)، والثاني: [باللغة الإنجليزية بالنسبة للأعمال المكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية. باللغة العربية إذا كانت لغة المقال إنجليزية].
- يتبع الملخصان بالكلمات المفتاحية (*keywords*) والتي لا تتعدّى سبع (07) كلمات ترتب بحسب وظيفتها في المقال، وينبغي أن تشملها الترجمة في الملخص الثاني.
- تخضع البحوث المقدمة إلى المجلة للتحكيم العلمي السري بحسب الأصول المتعارف عليها علميا، وقرارات المحكّمين نهائية غير قابلة للطعن.

الأعمال المنشورة لا تعبر إلا عن آراء أصحابها

فهرس المحتويات	
09	افتتاحية العدد
29 - 11	أثر البيان القرآني في خطاب البشير الإبراهيمي: قضايا الأمة الإسلامية أنموذجا د. عبد الرحمن بلحنيش المركز الجامعي عبد الله مرسلّي- تيبازة (الجزائر)
40 - 30	الإعداد الديني في تفعيل الوعي المواطي عند البشير الإبراهيمي د. لبنى دلندة جامعة الحاج لخضر - باتنة1 (الجزائر)
60 - 41	توطين الهوية اللغوية وبناء الوعي في فكر محمد البشير الإبراهيمي د. حسين عمر دراوشة جامعة غزة (فلسطين)
74 - 61	البعد القومي في كتاب عيون البصائر للإمام محمد البشير الإبراهيمي ط.د/ زهيرة حمادي جامعة امحمد بوقرة - بومرداس (الجزائر)
86 - 75	الفكر الإصلاحى وقيم المواطنة في كتابات الإبراهيمي د. سامية حامدي جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريش (الجزائر)
98 - 87	المثقف ودوره في تعميق الفهم الواعي بالمواطنة عند البشير الإبراهيمي د. فريدة مقلاتي جامعة عباس لغرور - خنشلة (الجزائر)
118 - 99	المواطنة في فكر البشير الإبراهيمي من خلال آثاره د. عبد الحق حارش جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة (الجزائر)
136 - 119	الهوية الوطنية وروح المواطنة في فكر محمد البشير الإبراهيمي د. عيسى بلكرفة جامعة محمد بوضياف - المسيلة (الجزائر)
152 - 137	حضور الآخر في خطاب الوعي بالوطن عبر كتابات الإبراهيمي النثرية ط د/ ميلود سي الطيب - د. سعيد المكروم جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم (الجزائر)

166 - 153	حضور قيم المواطنة في خطابات الإبراهيمي: خطبة جامع كتشاوة نموذجا د. زهور شتوح - ط.د/ عزيز عز الدين جامعة باتنة 1 (الجزائر)
178 - 167	دور الشباب في ترسيخ قيم المواطنة والهوية الإسلامية قراءة في كتاب الأثار للشيخ البشير الإبراهيمي ط.د/ العيد بوعافية مخبر البحوث والدراسات في التنمية الريفية جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعرييج (الجزائر)
196 - 179	فكرة الوطن خارج الجغرافيا عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي مقاربات في السيرة والمسيرة د. عبد الحفيظ شريف جامعة أكلي محند أولحاج - البويرة (الجزائر)
217 - 197	المنطلقات المعرفية لفقهاء المواطنة من خلال منهجية الشيخ الجيلالي الفارسي أ.د/ محمد بن السايح جامعة الأغواط (الجزائر)
230 - 218	المواطنة ومساءلة العقل في الخطاب الإصلاحية لدى قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين د. ياسين سرايحية جامعة محمد الشريف مساعدي - سوق أهراس (الجزائر)
241-231	تجليات أفعال الهوية في فكر أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "شعار الجمعية أنموذجا" د. عبد المجيد قديدح جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعرييج (الجزائر)
258 - 242	جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الوحودية من خلال المؤتمر الإسلامي الجزائري 1936- 1938 د. حورية جيلالي المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران (الجزائر)
269 - 259	مشروع المواطنة في برنامج وخطاب حزب نجم شمال إفريقيا (1926م - 1937م) ط.د/ فاروق زروق جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة (الجزائر)

287 - 270	أبعاد المواطنة وأصول الخطاب السياسي والإصلاحي في كتابات بعض علماء الجمعية ط.د/ قَدّور عبدلّي - د. عبد الرّحمن عيساوي جامعة أكلي محند أولحاج - البويرة (الجزائر)
301 - 288	جهود علماء الجمعية في سبيل النهوض بالأمة الجزائرية ط.د/ الدراجي شطي - أ.د/ خديجة الشامخة جامعة غرداية (الجزائر)

افتتاحية العدد

احتضنت كلية الآداب واللغات في اليوم الثاني من شهر جوان لعام ألفين وواحد وعشرين الملتقى الدولي الثالث حول أعمال محمد البشير الإبراهيمي، وقد قدمت فيه مجموعة من المنجزات العلمية داخل سياق إشكالي كبير ومهم أساسه تيمة "المواطنة" باعتبارها مفهوما جذريا في صياغة الانتماء والانتساب بالمعنى العضوي والوظيفي، والمنتج لكيثونة تقوم على رابط تحويل الهوية من حدّها الإيماني إلى حدّها العملي المسؤول عن بناء شخصية الفرد ضمن شخصية جماعته، وهو ما يفسر وحدة الشعوب والأمم في انسجامها وديمومة استمرارها، ويحقق للذات المفردة صبغ تطابقها مع الشخصية الشعبية الوطنية وهي تستغرق سيرورتها ضمن مسار يربط المقومات بأوجهها العملية داخل حدود وطن اكتسب اكتماله الإقليمي والزمني فيما دلّت عليه الأسس والثوابت.

قدّمت مداخلات الملتقى لتوصّف ما شهدته المواطنة الجزائرية عبر سيرورتها التاريخية من تحولات في علاقة مقوماتها بنتائجها، مركزة أكثر على تلك الحقبة المظلمة في سياق اعتداء عنيف مارسه الاحتلال الفرنسي حين استهدف شخصية الجزائري في محاولات منهجة ووحشية من أجل تفكيك المواطنة وأبعادها عن إنتاج الوعي بالهوية، وإبطال حضورها العاطفي والعقلاني في توجيه برامج الفعل والعمل، لما يقتضيه الإيمان والإدراك بامتلاك الأرض والتاريخ اجتماعيا وحضاريا وفكريًا، وقد كان الاحتلال بفعله هذا مثيرا أساسيا لما قام من فكر وعمل لدى النخب الجزائرية في مشروعها الذي بذلته تجاه ترسيخ المواطنة وتأكيد استمرارها، ودفع الجزائريين نحو استقلالية تامة في بقائهم الواعي بأنّ المعتدي ولحظته الظالمة حالة طارئة وعابرة، وجب معها الاستمرار في معاشة العلاقة العضوية بالوطن ضمن لحظة الحق والحقيقة ومنع وساطة الآخر الذي حاول استبدالها بجهاز مواطني مزيف وقهري، ومن أمثلة ذلك ما أنجزته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي عقدت الرّابط العضوي بين مقومات الهوية وبين الممارسة الواعية لتجلياتها، وقد تجسد ذلك في الحبكة الفكرية والعملية في شتى مناحي الحياة الوطنية؛ فمن العمل الإصلاحي الدّعوي إلى العمل الصحفي، إلى التّعليم والنشاط الثقافي امتد مشروع المواطنة محققا بجدارة شخصية

وطنية ضمن برنامج سلوكي مبرّر فكريا ومسبّب إدراكيا؛ قام على صناعة الأفعال وإتمام المنجز اجتماعيا، وهو ما رسّخ مقوّمات الهوية وأبطل الأنموذج المزيف للمواطنة البديلة الاستلابية التي حاول بها الاحتلال طمس المواطنة الصّحيحة والحقيقية لشعب عريق.

لقد حفلت كتابات علماء الجمعية بنهج المواطنة وأهدافها، فاشتركت في أفق المشروع الوطني مع جميع النّخب، وتحت سقف المواطنة سعت إلى التّحرر الجزائري الشامل، ويشهد بذلك فكر العلامة محمد البشير الإبراهيمي الذي فاض وعيه بمشروع المواطنة الجزائرية؛ حيث عبّر عن برنامج وظيفي لها استجمع فيه كلّ الأسباب والأهداف، وعبّر في سلسلة فكره عن ذلك واستدلّ عليه في مجالات الحياة المختلفة من أسّ الفرد إلى أسّ جماعته، وصاغ مشروعه الفكري على استقلال الذات الجزائرية ووعيتها بذلك واستحالة أن تكون غيرها كما توهم الاحتلال. فكان أهمّ منجز في تعرّف واستدلال المواطنة الجزائرية في فكره، أن أبطلت مغالطة الاندماج، وفكّك وهم المطابقة الآخريّة الذي دفع به الاحتلال نحو محو الوطنية والمواطنة المستقلة، وقد كان ذلك مقدمة كبرى في تحولات الوعي الوطني، وبداية فعلية لتحقق مواطنة كاملة اقتضت العمل الثوري لاستعادة الوطن ببعديه التّاريخي والمكاني، وبناء دولة المواطنة المستقلّة.

ومن هنا تأسّست للملتقى مشروعية السؤال عن كيفية إبطال فكر الإبراهيمي - ومن هنا نحو - لمشروع المواطنة المزيفة للاحتلال، واستعادة مفهوم المواطنة الجزائرية الصّحيحة وبعده عن كيفية بعث الوعي بمواطنة مستقلة ومستحقّة لهوية راسخة وعضوية. وتأسّيسا على هذا تأتت الإجابات/المدخلات ضمن فعاليات الملتقى الدولي، وحاولنا توطينها لكم ضمن هذا العدد الخاص من مجلة "الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية" الصادرة عن جامعة برج بوعريّج، أملين أن تثري المكتبة، وتفيد الباحثين المهتمين بالموضوعات المطروقة، وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أسجي فائض امتناني لكلّ من أسهم في إنجاح فعاليات الملتقى، وساعد في إصدار هذا العدد وإخراجه بهذه الحلّة للقارئ الكريم.

د. عبدالله بن صفيّة

رئيس الملتقى - رئيس تحرير المجلة

أثر البيان القرآني في خطاب البشير الإبراهيمي؛ قضايا الأمة الإسلامية أنموذجا

The Impact of the Quranic Statement in Al-Ibrahimi's Discourse The Case of; Matters of the Islamic Nation

د. عبد الرحمن بلحنيش

المركز الجامعي عبد الله مرسللي - تيبازة (الجزائر)

abelhenniche@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/09/28

تاريخ الإرسال: 2021/08/30

ملخص:

يتناول هذا البحث علماً فذاً من أعلام الجزائر، ألا وهو محمد البشير الإبراهيمي وكيف كان يجري القرآن الكريم على لسانه بيانا وتعبيرا بما امتلك من مقدرة لغوية تَبَوَّأَ بها شتى المحافل، وساد بها في الخطب والمقالات، في الدروس والمواعظ؛ جاعلا من أحداثه وقصصه، ووعدده وووعيده، ترغيبه وترهيبه، ومجالات شتى مادة أولية يستقي منها أحاديثه وكتابات، يتزَيَّنُ بها أسلوبه، هادفاً بذلك إلى إحياء اللغة العربية، وذلك بشدّ النَّاسِ إلى هذا المعين الصَّافِي، شارحا لهم مواقفه، ورباطا لهم به وكأنّه يفسّره بطريقة عمليّة إجرائيّة؛ من ذلك أنّه يضمّن أسلوبه آيات من الدّكر الحكيم، أو يقتبس من القرآن طريقتَه في التّعبير بالإضافة إلى فنون أخرى من القول، موظفا زخرف القول المرصّع بالسّجع والجناس، تناسب على لسانه عفو الخاطر بلا تكلف، كما كان يوظّف التّشبيه والاستعارة والمجاز والكناية في مواقف متعدّدة، هادفاً من ورائها إلى النَّصح والإرشاد، رغبة وأملا منه في أوبة بلده إلى حظيرة الأُمّة والإسلاميّة، وعودة اللّسان العربيّ والبيان القرآني إلى مكانته المرموقة، بعد غياب.

الكلمات المفتاحيّة: الإبراهيمي، البيان القرآني، الأسلوب، التّضمين، الاقتباس، الاستعارة، المجاز

Abstract:

This research tackles a great figure from the Algerian scholars, Mohammad Al-Basheer Al-Ibrahimi, and how the Holy Quran flows in his expressions and statements due to his linguistic competence which promoted him in the different forums, and prevailed his sermons, articles, speeches, as well as preaching. Making the Quranic events and stories, promises and warnings, coaxing and alarming and other various domains, a raw material from which he extracts his talks and writings, and embellishes his style. His prime objective was to revive the Arabic language through guiding people towards this pure resource (Quran), explaining its positions to them, and bounding them to it, as if he is interpreting it in a practical and procedural way. For instance, Al-Ibrahimi tends to include verses of the wise remembrance (Quran) in his style, or quotes the Quran in its way of expression, in addition to other styles of speech such as rhyming and alliteration which spontaneously flow on his tongue without affectation. Furthermore, he tends to employ simile and metaphors, figurative speech as well as euphemism in various occasions, aiming at advising and guiding his audience, with the hope that his country returns, once more, to the fold of the nation and Islam and so that Arabic and the Quranic text regain their supremacy.

Keywords: Al-Ibrahimi, the Quranic statement, Style, Inclusion, Quoting, Borrowing, Figurative Speech.

مقدمة:

لقد جهد كثير من دعاة النهضة والإصلاح والفكر والأدب، في عالمنا العربي والإسلامي في العمل على عودة المسلمين إلى ركب الحضارة، من خلال ربطهم بالمعنى الصافي الأول ألا وهو القرآن وعلومه، وذلك بإعادة تفسيره وتذليل صعابه؛ وتيسير مصادره، وإحياء للسان العربي ببيانهم لمكانته، ولصلته بهذا الكتاب؛ من هؤلاء الأفاضل محمود شكري الألوسي وجمال الدين القاسمي وعبد الحميد بن باديس والطاهر بن عاشور وغيرهم كثير؛ قدموا تفاسير لغوية وفكرية وعلمية، كان لها أثر عظيم الأثر على الشعوب العربية والإسلامية، فعاد للغة العربية بريقها، ورونقها، بعد أن كادت تذوي وتزول. ومن رجال الإصلاح في الجزائر محمد البشير الإبراهيمي والذي يوصف بأنه لغوي ممتاز لم يأل جهداً في سبيل خدمة لغة القرآن، وخير مثال على هذا تلك المؤلفات اللغوية التي ضاعت

والخطب والمقالات والحوارات التي جعل من القرآن فيها يجري على لسانه وخطابه بطرق الاقتباس والتضمين والتشبيه والاستعارة والسجع والتجنيس؛ فمتابع هذه الكتابات من خطب ومقالات يرتبط دوماً بالقرآن بشعور منه أو بغير شعور، وهذا بانسياب القرآن لفظاً ومعنى في أسلوبه ومقاله؛ فكان هذا من أعظم خدماته عليه الرحمة والرضوان.

فمن هذا الرجل؟: هو محمد البشير الإبراهيمي الإدريسي شرفاً ونسباً، يرجع إلى قرية أولاد ابراهيم بالشرق الجزائري ولاية برج بوعريّج، سئل عن مولده فقال: "ولدت أنا والشيخ ابن باديس في عام 1989م، فاتفقنا في الميلاد زماناً واختلفنا مكاناً"⁽¹⁾ نشأ في أسرة علم وتقوى، قال عن نفسه: قد حفظت القرآن الكريم ولم أتجاوز الثامنة من عمري، ونشأت في بيئة وأسرّة تحتفظ ببقايا علم ودين، متلقياً مبادئ هذا على أيدي شيوخ ذلك العهد⁽²⁾ وأفضل من تلقى على يده فنونا من الأدب واللغة عمّه محمد المكّي الإبراهيمي الذي تولّى رعايته، وتعهده، وحفظ على يديه كثيراً من متون وفنون العلم من فقه وصرف ونحو وشعر قائلًا: ولم يكن يفارقي إلا في النوم وهو من يأمرني به..⁽³⁾، ثمّ كانت هجرته إلى المدينة المنورة حيث بقية الأهل والإخوان، - كما يروي- وأعاني جوهًا -المدينة المنورة- على البحث والدّراسة بطول المقام فيها، والأخذ عن شيوخها، والمساهمة في بذل العلم لطلابها⁽⁴⁾، وبعد أن ساءت الأحداث بالحجاز نتيجة ثورة شريف مكة، قام العثمانيون بترحيل أهل المدينة -وكان منهم- إلى دمشق، فكانت له بها صولات وجولات، ملتقياً بعلماء هذا البلد، وشيوخه وأعيانه، مغترباً من مكنتها كمكتبة جمال الدّين القاسمي وعبد الرزاق البيطار، كما ساهم في التدريس بأكبر ثناوياتها فكان له بها طلاب كثير، بقيت له بهم صلوات ومراسلات على مرّ الأيّام والأعوام⁽⁵⁾. ثمّ كان القدر أن يعود لهذا الوطن فيساهم في نهضته ويقضته من غفوته أو نومته، فأسس رفقة صفيّه وصديقه ابن باديس وثلة من علماء بلده جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م، ساهرين عليها وفق برنامج ثري من تدريس ووعظ، وتعليم ونشر للوعي، عبر ربوع الوطن، وبناء للمدارس والمساجد منشئين للجرائد والمجالات، فكان أن تعرّض للسجن، والنفي والمضايقات، ثمّ الهجرة مرّة ثانية إلى خارج الوطن ممثلاً للثورة الجزائرية مدافعاً عن قضاياها حتى الاستقلال. ليعود مرّة أخرى مشاركاً في مسيرة البناء والتعمير إلى أن وافته المنية عام 1965م. أمّا ما تركه لنا من

آثار، فكان قليلا، وقد سئل عن ذلك فقال: ألهانا تكوين الرجال عن تأليف الكتب، يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني عنه: "كان الإبراهيمي يقضي سحابة يومه في البناء والتعمير ويقضي سواد ليله في التدبير والتفكير، ولم نكن نعرف له خلال هذه الملحمة مقرا معلوما"⁽⁶⁾. ومن آثاره -وقد ضاع أكثرها- رواية الثلاثة، رسالة الضبب، مرشد المعلمين ملحمة شعريّة طويلة، بقايا فصيح العربيّة في اللهجة العاميّة بالجزائر، أسرار الضمائر في العربيّة، سرّ التسميّة بالمصدر، رواية كاهنة الأوراس، رسالة في مخارج الحروف، ومخطوطات كثيرة، أما ما دون وجمع من المجالات والجرائد، فكان: عيون البصائر في ثلاثة أجزاء، وآثار الإبراهيمي في ثلاثة أجزاء، أو أربعة.

• تمهيد للموضوع:

لقد شهد العصر الحديث يقظة فكرية ونهضة علمية في ربوع العالم العربي والإسلامي كان على رأسها علماء ومفكرون وأدباء وشعراء أفذاذ، عملوا ليلا ونهارا باذلين أقصى الجهود للعودة بالأمة الإسلامية إلى مصاف الأمم بعد انتكاسة وغياب طويل، كان نتيجته أن دخلت جلّ الأقطار العربيّة والإسلاميّة في حكم الوصاية أو الاستعمار.

وقد هيأ الله لهذه الأمة أعلاما يجدّدون لها أمر دينها، فعملوا على عودة شعوبهم إلى هذا الدّين تطبيقا وعملا، وخير ما يحقّق هذه العودة، هو ربط النّخب والعامّة بالقرآن الكريم لأنّه، المعين الأوّل الذي غير حياة العرب، وجعل منهم خير أمة أخرجت للنّاس أعجزهم بلفظه ومعناه، وسحرهم بتركيبه وبيانه. لقد عمل العلماء المجدّدون لهذا الدّين بهذا المبدأ، وهو العودة بالنّاس إلى المعين الذي لا ينضب، وهذا بربطهم بأعظم كتاب على الأرض والسّماء، بحفظه في الصّدور ترتيبا وتمثيلا. ومن ثمّ راحوا يعيدون تفسيره في حلل جديدة، وطرائق متنوّعة، في حسن بيان، بغرسه في العقول والقلوب، فتذكي الهمم وتشحذ العزائم، فيتغيّر الواقع فتنتفض الإرادات، ويرجع النّاس إلى الجادة وذلك بالتّمسكّ بدينهم.

ومن هؤلاء الأفذاذ الذين علموا ما في البيان القرآني من طاقة خلاقة دافعة محرّكة محمّد البشير الإبراهيمي الذي أدرك أنّ ما يزخر به القرآن من فصاحة في ألفاظه، وبلاغة في معانيه وتنوّع في أساليبه ورقّي في أفكاره، كفيل بتحفيز الهمم، وإيقاظ للشّعور الدّيني

والوطني، لذا جعل من المقالة والخطبة والخاطرة سبيلا لذلك، فكان أن انتشرت هذه الأعمال في الآفاق في الجزائر والوطن العربي، بعد شهرة واسعة بما أثمرته من عزّ لأصحابها وتأثير في رواد مجالسها؛ فالإبراهيمي، وإن لم يترك لنا تفسيراً يذكر به، أو دراسات لغوية تحلّد مآثره، إلاّ أنّه خلّف لنا آثاراً في الصّحف والمجالات، تعجّ بالكثير من آي القرآن الكريم تصريحاً وتلميحاً، أفكاراً ومعاني، في قوالب الوعظ والإرشاد والتّحذير، لشعوب الأُمّة الإسلاميّة، وما ينتابها من مخاطر الغزاة والفرقة والشّتات، فهو لم يفرّق يوماً بين الجزائر وبين باقي الشّعوب، فمن قضية محليّة إلى أخرى إقليميّة إلى دوليّة، من الجزائر إلى فلسطين إلى مصر إلى اليمن إلى... قلت وهو وإن لم يترك لنا تفسيراً - وإن كان قادراً على ذلك - فقد ترك مئات المقالات والخطب تزخر بأسلوبه اللّغويّ القرآني اقتباساً وتضميناً يربطها بفتون من القول كالاستعارة والتّشبيه والإيجاز والمجاز، والسّجع والتّجنيس، فمتناول آثار الإبراهيمي كعيون البصائر، يجد نفسه مع القرآن قراءة وفهماً وتفسيراً؛ فبراعة توظيف الإبراهيمي لآيات القرآن الكريم، تجعل المتابعين يفهمون ما في القرآن من معان ومواعظ، وعبر ودروس ومنه يكون الوعي والعودة لهذا الدّين وبهذا يتحقّق المطلوب، وقد شهد بهذا القاضي والدّاني لمقدرة الإبراهيمي، في جعل القرآن الكريم يتجلّى في بيانه ترسّلاً وخطاباً، بالتّشبيه وحسن توظيف الاستعارة، بالتّزيق اللّفظي، من سجع وجناس وتورية، وتلاعب لفظيّ وهذا كلّ قد ربط النّاس بالقرآن فيقبلون عليه قراءة وفهماً واستيعاباً. وهذا من أعظم خدماته له.

● مزايا أسلوب الإبراهيمي:

لقد شهد للإبراهيمي بماله من مقدرة لغوية، فكثير من الأدباء واللّغويّين، قد وصفوا معجمه بالثراء اللّغوي، كما شهدوا له بالتنوّع الثّقافي وهذا من خلال كثرة اطلاعه على عيون الأدب وفرادى الكتب العربيّة، يقول في تربيّة الملكة الأدبيّة: "إنّ ما يربي الملكات الأدبيّة الصّحيحة ويقومها الإدمان، إدمان القراءة المتأنيّة المتدبّرة لكتب الأدب الحرّة الأصيلّة، والاستكثار من حفظ الشّعور واللّغات والأمثال ومعرفة مواردها ومضاربيها، والتنبّه لمواقع استعمالها من كلام البلغاء من شعراء وخطباء وكتّاب، ثمّ ترويض القرائح والألسنة والأفلام على المحاذة؛ ذلك أدنى أن تستحكم الملكة وتنقاد القريحة فتجري الأقلام على

سداد، ويمدّها الفكر من تلك المعاني بأمداد وتوضع الكلمات في الجمل في موضع الآلي من العقد، وما جاء حسن العقد منظوما، إلّا من حسنه منشورا. ثم تكون الحِكمُ والأمثال والتكثُ كفواصل الجمان في العقود الثمان⁽⁷⁾، لذلك فقد وصفه من وصفه بأنه جاحظ زمانه، لنصاعة أسلوبه، وشرف بيانه، فقد برّ أقرانه فلم يجاريه أحد في أسلوبه العربي المبين. يقول عنه عبد المالك مرتاض: "يعد أسلوب البشير الإبراهيمي مدرسة قائمة بنفسها ويشكّل مذهباً فنياً في الجزائر للكتابة الأدبية، كما يعدّ استمراريةً للأساليب الفحلة القديمة وتطوير تعابيرها وطرائفها في تديج القول وزخرفة الكلام؛ لذا نجده يمتاز بجزالة الألفاظ ووضوح المعاني وحرصاً على التأنق في الأسلوب واستخداماً للمحسنات البديعية"⁽⁸⁾، ويقول عنه جابر عصفور: "تشكّل اللّغة في أدب الإبراهيمي الخلية الحية لمقاييس درجة العمق الذي يرتفع إليها أدبه ويلتقي عنده مفهوم اللّغة مع مفهوم الأدب"⁽⁹⁾، أمّا محمد عبّاس فيقول: "إنّ اللّغة المستعملة عنده عميقة في ذاتها، عميقة الدلالات والتفسيرات، لا من حيث المتانة والقوّة فقط، ولكن من حيث المقصود والمفهوم الذي عمله معها"⁽¹⁰⁾، ويقول شكري فيصل: "كان البيان العربي في أسلوب الإبراهيمي انعكاساً لموقف فكري أو حدث مادّي وانفعال نفسي، ذلك هو المقياس الصادق للقيم الحقيقية"⁽¹¹⁾، فقد شهدوا له بثناء لغته في خطبه ومقالاته، قد ورثها عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ومختلف ألوان النثر والشعر العربيين، وحسب الدكتور الجنيدي خليفة فإنّ رغبة البشير ومن ورائه فريق التحرير في التأثير على المتلقين بنقلهم إلى الجوّ التراثي المشحون بقيمهم الدنيية وأصولهم اللغوية والثقافية، تنمية للشعور في نفوس مواطنيه بالانتماء المتميّز عمّن يحكمونهم وتعميق الاعتراز بهذا الإحساس في صدورهم"⁽¹²⁾، لأنّ حياة الأمة - كما يقول الأمير خالد - بحياة لغتها⁽¹³⁾، وهو ما دعا إليه ابن باديس، حيث نقل عنه قوله: "ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغرّ والمستقبل السعيد إلّا هذا الجبل المتين للغة العربية، لغة الدّين لغة الجنس، لغة القومية لغة الوطنية المغروسة"⁽¹⁴⁾.

ومن رأى أنّه قد ندر في زمانه أن يكتب المغاربة كما يكتب، متفوّقا على طه حسين بلغة متينة، وألفاظ منتقاة، وجمل بإيقاع وموسيقى بسمات أسلوبية متميّزة.

● مجالات التّجليّ القرآني في البيان اللّغوي لدى الإبراهيمي:

- مجال التّضمين والاقْتباس: ظهرت التّضمين والاقْتباس ميزتان للتّواصل الأدبي والتّاريخي بين الأجيال، وبين الأدباء، إن لم نقل بين النّاس جميعاً. كما أنّ لهاتين الظّاهرتين دلالة على مرجعيّة الكاتب أو الأديب، الّتي تسمه وتميّزه عن غيره، إذ هما هويّته، كما يعتبران ميزان مفاضلة النّقاد بين أشكال النّصوص، وحتّى بين الأدباء. فالإبراهيمي قد تميّز بهذا اللّون من ألوان البديع، وقد نجح في توظيفه توظيفاً فنّياً، جاعلاً من مقالاته شكلاً مشبعاً بالتشويق والتّصوير الجادّ والسّاحر في نفس الوقت، وإبراز ما له من أثر في بيان المعاني المراد إظهارها في الفكرة الرّئيسة للمقالة. فما التّضمين والاقْتباس؟

التّضمين لغة: يعود إلى الجذر اللّغوي (ض م ن) ويقصد به: إيداع الشّيء شيئاً آخر وحفظه بهيئة ملائمة في قالب معيّن، قال ابن منظور: "وَضَمَّنَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ أَوْ دَعَا إِتْيَاهُ كَمَا تَدْعُو الْعَوَاءُ الْمَتَاعَ وَالْمَيْتَ الْقَبْرَ.." (15).

أمّا اصطلاحاً: هو أن يأخذ المتكلّم كلاماً من كلام غيره، يدرجه في لفظه لتأكيد المعنى الّذي أتى به أو ترتيب النّظم" (16). هذا عن التّضمين، أمّا الاقْتباس لغة: فطلب القبس والقبس شعلة من نار تقبس منها أو معظمها، أخذت منها طائفة لحاجتك، ويستعار لفظ الاقْتباس لطلب العلم والأدب" (17). أمّا اصطلاحاً: فهو تضمين الشّعْر أو التّثر شيئاً من القرآن أو الحديث النبوي الشّريف من غير دلالة على أنّه منهما، مع جواز بعض التّغيير غير المخلّ في الأثر المقتبس" (18)، وعرفه الرّازي بقوله: "هو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية منه في الكلام تزيينا لنظامه وتضحيماً لشأنه، كقول الإمام أبي منصور عبد القاهر التّميمي البغدادي:

أبشر بقول الله في آياته إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

ولهذا الاقْتباس فائدة جليّة القدر، حتّى أنّهم كانوا يعدّون الخطبة الّتي يخلو منها هذا الاقْتباس ولا توشّح به، بالبراء" (19). لهذا ألفينا الإبراهيمي قد اتقن هذا الفنّ البديعي، فهو يغطّي مساحة واسعة من مقالاته وخطبه، وهذا يرجع لثقافته الدّينيّة القرآنيّة الّتي أثرت إيجاباً في أسلوبه بشكل كبير، يرى أحد الباحثين أنّ "قوة أسلوب الإبراهيمي إنّما منبعها في حسن الرّبط بين المفردات ومعانيها وفي القدرة على توظيفها" (20). ولعلّ غاية الرّجل بهذا

النمط من الكتابة العودة بالأمة إلى ما صلحت به حياتها أول الأمر؛ ألم يقل الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي"⁽²¹⁾ لذا كان يكثر من هذه الاستشهادات والاقتباسات والتضمينات، وكأمثلة عليها تراه ناقدا موظفا للقسم، فيقول: "أقسم عليك بالصّور والطّور والقانون المسطور والقياد والمسطرطور اللّذي شبع فانتفخ فأصبح امبراطور.."⁽²²⁾، في هذا القول إشارة واضحة إلى ما ورد في القرآن الكريم، في سورة الطّور، حين ابتدأها المولى بالقسم ﴿وَالطُّورِ﴾، وكتاب مَسْطُورٍ ﴿الطور: 1 و2﴾، لقد وظّف الإبراهيمي، لفظتين من القرآن هما الطّور، والمسطور ولكن القلب اللّذي ساق فيه التّضمين والاقتباس، كان قابلا هزليّا، لتصوير حال الجزائريين ومعاناتهم في وسط قوانين جائرة يرهاها انتهازيون كالقياد بالتحالف مع أذنان الاستدمار (المسطرطور)، يعيشون على امتصاص دماء شعبنا، هذه فكرة أراد الشّيخ تصويرها. ومع توظيف القسم كان الشّيخ يسوقه في سجع ينساب انسيابا غير متكلّف فيه، بصوت الواو مع جرس الصّاد والسّين والطّاء والواو، وهي حروف لها من القوّة والأثر في السّماع.

- مجال التّضمين بالتسجيع والتّجنيس: في أحيان كثيرة نجد الشّيخ يضمّن ويقتبس لكن في صورة يلقها السّجع والتّجنيس، سخرية وامتعاظا، دون تكلف، يقول محمّد بن سميّة في هذا المقام عن طريقة الشّيخ في الكتابة: "أحيا بذلك شباب العربيّة وألبس أسلوبها حللا من القوّة والإحكام والبلاغة والبيان، وحرّرها من السّجع المرذول والصّنعّة المتكلّفة"⁽²³⁾. وفي مقال عنوانه بسجع الكهّان يقول: "لا أقسم بذات الخفيف، والجنّاح الخفيف المشارفة في جوهها للكفيف، وبالسّرّ المودع في التّجاويف، والتّلايف، وبالمغيرات صبحا عليها التّحافيف"⁽²⁴⁾ أمّا ما وظّفه من اقتباس فهو ظاهر للعيان، قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾، فهذه العبارة تأتي على عدد من السّور، كـ ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، و﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، كما وظّف قوله: (وبالمغيرات صبحا) مقتبس من سورة العاديات: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ هذا التّوظيف قلنا قدّمه في شيء من التّجنيس كبين لفظي: الخفيف والخفيف؛ أمّا عن السّجع فكانت تلك الكلمات تلتقي في حرف الفاء: الخفيف، الخفيف، الكفيف التّجاويف، التّلايف.. فهذه التعابير تبيّن مقدرته على التّلاعب بفنون القول المختلفة متزاوحة بين الجدّ والهزل.

- **مجال التضمين بالكناية:** الاقتباس الإشاري نوع من أنواعه، أي إشارة إلى شخص أو إشارة إلى مدينة، أو حادثة، فهذه الإشارة كأنها كناية، عن موصوف أو صفة أو نسبة. من ذلك قوله: "أين الجنتان عن يمين وشمال؟ وأين البلدة الطيبة؟ إنها اليوم رمال.." (25)، وهو ما جاء في سورة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ تسأول الإبراهيمي يقود مباشرة إلى سورة سبأ وسبأ مدينة تاريخية باليمن، كان بها سد مأرب، وحوله جنتان عن يمين وشمال، خيرات عظيمة فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، انهار السد، وتفرق القوم أيدي سبأ أو تفرقوا شذر مذر فعبارات الإبراهيمي إنما ساقها ليصور حال اليمن وما آلت إليه من التناحر والتقاتل والخراب وهو ما عناه بقوله: إنها اليوم رمال، فمثلما كان يصور حالا، كان محدرا من أحوال التفرق، وأن النعم تزول، إذا لم يعهد لها أهلها بالحفظ والصون.

وعن فلسطين يحدّر كما حدّر عن اليمن، وكما قلنا في بداية البحث أنّ الرجل يعتبر الأمة جسدا واحدا، وما يجري على بلده يجري على مختلف بلاد المسلمين، أو بالأحرى نقول: إنّه يعتبر كلّ بلاد المسلمين بلده، وأنّ هذا التقسيم إنّما قام به الاستعمار لضعف المسلمين فلا تقوم لهم قائمة، يقول: "وأنّ فلسطين وديعة محمد عندنا وأمانة عمر في ذمتنا وعهد الإسلام في أعناقنا فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبه إنّنا إذا لخاسرون.. ويقول: وضاعت فلسطين منا حين قسّمت بالتصويت وهو أضعف صدى، وعلى الأوراق وهي أنزر جدّا وبالأغلبية السائرة على غير هدى، تحدّيا للعرب الذين كانوا في ذلك المجلس أضعف ناصرا وأقلّ عددا" (26)، في هذا القول وظّف الإبراهيمي عدّة إشارات منها، قوله: (ونحن عصبه، إنّنا إذا لخاسرون) إشارة إلى قول إخوة يوسف لأبيهم يعقوب في سورة يوسف الآية 14: ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الدِّثْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذآ لَخَاسِرُونَ﴾، فانظر إلى ذكاء الشيخ كيف يربط فلسطين، بأولاد يعقوب، فقد كانوا عصبه وباعوا أحاهم، وزعموا لأبيهم أنّهم عصبه فكيف يضيّعونه؟ ثمّ يسقط هذه الحال على حالنا نحن اليوم، فكيف تضيع فلسطين من بين أيدينا ويأخذها زمرة اليهود منا، ونحن عصبه بل عصب كثيرة، إنّنا إذا لخاسرون وأيّ خسارة لا ينفع معها التّدم، إلّا بالعمل على عودتها إلى حظيرة الإسلام والمسلمين.

ثمّ يصوّر حال المسلمين من التفرّق، حين تكالبت عليهم الأمم، في هيئة الأمم إشارة إلى ما وقع من التصويت في قضية التقسيم، ولم يكن لهم ناصر أو معين، وهو ما عبّر عنه بقوله: (كانوا أضعف ناصرا وأقلّ عددا)، وهو مضمّن ومقتبس من قوله تعالى في سورة الجنّ الآية 24: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾، تصوير رائع لحال العرب والمسلمين في المحافل الدلّوية، فلا ناصر لهم ولا معين. ثمّ بيّن علاقته هو بفلسطين، فيذكر أنّها عربيّة، وهو عربيّ، فإنّ عليه واجبات نحوها، كما أنّها إسلاميّة وهو مسلم، فله عليها واجب آخر، يقول: "وله بإسلامه عهد لفلسطين من يوم اختارها الباري للعروج إلى السّماء ذات البروج"⁽²⁷⁾، في هذا القول الأخير إشارة ضمنية إلى جملة من الأحداث التّاريخيّة والقضايا الدّينيّة يتعلّق بها المسلمون ولا ينسونها أبدا، وكأنّه يقف في هذا موقف المذكّر المحذّر، فلا غفلة ولا نوم عن هذه البليّة، بل عن أمّ القضايا والبلايا، فلفظ (العهد) إشارة إلى العهدة العمريّة نسبة إلى عمر بن الخطّاب، لأنّها فتحت في عهده، أمّا لفظ (العروج) فتضمين لحادثة الإسراء والمعراج، التي فيها أسري بالنبيّ -صلى الله عليه وسلّم- من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثمّ عرج به إلى السّماء من المسجد الأقصى بفلسطين؛ ففلسطين إذا تحمل دلالات عدّة وذكريات في قلوب المسلمين، ومن الآيات التي تحمل هذه المعاني من "الإسراء 01": ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أمّا لفظ العروج، فقد ورد في "الحجر 14": ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ فكانت هذه الآية إلهاما لغزو الفضاء، والبحث عن أسرار الكون خارج الأرض، أمّا لفظ (البروج) فقد ورد في "البروج 01": ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، والآية أيضا فيها الدّعوة إلى السّباحة في الفضاء الخارجي ومن ملك الفضاء ملك العالم، وانحنت له الرّقاب، فهذا من وعي الشيخ بما يدور حوله.

فأنت تلاحظ في مقطع قصير يضمّنه الإبراهيمي ملامح عديدة لمن بالإشارة يفهم فكأنّه يقول لا سبيل لكم أيّها المسلمون إلى الغلبة والدّفاع عن بيضة الإسلام والمسلمين وأراضيهم ومقدّساتهم، إلّا بالأخذ بأسباب العلم، وأنهم - أي اليهود وأشياعهم من

الاستكبار العالمي - ما تغلبوا علينا وأخذوا فلسطين إلاّ عندما تفوّقوا علينا بالعلم وأسبابه فتقدّموا وتأخّرنا، وديننا في كثير من آياته يدعو إلى العلم، وأتته مناط التفرقة بين الأفراد والأمم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:09]. لقد سخّر البشير مئاة أسلوبه، وقوة بيانه، وفصاحة لغته، ليعالج قضايا متعدّدة في آن واحد، قضايا الحاضر والماضي والمستقبل، قضايا مقدّسات الأمة، المسجد الأقصى وفلسطين.

ومثلما تحدّث البشير عن اليمن وعن الجزائر وعن فلسطين تحدّث عن مصر، وما كابدته وتكابده، يقول في مقال "يا مصر": "وما زلت منذ كنت مهوى أفئدة العظماء الفاتحين فأخذوك اقتسارا وصلحا، وحازوك طوعا وكرها، وما منهم إلاّ من مهرك المهر الغالي.."⁽²⁸⁾، لقد تجلّى البيان القرآني في عبارات الإبراهيمي في قوله: (كنت مهوى أفئدة العظماء)، وهذا التعبير تضمن لقلوبه تعالى (إبراهيم 37): ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، فقد أسقط الشيخ لفظ الآية ومعناه الخاصّ بإبراهيم وابنه إسماعيل وزوجه هاجر والبلد مكة على مصر وأهلها، وإن كان بين المكانين مناسبة وروابط، فهاجر من مصر، ومصر موطن أحفاد إبراهيم من إسحاق ويعقوب.

ويقول في موضع آخر: "فما زلت منذ تفتّيات ظلّ الإسلام الظليل تجدين منه في كلّ داجية نجما، ووراء كلّ داجية فحرا، ومازلت كلّما شكوت ضرا في دينك يخفّ إليك من يكشفه، وكلّما شكوت ضرا في دنياك يخفّ إليك من يدفعه"⁽²⁹⁾، في هذا المقطع مقابلة جميلة سيقّت دون تكلف فتركت أثرها الطيب على التعبير، لأنّ فيها تصويرا لحال مصر بين المدّ والجزر، بين العدوان والنصرة، بين الغزاة والحماة؛ هذه المقابلة تتمثّل في قوله: (ومازلت كلّما شكوت ضرا في دينك يخفّ إليك من يكشفه/ وكلّما شكوت ضرا في دنياك يخفّ إليك من يدفعه)، ففي هذا القول تضمنين من "النمل 62": ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾، أما قوله: (وما زلت منذ تفتّيات ظلّ الإسلام الظليل) فهذا تضمنين من قوله تعالى "النحل 48": ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

لم يكن البشير ليدع فرصة إلا واقتنصها، من ذلك أنه وجه كلمة في جريدة البصائر للأئمة تحت عنوان "كلمتنا عن الأئمة" يقول: "وانتهى إلينا من تسقط الأخبار، وقصّ الآثار، أنّ الأئمة كانت بعد تلك الكلمات أزواجا ثلاثة: فأما الذين استنارت بصائرهم وآمنوا بأنّ الدين لله، وأنّ بيوته لا يعمرها إلاّ من خشى الله، وأنّ تراث الإسلام لا يرثه إلاّ المسلمون، فزادتهم تلك الكلمات إيمانا بذلك واستبصارا فيه وثباتا عليه، وأما العوام المغرورون بالمداورة والأتباع المجرورون بالمجاورة فقد نقلهم صدى تلك الكلمات من رتبة اليقين بصحة الباطل إلى رتبة الشكّ فيه، فهم يتساءلون ثمّ تغلبهم العادة فيتساهلون. وأما الذين في قلوبهم مرض من الأئمة أتباعهم المشوّفين إلى الوظائف من أشياعهم فزادتهم مرضا إلى مرضهم وأصبحوا يحطّبون بسبنا، والعاقل من يُعزّضُ بذلك ولا يصرّح⁽³⁰⁾، ولع الشيخ بأسلوب القرآن الكريم، يجعله، يسائر طريقته في النظم، ونهجه في بناء التراكيب وهو ما لمسناه في هذا النصّ القصير الموجه إلى الأئمة، فقد وظّف تركيب القرآن من "الواقعة 07": ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، حين بيّن أنواعا للأئمة فقال، أنّ الأئمة كانت بعد تلك الكلمات أزواجا ثلاثة، وحتّى في استعمال الأداة (أما) لبيان التفصيل، بقوله: فأما الذين استنارت بصائرهم .. ثمّ يضمّن قوله: فزادته إيمانا، من قوله تعالى في "التوبة 124": ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا﴾، وهم من يعمر المساجد، ويصفهم بالخشية، بقوله: (وأنّ بيوته لا يعمرها إلاّ من خشى الله)، وهذا تضمين لقوله تعالى "التوبة 18": ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثمّ يتحدث عن صنف آخر، وهم المنافقون ويصفهم بمرض القلب وهو التفاق مضمنا ذلك قوله تعالى في سورة البقرة، الآية 10: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، فأنت تلاحظ أنّه في فقرة قصيرة، قد ضمّن كثيرا من التعابير البيان القرآني، من سور شتى، من التوبة إلى البقرة إلى غيرها، فتدرك ولعه بهذا البيان، أو أثر هذا البيان في أسلوبه، نظرا لثقافته القرآنية والدينية الواسعة، فهو يفسّر بهذه الطريقة آيات الذكر الحكيم، حتّى لمتوسّطي التعليم أو ذوي الثقافة المحدودة.

وفي كلمة عن العيد، في مقال بعنوان "من وحي العيد"، يصف حاله وحال البلد والتاس بعد ضلالٍ وبُعْدٍ عن الدين، وقد هلّ هلال العيد، يقول: "ولكننا نكبتنا عن صراط الفطرة وهدي الدين.."⁽³¹⁾، وهذا تضمّن قوله تعالى في "الفاتحة 06": ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ

المُسْتَقِيمِ»، وفي نفس المقال يقول: "وما أذكر أيّ سلكت في استقباله هذا الفجّ الذي يسلكه الكتاب الخليون في التهنئة به وتصويره بغير صورته وتملقه ليعود عليها بالجد الذي أضعوه والتمّي عليه أن يوجد عليهم بما لا يملك، ثم الاسترقاء له بالأدعية التي لا تفتح لها أبواب السماء، لأنّها إجزاء للكائب بلا حاد"⁽³²⁾، قوله: "لا تفتح لها أبواب السماء" مقتبس من "الأعراف 40": ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

هذه الروعة من الإبراهيمي في صياغة العبارات ترجع إلى مقدرته العجبية في المزج بين الفن والأدب، وإلى ثقافته الموسوعية، فأنت ترى لغته سهلة بسيطة قريبة من المجتمع، في إيجاز غير مخلّ، أو إطناب غير مملّ. يصف الدكتور إبراهيم السامرائي هذه المقدرة المتجلّاة في مقالاته في عيون البصائر، فيقول: "وكذلك الإيجاز فإنّه يرافقه بعض التفصيل فإذا نحن أمام جزئيات خفيفة رشيقة وكأها ترقّيش على ثوب أو تزيين لوحة وكأها استرواح من شدة وتنفس من ضيق"⁽³³⁾.

وقد تجد الإبراهيمي يضمن مقتطفاً ما، عدداً من المواضيع القرآنية، كالشخصيات والأحداث التاريخية، مثال ذلك، ما نقله عن عيون البصائر، لمقال بعنوان: خصمان ... فمن الحكم؟ يقول: "أما نحن فو الله ما زلت لنا قدم، ولا زاغ لنا بصر ولا ضعفت لنا عقيدة، ولا غامت لنا بصيرة، وإننا نأتي ما نأتي وعقولنا في مستقرها"⁽³⁴⁾، فعبارة: (ما زاغ لنا بصر)، مضمّن قوله تعالى في "الأحزاب 10": ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾، فزيغ البصر معناه شدة الاضطراب والخوف ممّا حلّ بالمسلمين يوم الأحزاب، لهول ما عانوه، خاصّة المنافقين، الذين لا يثقون في وعد الله ولا في وعد رسوله صلّى الله عليه وسلّم، من هذه الحادثة استعار الإبراهيمي زيغ البصر، كعلامة على الاضطراب والوجل، وهو ورجال الجمعية في مطالبتهم ومغالبتهم للعدوّ ثابتون رابطوا الجأش بصحة العقيدة وثبات القدم ونور البصيرة، ليس من شأنهم التفاق ولا سوء الأخلاق، ولا زيغ البصر.

ويقول في موضع آخر: "زین للاستعمار سوء عمله فطغى وبغى، وكفر وعتا وأتى من الشرّ ما أتى، فلو تصوّر إنساناً لأرى على فرعون الذي نازع الله في ربوبيته، وحدّثه نفسه

أن يطلع على إله موسى، وعلى عاقر الناقة الذي جرّ العذاب على قومه، ولو تصوّر حيوانا لكان وحشا، ولو تصوّر ماء لكان ملحا زعافا، وحميما وغساقا، أو ريحا لكان إعصارا يدمر كلّ شيء بإذن الشيطان"⁽³⁵⁾، في هذا المقطع نجد الشيخ قد ضمّنه عددا من التّصوص والأحداث، من ذلك مثلا: قوله: (زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ﴿١٠٨﴾، وقوله تعالى في "غافر 37": ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فتزيين سوء العمل، هو من يعمل سوءا ويحسب أنه يحسن صنعا. وقوله: (نازع الله في ربوبيته)، فهذا تضمن لقلوله تعالى على لسان فرعون في "التازعات 24": ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، فمقصود الشيخ، أنّ العتاة المتجبرين، يدفعهم الكبر إلى الغرور وأن يدعوا الألوهية، فأعمالهم تشير إلى ذلك، وما أكثر من تشبه بهم. وقوله: (حدّثته نفسه أن يطلع على إله موسى)، هذا تضمن لقلوله تعالى في غافر 37/36: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، فهذا النصّ القرآني يصوّر وقاحة فرعون في ادّعاء الألوهية من جهة، وفي تحدّ آخر وهو استغناء لرعيته في تصوير لقوته وهو الاطلاع على إله موسى وقتله. وقوله: (وعلى عاقر الناقة الذي جرّ العذاب على قومه)، فهذا تضمن لقلوله تعالى في الأعراف 78/77: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾، هذا النصّ تصوير لعاقبة الكفر والعناد والطغيان، فالشيخ يضمن تعابيره وأفكاره ما جرى للأولين وكأنّه يحدّر عاقبة هذا الطغيان والكفر والعناد للآخرين. وقوله: (لكان ملحا زعافا وحميما وغساقا) وهذا تضمن لقلوله تعالى في التّبا 25: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا﴾، أي هذا الشخص المعاند لو صوّر -قال- ماء لكان طعمه مرّا علقما أو سما زعافا، أو مغليا كالحميم، أو غساقا أي عصارة أهل النار من الصّديد والقيح. وقوله: (أو ريحا لكان إعصارا يدمر كلّ شيء بإذن الشيطان)، مضمّن قوله تعالى في الأحقاف 25/24: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فالشيخ يصوّر فعل هؤلاء المغرورين، وما تمثله أمنياتهم من إهلاك للحرث والتّسل، وهذا ما تسوّله لهم أنفسهم وشياطينهم.

فقد برع الشيخ -رحمه الله- في تصوير حال هؤلاء العتاة السفلة، بسوق هذه النصوص القرآنية في قوالب تعبيرية جميلة ثرية ورائعة، تنبئ عن مقدرته اللغوية، وكذا عن سعة ثقافته المتنوعة.

• اللغة العربية في الجزائر (عقيلة حرة ليس لها ضرة):

هذا مقال كتبه الإبراهيمي ردًا على محاولات الاستعمار في ضرب استقرار ووحدة الجزائريين، حينما رأى جدّهم في المطالبة بالاستقلال، بأن سلك سبيل فرق تسد، فمخج للأمازيغ بعض المنابر للحدث بالبربرية، بالإذاعة الفرنسية في وقت لم يكن جلّ الجزائريين يملك مدياعا، فنصدى الإبراهيمي مبينا أنه لم يكن بين العرب والأمازيغ يوما تنافر أو تناحر، ولا حتى بين اللغات التي يتحدثونها، يقول: "إذا رضي البربري لنفسه الإسلام طوعا بلا إكراه، ورضي لسانه العربية عفوا بلا استكراه، فأضيع شيء ما تقول العوادل، واللغة البربرية إذا تنازلت عن موضعها من ألسنة ذويها للعربية، لأنها لسان العلم وآلة المصلحة فإنّ كلّ ما يزعمه المبطلون بعد ذلك فضول"⁽³⁶⁾، ما نجده في هذا المقطع القصير، هو الألفاظ والتراكيب القرآنية التي وظّفها الإبراهيمي، من ذلك: لفظة (رضي) المستوحاة من قوله تعالى في "الفتح 18": ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، أو مستوحاة من دعاء النبي (رضيت بالله ربّا وبالإسلام ديناً وبمحمد-صلى الله عليه وسلم- نبياً ورسولاً، فاللفظة لا تخرج عن الوحيين، ومنه أيضا لفظتا (الطوع والكراه)، فقد وظّفهما على شكل محسنّ بديعي أي طباق، ليظهر أثرهما على المعنى المقصود في التركيب الذي ساقه، وهاتان اللفظتان متضمّنتان لقوله تعالى في "آل عمران 83": ﴿أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وفي "الرعد 15": ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، كما استعمل لفظة (المبطلون) الواردة في عدد من الآيات، منها: من "العنكبوت 48": ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾، ومن "الحاشية 27": ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، ومن "غافر 78": ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ والمبطلون هم الكافرون الجاحدون، وهذا وصف يليق بالاستعمار بأذنا به.

ويقول في خطاب له محدّراً بما حلّ من ويلات في العالم الإسلاميّ، من تحطيط من الاستعمار، لثفرقة المسلمين واستغلال لخيراتهم، بوسائل شتى، من ذلك تسخير للعلماء والشباب: "ثمّ عمدوا إلى الكبراء فأغووهم بالأموال والألقاب والرتب، وأغروا بينهم العداوة والبغضاء، وشغلوهم بالتّوافه عن العظامم.." (37)، فالملاحظ من هذا القول تضمين الشّيخ في قوله: (أغروا بينهم العداوة والبغضاء) قوله تعالى في "المائدة 91": ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، فلعلّه في تضمينه لهذه الآية قد عمد إلى نوع من الاستعارة مشبّها لفعال الاستعمار بالمسلمين فعل الخمر بأهلها، من الإسكار وذهاب العقل، ثمّ ما يلي ذلك من اشتداد العداوة والبغضاء؛ وقوله: (شغلوهم) تضمين لقوله تعالى في "الفتح 11": ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، واختياره للفظ (شغلوهم) كناية عن المنافقين الذين اعتذروا للتّبي عليه الصّلاة والسّلام، في اللّحاق بركب المجاهدين يوم تبوك.

وفي هذا القدر كفاية، لأنّ الأمثلة كثيرة، فقط أردنا بيان قدرة الشّيخ الإبراهيمي في الوصول بالعربيّة إلى قمة البيان، وإلى أسر السّامعين بتنوع الأساليب في مختلف المقامات دعوة لهم للاعتزاز بترائهم، وفي قمة هذا التّراث: العربيّة والقرآن الكريم.

خاتمة:

- في ختام هذا البحث نورد جملة من النّائج نراها مناسبة له، وذلك لأهميّة الموضوع.
- 1- وجدنا الإبراهيمي يفسّر ألفاظ القرآن وأحداثه، لا على طريقة المفسّرين كابن كثير والزّخشي، بل على طريقته من خلال توظيف ألفاظ القرآن ومعانيه، تضمينا واقتباسا وإسقاطا واستعارة وتشبيها وفي ذلك أمثلة كثيرة.
 - 2- زخم ألفاظ القرآن ومعانيه في أسلوب الإبراهيمي، دلالة على ثقافته التّراثية الموسوعيّة المتنوّعة، من أدبيّة وتاريخيّة ودينيّة وعلميّة ولغويّة.
 - 3- لمسنا غيرة الإبراهيمي على الأمة الإسلاميّة جمعاء، فيتأثّر بكلّ ما يصيب المسلمين في أنفسهم وفي بلدانهم بل ويعدّ نفسه واحدا منهم، فقد تناول بالحديث مدنا تاريخيّة ذكرها القرآن، فهو يعينها اليوم، بتشخيصه لأحوالها، وما يراد لها من كيد وفتن ك: مصر واليمن وفلسطين.

4- أسلوبه القرآني يتنوع بين المجاز والحقيقة، بل في المجاز نفسه بين التشبيه والاستعارة والكناية، حتى أنه كان بين الفينة والأخرى، يسير على هدى الأولين من الزخرفة الكلامية كالسجع والجناس، هكذا عفو الخاطر دون تكلف، إلا على سبيل السخرية مثلما رأيناه في سجع الكهان.

5- قد شهد لأسلوبه القريب والبعيد، من المقدرة والتمكّن وكأنه قادم من بعيد أي من زمن ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب، والجاحظ والحجاج، وغيرهم ممن ترك بصمات واضحة.

6- معاني القرآن وأحداثه وألفاظه في أسلوبه، دعوة غير مباشرة منه إلى تلاوة القرآن وتدارسه، والاحتكام إليه بل والفخر به وتبليغه لمن لم يصل إليه، كما نلمس صراحة في دعوته إلى الاعتزاز بالعربية للعودة بها إلى مكانتها المعهودة ولا يكون هذا إلا بإعادة تفعيلها في الكتابة بما نثرا وشعرا.

نقول أنّ هذا الموضوع بحاجة ماسّة وكبيرة إلى مزيد من الدراسة من أجل التعريف بهذا الفدّ - الإبراهيمي - للناشئة والطلاب على مختلف مستوياتهم، والوقوف على بيانه ومقدرته في الكتابة، ومن ثمّ أثر القرآن فيه وفي أسلوبه، كما يجب التدقيق في آثاره التي بين أيدينا والبحث الدؤوب للوصول إلى الآثار المفقودة لعلّها تحمل جديدا غائبا عنّا، فتزدان به مكتباتنا، ويتنوّر به باحثونا.

كما يجب تقديم نصوص متنوّعة لطلابنا في مختلف مراحل التعليم، تعريفها بما وبصاحبها ثم كنصوص تدريبيّة على الكتابة وفن الترسل فتصقل مواهبهم بها، فلا تبقى حبيسة هذه الآثار فتنمو بذلك ملكاتهم عوض تقديم نصوص غنّة لا تسمن ولا تغني من جوع.

الهوامش والإحالات

- (1) - جمعيتة العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها في اللغة والأدب (مخطوط)، للطالب: صالح الجعلود إشراف الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، مصر، ص44.
- (2) - المرجع نفسه، ص44.
- (3) - المرجع نفسه، ص45.
- (4) - مجلة العربي، العدد 120، شعبان 1388هـ/1968م، ص125، وينظر: جمعيتة العلماء، ص44.
- (5) - مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما، محمد مهدي علاّم، مطابع الأميريّة، 1386هـ/1966م ص156-157، وينظر: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج21، 1977م، ص141. نقلا عن الخصائص النثرية الإصلاحية للشيخ البشير الإبراهيمي، ص08.
- (6) - مجلة الثقافة الجزائرية، جميل صليبا، عدد/87، ماي 1985، ص44.
- (7) - آثار الإبراهيمي، ج3/580/581. نقلا عن المعجم اللغوي لمقامات محمد البشير الإبراهيمي مخطوط ماجستير، ص38.
- (8) - فنون النثر الأدبي المعاصر في الجزائر (1925/1945)، عبد المالك مرتاض، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص3.
- (9) - الصورة الفنية في في التراث التقدي البلاغي، جابر عصفور، دار الثقافة، 1984، القاهرة، ص380.
- (10) - البشير الإبراهيمي أديبا، محمد عباس، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، ص332.
- (11) - مجلة الثقافة الجزائر، العدد 87/1985، ص198.
- (12) - المجاهد الأسبوعي، 26-05-1968م، مقال بعنوان: الوظيفة الاجتماعية لأسلوب الشيخ الإبراهيمي، نقلا عن مجلة اللغة العربية، العدد/10، مقال بعنوان: ملامح من إسهامات الصحافة الوطنية بالجزائر، في النهوض باللغة العربية، د: محمد بن سميّة، جامعة الجزائر.
- (13) - الصديق، ع/7، بتاريخ: 12-10-1920، نقلا، عن د: محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية عدد/45.
- (14) - جريدة البصائر، عدد: 71، بتاريخ، 22-06-1939م.
- (15) - لسان العرب، مادة (ضمن)، مج/3، ج2610/28، لابن منظور، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مصر.
- (16) - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، لبنان، 2007م ص373.

- (17) - الاقتباس عن القرآن في الشعر العربي، عبد الهادي الفكيكي، دار معد، ودار التّميز، دمشق سوريا، ط1996/1م، ص11.
- (18) - الاقتباس عن القرآن الكريم، ص12. وينظر: المعجم المفصّل في علوم البلاغة (البدیع، البيان والمعاني)، إنعام فوّال عكّاري، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2/1417هـ/1996م، ص194.
- (19) - المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص194.
- (20) - نثر محمد البشير الإبراهيمي، محمد العيد تاورتة، مخطوط، ماجستير، 1980م، الجزائر، ص620.
- (21) - صحيح الجامع، محمد ناصر الألباني.
- (22) - آثار الإبراهيمي، ج2، ص105.
- (23) - مجلّة اللّغة العربيّة، ع/10، ص18. (م س)
- (24) - عيون البصائر، ص589-591.
- (25) - آثار الإبراهيمي، ج3/531.
- (26) - آثار الإبراهيمي، ج3/88، وينظر: فلسطين في أدب الإبراهيمي، ص285.
- (27) - المصدر نفسه، ج2/513، جريدة البصائر، ع/25، لسنة 1948م.
- (28) - المصدر نفسه، ج2/561.
- (29) - المصدر نفسه، ج2/561. (مقال بعنوان: يا مصر!).
- (30) - جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها في الأدب، ص50، وينظر: عيون البصائر، محمّد الشير الإبراهيمي، الشركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر، ج2/201-202.
- (31) - عيون البصائر، عدد: 1951/163، ج2/ص545.
- (32) - المصدر نفسه، (ن ص).
- (33) - أسالة العربيّة في عيون البصائر، مقال للدكتور إبراهيم السّامرائي، كليّة بغداد، من كتاب: مواقف الإمام الإبراهيمي في عيون المعاصرين، الجزائر، ط7، ص205.
- (34) - عيون البصائر، ج2/180.
- (35) - المصدر نفسه، ج2/181.
- (36) - المصدر نفسه، ج2/222، ع/41، لسنة: 1948م.
- (37) - المصدر نفسه، ج3/220.

الإعداد الديني في تفعيل الوعي المواطني عند البشير الإبراهيمي

Religious Preparation in Activating the Citizen's Awareness of Al-Bashir Al-Ibrahimi

د. لبنى دلندة

جامعة الحاج لخضر - باتنة 1 (الجزائر)

loubna.delanda@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2021/09/11

تاريخ الإرسال: 2021/08/31

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن المخطط الإبراهيمي الديني في تفعيل الوعي المواطني وإبراز أسلوبه الرصين في تطويع الفكر الديني من خلال جهود سعت إلى تطهير الفكر من التقليد والجمود في محاولة لدعم قيمة الحق والارتقاء بالمجتمع إلى مدارج الرجولة والعظمة، كما تبين سعيه الجاد في تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا، وغرس مبدأ التغيير الفكري الديني من خلال أسلوب التنوير في تفعيل الوعي المواطني في ظل ميزة التحكم والضبط المعرفي والمنهجي التي تميز الإبراهيمي في كتاباته، حيث صب عصارة فكره في غرس روح الإسلام الحقة في النفوس وتطهيرها من كل المعتقدات الباطلة التي ضللت الرؤية وحجبت عن النفوس الوعي الحقيقي بكنه الوطن والمواطنة مرسلا على البدع والخرافات شواظا من حقائق الدين في روائع من البيان الساحر.

الكلمات المفتاحية: الفكر، الوعي، العقول، التغيير، التنوير، الدين، المواطنة.

Abstract:

This study aims to reveal Al Ibrahimi's religious plan in activating the citizen awareness and highlighting the righteous style in the adaptation of the religious thought through efforts, which attempted to purify the mind from imitation and stagnation, in the attempt to support the value of the right, and the upgrading of society to the runways of manhood and greatness. As it reveals its earnest pursuit in liberating minds from illusions and delusions in religion and the world, instilling the religious thought principle through enlightening citizen awareness under the cognitive and methodological

control, and tuning feature that distinguish the writings of El Ibrahimy. He poured the gist of his ideas in instilling the spirit of Islam in the souls, and purifying it from the false beliefs that obscured the real awareness in both the homeland and citizenship, sending fragments of religion facts on fads and superstitions in masterpieces of the charming statement.

keywords: Thought, awareness, minds, change, enlightenment, religion, citizenship.

مقدمة:

تحرير العقل الجزائري، وتطويع الفكر الوطني التحرري هاجس الإبراهيمي في تفعيل الوعي التحرري ومقاومة الاحتلال، فقد برز بقوة في رؤاه النظرية والعملية من خلال تكريس عميق لجهود سعت إلى تطهير الفكر من التقليد والجمود والجهل الذي ظلّ يمارس تأثيره السلبي على الفرد والمجتمع، فقد أجمع الجميع على أنّ الحق فوق كلّ الأيديولوجيات، وأنّ الوعي الوطني قيمة إنسانية يلتقي حولها الجميع بمختلف الانتماءات، فتبرز ضمنها روابط عميقة متصلة بالدين والأمة والوطن، وتكون دافعا قويا لنفع المصلحة الوطنية والقومية ومن ثم الارتقاء إلى مدارج الرجولة والعظمة. في ظلّ مجتمع متماسك تنعكس في آفاقه المواطنة الحقة والمجسدة لهوية راسخة، ومن هنا نتساءل كيف استطاع الإبراهيمي ربط الماضي بالمستقبل من خلال طمس معالم الفعل الاستدماري، ومحو مغالطاته وكسر قيوده، ومن ثمّ الانفتاح به إلى عالم الحرية؟ وكيف عمل على استعادة المفاهيم الصحيحة بتجديد الرؤى والأفكار، وبناء وعي مواطني مستقل في ظلّ الإسلام والعروبة والوطنية التي ذقت الجزائر لأجلها العذاب الواصب؟

إنّ من أمارات العظمة وعلامات الرجولة الحقة أن يعيش الإنسان لهدف أعظم فتدفعه هذه الغاية إلى القيام بجلائل الأعمال خدمة للوطن والإنسانية جمعاء، وهو ما يجسده لنا فارس الحلبة الثقافية العربية والإسلامية وبارع ميدان الفكر والقلم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي "كان أمة، كان جيلا، كان عصرا، كان من أولئك الأفاضل القلائل الذين أملاوا إرادتهم على الحياة، وأنحضعوا الأيام لمشيئتهم، فكيفوها كما أرادوا، وأخرجوا بلادهم من مصير شاءه لها الظالمون إلى مصير رسموه لها أنفسهم"⁽¹⁾، فالرجل لم يعيش

لنفسه وإنما عاش لدينه ووطنه ولغته وأمته، وعاش مؤمناً بأنّ "عمران الأرض متوقف على عمران العقول والنفوس"⁽²⁾، ومن ثم انبرى قلمه إلى تصحيح واقع المجتمع، فسعى إلى توحيد النشأ الصاعد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه، وتصحيح نظرتة إلى الحياة لإخراج أجيال متلائمة الأذواق، متحدة المشارب، متكاملة الوعي بمواطنة حرة متحدة.

لقد تكفل الإبراهيمي تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا مؤمناً بأنّ الوصول إلى "بناء فلسفة أو تحديد سياسة واضحة لإيقاظ وعي الأمة وتعبئتها يتطلب قراءة تأملية لواقع المجتمع، ودراسة شاملة لكل عناصر هذا الواقع"⁽³⁾، الذي يتغير باستمرار ويتبدل بتبدل البيئات والبلدان، "لأنّه يخضع للفعل الإنساني الذي تحكمه سنة التطور وتتحكم فيه عوامل البيئة والطبيعة"⁽⁴⁾، وتنبثق عنه آفاق إنسانية تشكل ميداننا لتفاعل الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسة، وهذا الواقع الإنساني ببعديه الفطري والمعيشي هو العمود الفقري الذي تدور حوله الآفاق الفكرية للإبراهيمي من خلال وعي تام بكل ما يقوم عليه من نظم، وما يسوده من مذاهب وما يحركه من عوامل، وما يعاني من أزمات وهي خطوة أساسية ارتكز عليها في كلّ محاولاته للتغيير نحو الأفضل.

ومن أجل تجسيد فعلي لمبدأ التغيير الفكري من خلال أسلوب التنوير في تفعيل الوعي المواطن الذي يصبّ في ميادين متعددة، عمد الإبراهيمي إلى الارتكاز في منهجه على عدة ميادين فكرية دينية واجتماعية وفلسفية حملت رسالته في تحرير العقول حيث ظلت ميزة التحكم والضبط المعرفي والمنهجي ميزة عامة تشمل أعماله بالرغم من الميادين الفسيحة التي تجشمها قلمه⁽⁵⁾، وسنختار بعضاً من رؤاه الدينية في تنوير الفكر الوطني ومن ثم بث الوعي القومي لدى الفرد الجزائري.

● الإعداد الفكري الديني:

الإسلام هو الدين الفطري الروحي الذي يمكنه أن يحقق السعادة للإنسان في الدارين وهو المرجع الأساس من أجل سير مستقر في شتى المجالات، لأنّه الوحيد الذي يمكنه أن يحقق للفرد اطمئنانه الروحي، واستقراره النفسي فنجد في "عقائده غذاء العقل وفي عباداته تركية النفس، وفي أحكامه رعاية المصلحة وفي آدابه خير المجتمع"⁽⁶⁾. غير أنّ واقع المسلمين

المنحرف لم يكن يشير إلى أنهم أصحاب دين سماوي عظيم، ومن هنا انطلق الإبراهيمي في رحلته لنشر الفهم الصحيح للإسلام وأركانه منتهجا أسلوب الحجج والبراهين، وقد انطلق من فكرة أنّ المسلم يرتدي ثوب الإسلام غير أنّ تصرفاته وواقعه لا يعكس ذلك بالمعنى الحقيقي، وقد عزم الإبراهيمي على تصحيح فهم الإسلام من خلال دعوته إلى الحق هادفاً من خلالها إلى إسعاد الإنسانية وتحقيق السلام بين البشر ونشر المحبة والإيحاء والمواطنة، فهو يدرك أنّ المسلمين: "في حاجة أكيدة إلى دعاية تهدي ضالتهم وتصلح فسادهم تبدأ من البيت وتجاوزة إلى الجار والقرية حتى ينتظم المجتمع كله فإذا جاء عمرت القلوب والبيوت والمجتمعات بمعاني الإسلام الصحيحة أعطت ثمراتها الصحيحة وجاء نصر الله والفتح ربطا للوعد بالإنجاز ووصولاً إلى الحقيقة على المجاز"⁽⁷⁾.

وحينها يحقق الإسلام غايته السليمة في الوجود "ويومئذ تنزل هذه الفوارق البغيضة من تلقاء نفسها فلا مذهب إلا مذهب الحق، ولا طريقة إلا طريق القرآن، ولا نزعة إلا نزعة المجد والسمو، ولا عاطفة إلا عاطفة المحبة والخير ولا غاية إلا نشر السلام والطمأنينة في هذا العالم المضطرب"⁽⁸⁾ بالأفكار المغالطة والجهل والضلالة.

وفي ضوء هذه المفاهيم الصحيحة للإسلام سعى الإبراهيمي إلى تسليط الضوء على المقاصد الحقيقية لها في حياة الإنسان، وعمل على غرس روح الإسلام الحقة في النفوس وتطهيرها من كلّ المعتقدات والخرافات الباطلة التي ظللت الرؤية الحقيقية وحجبت عن النفوس الوعي الحقيقي بكنه الدين والدنيا، فلو سألت أحدهم على الصلاة أو الزكاة لقال لك ربما هو لا يصلي أو لا يزكي ولكن "إياك أن تقول أنه ليس مسلماً، ولو قلت لرأيت التمر والتنكر، وسمعت الجاني المكروه من القول"⁽⁹⁾، وهو ما سعى الإبراهيمي إلى تصحيحه وغرسه في النفوس غرساً سليماً بجذور إيمانية تسقى من منبع القرآن، فهو يدرك بأن ما ضاع من المسلمين ومزق شملهم هو بعدهم عن هداية القرآن وعدم تحكيمهم له في أهواء النفوس وفي مزالق الآراء ليأخذ بيدهم إلى صوابها، وفي نواجم الفتن ليحلي عماءها، وفي معترك الشهوات ليكسر شهواتها، وفي مفارق سبل الحياة ليهدي إلى أقومها⁽¹⁰⁾، ولذلك سنوضح منهجه في تنوير العقول من خلال ما يلي:

أولاً: القرآن الكريم:

ينطلق الإبراهيمي من قناعة بأنّ الفهم الصحيح للقرآن الكريم هو سر نجاح أسلافنا الصالحين لأنهم اتبعوا سبيله وحنوا بذلك العجب العجاب من القوة والسمو والرفعة والإنتاج الحضاري، والعلم والأدب فقد أصلح القرآن حالهم حينما طبقوا ما أمرهم الله - عز وجل - فعاشوا في أرقى حضارة إنسانية مبنية على العلم ومرتكزة على الحق والعدل وقائمة على التعاون والتكافل.

وقد انطلق الإبراهيمي من واقع المسلمين فبذل جهودا كبيرة في سبيل إيقاظ روح الوعي لعظمة القرآن حتى أبدع في خطبه، فأشاد الإمام بن باديس بنوعية الدروس التي يقدمها يقول: "إنّ هذا الدرس وحده كان لإحياء أمة مستعدة... فوددت لو أنّ المسلمين كلهم يسمعون مثل هذه الدروس"⁽¹¹⁾، وأما عن منهجه في نشر وعيه بعظمة القرآن الكريم فقد حثّ على دراسته واستخراج ذخائره معتمدا على الحجج والبراهين، يقول: "لماذا نُحجر دستور القرآن وهو من عند الله، ولا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه، ولا يتبدل ولا يتغير، ثم نلتجئ إلى دساتير الغرب وقوانينه، وهي من أوضاع البشر القاصرة يظهر في كلّ حين تناقضها ومنافاتها للمصلحة فتبدل وتغير ولا تزال تبدل وتغير مع أن مواضعها الموضوعية لهم من جنس واحد؟"⁽¹²⁾، وهي وخزة فكرية توعوية بضرورة اجتناب الأفكار الغربية في محاولة تنويرية لإيقاظ الوعي الوطني وتحريره من القيود الغربية لاستعادة مكانه الصحيح في شتى ميادين الحياة.

سعى الإبراهيمي إلى توعية العقول بحقيقة كبيرة وهي أنّ الأمة إذا كانت شاهرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلى كتاب ربها، فتحكمه في نفسها وتحكم به، وتسير على ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه والله يؤيدها ويأخذ بناصرتها وهو على كل شيء قدير، فتنطبق مبادئ القرآن في حياة الأمة يرفع من طرازها بقدر علو شأنه، ويعود بها إلى إطارها المرجعي السليم فكريا وسلوكيا وعمليا، ولذلك وجب تطبيق مبادئه في واقع الحياة باعتباره منهجا رانيا يحمل طاقة الاستيعاب القصوى لاحتواء الكون بأسره، ودستورا يحمل في ثناياه قصصا وعبرا للأمم سابقة تكشف العوامل النفسية والمادية التي تتحكم في سير المجتمعات، وتتدخل في تحديد مصيرها⁽¹³⁾، وتوضح تميز السلف الصالح في الاقتداء به، ومن ثم نشر روح التآلف والتآخي والمواطنة.

ولم تكن دعوة الإبراهيمي مقتصرة على فهم القرآن الكريم وإنما امتدت إلى التراث الفكري الذي أنتجه السلف الصالح على اعتباره "أفضل العصور الإسلامية وأولها بالافتداء والاتباع"⁽¹⁴⁾ وتعود أفضليته إلى كونه العصر الذهبي الذي شهد نزول الوحي حيث "لا يمكن فهم الإسلام وتمثل قيمه ومقاصده وشرائعه إلا من خلال الرجوع ودراسة تلك المرحلة التأسيسية في حياة الأمة وما نتج عنها من تحولات عميقة"⁽¹⁵⁾ لأنّ الإبراهيمي كان ينظر إلى تراثهم الفكر باعتزاز وافتخار، وإكبار، ويعتز بتجارب المسلمين السابقة، ويرى في عصور الحضارة الإسلامية الدليل القاطع على قدرة هذه الأمة على الرقي والازدهار.

ويرى الإبراهيمي أن أعظم الأمور التي تبعث في الأمة فعالية الحياة السليمة هي فهمهم للقرآن الكريم واقتداؤهم بنهجه في تنظيم الحياة ومن ثم يحقق الفرد غايته من الوجود بعقل سليم وعقيدة صحيحة وأعمال راقية يرقى بها إلى شرف أمة المستقبل وهي الأمة المثالية التي يتمثلها الإبراهيمي في آفاقه المستقبلية "أمة صحيحة العقول، صحيحة العقائد صحيحة التفكير، صحيحة الأبدان"⁽¹⁶⁾ مخزونها الروحي يؤهلها لإحداث حضارة سامية متكافلة مترابطة متطلعة إلى وطن متماسك تسود فيه المواطنة الحقّة والأخوة الصادقة، وقد أكد الإبراهيمي الدور الكبير الذي قام به القرآن في تحرير الأجيال الأولى من كلّ السلبات فقال: "حرر القرآن أرواحها من العبودية للأوثان الحجرية والبشرية، وحرر أبدانها من الطاعة والخضوع لجبروت الكسورية والقيصرية وجلا عقولها على النور الإلهي، فأصبحت تلك العقول كشافة عن الحقائق العليا، وطهر نفوسها من أدران السقوط والإسفاف إلى الدنيا فأصبحت تلك النفوس نزاعة إلى المعالي مقدمة على العظام"⁽¹⁷⁾، وكان مقتنعا بضرورة تطبيق نهجه على الحياة الإنسانية عامة وعلى الفرد الجزائري خاصة "بسبب إدراكه لخطورة وأبعاد الخراب الذي أصاب شخصيته في الصميم، بتأثير قرون الانحطاط الطويلة التي أورثته الكسل والتواكل والجمود والتقليد، والاستعمار الفرنسي الذي سلط عليه عوامل الفقر والجهل والاحتقار والاستعباد، والطرقية التي ظلّت تروج في أوساطه للخرافات والبدع والأضاليل، وتقتل فيه روح المقاومة وإرادة التغيير"⁽¹⁸⁾.

فيه حب التحرر والسعي إليه جراء نفسيته المريضة والتي أنهكتها ظروف الاستعباد وأسرتها قيود الاستعمار، وهي الإحاطة الفكرية الاجتماعية التي استهدفتها العملية التحريرية للإبراهيمي وجعلتها موضوعا لها حتى تخلصها من عوارض السلبية والركود وتطلقها من

سجن القابلية للاستعمار الذي كانت رهينته⁽¹⁹⁾ وتدفع بها إلى آفاق الانفتاح على جدية المقاصد وعزائم الأمور.

وتأسيسا لما سبق يمكننا القول بأن دعوة الإبراهيمي لفهم القرآن جاءت من قناعته التامة بعظمة هذا الكتاب السماوي وبأنّ بعث الفعالية في مجتمع مريض يتطلب انفتاح العقل على الحكمة والموعظة الحسنة ويستند في الاستدلال على العقيدة بالقرآن الكريم، لأنّ المعاملة الإسلامية مبنية على نظام المجتمع السليم.

ثانيا: تجديد العقيدة الإسلامية:

الحديث عن العقيدة الإسلامية الحقّة يقتضي وضعها في مفهومها الصحيح على أنّها ذلك اليقين الصافي الذي يقتضي التسليم الكلي للأمر القطعية اليقينية التي ارتضاها المسلم لنفسه، وحزم بصحتها براهين قوية وصادقة، فاطمأن إليها وآمن بها باعتبارها الغذاء الروحي المبني على حكمة الخالق.

ونقصد بتجديد العقيدة الإسلامية "إعادة إحيائها من جديد في نفوس المسلمين ببساطتها وسيرها وسماحتها وربط المجتمع مباشرة بالقرآن والسنة"⁽²⁰⁾ والقضاء على كل الضلالات التي أفسدت المجتمع وبثت فيه فساد الأخلاق والنفوس، ومن أجل أن يكون هذا الدين صالحا لكلّ زمان ومكان كان التجديد فيه قانونا دائما⁽²¹⁾ يبعث فيه آفاق الأمل وأنفاس الغد المشرق، وهو هدي الإسلام الذي سار عليه الأنبياء والصالحون حيث قال صلى الله عليه وسلم "إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"⁽²²⁾.

نجد أنّ الشيخ الإبراهيمي يسعى دائما إلى توحيد الجزائريين ويهيب بأبناء وطنه إلى جمع الشمل، وضّم الصفوف، وتجاوز الخلافات والنزاعات وهذا دليل على غيرته على وطنيته الخالصة حيث يخاطبهم قائلا: "وما نحن أولاء نرى خصوم القضية الجزائرية من أئمة الاستعمار، قد جمعوا صفوفهم وأجمعوا أمرهم على حرب قضيتنا في منبتها... إنهم قد تداعوا جهرة إلى الاتحاد هنا كما اتحدوا هناك... على إحباط برامجكم فنجحوا"⁽²³⁾، وهو من هذا الكلام يوجه رسالة قوية للجزائريين هذه الرسالة التي انبثقت من مشروعه التجديدي الحضاري المرتكز على الكتاب والسنة.

وقد انطلق الإبراهيمي في دعوته لتجديد العقيدة على أساس فكري ونفسي مصدره السلوكات الفردية السلبية التي تشتت الباطل وتتبع الظلال، ومن ثم عمل على توجيهها وتنويرها في النفوس منتهاجا في تجديده للعقيدة ثورة صاحبة على البدع والخرافات باعتبارها السبب في تشتت الأمة وفساد حالها، وأنها تمارسها فضعف الدين في النفوس، وكاد الإسلام أن ينفل من القلوب "وضعف لضعفة أعظم ركن في الإسلام وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"⁽²⁴⁾ الأمر الذي حَزَّ في نفس الإبراهيمي، وأثار سخطه خاصة وأنه فتح عينيه على جبهتين؛ جبهة داخلية غارقة في آفات التقليد والجمود والتعصب المذهبي، وجبهة خارجية معادية له تسعى لتحطيمه، والتشكيك فيه، وتمثل بصفة خاصة في الاستعمار الغربي المؤيد بالحركات التبشيرية، والمذاهب المادية الحديثة وغيرها⁽²⁵⁾.

وكانت الإشكالية المطروحة على الساحة الإسلامية هي سوء فهم لدينهم الإسلامي وانحرافهم عن مبادئه، وهو ما دفع الإبراهيمي إلى أسلوب التنوير من خلال بث الروح الإسلامية الحقة بنشر الوعي الإسلامي خاصة فيما يتعلق بالاستعمار الغربي المؤيد بالحركات التبشيرية، والمذاهب المادية الحديثة شاعرا في كل ذلك بالمسؤولية تجاه هذه العقيدة التي اختلت في النفوس فلا بسها ثوب الخرافات والبدع الضالة ما أفقدها الثقة في الله فاضطربت في سلوكها، وانفكت بذلك حلقات الترابط والتكافل بين أفراد المجتمع، وهو الأمر الذي عمق إحساسه بقدرة تجديد مفهوم هذه العقيدة، وبعثها على أسس متينة بتسيخ الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قصد بعث فعالية الدين الإسلامي الحق الذي يمارس تأثيره الإيجابي على الفرد فيدفعه إلى تكوين مجتمع متماسك ومن ثم وحدة الشعوب والأمم ورؤية الإبراهيمي في إحياء مجد الدين الإسلامي الصحيح منصبه في إقامته كما أمر الله، تقام بتصحيح أركانه الأربعة العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق فالكل يعلم أنّ هذه الأركان قد أصبحت مختلة وأن اختلالها أوقع المسلمين فيما يعيشونه من مصائب⁽²⁶⁾، فتفككت وحدة المسلمين واختل ترابطهم وقطعت روح الأخوة بينهم، ففسد المجتمع واختلت عقائده وانتشرت الآفات والمعتقدات والخرافات، فضعفت الثقة في الله واختلت العبادات وخوت النفس من تلك الآثار الجلييلة التي هي سر العبادة، والتي هي الباعث الأكبر على الكمال الروحي "فاختلت الأحكام وانتهدت الحرمات، واستبيحت المحرمات وتفككت روابط الأسر

الإسلامية وقطعت الأرحام وتعادى المسلمون وتباغضوا وتكر الأخر لأخيه"⁽²⁷⁾، وهو ما دفع بالإبراهيمي إلى شن ثورة بقلمه يحاول أن يصحح بها المفاهيم وينير العقول ويحفز المهتم بنظرات متطلعة إلى تكوين جيل سليم متماسك ومتآزر ومشارك في حب الوطن.

خاتمة:

وتأسيسا لكل ما سبق يمكننا القول بأنه في إطار هذا الفهم الصحيح للإسلام جاء نهج الإبراهيمي لتنوير العقول بعظمة هذا الدين الحنيف وتحلية قيمته الكبرى في تحقيق السلام الشامل للفرد والمجتمع على حدّ سواء، فعمل على تجديد العقيدة بإحياء الدين وتطهير العقيدة من الخرافات والبدع والخلافات وتحرير الفقه من التقليد والجمود، وقد أدرك حقيقة الإسلام بأنه رسالة ربانية جاءت لإسعاد البشرية في مختلف الأزمنة والأمكنة، لما نقيمه من توازن بين مظاهر الحياة، كما أنها تقوم على مبادئ سامية كالعدل والتسامح والتكافل مما يعزز علاقات الفرد بينه وبين أفراد مجتمعه، ليخلق منه فردا صالحا يحمل في فكره مشاعر المواطنة الحقّة التي تفتح آفاق الحياة السعيدة على جميع الأصعدة، وتنشر الوعي بين المواطنين بضرورة التآزر والتماسك والتراحم فيما بينهم، كما سعى الإبراهيمي إلى ترسيخ هذه القيم السامية منطلقا من الواقع المعاش خاصة حين خيم الاستعمار على جميع مجالات الحياة وساد الظلم والألم أرجاء الوطن، فكان إن فاضت نفسه حسرة وغيره على وطنه سال قلمه كثيرا معتمدا على الحجج والبراهين مع الإحساس بالمسؤولية، فكان يكتب بانفعال شديد ويحلل بحرقه محسوسة، وينتقد الجرأة والسخرية، ولا يهاب أحدا، محملا أفكاره تراثا عربيا إسلاميا، فتتأني كتاباته زاخرة بالثقافة الإسلامية الأصيلة اقتباسا وتضمينا فاكتمسب بذلك مضمونه صفة الخلود، والدليل على ذلك مقالاته التي لا تزال تملك قدرة معالجة الواقع خاصة القضايا الاجتماعية.

الهوامش والإحالات

- (1) - محمد الصالح الصديق، الإمام الإبراهيمي وفهم القرآن، مجلة الوعي، دار الوعي، الجزائر، ع 2، 2010، ص 27.
- (2) - الشهاب، ج 4، م 14، ربيع الثاني، جمادى الأولى، 1957، جوان، 1938.
- (3) - محمد الصالح الصديق، الإبراهيمي وفهم القرآن، ص 45.
- (4) - محمد زومان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفكر الإسلامي الحديث، إشراف د. العربي دحو، معهد الدعوة وأصول الدين جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 1994/1995، ص 100.
- (5) - ينظر: محمد الدراجي، الإصلاح العلمي ومكانته في التجديد الإسلامي عند الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع 2، ص 47.
- (6) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج 1، بيروت د ط، 1997، ص 108.
- (7) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 187.
- (8) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 187.
- (9) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 111.
- (10) - ينظر: محمد الصالح الصديق، الإمام الإبراهيمي وفهم القرآن، ص 37.
- (11) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 195.
- (12) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 195.
- (13) - ينظر: المطبري منصور زويد، الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع، الدواعي والإمكان، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر، د ط، د ت، ص 11.
- (14) - البوطي محمد سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر، دمشق د ت، ص 9.
- (15) - محمد عمارة، رضوان السيد وآخرون، إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، دار الشرق الأوسط للنشر، د ط، د ت، ص 207.
- (16) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 142.
- (17) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 88.
- (18) - محمد زومان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 160.

(19) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، د ط، د ت ص 83.

(20) - ينظر: محمد زومان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 316.

(21) - ينظر: محمد عمارة، الإسلام والمستقبل، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط 1، 1984، ص 10.

(22) - السحشباي، أبو داود سليمان الأشعث، صحيح سنن المصطفى، ج 2، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 209.

(23) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 332.

(24) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 110.

(25) - محمد زومان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإمام الإبراهيمي، ص 306.

(26) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 133.

(27) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 211.

توطين الهوية اللغوية وبناء الوعي في فكر محمد البشير الإبراهيمي

Localizing Linguistic Identity and Building Awareness in
Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi's Thought

د. حسين عمر دراوشة

جامعة غزة (فلسطين)

hussien2013333@hotmail.com

تاريخ القبول: 2021/09/28

تاريخ الإرسال: 2021/09/24

ملخص:

يهدف البحث إلى دراسة توطين الهوية اللغوية وبناء الوعي من ناحية تطبيقاتها واستعمالاتها في فكر محمد البشير الإبراهيمي، وذلك من خلال الحديث عن جهود الإمام في التوطين اللغوي ومرجعيات بناء الوعي اللغوي وعلاقته بالهوية في فكره، وبيان آليات هذا التوطين وآفاق بناء الفكر الواعي في ممارسات محمد البشير الإبراهيمي، وسيتم عرض ما سبق بالمنهج الوصفي التحليلي، لنصل في الأخير إلى خاتمة البحث وفيها النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: توطين، الهوية اللغوية، بناء، الوعي، الإبراهيمي.

Abstract:

The research aims to study the localization of linguistic identity and build awareness in terms of its applications and uses in the thought of Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, by talking about the efforts of Imam Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi in linguistic localization, and shedding light on the references of building linguistic awareness and its relationship to identity in the thought of Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi. Explaining the mechanisms of linguistic localization and the prospects for building the conscious thought in the practices of Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, and clarifying the above with the descriptive analytical method, and then the conclusion of the research, including the results and recommendations, and an index of sources and references.

Keywords: Localization, linguistic identity, construction, awareness, Ibrahimi.

مقدمة:

اجتهد علماء اللغة العربية في الحفاظ على سلامة اللغة العربية، ولقد قدّم أفاضاً الجزائر تجارب لغوية تحت وطأة المحتل الفرنسي، فكانت جهودهم كثيرة وكبيرة - تذكر فتشكر- في هذا المضمار، فما فتئوا يواجهون تغريب اللسان بتعريبه فانقلبت المحنة منحة، فيصادفنا الإمام الإبراهيمي بجهوده وآثاره العظيمة التي اتخذت مناحي متنوعة في سبيل نشر اللغة العربية وعلومها في ظلّ احتدام أوجه الصراع اللغوي وتنوع آفاقه، فقدم الإمام معطيات تنويرية وممارسات استنهاضية حول بناء الفكر الواعي والهوية اللغوية العربية، وله مساهماته الحثيثة في توطين اللغة العربية في نفوس أبناء المجتمعات العربية والإسلامية، فتحدث بحق عن القضايا الشريفة "الدين، اللغة، الوطن"⁽¹⁾، ومن هنا برزت مشكلة البحث.

مشكلة البحث:

تتمثل في الأسئلة الفرعية الآتية:

ما طبيعة توطين الهوية اللغوية وبناء الوعي في فكر محمد البشير الإبراهيمي؟

وينبثق عن هذا السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية:

1. ما جهود الإمام محمد البشير الإبراهيمي في التوطين اللغوي؟
2. ما مرجعيات بناء الوعي اللغوي وعلاقته بالهوية في فكر محمد البشير الإبراهيمي؟
3. ما آليات التوطين اللغوي وآفاق بناء الفكر الواعي في ممارسات محمد البشير الإبراهيمي؟

أهداف البحث: الحديث عن توطين الهوية اللغوية وبناء الوعي في فكر محمد البشير الإبراهيمي، ومعرفة جهود الإمام في التوطين اللغوي، وتسليط الضوء على مرجعيات بناء الوعي اللغوي وعلاقته بالهوية في فكره، وبيان آليات التوطين اللغوي وآفاق بناء الفكر الواعي في ممارسات محمد البشير الإبراهيمي.

أهمية البحث: التعرف على ممارسات الإمام الإبراهيمي التي تتعلق بتوطين الهوية اللغوية وبناء الوعي عند أبناء المجتمعات العربية والإسلامية، والاستفادة من تجربة الإمام في تشكيل الهوية اللغوية وتكوين الفكر الواعي حول مسألة اللغة باعتبارها من المكونات الأساسية التي تقوم عليها هوية المجتمعات، فهي وسيلة للتعبير وصناعة الفكر، وتقدم دراسة جادة جديدة

ترتبط بين موضوع الهوية والفكر؛ ليتسنى للباحثين والدارسين والجهات ذات العلاقة الاستفادة منها، ونقل قراراتها من دائرة التنظير إلى التطبيق والممارسة.

منهج البحث: يستخدم البحث المنهج الوصفي الاستقرائي القائم على الدراسة والوصف والتحليل والاستنتاج، مع استحضار نماذج تتعلق بتوطين الهوية اللغوية وأدائها في بناء الوعي وترسيخ أصوله وفقاً لممارسات محمد البشير الإبراهيمي وأطروحاته؛ بغية تحليل محاور البحث والإلمام بمباحثه؛ بما يعطي تصوراً شاملاً حول الموضوع المطروح وتداولياته.

محاور البحث:

يتكون البحث من المحاور الآتية:

- أولاً: جهود الإمام محمد البشير الإبراهيمي في التوطين اللغوي.
 ثانياً: مرجعيات بناء الوعي اللغوي وعلاقته بالهوية في فكر محمد البشير الإبراهيمي.
 ثالثاً: آليات التوطين اللغوي وآفاق بناء الفكر الواعي في ممارسات محمد البشير الإبراهيمي.

المبحث الأول: جهود الإمام محمد البشير الإبراهيمي في التوطين اللغوي.

بذل الشيخ الإبراهيمي جهوداً عظيمة في مسألة التوطين اللغوي، وقدّم أطروحات تنويرية تتعلق بنشر اللغة العربية وتوطيد دعائمها في المجتمع الجزائري، فإدارة الموقف اللغوي تحت الاستعمار الأعجمي من أبرز نقاط تشكيل الهوية الوطنية عند الجزائريين، فاللغة من محاور بناء الذات وهويتها التي تنتمي إليها، ولكن الاستعمار يسعى دوماً إلى تغريب اللسان وجعله تابعاً له، ويجسد ذلك صراعاً لغوياً تشتدّ وطأته عندما يكون المستعمر ذا سطوة وسيطرة ونفوذ، إذ يقول الإبراهيمي: "كان للاستعمار الفرنسي عند اللسان العربي تراتٍ وطوائل، فهو لا يزال يجهد جهده في محوه واستئصاله من الألسنة، وقد ارتكب جميع الوسائل الموبقة لمحوه من الجزائر"⁽²⁾، فما قدّمه الإبراهيمي يمثل محوراً أساسياً في بناء الإنسان الجزائري وإعداد شخصيته الحضارية انطلاقاً من الحفاظ على لسانها الناطق الذي تحتفظ به آثارها وسجلها التراكمي عبر الزمان، فالحفاظ على اللسان اللغوي هو حفاظ على الذات.

لقد كانت لجهود الإبراهيمي مع مصلحي الجزائر بالغ الأثر في البناء والتنوير والاستنهاض عند مواجهة الفكر الاستعماري الهدّام الذي يحاول القضاء على هوية الجزائري وفصله عن

أمتة التي ينتمي إليها، وأشار إلى ذلك كاردينال؛ بقوله: "إنّ عهد الهلال في الجزائر قد غبر وإن عهد الصليب قد بدأ وسيستمر إلى الأبد"⁽³⁾، ويرهن هذا التصريح على حقيقة الصراع بوجهه العام⁽⁴⁾، وبيان ما يتعرض له القوام اللغوي الجزائري من إقصاء ونشر اللغة الفرنسية وريثة اللاتينية بديلاً عن اللغة العربية؛ إذ يقول الإبراهيمي: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبةً ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حمائها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواحي مع الحاضر، طويلة الأفتان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على السنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم"⁽⁵⁾.

ويوحى هذا القول بالمسؤولية اللغوية واجتهاد الإبراهيمي في تدعيم أصولها وتوطئتها في نفوس أبناء المجتمع الجزائري، ولا يخلو ذلك من ارتباطات عقائدية ودينية وتاريخية وقومية أثرت في حركة التنشيط اللغوي العربي في ظلّ مواجهة الفرنسية التي حاول الاستعمار فرضها على الجزائر، فسلك العورة اللغوية أخذ حيزاً كبيراً من جهود الإبراهيمي الذي واجه تغريب اللسان بكلّ ما أوتي من قوة معرفية وفكرية وثقافية، وذلك من أجل توطئ اللغة العربية وتعزيز الانتماء بها في ضوء انتشار أدوات الهدم اللغوي والثقافي والفكري، ونشر مسببات الانحطاط والسقوط من أجل الظفر بالشعب الجزائري والسيطرة عليه والتحكم فيه، وإيجاد هوية مصنّعة نابعة من تعاليم الاستعمار التي يحاول نشرها، فواجه الإمام الإبراهيمي محاولات الطمس والتشويه اللغوي، وأرشد الجزائريين للتصدي لكيد الطاغين والثبات في وجه آلات السحق والنفي في المجالات الحياتية كافةً.

تفطن الإمام الإبراهيمي لأهمية التوطئ اللغوي الذي يثبّت الجزائريين بأرضهم، ويقوّي وشائج القرى مع محيطهم العربي والإسلامي، فالتأصيل التفاعلي لعملية التوطئ اللغوي وما تشتمل عليه مادتها من خصوصيته تبيّن فصاحة اللسان العربي وقوته، يسهم في تعزيز الصمود ودعم أسس التحدي مع قوى الاستكبار، ويرافق ذلك أنشطة هادفة تكفل بها الإمام الإبراهيمي من خلال مشاركاته مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي كان لها دور بارز في جمع الأصول اللغوية وتطبيقاتها وترسيخها في نفوس أبناء الشعب الجزائري وكوّن ذلك جبهة لغوية قوية في عملية التواصل الحضاري ومشكلاته.

وتنوعت الجهود الرامية إلى التوطين اللغوي فيما بذله الإبراهيمي، فاشتملت على النشاط اللغوي المباشر بالكلمة المنطوقة، وبيان مكانة اللغة العربية ودورها التاريخي في إحياء الأمة والارتقاء بحضورها ورسم ملامح مستقبلها، وشق الطريق عبر اللغة نحو صناعة الشخصية الحضارية المستقبلية، وكل ذلك توجّه الإمام بالمشاركة الميدانية على مستوى الجزائر وبلدان الأمة العربية والإسلامية، فكان الإبراهيمي صاحب رأي ومشورة، فترك بصمات عبر تقاريره الشاملة التي قدّمتها من خلال أنشطة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

بذل الإبراهيمي جهوداً على صعيد الكلمة المكتوبة في مقالاته المستقلة وبالأخص مقالاته المجموعة تحت عنوان "عيون البصائر"، والتي اشتملت على ممارسات توعوية ذات أبعاد لغوية تنويرية تسهم في حيوية التفاعل اللغوي في سياق الاستعمالات المختلفة، فأبرز هذا الكتاب عبقرية الإبراهيمي في شؤون الإصلاح المختلفة، فهو يعدّ وعاء يغترف منه كلّ راغب في معرفة مظاهر الإصلاح في أدب هذا المفكّر الفذ، فمارس الإبراهيمي الكتابة الفصيحة ذات التأثير البلاغي⁽⁶⁾، فقدّم كثيراً من المشاركات في المجمع اللغوي العربية وفي المؤتمرات العلمية التي تستعرض اللغة العربية بمنهجية علمية، وتعالج قضايا راهنة تسهم في تنمية الدرس اللغوي العربي وترتقي به، فعملية الاستنهاض اللغوي عند الإمام الإبراهيمي لها مجرياتها التي ساهمت في إجراء تحولات لغوية عميقة في ظلّ محاولات الطمس والتذويب التي تعرض لها الشعب الجزائري، فهذه التحولات نشرت الوعي اللغوي بشكل تطبيقي متفاعل يُراعي الحاجات الراهنة وما تحمله في فحواها، وتُلبّي تطلعات اللغة العربية في المستقبل؛ أي تترجم ما هو مأمول؛ إذ يقول في خطابه الجماعي: "أيها الإخوة: إنّ أسرة المجمع أصبحت أسرة عربية لا تخالطها عجمة، ولا يطرق ساحتها دخيل، ولا يداخل نسبتها إقراف ولا هجنة، فلنعمل للغتنا بأنفسنا، ولنسكب عليها عصارة أرواحنا ولنضاعف جهودنا، ولنشدّد حيازتنا، ولنشدّد عزائمنا، ولنوجه كلّ قوانا لخدمتها والذب عن حرمانها، ولنعلم أنّ إن أصابها سوء ونحن عصابة إنا إذن لخاسرون، ولنسأ لعقدان ولا لقحطان إن سيمت العربية ضيمًا ونحن حماة ثغورها، ولعلّ إخواني الأعضاء الجدد يشاركونني في اليقين بأنكم ما أوليتمونا شرف العضوية بهذا المجمع للراحة ولين المهاد، وإنما لتتحمل بهذه العضوية أعباء تستدعي سهر العيون وإنشاء العقول والقرائح ومتاعب التنقيب على ما أودع الأسلاف في هذه الأسفار من كنوز، فلنوطن أنفسنا على ذلك كله برضى واطمئنان، وإنها لصفقة

رابحة"⁽⁷⁾، ينم ذلك على المسؤولية الجماعية تجاه اللغة العربية، فلا يمكن أن تكون اللغة أداة اتصال تفاعلية لمجمل الأفكار والمعاني إلا بانغماسها في هوية الناطق بها وانبثاقها منها⁽⁸⁾.

المبحث الثاني: مرجعيات بناء الوعي اللغوي وعلاقته بالهوية في فكر الإبراهيمي

تتمثل مرجعيات بناء الوعي اللغوي وارتباطاتها بالهوية في الممارسات الفكرية عند الإمام الإبراهيمي في الدعوة الصريحة المدفوعة بالمنطق السليم الذي يتوافق مع الحاجة الملحة في تلك الحقبة التاريخية على قيام الإبراهيمي بالتأكيد على أهمية اللسان الناطق والكنز اللغوي في بناء الوعي اللغوي وفتح آفاق رحبة أمام اللغة العربية وتعزيز تواجدها في مختلف الأنشطة والمقولات والدروس وبالأخص في ظلّ وجود الاستعمار؛ إذ يقول الإبراهيمي: "تعتبر اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتُكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرّة مثل اللغة الفرنسية"⁽⁹⁾، يتّضح أنّ التصريح المنطقي في الاعتزاز باللغة العربية في العمل الرسمي عبر الدوائر المختصة يسهم في توطين اللغة العربية وفاعلية تطبيقاتها بدعم من القرار الرسمي الصادر عن سياسة الدولة العليا في إلزامية اللغة العربية في كلّ الخطابات عبر المؤسسات الرسمية، فالحديث عن الاستعمال الرسمي والإدارة اللغوية للإعلام وحرية إتقان اللغة العربية واكتسابها يمثل مرجعيات تطبيقية في دعم التوطين اللغوي واتّساع آفاقه، في ظلّ إقرار اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للبلاد بعد أن كانت اللغة العربية هي لغة البلاد الإدارية والقضائية والتعليمية؛ فتطلب ذلك موقفاً سياسياً واضحاً⁽¹⁰⁾.

الارتكاز على البعد القومي والتاريخي في دعوته للحفاظ على اللغة العربية وإحياء أصولها عند مواجهة لغة الاستعمار التي تصارع اللغة العربية الأم في البلدان التي تستحلها قوى الظلم والاستكبار، فلا يمكن أن تنفصل اللغة العربية عن دعائم الأمة العربية والإسلامية ومشكّلاتها على مر الزمان، ومن هذا المنطلق يؤكد الإبراهيمي ذلك بقوله: "وقامت اللغة العربية ببيانها على أكمل وجه، وكانت الأمة المدخرة لتشيد هذه الحضارة التي نسمّيها بحق الحضارة الإسلامية هي الأمة العربية"⁽¹¹⁾، لقد ربط الإبراهيمي اللغة العربية بحضارة الأمة العربية والإسلامية، ويوحى ذلك بعمق ارتباط اللغة في بناء الحضارة التي تنطلق من التوطين اللغوي في نفوس أبناء المجتمع.

وتعتبر اللغة العربية وسيلة التعبير الأولى، فهي كامنة في نفوس أبناء المجتمعات العربية والإسلامية، ويرى الإمام الإبراهيمي أنّ اللغة العربية تمثل "ترجماناً صادقاً لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شادها العرب بجزيرتهم، وفي أوضاع هذه اللغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا وعليها من رونقها سمات، وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتّساع في التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها"⁽¹²⁾ فهذا الربط بين اللغة العربية وما بها من مفردات وتراكيب وتعبيرات وبين التعبير الوجداني والانفعالي وما تحمله من مشاعر وأحاسيس، يمثل ارتباطاً حيويّاً مرتكزاً على حياة اللغة العربية وتوطينها في نفوس أبناء الأمة عبر التاريخ والزمن، فالترابط بين اللغة وتعبيراتها النفسية والوجدانية يعدّ من المرجعيات الضرورية في بناء الوعي اللغوي وتثبيت دعائم اللغة العربية في نفوس أبناء المجتمعات.

تمثل اللغة العربية أساساً من أساسيات بناء المدنية والحضارة، ويعدّ ذلك ربطاً فكريّاً منهجياً في توطيد مرتكزات الوعي اللغوي وتثبيته وتوطينه عند أبناء المجتمع الناطق باللغة العربية، فاللغة العربية هي تراث إنساني خالد يحفظ تراكمات الزمن بمختلف اختصاصها وتوثق جهود البشر في عملية البناء والاستنهاض، إذ يقول الإبراهيمي: "وهذه المدنية التي تردّد لفظها الألسن ويصطلح المؤرّخون على نسبتها إلى أمم مختلفة ويميّزون بينها بطوابع خاصة ويشتدّ المتعصّبون في احتكارها لأمة دون أمة كأنها خلقت معها أو كأنها ذاتية لها هي في الحقيقة تراث إنساني تسلّمه أمة إلى أمة وتأخذ أمة عن أمة فتزيد فيه أو تنقص منه بحسب ما يتهيأ لها من وسائل وما يؤثر فيها من عوامل، وخير الأمم وأفاهها للمدنية هي الأمة التي تقوي الجهات الصالحة في المدنية وتكمل النقائص الظاهرة فيها، وتسعى في نشرها وإشراك الناس كلهم في خيراتها ومنافعها، وخير اللغات ما كانت لساناً مبيناً للمدنية تسهّل على الناس سبيلها وتمهّد لهم مقيلها"⁽¹³⁾، إنّ الجانب التفاعلي للغة العربية في بنائها الشمولي للمدنية والحضارة من المرجعيات المهمة في النهوض اللغوي والارتقاء بها في ظلّ متغيرات العصور وحاجاتها ومتطلباتها للرفعي والتقدم.

الاتصال الوثيق بين اللغة العربية وبين انتشار الإسلام وبناء الأمة؛ لأنّ اللغة من أساسيات الوجود ومن مرجعيات تشييد الحضارات في المجتمعات البشرية؛ فيساعد ذلك

على بناء الوعي اللغوي التفاعلي؛ يقول الإمام الإبراهيمي: " فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الأفريقي إقامة الأبد وضربَ بجرانه فيه أقامتْ معه العربية لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيمًا لا يتزحزح، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتنساع في الألسنة واللهوات وتنساب بين الشفاه والأفواه. يريد لها طيبًا وعضوبة أن القرآن بما يُتلى، وأنّ الصلوات بما تبدأ وتُختم، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعتْ دائرتها، وخالطت الحواس والشواعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لعة دين ودنيا معًا وجاء دور القلم والتدوين فدوّنت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته"⁽¹⁴⁾.

هذه الشمولية الحقيقية للاستعمال اللغوي عند أمة العرب والإسلام من الجوانب التفاعلية للمعرفة اللغوية التي تبني الفكر الواعي بين أبناء مجتمعات الأمة، فيغرس في النفوس محبة اللغة في تليتها لحاجات النفس وتطلعاتها وما تطمح إلى تحقيقه ونيله، ويعدّ ذلك من أسس المواطنة الصالحة التي هي في منظوم الإمام الإبراهيمي ما كانت محكومة بدين الإسلام لا حاکمة عليه⁽¹⁵⁾.

ويعدُّ إحياء اللسان العربي الفصيح من المهمات الأساسية في الجهود التي بذلها الإمام الإبراهيمي من خلال أنشطة جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، والتي كان شعارها "الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني"⁽¹⁶⁾، فتجديد الشرعية اللغوية للسان العربي في ضوء التحديات الراهنة من المرجعيات الضرورية والحتمية التي ركز عليها الإبراهيمي، علاوة على ربطها بنواحٍ دينية ونفسية ووجدانية وتاريخية واجتماعية، فيعزز من الأبعاد التطبيقية في الفكر اللغوي الواعي؛ إذ يقول: "أمّا إحياء مجد اللسان العربي فلأنه لسان هذا الدين والمترجم عن أسراره ومكوناته؛ لأنّه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر كلهم، لأنّه لسان محمد بن عبد الله (ﷺ) صفوة الله من خلقه، والمثل الأعلى لهذا النوع الإنساني الذي هو أشرف مخلوقات الله، ولأنه لسان تاريخ هذا الدين ومُجَلِّي مواقع العبر منه، ولأنه قبل ذلك وبعد ذلك لسان أمة شغلت حيزًا من التاريخ بفطرتها وآدابها وأخلاقها وحكمها وأطوارها وتصاريقها في الحياة، ودولها في الدول، وخيالها اللامع الخاطف الذي هو أساس فنّها وآرائها في عالمي الكون والفساد"⁽¹⁷⁾.

ويدلل هذا القول على محورية اللسان في بناء الفكر الواعي وتنميته، وينعكس ذلك على القيمة الحقيقية للغة العربية وأساسياتها في التعامل المجتمعي وتفاعلاتها من منظور حضاري، وهو ما يسهم في بناء الشخصية الإنسانية المتفاعلة التي تدرك جوهر الأمور وتمثلاتها في الجهد الإنساني العالمي، ويترك ذلك بصمة واضحة في الثقافة العربية والإسلامية أمام أبناء الأجيال المتعاقبة.

وثبّه الإبراهيمي على ضرورة الحرص الشديد في الحفاظ على سلامة اللسان العربي من الضياع أو الانقطاع عنه أمام موجات الصراع اللغوي الذي تشهده ساحات العالم العربي والإسلامي، ومزاحمة اللغات الأخرى للغة العربية في عقر دارها، فأطلق الإبراهيمي إرشاداته وتعليماته التي تنم عن عمق الوعي اللغوي وأهمية توطينه في نفوس أبناء المجتمع؛ إذ يقول: "وكلّكم يعلم أنّ هذا اللسان ضاع من بيننا فأضعنا بضياعه كلّ ذلك التراث الغالي النفيس من دين وتاريخ، وأنّ اللغة هي المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى"⁽¹⁸⁾.

إنّ الحفاظ على القوام اللغوي من الضروريات الحتمية والمرجعيات الأساسية التي أشاد بها الإمام الإبراهيمي وركز عليها من أجل توطيد دعائم اللغة العربية والسعي إلى تفعيل دوائر تأثيراتها في سلوك أبناء المجتمعات العربية والإسلامية، والعمل الجاد على تكتيف مضمونها الحضاري الذي يحمل أبعاد إنسانية تسهم في التفاعل بين أبناء البشر.

ويبحث الإمام الإبراهيمي على السعي الدؤوب وتكثيف الأنشطة في سبيل تحقيق التنمية اللغوية والارتقاء باللسان العربي، وينم ذلك عن عمق المسؤولية اللغوية التي تعزز هوية الناطق باللغة العربية وتضمن تفاعله الفكري الواعي مع مختلف المفاهيم والمعطيات والأطروحات؛ إذ يقول: "إنّ اللغة العربية كالدين يحملها من كلّ خلف عدوله، لينفوا عنها تحريف الغالين، وزيف المبطلين، وانتحال المؤولين، وأنتم أولئك العدول، فانفوا بجد وإخلاص عن هذه اللغة زيف المبطلين من هذا الجيل الذين أصبحوا يتنكرون لهذه اللغة ويعفرون في وجهها، وقد فاتهم أن يحصلوا منها على طائل، فأصبحوا يرمونها بالعمق والجمود، وعدم المسابرة لركب الحضارة، ويرتضخون لكثرة، لا هي بالعربية ولا هي بالصالحة لأن تخلف

العربية ويتمردون على البيان العربي، وعلى مناحي الشعر العربي، وعروضه وقافيته ورويه ويلوون ألسنتهم بالسوء في ذلك كله"⁽¹⁹⁾، يمثل هذا القول نبرة استنهاضية وصرخة حضارية للمخلصين من أبناء الأمة العربية والإسلامية في ضرورة الاعتزاز باللسان العربي والاعتزاز به وعدم الانسلاخ منه في ظل تعدد اللغات، فينظر الإمام الإبراهيمي للغة العربية على أنها لغة نامية متطورة تفي بحاجات العصر، وهي ليست جامدة بأي حال من الأحوال، ويذكرنا ذلك بقول شاعر النيل حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية⁽²⁰⁾:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب، وليتني ... عقت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجلاً وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدقاتي
فيا ويحكم أبلي وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عزّ الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عز أقوام بعز لغات

فهذا الطرح الواعي الذي يشير إلى خصوبة اللغة العربية واتساعها لتلبية الحاجات اللغوية الراهنة والمستقبلية القديمة والجديدة؛ ويعدّ هذا التوجه اللغوي من المرجعيات الأساسية لتعزيز هوية الأجيال والبرهنة على تفاعلاتها مع حاجات الأمة وتطلعاتها؛ لأنّ هدف الاستعمار خلق جيل لا دين له ولا هوية له توثقه بماضيه وحاضره ومستقبله⁽²¹⁾.

وتحدث الإبراهيمي عن منطلقات فكرية مختلفة في سياقات معرفية لها مضامينها اللغوية المتنوعة في شتى حقول الآداب والمعارف والفنون والعلوم، وينم ذلك على سعة الثقافة الخصبية والاطلاع الواسع الذي يسهم في تعميق الفهم وتوسيع المدارك اللغوية في عملية بناء الهوية الإنسانية الصحيحة وتشديد أحد أهم أركانها ألا وهي اللغة التي تتفاعل مع غيرها من مكونات الهوية العربية والإسلامية؛ مما ينتج شخصية حضارية متفاعلة تنطلق من لسان عربي قويم يفي بحاجات الحاضر ويترجم تطلعات المستقبل، ولا ينعقد من ماضيه

ولا ينسلخ عن تراثه إنما يعتز به، إذ يقول في كلمته لمجمع اللغة القاهري عام 12 مارس (1962م): "وستلتحق الجزائر بالركب العربي عن قريب، وسيخرج من أجيال المغرب العربي عُفَاً لهذا المجمع، وحماة لهذه اللغة الشريفة"⁽²²⁾، فالواضح أنّ من أعظم مرجعيات الفكر اللغوي الواعي عند الإبراهيمي الاعتماد الكبير على التراث العربي والإسلامي في طرحه الفكري والمنهجي فيما يختص بالرقى اللغوي، ويدل ذلك على العمق الاستراتيجي الواعي في سبيل رسم طرق الارتقاء وطرح سنن التغيير اللغوي وإدارته بشكلٍ واعٍ أمام التحديات الكبيرة التي تواجه اللسان العربي.

المبحث الثالث: آليات التوطين اللغوي وآفاق بناء الفكر الواعي في ممارسات الإبراهيمي

اهتم الإمام الإبراهيمي بآليات التوطين اللغوي الميدانية عبر المتابعة الحثيثة والكلمة الصادقة على المنابر الحرة، فهو يتحرك في ظلّ وجود مستعمر يطارد ويلاحق رواد الإصلاح ومن تجشم عناء التغيير من أجل رسم هوية أبناء المجتمع الجزائري المسلم، ومجاهدة ممارسات المستعمر الفرنسي الغاصب، وكانت جهود الإمام الإبراهيمي نبزاً يرشد أبناء الأمة للمنهج القويم الذي يحقق الرقي والتقدم، فربط الإبراهيمي بين الدين الإسلامي واللغة، وفي ذلك إشارة قوية للتوطين والانتماء الحقيقي للأمة وبناء فكرها الحر والواعي على أساس لغوي متين؛ لأنّ العاطفة الدينية تمثل معتقداً راسخاً في قلوب أبناء الأمة العربية والإسلامية وأذهانهم وطرق تفكيرهم؛ إذ يقول: "ويأبى لكم الله والإسلام أن تضيعوا لغة كتاب الله ولغة الإسلام، يأبى لكم الله إلا أن ترجعوا إليها لا لتحيوها، بل لتحيوها بما الفضيلة الإسلامية في نفوسكم ولتحيوها بما الحياة التي يريد الله منكم، فجمعيتكم - بعون الله وبفضل هممكم - تركب لهاتين الغايتين من الوسائل كل ممكن، فمن محاضرات ودروس عامّة إلى دروس خاصّة إلى تنشيط وإرشاد لهذين، وهي تعتمد في الإعانة على القيام بهذا العهد الذي قطعه على نفسها - بعد الله - على كلّ من يصله صوتها من أبناء هذه الأمة، وهي تعتقد أنّها لا تستغني عن الإعانة من أنصارها مهما قلّت، وأنّها لا تستغني عن حنكة الشيب وتجاربهم، ولا عن اعتدال الكهول وحكمتهم ولا عن نشاط الشبان وفتوّتهم، وإنّ تكافل هذه القوى الثلاث سيخرج للأمة الجزائرية جيلاً مزوداً بالإسلام الصحيح وهداياته والبيان العربي وبلاغته، عارفاً بقيمة الحياة سبّاقاً في ميادينها متحلياً بالفضائل عزوفاً عن

الردائل، عارفاً بما له وما عليه واقفاً في مستقرّ الحقيقة الواقع، لا في ملعب الخيال الطائر"⁽²³⁾، ويوحي ذلك بعمق المضمون والدلالة التي تحملها اللغة العربية وتنقلها للأجيال اللاحقة، ويسهم ذلك في البناء الحضاري الواعي ويشجع الممارسات الراقية لأبناء الأمة ويهذب سلوكهم عبر منظومة القيمة التي تدعم أساس التفاعل والإدراك لمجريات الأمور في الأوضاع الراهنة والتطلعات المستقبلية؛ إذ تمثل اللغة أداة تفاعلية من أجل تلبية الحاجات والرغبات وتحقيق التطلعات وترجمة الطموحات، فإدارة الواقع اللغوي تحقق منجزات آنية ومستقبلية ترتقي بالمجتمع الذي يمتلك اللغة المنضبطة، فكلما كانت اللغة أكثر انضباطاً كانت الأفكار والمفاهيم والمصطلحات أكثر دقةً واتساعاً، وكلما كانت اللغة مشوهة وضعيفة حتماً تكون المعطيات منحرفة وغير منضبطة ومتوحّاتها ضعيفة وفي الغالب منعكسة.

ضرورة الإعداد اللغوي التفاعلي والإتقان الماهر لأساسيات اللغة العربية ومعطياتها من أجل التعامل الصحيح مع مختلف الإنتاجات المعرفية والمضامين العلمية، فاللغة العربية من أسس النهضة والتطور العلمي، والذي من مميزات إتقان اللغة العربية علماً وتعلّماً، وإجادتها تكلماً وكتابة وخطابة، فيقول الإبراهيمي: "فقد قامت هذه النهضة على ألسنة تنثر الدرّ من العلم، وألسنة تنفث السحر من البيان وأقلام تسيل رحمة في مواطن الرحمة، وتمجّ السمام أو تنثر السهام في مواطن الغضب للحق والذود عن الحق"⁽²⁴⁾.

فهذا القول البياني يوطد دعائم التوطين اللغوي في الفخر بالانتماء اللغوي وما تحمله اللغة من مضامين ومخاور وأفكار عظيمة فلولا عظمة الوسيلة اللغوية لما حملت الأشياء العظيمة، ويؤكد من منحى آخر على شمولية التعبير اللغوي واحتوائه على الفكر والعاطفة في التمثيل والتجسيد والتصور حول طبيعة ما يبيّنه.

ويعدّ الاهتمام والاعتناء باللغة العربية من أساسيات فهم الذات، فلا فهم بدون تقدّم، فكيف يمكن التعامل والتوجيه بدون إجادة المضمون وإتقان المراد من أجل ترجمته ونقله من واقع التنظير إلى التطبيق والممارسة، فالإبراهيمي لم يمحّ الآخر ولغته إنما دعا إلى عدم مزاحمة اللغات الأخرى للغة العربية في جميع أحوالها، فهو لم ينفِ ما تقدّمه اللغات الأعجمية إنما دعوته خالصة للتمسك باللغة العربية وما يفيدها ويكسبها المنعة والقوة؛ إذ

يقول: "ينبغي أن نفهم نحن ويفهم أبنائنا أنّ اللغة العربية هي رأس المال الذي تجب المحافظة عليه، وأنّ اللغات الأجنبية هي ربح فلا تعطى من العناية ولا من الوقت إلا ما لا يزاحم لغتنا الأصيلة، ولا يتليها بالضعف، ولا يمسّ قدسيّتها عندنا"⁽²⁵⁾، ويعدّ هذا التصريح من أساسيات الانتماء اللغوي ومن دعائم توطين الهوية اللغوية بفكر واعٍ وممارسات حيّة تُخدم الدرس اللغوي وترتقي به في ظلّ المتغيرات التي تشهدها الساحة اللغوية.

ويستقرئ الإبراهيمي جهود القدماء ويستحضرها في عملية التوطين اللغوي، فهو يشيد بما قدّمه أهل اللغة العربية ونشروه بين الأمم بلغتهم الغنية التي تزخر بسيل عرم من المفردات والتعابير والتراكيب التي توحى بأنّ اللغة العربية لغة حضارة ومدنية وعمران، فهي تشيّد لحضارة إنسانية سامية ترتقي بسلوك البشر وتهدب طبائعهم ولم تنفِ رغباتهم وحاجاتهم، فيقول الإبراهيمي: "لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متّسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، ولألّزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عربًا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمّته، لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون"⁽²⁶⁾، فاللغة العربية لغة عالمية تمتلك من الأدوات والوسائل ما يجعلها تنقل الحضارة الإنسانية للأجيال وتترك فيها بصمات عربية وإسلامية خالصة ويسهم ذلك في تنشيط الواقع اللغوي ويرتقي به من منطلق قومي وتاريخي يوثق اللغة في نفوس أبناء المجتمعات، فما كتبه الإمام الإبراهيمي أكبر دليل وبرهان على الفكر والقراءة العميقة المثمرة وتتبع مجريات الأمور وحيثيات الوقائع والأحداث⁽²⁷⁾.

اعتمد الإبراهيمي آلية العورية كتيار فكري ومنهجي في التعامل مع المعارف والعلوم التي ينتجها أهل الأمم الأخرى، فيسهم تيار العورية الذي تمثله حركة النقل والترجمة والتعريب على توطين اللغة والمساهمة في الاستقلال اللغوي بشكل نوعي يرسم ملامح الشخصية الحضارية لأمة العرب والمسلمين؛ إذ يقول: "التعريب نوعان: نوع جزئي ونوع كلي، فالتعريب الجزئي هو تعريب الألسنة والأقلام وآثارها من خطابة وكتابة، ويدخل فيه

تعريب الدروس التعليمية، والثاني يشمل هذا، ويشمل التخلُّق بأخلاق العرب والتحلِّي بكل ما اشتهر عنهم من محامد وفضائل، ويظهر مما وصلني من جدول أعمالكم أنكم تقصدون الأول، فلنجر معكم في هذا العنان، ولنعرّب ما استطعنا من الألفاظ، والمصطلحات والتعليم، وكتبه، وأساليبه، ولغته، ولننقح على قدر الإمكان، ولنكل بقية التصفية والغربة للزمن، فإننا اليوم في وقت ضرورة تتقاضانا الاستعجال في كل شيء، وليس المستعجل كالمثاني، ولنطهر لغتنا من أضرار الاستعمار ولغاته، ولا ندع أجيالنا الناشئة تنشأ على اعتقاد ناقص في لغتها، بل نتحيّل لها في جلب معاني الاعتزاز بها، ونغرس فيها معاني التمجيد لها⁽²⁸⁾.

إنّ تيار العوربة من الآليات المحورية في عملية بناء الفكر اللغوي الواعي وتدعيم أسس الهوية اللغوية وتوطئتها في نفوس المتعلمين، والتعامل مع المعرفة الأجنبية بشكل واعٍ وأخذ ما يتوافق مع الثقافة اللغوية ومضامينها العربية والإسلامية، فمعرفة ما يمتلكه الغير من المقومات الضرورية؛ لتحقيق التقدم المأمول، ومعرفة آخر ما توصل إليه الآخرون لكي يستكمل البناء المعرفي الإنساني، ويعمّ الخير على الجميع من منطلق المحافظة على الكينونة والهوية ومواجهة تذويبها مع تيار العولمة، فالتعريب يوازي التغريب الذي تنشده قوى الاستعمار في تحقيق رغباتها الجموحة من أجل قطع لسان الجزائر العربي عن ماضيه وحاضره؛ مما يضمن جهله في المستقبل، ولكن نباهة المخلصين من أمثال الإبراهيمي حالت دون ذلك، وردت كيد الطاغين إلى نحرهم.

التأكيد على عالمية اللغة نظراً لما تمتلكه من مقومات تفاعلية في البناء اللغوي في مختلف مستوياته ومشكلاته وشكله ومضمونه، فلم تكن اللغة العربية العداء للغات الأخرى بل أثرت فيها وتأثرت بها، فاقترضت منها كثير من الألفاظ واستقبلت كما وافراً من المفاهيم والمصطلحات والأساليب التي استقبلتها اللغة العربية بكلّ رحابة وسعة، إذ يقول: "قامت اللغة العربية في أقلّ من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة

وهذا هو التراث العقلي المشاع الذي لا يزال يأخذه الأخير عن الأول، وهذا هو الجزء الضروري في الحياة الذي إما أن تنقله إليك فيكون قوة فيك، وإما أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة لغيرك. وقد تفتن أسلافنا لهذه الدقيقة فنقلوا العلم ولم ينتقلوا إليه. وقد قامت لغتهم بحفظ هذا الجزء الضروري من الضياع بانتشاله من أيدي الغوائل وبنقله إلى الأواخر عن الأوائل، وبذلك طوّقت العالم منة لا يقوم بها الشكر، ولولا العربية لضاع على العالم خير كثير⁽²⁹⁾.

إنّ التعدد المعرفي للغة العربية - كما يرى الإبراهيمي - عبر تيار الترجمة والتعريب من الآليات الضرورية التي لها آثارها في الدرس اللساني العربي، ويعدّ ذلك حجر الزاوية التفاعلي في معرفة إنتاج الآخر والانفتاح عليه في تيار واعٍ يضمن معرفة المقومات التي تمتلكها اللغة العربية ويفعل دوائرها التخصصية من خلال التلاقح المعرفي والتلاقي العلمي، بالإضافة إلى تحقيق التجديد واستثمار المعطيات التخصصية كافةً في خدمة لغتنا الجميلة وتنميتها والارتقاء بها في سلم اللغات الإنسانية بما يُؤكد على عالميتها.

البرهنة على سمة عالمية اللغة العربية وأهميتها في ظلّ تعدد اللغات الإنسانية على مستوى البشرية جمعاء، ويمثل ذلك آلية تفاعلية لتوطين اللغة العربية وبناء الوعي الشمولي بها؛ نظراً لما تمتلكه من مقومات رئيسة في إدارة المضامين والمجاور والمكونات كافةً في هيكلية الحضارة ونشأتها عند أمة العرب والمسلمين؛ إذ يقول الإمام الإبراهيمي: "إنّ كثيراً من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصلها إلّا على طريق اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم، وإنّ المنصفين منهم ليعترفوا للغة العربية بهذا الفضل على العلم والمدنية ويوفونها حقّها من التمجيد والاحترام، ويعترفون لعلماء الإسلام بأنهم أساتذتهم في هذه العلوم عنهم أخذوها وعن لغتهم ترجموها وإنهم يحمدون للدهر أنّ هياً لهم مجاورة المسلمين بالأندلس وصقلية وشمال أفريقيا وثور الشام حتى أخذوا عنهم ما أخذوا واقتبسوا عنهم ما اقتبسوا"⁽³⁰⁾، إنّ تأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات يُؤكد على عالميتها وإيفائها بمتطلبات العصر وحاجاته؛ مما ينعكس على نفوس أبنائها ومتعلميها، فالشعور بمكانة اللغة العربية وآثارها في غيرها من اللغات الأخرى يخدم مسألة التوطين اللغوي وتفاعلاتها مع تشكيل الهوية وتكويناتها في بناء الحضارة العربية والإسلامية.

رسم طرق النهضة العربية وتشخيص ما يواجهها من صعوبات ومشاكل يعدّ من سنن الارتقاء والتوطين؛ لأنّ تشخيص العلة ونقاط الضعف اللغوي يسهم في التعامل الحكيم مع الواقع اللغوي ويشري تفاعلات التوطين اللغوي في نفوس المتعلمين وجمهور المخاطبين؛ إذ يقول الإبراهيمي: "أيها الإخوان: إنّ النهضة العربية الحاضرة في الشرق مفتقرة إلى كثير من المصطلحات العلمية والصناعية. وما زلنا نقرأ من سنوات عن اهتمام قادة النهضة بهذه المشكلة ونقرأ اختلافاً في الواجهة، وهل الأصلح البحث عن مصطلحات عربية أصيلة، أو استعارة هذه المصطلحات من لغات العلم الأجنبية، وإنّ غاية ما استنجد به أصحاب الرأي الأول المعاجم اللغوية، وأعتقد أنه لو كانت الكتب العلمية والفنية التي كتبها أسلافنا موجودة بين أيدينا ولم تغلها غوائل الدهر لوجدنا فيها من هذه المصطلحات ما يفي بحاجتنا أو يقارب، ولكنها - ولا للأسف - ضاعت، وضاعت علينا بضاعتها ثروة لا تقوم بمال"⁽³¹⁾، إنّ التعبير عن المشكلات الجوهرية وفاعلية التشخيص اللغوي تسهم في توطين اللغة العربية، وتوسع دوائرها أمام الناطقين بها، ويؤكد على عالمية مضامينها وفاعلية محاورها فتحدث الإبراهيمي عن كيفية إدارة الوافد الجديد، هل يخترع الجديد أم يستشير عيون التراث، وهذا يمثل منحى تراثياً وتجديدياً، فهو ينتصر للتراثي لأنّ فيه خيراً كثيراً، إذ تعج المصنفات العربية بكم وافر من المادة اللغوية التي بحاجة إلى تصنيف وإعادة نشر بروح العصر من جديد.

ثراء اللغة العربية وقوة رسالتها المعرفية يسهم في تثبيتها في نفوس جمهور الناطقين بها فاحتوت اللغة العربية على مضامين مختلفة كونها لغة دين ولا يصح التعبد إلاّ بها، فساعد ذلك في خصوصية مضامينها وسعة انتشارها بين الأمم والشعوب التي دخلت الدين الإسلامي، فكون اللغة من مشكّلات الهوية الإسلامية يمثل محوراً مهماً في عملية التوطين اللغوي وأولوياتها الضرورية وحاجاتها الملحة في المجتمعات البشرية والإنسانية، إذ يقول الإبراهيمي: "إنّ الأمم التي دخلت في الإسلام متفاوتة الدرجات في الانفعالات النفسية وأنماط التفكير، متفاوتة في الإدراك والذكاء، متفاوتة في القابلية والاستعداد، متفاوتة في التصوير والتخيّل، ولكنّ اللغة العربية فتحت عليها آفاقاً جديدة في كلّ ذلك ما كانت تعرفها لولا العربية، ودفعتها بما فيها من قوة وبما لها من سلطان إلى التفكير والتعقّل على

منهج متقارب، وحفزت الأفكار الخاملة إلى التحرك وزادت الأفكار المتحركة قوة على قوة⁽³²⁾، فالنظر إلى الجانب الموضوعي للغة العربية وما يحملها الآخر عند اكتسابه لها يعد نقلة نوعية في تدعيم أسس التوطين اللغوي الواعي في سلوك أبناء المجتمعات العربية والإسلامية؛ مما يثبت الدعائم ويقوي الوشائج بين اللغة ومضامينها الروحية والدينية والحضارية، ويبرهن ذلك على فاعلية آلية الحديث من منحى ديني يثبت اللغة العربية ويشجع من تعلمها وإتقانها بشكل دقيق ومن منطلق حضاري على اعتبار الدين واللغة من مكونات الشخصية الحضارية العالمية.

عمق الإحساس بالمسؤولية اللغوية من أسس التوطين اللغوي في فكر الإمام الإبراهيمي، فهو يتحدث من منطلق أخوي وشعور جمعي عميق بما يثبت أهمية اللغة العربية ومحوريتها في الإعداد الفكري والثقافي لأمة العرب والمسلمين، وبما يؤكد مركزية المسؤولية والشعور بما حيال توطين اللغة العربية في نفوس العرب والمسلمين والاعتزاز بها؛ بما يرفع من قيمة الانتماء اللغوي وضرورة رفع درجته في النفوس التواقفة للتحضر والتمدن، فاللغة أساس حضاري ومدني متين به تشيد الأمم حاضرها ومستقبلها، يقول الإبراهيمي: "أيها الإخوان: إنّ اللغة العربية هي التي قاربت بين الفكر الفارسي المنفعل القلق وبين الفكر البربري الرصين الهادئ ثم هيات لكل فكر قابليته، واللغة العربية هي التي سهّلت لهذه الأمم المختلفة أسباب العلم والمدنية ومهّدت لها الطرائق المؤدية إليهما حتى أخذت كلّ أمة حظها منهما واللغة العربية هي التي أفضلت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها، وأمدّتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة. فبحثوا في كلّ علم وبحثوا في كلّ فن ومالأوا الدنيا مؤلفات ودواوين"⁽³³⁾، يبرهن هذا القول على الاعتزاز بالمنتج اللغوي التراثي لأمة العرب والمسلمين؛ مما يساعد على الاستفادة من التجارب الحصرية التي خاض غمراتها القدماء لكي يكونوا خير خلف لخير سلف، ويستفيدون من الأدوات والوسائل المنهجية التي ابتكروها واقتروا رسومها وحدودها، ففهم المقصد والتعمق والتبصر فيه من أولويات تدعيم الكفاية التخصصية اللغوية مما ينتج أداء لغويًا يضمن فاعلية آثار التوطين اللغوي وإنتاجاته في نفوس أبناء المجتمعات العربية والإسلامية.

يتضح مما سبق أنّ الإمام الإبراهيمي يمتلك فكراً لغوياً تفاعلياً، وهذا الفكر له توجهاته في الثقافة اللغوية وتفاعل دوائرها التخصصية عبر المعارف والعلوم والفنون والآداب، وثمة إشارة محورية إلى انتصار الإبراهيمي لتأصيل العلوم والمعارف وما هو جديد من منظور معرفي تراثي يبحث في الجذور العربية والإسلامية لمختلف الظواهر، فهو متشرب الفكر الحضاري لأمة العرب والمسلمين، فرسم بأقواله وتصريحاته ومرجعياته وآلياته سبلاً تفاعلية في عملية التوطين اللغوي وتشكيل الهوية الحضارية لأبناء الشعوب والمجتمعات العربية والإسلامية، ولقد رسم ذلك أسساً عظمى أمام تحقيق النهضة العربية.

النتائج والتوصيات

اشتمل هذا البحث على كثير من التحليلات حول توطين الهوية اللغوية وبناء الوعي في فكر محمد البشير الإبراهيمي، وتوصل إلى مجموعة من النتائج والتوصيات من أهمها:

أولاً: النتائج.

1. قدّم الإمام محمد البشير الإبراهيمي ممارسات ذات بعد في التوطين اللغوي مبنية على أسس تنويرية واستنهاضية تخدم الكفاية اللغوية عبر إثراء جانب المعرفة والفهم اللغوي الواعي، وتسهم في فاعلية الأداء اللغوي عبر الأنشطة والدروس.
2. ارتبطت مرجعيات بناء الوعي اللغوي بمشكلات الهوية الحضارية عبر الدين والمجتمع والتاريخ القومي والتعليم والسياسة، وتتوج ذلك بتيار العورية الذي يوازي العولمة في فكر محمد البشير الإبراهيمي.
3. تنوعت آليات التوطين اللغوي وآفاق بناء الفكر الواعي في ممارسات الإبراهيمي، وتشابكت مع مناحٍ مختلفة تمثل الحاجات الراهنة والتطلعات المستقبلية في تلك الحقبة الزمانية.
4. تمثلت أطروحات الإمام الإبراهيمي بمعطيات فكرية لها توجهاتها في ظلّ وجود ساحة وصراع وتحدٍ لغوي وثقافي متعدد الجوانب جرّاء وجود قوة استعمارية غاصبة.
5. اهتم الإمام الإبراهيمي بالرباط التراثي وإبراز الجوانب التفاعلية للحضارة العربية والإسلامية وما استفاده الآخر منها؛ ويعدّ ذلك من مقومات إعادة فهم الذات

والشخصية اللغوية والحضارية أمام التغيرات الزاهنة ومحاولات التذويب والتشويه والتغريب التي يتعرض لها أبناء المجتمعات العربية والإسلامية.

ثانياً: التوصيات.

1. ضرورة دراسة المرجعيات الفكرية عند الإمام الإبراهيمي، وتحليلها في ضوء التجارب الحضارية المعاصرة.
2. التعرف على جهود الإمام الإبراهيمي في المعطيات اللغوية وما تضمنته إنتاجاته من إشارات لغوية ذات تعالقات آنية ومستقبلية تحمل استشرافاً للواقع العربي والإسلامي بشكل عام.

الهوامش والإحالات

- (1) - تغريب اللسان العربي وأثره على الانتماء في فكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مالك عوادي، مجلة أبولوس، عدد5، جوان، الجزائر 2016م، ص177.
- (2) - آثار الإمام الإبراهيمي 261/5.
- (3) - عبد الحميد بن باديس - رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة، محمد عثمان، دار القلم الكويت، 1978م، ص69.
- (4) - الأطر المعرفية في المنجزات اللغوية والأدبية الجزائرية مدونة عيون البصائر لمحمد البشير الإبراهيمي أنموذجاً، مجلة طبنة للدراسات العلمية الأكاديمية، مجلد3، عدد2، الجزائر 2020م، ص255.
- (5) - آثار الإمام الإبراهيمي 206/3.
- (6) - مظاهر الإصلاح في مقالات عيون البصائر لمحمد البشير الإبراهيمي، بالولي أحلام، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، مجلد6، عدد 15، ديسمبر، الجزائر 2018م، ص214 وأهم خصائص الكتابة الأدبية عند محمد البشير الإبراهيمي وروافدها، البشير خذير، مجلة التواصلية، مجلد 6، عدد 18، ديسمبر، الجزائر 2020م، ص439.
- (7) - آثار الإمام الإبراهيمي 294/5.
- (8) - اللغة هوية ناطقة من منظور جديد يمزج اللغة بالهوية والحياة، عبد الله البريدي، المجلة العربية، عدد 197، الرياض 1434هـ، ص26.
- (9) - آثار الإمام الإبراهيمي 236/1.
- (10) - تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954م)، أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 8/ص21.
- (11) - آثار الإمام الإبراهيمي 375/1.

- (12) - آثار الإمام الإبراهيمي 374/1.
- (13) - آثار الإمام الإبراهيمي 374/1.
- (14) - آثار الإمام الإبراهيمي 206/3.
- (15) - أسس الوطنية ومعالمها ومقوماتها في فكر ابن باديس والإبراهيمي، مسعود فلوسي والطاهر براخلية
مجلة الدراسات الإسلامية، عدد 9، جوان الجزائر، 2017م، ص518.
- (16) - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة والوطنية الجزائرية، مازن مطبقاني، دار بني مزغنة
الجزائر 2015م، ص83.
- (17) - آثار الإمام الإبراهيمي 134/1.
- (18) - آثار الإمام الإبراهيمي 134/1.
- (19) - آثار الإمام الإبراهيمي 295/5.
- (20) - جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت 352/2 وفي
الأدب الحديث، عمر الدسوقي، دار الفكر العربي، القاهرة 2000م، 50/2.
- (21) - بلاغة اللغة في أدب المقال الإصلاحي عند محمد البشير الإبراهيمي، أحلام بالولي، رسالة
ماجستير، جامعة العقيد أكلي محمد أولحاج، الجزائر، ص77.
- (22) - آثار الإمام الإبراهيمي، 295/5.
- (23) - آثار الإمام الإبراهيمي 133/1.
- (24) - آثار الإمام الإبراهيمي 153/1.
- (25) - آثار الإمام الإبراهيمي 265/5.
- (26) - آثار الإمام الإبراهيمي 376/1.
- (27) - الخطاب الحجاجي في المقالات الإصلاحية لمحمد البشير الإبراهيمي - مقارنة لغوية دلالية، محمد
عطا الله، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، الجزائر 2012م، ص20.
- (28) - آثار الإمام الإبراهيمي 263/5.
- (29) - آثار الإمام الإبراهيمي 376/1.
- (30) - آثار الإمام الإبراهيمي 377/1.
- (31) - آثار الإمام الإبراهيمي 379/1.
- (32) - آثار الإمام الإبراهيمي 378/1.
- (33) - آثار الإمام الإبراهيمي 378/1.

البعد القومي في كتاب عيون البصائر للإمام محمد البشير الإبراهيمي

The National Dimension in the Book "Oyoun EL-Basair" by the
Imam Mohammed El-Bachir El-Ibrahimi

ط.د/ زهيرة حمادي

جامعة امحمد بوقرة - بومرداس (الجزائر)

z.hamadi@univ-boumerdes.dz

تاريخ القبول: 2021/09/23

تاريخ الإرسال: 2021/09/06

ملخص:

تجتمع عدّة عوامل، اجتماعية، وسياسية، وثقافية، تشترك وتتضافر مع مقومات الهوية من وطن واحد، ولغة، ودين، ومصير مشترك، لتكوّن لنا مفهوما قاعديا للمواطنة، ولا يمكن أن نجد أعمالا تجسد لنا قيم المواطنة على أرض الواقع خير مما قام به العلامة الجزائري البشير الإبراهيمي، الذي تميز بموسوعية علمه في شتى مناحي الحياة.

ولعل الانتماء الجغرافي والتاريخي للجزائر كبعد قومي، يمثل عاملا هاما من عوامل الهوية الوطنية، سنحاول في هذه الورقة إلقاء نظرة عن مدى حضور قضايا الأمة العربية والإسلامية في مشروع الإمام التحرري، وكذا مدى أهمية الروابط القومية في ترسيخ الهوية الوطنية، من خلال مقالاته في جريدة البصائر، هذه الأخيرة التي كانت أعظم سلاح يؤرق المحتل ويبعثر أوراقه.

الكلمات المفتاحية: المواطنة، الهوية، البعد القومي، عيون البصائر، الإبراهيمي.

Abstract:

Several social, political, and cultural factors, mingle with the identity components of one homeland, language, religion, and a common destiny to form a basic concept of citizenship. We cannot find works that embody the values of citizenship better than what was presented by the Algerian scholar El-Bachir El-Ibrahimi, who was distinguished by the encyclopedia of his knowledge in various aspects of life.

Perhaps the geographical and historical pertinence of Algeria as a national dimension represents an important factor of national identity. In this paper, we try to have a look at the extent of the presence of the issues of the Arab and Islamic nation in the liberation project of the imam, as well as the extent of the importance of national ties in consolidating national identity, through his articles in the newspaper "El-Basair", this latter, which was the greatest weapon to perplex the colonizer and scatter its papers.

Keywords: citizenship, identity, the national dimension, Owoun EL-Basair, El-Ibrahimi.

تمهيد:

تُعَرَّفُ المواطنة في مفهومها البسيط بأنَّها العلاقة بين المواطن ووطنه، أي علاقة حقٍّ وواجب بين الطرفين، وبالتالي تعني تمتع الفرد بعضوية بلدٍ ما يترتب عليه حصوله على امتيازات عدَّة ومشاركته في أمور وطنه بما أنه ينتمي إليه، وتكتمل المواطنة بأداء الفرد لواجباته اتجاه وطنه، من الحفاظ عليه والمساهمة في العمل على رقيه وازدهاره بشقَى السبل كلٌّ حسب استطاعته ومعرفته، ولعلَّ الشعور بالانتماء هو لبُّ الهوية الوطنية وعمقها وأهم مقوِّم من مقوماتها، فالعلاقة بين المواطنة والهوية علاقة وطيدة ومتشابكة وكلٌّ منهما يحفظ الآخر ويدعمه.

ولأنَّ المستعمر الفرنسي كان كلَّ جهده منصبا على هوية الشعب الجزائري محاولا بكل الطرق طمس عوالمها، وتشويه مقوماتها بهدف تسهيل السيطرة على البلاد والعباد، فقد تفتن مناضلو الثورة الجزائرية وقادة المقاومة وعلمائها إلى حيل المستعمر البغيض، فتصدوا له عن طريق تنوير الشعب الجزائري وحثَّه على الحفاظ على هويته ووطنه، وكان سبيلهم في ذلك التوجه إلى عالم الصحافة لنشر خطبهم ومقالاتهم، بالإضافة إلى تأسيس مدارس للطلاب الجزائريين داخل الوطن وخارجه، ردا على المدارس الفرنسية التي كانت تضم شرا للجزائريين لا خيرا كما كان ظاهرا.

وفي مقدمة هؤلاء المجاهدين العلامة الجزائري الشيخ البشير الإبراهيمي، هذا العالم الفذَّ الذي تميز بعلمه الغزير وإحاطته بمعارف كثيرة شملت كل مناحي الحياة، مع فهم عميق للوضع السياسي والاقتصادي العالمي، فكان دوره عظيما في توجيه الثورة الجزائرية ضدَّ

المستعمر لصالح الشعب الجزائري، وساهم في تقوية الروابط والحفاظ على دعائم ومقومات الهوية التي كانت مستهدفة بالدرجة الأولى، فاتخذ من الكتابة سلاحاً فعالاً أوجع المستعمر وضربه في مقتل، فكانت مقالاته وخطبه ذات الرأي السديد، والحجة البليغة، وفصاحة اللسان، وبلاغة الكلمة، وجزالة الأسلوب وأناقته المزيّنة بقاموس قرآني أجدى نفعاً وأشدّ وقعا من السيف الحسام.

وتعدّ العلاقات مع الدول المجاورة التي تتشارك في الموقع الجغرافي والتاريخ الوطني، وكذا عوامل أخرى كالدين الواحد واللغة والوضع السياسي والمصير المشترك، عاملاً هاماً من عوامل الهوية الوطنية متعدداً بذلك بالضرورة إلى مقومات المواطنة، وبما أنّ الشيخ الإبراهيمي تميز بروحه القومية، وحبّه للأوطان العربية والإسلامية، فقد خصّها بخطبه ومقالاته مادحاً وناصحاً ومصلحاً وموجهاً، تعبيراً منه عن أهمية القومية في تكاثف الأوطان والحفاظ على أمنها واستقرارها وهويتها، خاصة وأنّها كانت تعاني من الاستعمار نفسه وتكابد من أجل الخلاص منه، ولذلك اخترنا كتاب عيون البصائر لأنّه يحتوي على أهم مقالات الشيخ العلامة، لننظر فيما مدى حضور القضايا العربية والإسلامية في فكره، وكذا ما مدى تأثير هذه العلاقات بين الدول الجارة والشقيقة على الهوية الوطنية.

1) التعريف بكتاب عيون البصائر

كتاب عيون البصائر من أهم آثار الشيخ البشير الإبراهيمي، وهو عبارة عن أهم المقالات وأقواها التي نشرها العلامة الجزائري في جريدة البصائر، التي كان تصدر من قبل جمعية العلماء المسلمين في عهد الاستعمار المدمر، "إذ تُعدّ هذه الجريدة أطول جريدة للعلماء وأعرضها شهرة وأرقاها كتابة، وقد تكون أرقى جريدة عربية بالجزائر في تاريخها الحديث، حيث استقطبت أهم الأعلام الجزائرية وأكبرها شأنًا وأرصنها تفكيراً"⁽¹⁾، ويعدّ كتاب عيون البصائر من أهم المؤلفات في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، فهو الجزء الثالث من كتاب آثار الإبراهيمي الذي يتكون من خمسة أجزاء، ويحتوي على العديد من مقالات الشيخ في مختلف القضايا السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والإصلاحية، التي قام بجمعها وتقديمها لنجله طالب الإبراهيمي.

إلا أنّ هذه المقالات لا تمثل إلا النزر القليل مما جادت به قريحة العلامة، حيث يقول نجله طالب الإبراهيمي: لقد آثرت أن أتنازل عن الكثير من النقاط حرصاً على الموضوعية هذه الكلمة أو مقالات في هذا الحرص⁽²⁾، والكتاب الذي بين أيدينا هو الجزء الثالث الذي قام بجمعه وتقديمه طالب الإبراهيمي، من 608 صفحة الطبعة الأولى لدار الغرب الإسلامي سنة 1997، ويحتوي على مقدمة الطبعة الثالثة للشيخ عبد الرزاق قسوم، ونجد في هذا الجزء دُرراً من مقالات الشيخ التي تُعنى بقضايا الأمة الجزائرية والعربية والإسلامية.

2) دور الصحافة في دعم الحركة التحررية الوطنية:

لا يخفى على متتبعي الحركة الثورية الجزائرية أهمية الصحافة الوطنية في دعم الثورة الجزائرية، وإيصال صوت الشعب إلى المستعمر بالدرجة الأولى وإلى العالم بالدرجة الثانية وكان للصحافة دور مهم في دعم الحركات التحررية ونشر أفكارها الوطنية والإصلاحية، "فقد حظيت الصحافة المكتوبة بمكانة مرموقة لدى جمعية العلماء واكتست أهمية بالغة خاصة منها سنوات العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، وهي الوسيلة الإعلامية الرائجة الاستعمال يومها"⁽³⁾.

لقد قامت جمعية العلماء بقيادة عبد الحميد بن باديس بإصدار العديد من الجرائد والمجلات، أهمها: المنتقد، الشهاب والبصائر، هذه الجرائد التي نالت شهرة واسعة وانتشاراً باهراً، أقلق المستعمر فكان كلما يغلق واحدة عوضتها الجمعية بأخرى أقوى منها، وقلق المستعمر من هذه الجرائد كان نظراً لدورها في فضح ممارسات الاستعمار والموالين له من رجال الطرقية والمشعوذين الذين كانوا يسيطرون على الشعب الجزائري بألعيهم وخرافاتهم فقد ساهمت في تنوير عقول الشعب وشحذ الهمم من أجل التصدي للمستعمر البغيض.

"ولعل ازدهار المقالة الأدبية في الجزائر يُعزى بالدرجة الأولى إلى الصحافة الإصلاحية التي احتضنت هذا الفن وأسهمت في تطوره على أيدي رجال مفكرين وكتاب بارعين، يعد بعضهم في طليعة كتاب العربية في العصر الحديث وفي الرعيل الأول من شيوخها المبرزين كالشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي ملأ الجزائر بمقالاته ذات الأسلوب الأنيق"⁽⁴⁾، فكان للصحافة دور في دعم الحركات التحررية، وآخر في ازدهار الحركة الثقافية في الجزائر والوطن العربي.

3) القضايا القومية في كتاب عيون البصائر:

كان الشيخ على بصيرة بأحوال العالم الإسلامي وبالأمراض التي كان يعاني منها وكان يعلم أنّ الحل الأمثل لمشاكله يتمثل في التكاتف والتعاون واستغلال العوامل المشتركة الكثيرة بين دوله، والدليل على ذلك العدد الكبير من المقالات التي خصّ بها الإمام الأمة الإسلامية، وفصّل تقريبا في الوضع التاريخي والسياسي لكلّ دولة على حدة، "ومنه يتبين لنا أنّ الشيخ الإبراهيمي يرى أنّ التقهقر الحضاري الذي ميّز العرب والمسلمين في عصره ليس وليد الصدفة، أو أنّه قدر لا حيلة لهم أمامه وإتّما هو نتاج لعوامل وأسباب عديدة تراكمت وتفاعلت عبر القرون"⁽⁵⁾، وكان دائما ما يبحث على الوطنية والمواطنة بالجد والعمل وبذل الجهد بإخلاص فيقول: "إنّ الوطنية لعقيلة كرام لا يساق في مهرها بمرح الكلام وكريمة بيت لا تُنال بلو ولا بليت، وإنّ العلم كبير أناس لا يصاحب إلا بضبط الأنفاس"⁽⁶⁾ وفيما يلي سنرصد أهم القضايا العربية التي وردت في مقالاته.

أ - الشمال الإفريقي

لطالما أثّرت مشكلة الأصول العرقية للمنطقة الجغرافية المسماة الشمال الإفريقي، من عرب وأمازيغ وبربر وغيرهم من الأجناس، وكان الاستعمار يسير في هذا الاتجاه ويغذي هذه الأفكار لإثارة النعرات والفتن بين شعوب المنطقة، ولذلك نجد علماء الأمة يحاولون التصدي لهذه العنصرية الهدامة ودائما ما ينادون بضرورة الترفع عن هذه الخلافات، والتأكيد على أنّ الإسلام عزّب المنطقة وآخى بين الأعراق والأصول فيها.

يقول الشيخ الإبراهيمي في مقالة عنونها (بعروبة الشمال الإفريقي): "عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية كما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد، وهي أثبت أساسا وأقدم عهدا وأصفى عنصرا من إنكليزية الإنكليز وألمانية الألمان"⁽⁷⁾.

وراح الشيخ يفصّل في قضية العروبة في الشمال الإفريقي، وكيف أنّها توطدت هناك بقوتها وروحانيتها وسمو أخلاقها، وكان ذلك بفعل يُسر الدين الإسلامي ولطفه الذي أنسى الإنسان والتاريخ برمته أنّ هناك جنسا غير عربي فيقول: كلّ هذه الظروف صيّرت هذا

الشمال عربيا قارّ العروبة على الأسس الثابتة من دين عربي، ولغة عربية، وكتابة عربية وآداب عربية، ومنازع عربية، وتشريع عربي، وجاء التاريخ -وهو الحكم في مثل هذا- فشهد وأدّى، وجاءت الجغرافيا الطبيعية فوصلت هذا الشمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب⁽⁸⁾ وما حرص الإمام على عربية الشمال الإفريقي إلا ربطه بامتداده العربي والإسلامي الذي يمثل حصنا رصينا وسندا يقيه من شرور المستعمرين.

ب- المغرب العربي

إذا كان العالم العربي يمثل عمق الانتماء للأمة الجزائرية، فإنّ المغرب العربي يمثل الدولة الواحدة والشعب الواحد، فلا يمكن فصل شعوبه إلا بالحدود الجغرافية التي وضعها المستعمر الذي عاث في البلاد فسادا وكان ديدنه التفريق والتشتيت، فما يشهد عليه التاريخ من تضامن الشعوب المغاربية ودولها، وقتالها جنبا إلى جنب ضدّ الاستعمار الفرنسي، إلا دليل على قوة الرابط بين هذه الدول، وحس الانتماء إلى وطن واحد بمقومات واحدة.

ويعود الفضل في ذلك إلى علماء الأمة من الجهتين في التوجيه والإرشاد والنصح وتذكير الشعوب بأنّ الأصل واحد والوطن واحد والدين واحد، وحرصهم كذلك على التشجيع والدعم ضدّ المستعمر وفضح حيله ومكره بكلّ الطرق والأساليب، وفيما يلي سنتعرض لبعض ما خاطب به الإمام دول المغرب العربي في كتاب عيون البصائر.

- المغرب الأقصى: توجه الشيخ بخطابه إلى المغرب الأقصى في عدة مناسبات وعدة مواضيع، فهناك مقالة موجهة إليه بصفة خاصة، وأخرى مشتركة مع مقالات تتحدث عن مواضيع تمّ المغرب العربي بصفته يعاني من المستعمر نفسه، لقد كتب في مقالة بعنوان (عيد العرش المحمدي العلوي) بمناسبة عيد العرش الملكي يناقش قضية الاحتفال بهذا العيد، لكنه لم ينكر عليهم الاحتفال بذاته ولكنه ينتقد طريقة الاحتفال المنافية لأخلاق الإسلام وضوابطه.

بدأ مقالته بمدح لملك المغرب، ولعيده المجيد، وتاريخه العظيم، وأصله الشريف فيقول: وذكريات من المجد التليد تُثار، وآفاق من الفخر الطريف تنار، وسمات من مخايل البطولة تشهر، وصفحات من تاريخ العظمة تنشر، ولحات من الشرق العلوي الفاطمي تشع فتشيع⁽⁹⁾، ويواصل ذكر محاسن العرش المغربي ودوره في الحفاظ على الأمة الإسلامية فيقول:

ومن حكم الله في هذا العرش أنه لم يزل حارسا للغة الضاد من الأضداد، حاميا للدين من المعتدين، ولم تزل في مقتعديه أمثال مضروبة في النضح عن الإسلام والعروبة، اختلفت بها الأنساب بين يعرب ومازيغ، ولم تختلف بهم الأسباب في رعاية العلم وتقدير البيان⁽¹⁰⁾.

ثم عرج على طريقة الاحتفال بهذا العيد التي اتّسمت باللهو والمجون ومخالفة الدين فيقول: ولا زلنا ننكر على المسلمين في زمننا هذا إقامتهم لهذه الاحتفالات، ونعدّها عليهم في باب الجحانة واللهو، ونقول إنّ معظمها محاكاة لا تأتي بفائدة، وتقليد للأقوياء لا يعود بعائدة، وأنها تتنافى مع الجّد والشهامة⁽¹¹⁾، ويختتم مقاله بالنصح الكريم للشعب المغربي بضرورة الالتفاف بملكهم، ودعمه وأن يكونوا صفا واحدا بجنبه والذود عن وطنهم ضدّ كل معتد قريبا كان أو بعيد.

وتوجه الإمام بقصيدة إلى المغرب الأقصى تحت عنوان: سكتٌ... وقلْتُ...هدية إلى

حماة العروبة بالمغرب الأقصى فيقول:

بنصرة إخوان وغوث أقارب	فيا نفس لا يقعد بك العجز وانهضي
رمى كلّ ذود في البلاد بخارب	حرام قعود الحر عن ذود معتد
رمى كلّ جنب للعباد بضارب ⁽¹²⁾	وبسئل سكوت الحر عن عسف ظالم

وتطرق الشيخ إلى قضية المدارس الفرنسية التي أنشئت في مستعمراتها بهدف توجيهها فكريا لصالح المستعمر، هذه المدارس التي كانت كما يقول الشيخ لا تجري على منهاج علمي يعود بالفائدة على الطلاب وإنما تسير على منهاج الطريقة المنحرفة فيقول: هذه المدرسة الاستعمارية تهيم تلامذتها أو مريديها للشر، وتروّضهم عليه في حال تطول قليلا أو تقصر جدا، على نسبة استعداد التلميذ، وإثما تروّض نفوسهم على الشر بالجملة⁽¹³⁾، وخصّ بالذكر أحد تلامذة هذه المدارس من المغرب فقال: من تلامذة هذه المدرسة الاستعمارية النجباء المقدمين تلميذ بالمغرب الأقصى⁽¹⁴⁾، وقد أخذ الشيخ هذا التلميذ كمثال، ولكن الأمر نفسه بالنسبة لهذه المدارس في جميع دول المغرب التي ترزخ تحت المستعمر الفرنسي وهذا ما يؤكد أنّ القضية واحدة والوطن واحد والشعب واحد.

- تونس: كان الإبراهيمي على علاقة كبيرة بجامعة الزيتونة المشهور في الجارة تونس وكان على اطلاع كبير بما يقدمه هذا الصرح العلمي للطلاب العرب والمسلمين، وخاصة الجزائريين منهم فكان يقوم بتشجيعهم على طلب العلم، وكان يتابع مساهمهم بأهمية بالغة، حيث "ترجح المصادر التاريخية أنّ تأسيس جمعية العلماء المسلمين كان وراء تشجيع الطلبة الجزائريين للالتحاق بالحركة التعليمية في تونس، وهذا منذ زيارة الإبراهيمي (1989-1965) لتونس في أواخر سنة 1934، الذي أوصى بضرورة تأسيس هيئة إدارية لجمعية الطلبة الزيتونيين"⁽¹⁵⁾.

وعندما حدثت أزمة في الجامعة وقام الطلبة بإضراب يطالبون فيه بالإصلاح، هذا الإضراب الذي نظّمته "منظمة صوت الطالب الزيتوني، وكان ذلك في شباط/فبراير 1950 وكانت منظمة فرع من فروع جامعة الزيتونة ومن أبرز مطالبها التي أوردتها فيما عرف بـ الدستور الزيتوني الجامع، إصلاح برامج التعليم الزيتوني عبر إدخال مواد عصرية وتدرّس اللغات الأجنبية،"⁽¹⁶⁾ لم يفوّت الإمام هذه الحادثة، وأدلى بدلوه بمقالة بعنوان (إضراب التلامذة الزيتونيين) يقول فيها: مازلنا نربأ بجامعتنا -أو بجوامعنا- التاريخية أن تبقى جارية على التقليد البالي في مناهجها وكتبها، وأن ترضى لنفسها هذا الجفاف في الزمان الممرع وهذا التمطي في العصر المسرع، ومازلنا نرجو لها -مخلصين- إصلاحا شاملا يعقبه صلاح كامل، يبتدئ ذلك الإصلاح من الكتب وينتهي إلى العقول⁽¹⁷⁾، في تأييد واضح منه لإضراب الطلبة ووعي منه لما يدور وسط الجامعة رغم بعده عنها.

ويواصل الإمام تشجيعه للطلبة المضربين قائلا: أضربتم فسخرها وقالو عادة ونوية، ثم أصرتم فتماروا وقالوا: رعونة من ورائها معونة، ثم تحدّيتهم فصدّقوا ولكن زدتم ليقولن: آمنة أنه لا إله إلا الذي خلق الزيتونة شجرة مباركة والزيتونيين رجالا مباركين⁽¹⁸⁾، شاكرا لهم إصرارهم على موقفهم حتى الوصول إلى مبتغاهم، ومذكرا إياهم باسم جامعتهم المباركة المستمد من بركة القرآن الكريم، ويحدّثهم بعد ذلك من الأيادي الفاسدة التي قد تذهب بمساعهم إلى طريق خاطئ فيقول: مازلنا نتبع أخباركم باهتمام ونعوّذكم بالله وبالمعوّذات من كلامه أن تكون من ورائكم يد تحرككم للمساعي الضائعة، أو تكيد لكم من حيث لا تشعرون، فقد عوّدنا هذا الزمان الفاسد عادات مرذولة في استغلال الشباب وتصريفهم في غير الطرق التي خلقوا لها⁽¹⁹⁾، وذلك وعيا منه لأساليب وطرق المستعمر ومن يواليه في إخماد العزائم والتصدي لما هو في مصلحة الوطن والمواطن.

ويقول في آخر المقال: أيها الأبناء الأعزاء: لستم منّا بموضع الهوان حتى نساكم وليس شأنكم عندنا بالهين حتى لا نفكر فيه وليس مستقبلكم في نظرنا بالرخيص حتى لا نغالي فيه، إنّما أنتم عندنا أحجار بناء المستقبل المجيد⁽²⁰⁾، يطمئن الإمام الطلبة بأنّه لم ولن ينساهم رغم بعد المسافة بينهم واشتغاله بقضايا وطنه الذي يؤرقه المستعمر البغيض، وبأنّ قيمتهم كبيرة وشأنهم عظيم بالنسبة له ولوطنهم الذي يحتاجهم وأنهم أمل المستقبل الزاهر والمجيد لأوطانهم، ليثبت أنه قائد عظيم للأمة الإسلامية جمعاء وليس لوطنه الجزائر فحسب.

- ليبيا: ليبيا هي الأخرى جزء لا يتجزأ وقطعة غالية من المغرب العربي الكبير، عانت كبقية دول المنطقة من ويلات الاستعمار الذي كان مختلفا في الاسم متشابها في الأفعال والطباع، فديدن المستعمر أينما حل الخراب والفساد، لم ينس الشيخ ليبيا وكانت لها حصة من اهتمامه وحبه ونصحه الكريم، فخصّها بمقالين الأول بعنوان (ليبيا موقعها منا)، والثاني بعنوان (ليبيا ماذا يراد بها؟).

تحدث الإمام في المقال الأول عن مكانة ليبيا كجزء من الوطن العربي الكبير، فقام أولا بوصف أرضها الطيبة التي تميزت بجمال ساحر، ثم قام بجولة تاريخية فيها بدءا بما مرّ عليها من أجناس وحضارات، والفاتحين الذين حملوا لها الدين الإسلامي، ثم الرحالة الذين مرّوا على أرضها وقام بذكر علمائها وشعرائها، فيقول: ليبيا -بأجزائها الطبيعية- قطعة ثمينة من وطن العروبة الأكبر، ومقل حصين من معقل الإسلام الباذخة، مكتنفة الشمال والجنوب بجمالين من مياه البحر الأبيض... فهي رقعة من صنع الله مطرزة الحواشي بما يسحر الأبواب، ويفتن النفوس ويستهوئ الأفتدة ويذكر بالعزة⁽²¹⁾، ليُنمّ الشيخ عن دراية واسعة واطلاع على ثقافة وتاريخ الأمة الإسلامية.

ويضيف قائلا: وإخواننا الليبيين -أو الطرابلسيين كما نسميهم- علينا حق الدين وحق اللغة، وحق الجنس وحق الجوار، وحق الاشتراك في الآلام والحن وفي الآمال المقترحة على الزمن⁽²²⁾، ليعبر عن حبه لهذه البلاد وحسه الانتمائي لكل قطعة عربية وإسلامية، ولا يخجل عليهم بنصائحه الوجيهاة فيقول: وإن هؤلاء الإخوان اليوم في طور امتحان عسير معقد، تتخلله الأهواء والمطامع، ويحيط به الكيد والتعنت من كلّ جانب، وإنّ نجاحهم فيه يتوقف على جمع الكلمة وتسوية الصف وتوحيد الرأي ومثانة الإيمان بالحق⁽²³⁾، فنصحه

الكرّيم لهم نابع عن حسه الوطني والقومي، وعن فهمه العميق كما قلنا سابقا لكل ظروف الوطن العربي، وما يحاك للعالم بأسره.

أما في المقال الثاني بعنوان: ليبيا، ماذا يراد بها فتطرق الشيخ إلى الأزمة التي مرّت بها ليبيا سنة 1949، عندما صدر مشروع عن الأمم المتحدة يقضي بوصاية بريطانية وإيطالية على ليبيا بدل الاستقلال التام لأراضيها، ولكن الشعب الليبي أحبط هذا القرار بنضاله المستمر وحصلت ليبيا على استقلالها سنة 1952، وفي هذا يقول الشيخ: هذه الكلمة الخاطئة هي "طلب الاستقلال" ومعناها في الواقع طلب الحق من غاصبه، أو طلب الملك من سالبه، ولو كان من طبيعة الغاصب السالب أن يردّ المغصوب فيئة إلى الرشد، وإنابة إلى الله، لردّه من غير طلب ولا رفع دعوى ولا إقامة دليل⁽²⁴⁾، حيث يؤكد الشيخ على أنّ ما يأخذ بالقوة لا يسترد إلا بها، وأن الاستقلال لا يطلب وإنما يأخذ ويشكك في نية المغتصب بأن يرد الحق لأصحابه بدون مقابل.

ويؤكد الإمام على عمق الصلة بين الشعبين الجزائري والليبي، وعن دعمهم لهم ومشاركتهم همومهم فيقول: أيها الإخوان الليبيون: إنّ لكم إخوانا يصل بينكم وبينهم الماء والصحراء، ويشرفون عليكم من مخارم هذه السلالة الشاخنة من الأطلس الكبير، وإثّهم يشاركونكم في الشدائد والحن، كما شاركوكم في الألسنة والسحن، وإثّهم يقاسمونكم مرارة الامتحان الذي أنتم فيه⁽²⁵⁾، إيماننا منه بالمصير المشترك والوطن الكبير الذي تجمعه عوامل عدّة ويتوجب على شعوبه الالتحام والتعاقد.

ج- المشرق العربي:

لم يكن تقسيم العالم العربي إلى مشرق ومغرب إلا بداعي الموقع الجغرافي، والمتتبع لتاريخ المنطقة يجد أنّ العلاقات بين المغرب والمشرق ضاربة في غابر الزمن، وأن الشعوب متداخلة الأعراق وزاد من ألفها الدين الإسلامي الذي وصل إلى كل بقاع العالم، ولكن المستعمر في التاريخ الحديث للمنطقة أراد قطع أو اصل هذا التقارب وتشتيت وتفريق المتجمع ليسهل عليه الامتداد والسيطرة، ولم يخف هذا على العلامة الجزائري الذي سلط الضوء على القضية في مقال بعنوان (أرحام تتعاطف) يقول فيه: طالما نعينا على المسلمين

خصوصا وعلى الشرقيين عموما هذا التقاطع الذي شئت شملهم، وفرّق جامعتهم، وصيّرهم لقمة سائغة للمستعمرين، وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب، الكامنة في دينهم⁽²⁶⁾، وكأن الشيخ يؤنب الشرقيين على عدم الاستماع للنصح والإرشاد من قبله فأعانوا المستعمر على الوصول لمبتغاه الماكر.

ويواصل قائلا: وما زال الاستعمار يروّض المسلمين الشرقيين على قبول هذه الدسيسة ثم على استحسانها ثم الأخذ بها حتى تنقطعوا في الأرض أمّا ليس منهم الصالحون⁽²⁷⁾، في قراءة سليمة منه لمآرب المستعمر التي وصل إليها بفعل تشتت المسلمين وعدم فطنتهم لحيلة الخبيثة، من أهم القضايا العربية التي تطرق إليها أزمة مصر وقضية العرب والقضية الفلسطينية.

- **مصر:** دائما ما كانت مصر تمثل الحاضن الأكبر للدول العربية، والشقيقة الكبرى كما تسمى، وهذا نابع عن جهود مصر والقائمين عليها في لم الشمل العربي ومدّ يد العون بالمال والسلاح والرجال للكفاح ضدّ المستعمر بكل أصنافه، فقد كانت مصر قبلة للمستضعفين في أوطانهم وكانت سندا لهم في كل وقت، ومن بين من قصد مصر الشيخ الإبراهيمي نفسه الذي مكث فيها مدة يُسيّر الجمعية من هناك، وقد خصّ مصر بثلاث مقالات، (محنة مصر محنتنا)، (يا مصر)، ومقالة بعنوان (أثر الأزر في النهضة المصرية).

يقول الشيخ: وأنت اليوم قبلة المسلمين يولون وجوههم إليك كلّما حز بهم أمر أو حلت بهم معضلة، وينفرون إلى معاهدك يمتارون العلم منها وإلى كتبك يصححون الفكر والرأي عنها، وإلى علمائك يتلقون الفتيا الفاصلة في الدين والدنيا عنهم، فلك - بذلك - عن كلّ مسلم حق، وهذا أوان الحاجة إليه⁽²⁸⁾، وفي تشجيع ودعم للشقيقة مصر في نضالها ضدّ المستعمر البريطاني، يقول الشيخ باسم جمعية العلماء المسلمين، والشعب الجزائري: إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المعبرة عن إحساس الشعب الجزائري كلّها تعلن تأييدها للشعب المصري وتضامنها معه في موقفه الحازم، ولا تصدّها عن أداء واجبات الأخوة هذه الحدود الوهمية التي خطّها الاستعمار بين أجزاء الوطن الواحد⁽²⁹⁾، ففي كلّ مرة يؤكّد الإبراهيمي أنّ الوطن العربي واحد والشعب واحد، ويجب عدم النظر إلى الحدود والفواصل التي وضعها المستعمر في طريق الشعوب.

وفي مقالة بعنوان: أثر الأزهر في النهضة المصرية، يقول الإمام: وما أحوج مصر اليوم إلى علماء من ذلك الطراز، يقولون كلمة الله في السلم فتكون هادية إلى الصلاح، وفي الحرب فتكون قائدة إلى النصر، لأن كلمة الله في لسان العالم الرثاني هي الميزان العادل⁽³⁰⁾، فلا يخفى على أحد دور جامع الأزهر آنذاك في إعلاء كلمة الله، وإصدار الفتاوى الصحيحة دون خوف ونصرة الشعوب المسلمة المضطهدة جميعها وليس الشعب المصري فحسب بالإضافة إلى احتواء طلبة العلم فقد كان صرحا علميا بحق ومنارة من منارات الإسلام.

- فلسطين: كانت ولا تزال القضية الفلسطينية قضية العرب والمسلمين، تعيش في دواخل كل عربي ومسلم تأخذها الحمية على وطنه الكبير، فقد دعمت الدول العربية فلسطين دائما وسعت لتحريرها من قبضة المستعمر الأنجس في العالم، "ويبقى لفلسطين المكانة العلية في النفوس والقلم الرائج بين أنامل ذوي العقول الراححة، والقلوب الناطقة والشعور المتبادل شيخنا أحس بفلسطين وجعل منها جرحه الذي لا يضمده، ونزيفه الذي لا يتوقف ولن يهنئ له بال ولن تطيب له عيشة محال إلا إذا تحقق المنى وبلغ المسعى، وأرجع لفلسطين حقها المهذور"⁽³¹⁾.

لقد أخذت القضية الفلسطينية حصة الأسد من مقالات الإبراهيمي وخطبه، لقد جمع مركز إعلام العرب بالقاهرة هذه المقالات، وطبعها في كتاب تحت عنوان فلسطين ضمن سلسلة تسمى كتاب القدس، بالإضافة إلى عيون البصائر الذي بين أيدينا، و"من خلال الرصد الذي قام به مركز الاعلام العربي لمقالات الابراهيمى وأدبياته عن القضية الفلسطينية في كتاب فلسطين، نجد أن الكتاب يضم 17 مقالا وتصريحا وبيانا تناولت رؤى الإبراهيمي للقضية الفلسطينية من حيث أهميتها لدى العرب والمسلمين ومكانتها لديهم ويمكن تصنيف هذه المقالات في أربعة أقسام:

القسم الأول: عن الاستعمار ودوره في خلق قضية فلسطين.

القسم الثاني: دور العرب والمسلمين في ضياع فلسطين، والواجبات المطلوبة منهم.

القسم الثالث: رؤى الإبراهيمي حول نكبة فلسطين عام 1948.

القسم الرابع: النواحي العلمية في مواقف الإبراهيمي إزاء قضية فلسطين"⁽³²⁾.

بينما توجد في كتاب عيون البصائر حوالي تسع مقالات تُعنى بالقضية الفلسطينية تطرق فيها إلى مواضيع عدّة، منها تصوير الفجيرة التي بيّن فيها ما تعانيها فلسطين، وقام بوصف قرار تقسيمها، ثم تحدث عن علاقة العرب باليهود وعن منطق القوة والضعف بينهم، وتحدث كذلك عن مكانة فلسطين لدى العرب وماذا يريدون لها، وواجباتهم تجاهها وبشكل خاص عرب شمال إفريقيا وحجهم لفلسطين رغم بعد المسافة، وغيرها من المناسبات التي لم ينس فيها الإمام قضيته، قضية العرب والمسلمين فلسطين الجريحة.

خاتمة:

من خلال ما سبق وبعد عرض أهم القضايا القومية والعربية التي تأكد حضورها وبقوة في مشروع الإمام الإبراهيمي الفكري والتحرري، فكلّ القضايا التي تحدّث عنها في مقالاته المرصّعة بأجمل العبارات والأفكار والألفاظ، التي لا يستطيع القارئ أن يتوقف عنها إذا بدأها وهذا لجمال أسلوبها، وقوة حجتها وبلاغتها، كلّ تلك القضايا لا تخرج عن كون الأمة العربية والإسلامية جسد واحد وقلب واحد، وهذا نظرا للعوامل والمقومات المشتركة التي بين شعوبها، والتي حاول الاستعمار مرارا طمسها لعلمه بمدى قوتها وخطورها على مشروعه الاستعماري، فالإمام رحمه الله وطيب ثراه، أخذ على عاتقه التحدث باسم الأمة جمعاء وليس باسم وطنه الجزائر فقط، وهذا نابع عن حبه لوطنه وحسه بالانتماء إلى وطنه أولا، وإلى أمته العربية والإسلامية ثانيا، وهذا هو لبّ وجوهر المواطنة الصادقة التي تنفع الوطن والمواطن على حدّ سواء.

الهوامش والإحالات

- (1) - أمين معلوف، التنشئة السياسية عند جمعية العلماء المسلمين (1931-1956)، كلية العلوم السياسية والاعلام، جامعة يوسف بن خدة، الجزائر، 2007-2008، ص 150
- (2) - محمد البشير الإبراهيمي، تقديم عيون البصائر، دط، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 9.
- (3) - شهرة شغري، الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة، 2008-2009، ص 214.
- (4) - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931/154)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 88.
- (5) - بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، رسالة دكتوراه، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009، 2010.

- (6) - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج3، ط1، 1997، ص315
- (7) - المصدر نفسه، ص428.
- (8) - المصدر نفسه، ص428.
- (9) - المصدر نفسه، ص396.
- (10) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- (11) - المصدر نفسه، ص397.
- (12) - المصدر نفسه، ص426.
- (13) - المصدر نفسه، ص414.
- (14) - المصدر نفسه، ص415.
- (15) - حنيفي هلايلي، اهتمامات جريدة البصائر بقضايا الجزائريين في تونس، مجلة عبد الحميد بن باديس
http://binbqdis.net/archives/8739، يوم 2021/04/28، 14:10.
- (16) - نائلة حمامي، الجامعة التونسية .. تاريخ من النضال والصراع، <https://www.ultrasawt.com>، يوم 2021/04/27، 06:22.
- (17) - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص409.
- (18) - المصدر نفسه، ص411.
- (19) - المصدر نفسه، ص413.
- (20) - المصدر نفسه، ص413.
- (21) - المصدر نفسه، ص402.
- (22) - المصدر نفسه، ص403.
- (23) - المصدر نفسه، ص403.
- (24) - المصدر نفسه، ص405.
- (25) - المصدر نفسه، ص408.
- (26) - المصدر نفسه، ص422.
- (27) - المصدر نفسه، ص423.
- (28) - المصدر نفسه، ص496.
- (29) - المصدر نفسه، ص492.
- (30) - المصدر نفسه، ص500.
- (31) - سليمة هالة، القضية الفلسطينية في كتاب العلامة الجزائري البشير الإبراهيمي، مجلة دراسات
وأبحاث، العدد 23، جوان 2016.
- (32) - أحمد التلاوي، فلسطين في أدبيات علماء الأمة؛ البشير الإبراهيمي أنموذجا، مجلة عبد الحميد
بن باديس، www.binbadis.net، 2021/04/9، 22:26.

الفكر الإصلاححي وقيم المواطنة في كتابات الإبراهيمي

Reformist Thought and Citizenship Values in Ibrahimi's Writings

د. سامية حامدي

جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعرييج (الجزائر)

samia.hamdi@univ-bba.dz

تاريخ القبول: 2021/09/17

تاريخ الإرسال: 2021/08/23

ملخص:

لا يمكننا الحديث عن مفهوم (المواطنة) في الجزائر باعتباره إنتاجا لفكر واحد؛ لكونه ناتجا عن تضافر عدة أطراف ومنظومات فكرية تتنوع نظرياتها وتوجهاتها، وإن كان المجال لا يتسع هنا للإلمام بجميع تلك الدوائر، لذا سنكتفي في هذه الورقة البحثية برصد فكرة المواطنة والوعي الفكري لدى العلامة محمد البشير الإبراهيمي، أحد أهم رموز الإصلاح في الجزائر، وصاحب مشروع نهضوي متكامل -ضمن التوجه الإسلامي الذي تبنته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين- رام من خلاله إلى بثّ الوعي واستنهاض الهمم لإعادة بناء الجزائر، واسترجاع الهوية التي سعى المستعمر الفرنسي إلى طمسها. فكيف تجلّت المواطنة في مشروعه الإصلاححي؟ وما الآليات التي توسّلها من أجل تحقيق هدفه؟

الكلمات المفتاحية: المواطنة، الفكر الإصلاححي، الهوية، محمد البشير الإبراهيمي.

Abstract:

We cannot speak of the concept of "citizenship" in Algeria as a product of a single thought; because it is the result of the contribution of many parties and intellectual systems whose theories and approaches are diverse. Although there's no room here for getting to know all these circles, so we settle in this research paper for attempts to monitor the idea of citizenship and the intellectual awareness of Mohamed El-Bachir El Ibrahimi, one of the most prominent symbols of reform in Algeria and the author of an integrated renaissance project - part of the Islamic orientation adopted by the Association of

Algerian Muslim Scholar - through which he sought to raise awareness and mobilize inspiration to rebuild Algeria and restore the identity that the French colonizer sought to obscure. How did citizenship manifest itself in his reform project? What mechanisms did he beg to achieve that goal?

keywords: citizenship, Reformist Thought, identity, El Ibrahimy

مقدمة:

لقد تضافرت عدّة أطراف ومنظومات فكرية بمختلف توجهاتها في صياغة مفهوم (المواطنة) في الجزائر، كان من أهمّ تلك التوجهات ما تبنته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد كان العلامة محمد البشير الإبراهيمي أحد أهمّ رموز هذه الجمعية، بما حمّله مشروعه النهضوي من نظرة إصلاحية متكاملة، بنت جيلًا واعيًا مُدركًا لحقوقه وواجباته المدنية، ضمن مشروع المواطنة الرّامي إلى إزالة الغشاوة عن أعين المواطنين الجزائريين، الذين يرسفون في قيود المستعمر الغاشم، الذي عمل على طمس الهوية الجزائرية وتجهيل المواطنين بحقوقهم، من أجل إحكام قبضته على الشعب الجزائري.

I. الفكر الإصلاحية والمواطنة:

عاشت الجزائر تحت سيطرة المستعمر الفرنسي، الذي سنّ نظامًا يقوم على التمييز بين الأهالي والمعمّرين إذ "تحوّل الجزائري إلى إنسان من الدرجة الثانية، تتلخّص مهمته في خدمة المعمّر دون مناقشة، وهذا ما يلاحظ من خلال إبعاد الجزائري عن المشاركة في الحياة السياسية... وفرض ضرائب ثقيلة على المواطنين وحرمانهم من حرية الرأي والتعبير والتمثيل الحرّ غير المقيد"⁽¹⁾.

فهذا النظام المستبد كغيره من الأنظمة المسيطرة "لا تريد أن ترى الأفراد في موقع "المواطن" قدر ما تبغي حشرة في خندق "الرعية"، بالطبع فهي لا ترى إلا نفسها ولا تسمع إلا صوتها ولا تقبل إلا ما يروق لها"⁽²⁾. والهدف من وراء ذلك هو تكريس الاستعمار وتمديد حال الاستبداد، من خلال تنشئة أجيال متلاحقة على مبدأ الخضوع والخنوع، فلا تجرؤ على المطالبة بحقوقها لتستسلم في خمول وسلبية، مُجسّدة ما يمكن تسميته بحالة "اللامواطنة"، مكتفية بالهامش وعدم الفاعلية.

هذا الوضع أثار سخط الطبقة المثقفة والمستنيرين من أبناء الجزائر، مدفوعين بالروح الوطنية وبغيرتهم على هذا البلد وخوفهم على مصيره ومصير أبنائه. فهتّوا أفراداً وجماعات وحركات إصلاحية كان من أهمّها "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس (1889-1940) والشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1889-1965) وغيرهما من أقطاب هذه الجمعية الذين تصدّوا للحملة الشرسة التي شنّها المستعمر الفرنسي ضدّ الجزائر وأبنائها. وقد وضعوا، من خلال مشروعهم الإصلاحي، نصب أعينهم مصير البلاد وما يتهدّد من أخطار، مدركين حجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم، ومحاولين الإجابة عن تساؤلات متشابكة ومؤرّقة، لمواجهة واقع مأزوم في ظلّ السياسة التعسفية للمستعمر.

عايش الإبراهيمي - كغيره من أبناء الجزائر - فترة قائمة من تاريخ الجزائر، حيث كانت تننّ تحت وطأة المستعمر الفرنسي، الذي أحكم قبضته على البلاد، وعمد إلى تجهيل الشعب الجزائري وتجريده من هويته بشتى الطرق، وحرمانه من حقوقه المدنية والسياسية... لذا لم يكن الوضع يسمح بطرح مفهوم المواطنة بأبعادها المعروفة في المجتمعات الغربية. فكيف يتم الحديث عن المواطنة والوطن مفقود وزمامه بيد المحتلّ؟

فكان لزاماً على رواد حركة الإصلاح، ومنهم الإبراهيمي، الدعوة أولاً إلى حب الأوطان والسعي لتحريرها، ثم العمل على بعثها من جديد وفق مشروع نهضوي متكامل يتلاءم مع كلّ مرحلة من المراحل التي تقطعها الجزائر في مسيرتها التطورية. فكانت الوطنية شعاراً يعكس إيماناً وخلقاً وسلوكاً، يجسد حبا وولاء للوطن ومشاركة فاعلة في تنميته وتطويره.

1- الوطنية والمواطنة:

قبل المضي في الحديث عن مشروع الشيخ الإبراهيمي في بناء الوعي وتجسيد المواطنة ينبغي التفريق بين المصطلحين: (الوطنية) و (المواطنة) اللذين مازالا يثيران التساؤل والبحث والدراسة بسبب ما يتقاطعان فيه من مفاهيم وما يثيرانه من لبس.

فالوطنية: كما هو معروف هي المشاعر التي يعبرّ الإنسان من خلالها عن حبه لوطنه وتفاعله مع أحداثه وولائه له، مع الاعتزاز بقيمه وإرثه والفخر بإنجازاته. يمكن القول بأنّ "الوطنية: تُعرف باسم الفخر القومي كذلك، هي التعلّق العاطفي بأمة يعترف بها الفرد

وطنا له. والوطني هو من يحب بلاده ويدعم سلطتها ويصون مصالحها ... تتبع المشاعر الوطنية من حسن الارتباط والانتماء والتضامن والالتزام"⁽³⁾ وذلك ما يستدعي التضحية من أجل مصلحة الوطن.

أما المواطنة: فهي "اصطلاح يشير إلى الانتماء إلى أمة أو وطن ... وتسبغ المواطنة حقوقا وواجبات معينة على المواطنين"⁽⁴⁾ وتعبير آخر فالمواطنة هي "القيم والمعايير الحقوقية والقانونية التي تمكن الإنسان من التفاعل مع مجتمعه بصورة إيجابية، عبر مشاركته في إدارة شؤونه في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية"⁽⁵⁾.

يمكن إيجاز الفروق بين المصطلحين فيما يلي: "الوطنية شعور والمواطنة ممارسة. والوطنية حب ووفاء بينما المواطنة قبول برضى أو تبرم. والوطنية حرارة وانفعال وجداني، أما المواطنة فهي سلوك وتصرفات. والوطنية أداء يحدث في المناسبات العامة ... أما المواطنة فهي الأداء الفردي للواجبات اليومية. والوطنية ارتباط عاطفي بالأرض والمجتمع، بينما المواطنة ارتباط عملي. والوطنية حسن قلبي ضميري داخلي، أما المواطنة فهي سلوك فعلي ظاهري، والوطنية لا تعدد فيها ولا تبدل، أما المواطنة فهي تكيف ومرونة"⁽⁶⁾. ففي هذه الجزئيات تكمن الفروق الجوهرية بين الوطنية والمواطنة.

2- الوطنية تكريس لقيم الانتماء:

هدف أقطاب الجمعية إلى الدفاع عن المواطنين الجزائريين واستعادة حقوقهم، وقد تحمّلوا في سبيل ذلك مشقة كبيرة. وقد كانت الخطوة الأولى في مسيرتهم غرس حب الوطن في نفوس أبناء الجزائر والاعتزاز بالانتماء إليه، من خلال التأكيد على عمق الروابط والأواصر التي تجمع بينهم أولا ثم السعي لبث الوعي ومحاربة الآفات الاجتماعية من جهل وتخلف.

لقد أدرك الإبراهيمي ببصيرته النافذة أنّ الإصلاح لا يمكن أن يُؤتي ثماره دون تلازم شقّيه الأساسيين: الديني والاجتماعي، وأنّ الإصلاح الديني لا يتمّ إلا بالإصلاح الاجتماعي ويرى أنّ "المسلم لا يكون مسلما حقيقيا مستقيما في دينه على الطريقة حتى تستقيم اجتماعيته، فيحسن إدراكه للأشياء وفهمه لمعنى الحياة وتقديره لوظيفته فيها وعلمه بحظّه منها، وينضج عقله وتفكيره ويلمّ بزمانه وأهل زمانه، ويتقاضى من أفراد المجموعة البشرية ما

يتفاضونه من حقوق وواجبات، ويرى لنفسه من العزة والقوة ما يروونه لأنفسهم، وترتبط بينه وبينهم رابطة الأخوة والمساواة والمصلحة لا رابطة السيادة عليه والاستئثار دونه"⁽⁷⁾.

ويمكننا القول بأنّ مساعي الشيخ الإبراهيمي قد نجحت إلى حدّ بعيد في تجسيد هذه المعاني على أرض الواقع وتوجيه الأمة وتهيئتها لتستعيد بعضا من حقوقها المغتصبة.

3- الأمة والمواطنة:

ينطلق الإبراهيمي في مشروعه الإصلاحية النهضوي من المبادئ التي تبنتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من منطلق كونه نائبا لرئيس الجمعية ثم رئيسا لها بعد وفاة الشيخ ابن باديس، وعن دورها يقول: "إنّ جمعية العلماء تبنى المقومات التي لا تكون الأمة إلا بها، ولا تكون وحدة متماسكة الأجزاء إلا بالمحافظة عليها، فواجب كلّ سياسي مخلص أن يُعِينها على ذلك ويُنشِطها ويعرف لها أعمالها، لا أن يخذلها ويثبطها ويبسط لسانه بالسوء فيها"⁽⁸⁾. وتتمحور هذه الثوابت حول ركائز شتى أهمها: الإسلام واللغة العربية.

يؤكد العلامة على الدور الأساسي للدين الإسلامي في إنارة الدرب وتوحيد الصفوف يقول: "إنّ الإسلام في الجزائر ثابت ثبوت الرواسي، متين القواعد والأواسي، قد جلا الإصلاح حقائقه فكان له منه كفيل مؤتمن، واستنارت بصائر المصلحين بنوره فكان له منهم حارس يقظ، وعاد كتابه "القرآن" إلى منزلته في الإمامة فكان له منه الحمى الذي لا يطرق، والسياس الذي لا يخرق"⁽⁹⁾. فهذا الحارس اليقظ هو الذي يقي المسلمين من الزلزل والانحراف ويثبت عقيدتهم في مواجهة الخطر الخارجي، والإبراهيمي في حثّه على التشبّث بالإسلام لا يدعو إلى التفوق والانزواء بل يدعو إلى الانفتاح والحرية من خلال "تأسيس حداثة إسلامية لها مظاهرها الخلاقة وآثارها في الواقع، من خلال تطبيق مبادئه الصحيحة من أجل تحقيق الحرية الفكرية للأمة الجزائرية بتحرير الإنسان قولا وعملا من التبعية الغربية بحيث يقتدر المثقف الجزائري على إنشاء منظومته المعرفية وابتكار آلياته ومفاهيمه بنفسه وإيجاد الجواب الجزائري المحض لمشاكله بما يجعله حاضرا حضورا حضاريا، وبممارسة اختلافه الفكري بما يُعني الحضارة العربية والإنسانية ويُسهّم في كمالها"⁽¹⁰⁾.

أما عن اللغة العربية فقد بيّن الإمام مكانتها في الجزائر قائلاً: "اللغة هي المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى"⁽¹¹⁾. فضياع اللغة العربية ضياع للأمة الجزائرية وهويتها فللغة العربية قدسية لكونها لغة القرآن الكريم وفي الحفاظ عليها ضمان لبقاء الإسلام، لذلك فهي تتغلغل في عمق المجتمع الجزائري وفي تكوينه مساهمة في خلق أواصر الترابط بين أفرادها. ولهذا الأسباب فاللغة العربية "تتصل بعدة ميادين ثقافية هي من أكثر الميادين خطراً وشأناً: ففيها الخصوصية القومية والوحدة السياسية والتراث والاستمرارية الثقافية، وحيوية الفكر العلمي والإبداع الأدبي، ولما كانت العربية هي بالإضافة إلى ذلك كله وقبل ذلك كله لسان القرآن المبين فهي أيضاً متّصلة بالمعتقد الديني"⁽¹²⁾.

إضافة إلى هذا فإنّ "للغة دخلا في توجيه الفكر وتصويب رؤيته للوجود، مؤكّدا على حقيقة مفادها أنّ الفكر متى كان مقطوع الصلة بالبنية اللغوية فإنّه سيظل عقيما وتابعا"⁽¹³⁾. وهذا ما حدا بالإبراهيمي إلى الدعوة إلى "فكر عربي إسلامي" تساهم اللغة العربية في بناء مضامينه، باعتبارها أداة جوهرية في إنتاج الفكر في حدّ ذاته وليست أداة حيادية لمجرد التبليغ والتواصل، فتكون بذلك طرفا أساسيا وفاعلا في إنتاج وعي جديد.

لقد استطاع الإبراهيمي أن يدرك ببصيرته الثاقبة وفكره الوقّاد تلك العلاقة الوطيدة بين الأمة والمواطنة، وهذا ليس بالأمر الغريب إذ "هناك صلة تاريخية بين المواطنة والأمة ففي إطار الأمة تكوّنت الشرعية والممارسات الديمقراطية في جميع حركات الاستقلال في أوروبا وأمريكا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفي القارتين الإفريقية والآسيوية في القرن العشرين اقتزنت المطالبة بالاستقلال الوطني بتأكيد المواطنة ولم تنفصل عنها. باسم قيم المواطنة ثارت الشعوب المستعمرة على هيمنة المستعمرين الأوروبيين"⁽¹⁴⁾.

فالمواطنة هي السبيل الأمثل لتحقيق الهدف الأعظم، وهو استقلال الجزائر وتحرير شعبها، وفرز هويته المستقلة عن بقية الهويات الاستيطانية. لقد كان من أهم القضايا النظرية التي واجهت البشير الإبراهيمي وغيره من المصلحين، هي وضع "مشروع مجتمع" ثم السعي إلى تطبيقه بشتى الطرق والوسائل الناجعة، وكانت نقطة البداية هي تحديد هوية المجتمع الجزائري، وما يربط أفرادها من وشائج وقيم أصيلة.

بجاهر العلامة الإبراهيمي بأرائه بكلّ جرأة، إذ يطالب بحقوق المواطنين، من خلال ما نشره في الجرائد أو ما أعلنه داخل الوطن أو خارجه فيؤكد "أنّ المطالب الجزائرية تنقسم إلى قسمين: قسم لا يختلف فيه نظر ولا يتشعب فيه رأي، لأنه عبارة عن مظالم صريحة وأوضاع شاذة كانت تُعامل بها الجزائر بصورة استثنائية، كحرية القول والفكر والكتابة والاجتماع والتنقل والتعليم العربي والمساجد... وقسم يحتاج إلى تأمل ودقة نظر، وهي الحقوق السياسية، وأشدّ مسائل هذا القسم تعقيدا مسألة النيابة في البرلمان"⁽¹⁵⁾.

لقد شدّد العلامة على ضرورة استرجاع الحقوق المدنية، وطالب بالعدالة والمساواة بين المواطنين الجزائريين - وهم أصحاب الحق الشرعي - وبين الوافدين المعمرين. ورغم حرصه على الحقوق المدنية إلا أنّه لم يغفل عن الحقوق السياسية أيضا ومن أهمها حق النيابة بالبرلمان، والذي من شأنه أن يساهم في استعادة بعض من حقوق المواطنين المسلوقة.

وفي سبيل ذلك فقد سعى إلى ترسيخ بعض المفاهيم الأساسية في عقول أبناء الجزائر مثل الحرية، العدل، المساواة، الحقوق والواجبات.. وغيرها من المفاهيم التي تصبّ جميعا في مفهوم واحد هو (المواطنة). تلك المنظومة من القيم والتمثلات والسلوكات، التي من شأنها أن تساهم في خلق أفراد واعين ومجتمع متماسك، باعتبارها الإطار المرجعي لممارسة الحقوق والواجبات، وكذا العلاقات بين الأفراد والجماعات والدولة.

هذه المواطنة التي لا يمكن قراءتها وفهمها بمعزل عن الظروف التي عايشها المواطن الجزائري، بمختلف أبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية، وهي من جملة التحديات المتصلة بموضوع المواطنة مفهوما وإجراء وكيفية اكتسابها والتربية عليها وكذا تنميتها لدى الأفراد تجاه وطنهم. ثم لا يكفي بذلك بل يجعل من المواطنة أفقا للفكر التحرري، بدعوته إلى تحرير العقول الجامدة، مخاطبا العقل والروح معا، بغية تحرير المجتمع من القيم والأفكار البالية والانطلاق نحو التطور والرفي واستعادة الهوية المطموسة، متجها نحو الوجهة المأمولة وهي الحرية والاستقلال.

لقد عمل الإبراهيمي بجدّ من أجل انتشار الشعب الجزائري من برائن الجهل والتخلف ومن مختلف الآفات المدمّرة التي تكرّس سياسة المستعمر وتشجع على السلبية والهامشية

وهي مسألة بالغة الأهمية تحتاج إلى فكر متميز ومنهج واضح وكثير من الصبر والأناة وذلك ما اجتمع في شخصية الإبراهيمي الفذة.

4- التربية والتعليم:

إنّ المسؤولية الكبيرة التي حملها الشيخ الإبراهيمي تجاه أبناء وطنه ومشروعه الحضاري - في محاولته تشكيل شخصية المواطن وفق نمط جديد من التفكير في قضايا مجتمعه ووطنه - جعلته يركّز على التربية والتعليم، لما لهما من دور في ترسيخ مفهوم المواطنة في فكر ووجدان الناشئة والشباب، وعن أهمية التعليم يقول: "إنّ التعليم عند الأمم التي عرفت الحياة معدودة في المقومات التي هي رأس مال الوطن"⁽¹⁶⁾. ولذا ينبغي استغلال رأس المال بصورة واعية وعقلانية حتى يُؤتي ثماره.

لقد حمل العلامة الأمانة بعد موت الشيخ ابن باديس وقد "كان الإمام البشير لا يكتفي بالحث على إنشاء المدارس ودور العلم، بل كان يحرص كل الحرص على أن تنجح هذه المدارس في أداء رسالتها، لذلك كان يعقد الاجتماعات والندوات بين آونة وأخرى تارة للمعلمين، وتارة أخرى لتلاميذ هذه المدارس"⁽¹⁷⁾.

وقد كانت المدارس العربية التي أنشأها الجمعية، تهدف إلى تعليم النشء وتربيته على قيم جديدة أكثر فاعلية. يؤكد الإبراهيمي بأنّ "غاية التعليم هي تفقيهه في دينه ولغته وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه، تلك الأصول التي جهلها آباؤه فشقوا بجهلها، وأصبحوا غرباء في العالم، مقطوعين عنه، لم يعرفوا أنفسهم فلم يعرفهم أحد"⁽¹⁸⁾.

أمّا عن التربية فيؤكد أنّ "غاية الغايات من التربية هي توحيد النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه المضطربة، وتصحيح نظراته إلى الحياة، ونقله من ذلك المضطرب الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه، إلى مُضطرب أوسع منه دائرة، وأرحب أفقا، وأصحّ أساسا"⁽¹⁹⁾.

فلا عجب بعد هذه الجهود المضيئة أن يكون الجيل الذي أسهمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعلى رأسها البشير الإبراهيمي، في تنشئته وإعداده هو الجيل الذي

حمل لواء الجهاد وإعلان الثورة على المحتل الغاصب، فبمثل هذا الجيل من الشباب انتفض الدم وتجدد في العروق اليابسة لهذا الوطن العليل.

مما سبق ندرك كيف اتخذ الإبراهيمي من المواطنة المدنية مطية للوصول إلى بغيته والمتمثلة في المطالبة بالحقوق السياسية، ومن ضمنها التحرر والاستقلال، بحيث تصبح "المواطنة بنيانا بشريا ودوامها رهين إرادة الناس في تجديد المشروع السياسي الذي من خلاله يكوّنون مجتمعا تبدو متطلباته لهم شرعية. تتغيّر إذن الأشكال والمحتويات غير أنّ المواطنة باقية بالضرورة مع تقدّم الحياة الاجتماعية"⁽²⁰⁾.

لذا نجد الإبراهيمي كثيرا ما يفضح الممارسات السياسية للمستعمر وحتى الحكومة المحتملة، يقول في إحدى كتاباته: "إنّ أعلى معاني السياسة عند الحاكمين هو تدبير الممالك بالقانون والنظام، وحياطة الشعوب بالإنصاف والإحسان، فإذا نزلوا بها صارت إلى معنى التحيل على الضعيف ليؤكل، وقتل مقوماته ليُهضم، والكيد للمستيقظ حتى ينام، والهدهدة للنائم حتى لا يستيقظ. وهذا المعنى الأخير هو الذي جرى عليه الاستعمار، ووضعه في قواميسه، وأقرّه في موضعه من نفوس رجاله ودُعائه"⁽²¹⁾. وفي القول مقارنة بين ما ينبغي أن تكون عليه السياسة الراشدة والديمقراطية، وبين ما هو كائن من الممارسات التعسفية واحتمال على الشعب الجزائري الضعيف المستكين.

II. من مقومات المواطنة الفاعلة:

1- الحرية: إنّ الإقرار بالمواطنة يستلزم توفر شرط أساسي، يتمثل في حق المواطن في الحياة والحرية الاجتماعية والسياسية التي يمثّلها القانون، وتعد من أهم القيم التي تسعى المواطنة إلى تكريسها. وقد كانت هذه من بين الركائز الأساسية التي شكلت جوهر المشروع الإصلاحية والنهضوي للبشير الإبراهيمي، الذي نراه يؤكد على غياب هذا المقوم من قاموس المستعمر يقول: "يقول الاستعمار - وقوله الباطل - لا حق للأمة الجزائرية في الحياة، وما قالها إلا بعد أن فعلها ... جرّدا من سلاح الحماية، فلا قانون، يحميها ولا نيابة تنطق باسمها، ولا صحافة تدافع عنها، ولا حاكم منها يعطف عليها، فمن الذي يحمي عرضها من التلب ويحمي مالها من السلب، ويحمي دينها من القلب، ويحمي جسمها من الضرب، لا شيء ... لا شيء ... ولا بعض الشيء"⁽²²⁾.

2- المساواة: يقضي مبدأ المواطنة نبذ التفرقة والتمييز بين المواطنين، على أساس الجنس أو العرق أو الفوارق الاجتماعية والسياسية وغيرها من الأشكال السلبية التي تعمل على التفرقة والتشظي، ومن قيم المواطنة السعي لتثبيت دعائم اللحمة والشعور بالانتماء، بتبني قيم المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات. يشير الإبراهيمي في لهجة ساحرة إلى هذا الملمح والمؤثر الهام من مؤشرات المواطنة قائلا: "وتعال إلى القوانين الجنائية - وهي مظهر المساواة فيما يزعم الاستعمار- تجذ الألفاظ واحدة، والتطبيقات مختلفة: يجني الجانيان منّا ومنهم جناية متماثلة الكم والكيف والظروف والشهادات والقرائن، فيصطرع القانون المكتوب في الطروس، والقانون المكتوب في النفوس، ويتضاءل الأول أمام جانبيهم حتى ليكاد يعتذر إليه، فتصبح جنايته بالتأويل ليست جناية فلا جزاء عليها، وتسمي جنايتنا بالتحويل جنايتين ونصفا، فالجزاء عليها ضعفا وضعفا"⁽²³⁾.

3- التضامن: سواء ما كان بين الأفراد، أو بين الدولة والمواطنين. وهذا التشارك والتضامن يخلق نوعا من التلاحم بين المواطنين، وذلك من شأنه أن يقي المجتمع من مخاطر الانقسام والتفكك. يدعو الإبراهيمي إلى ضرورة التأزر قائلا: "فجمعية العلماء والأمة شريكتان متضامتان في احتضان هذه الحركة، والقيام عليها، والعمل على نمائها، حتى تتشقق عن نخضة شاملة تفرغ النهضات رسوخا وتمكنا، ولا يشترك اثنان في عمل إلا كان العمل بينهما كالطائر، لا ينهض إلا بهما، ولا يقصر أحدهما إلا كان الجناح الذي يمثله مهيبا. فالواجب على الشريكين أن يقوم كل واحد منهما بقسطه على أكمل وجه، وإلا باء بجرمتين: الإساءة إلى العمل في صميمه، والإساءة إلى الشريك العامل بالفت في عضده"⁽²⁴⁾.

4- الانتماء: يعدّ من أهم المفاهيم التي تبنى عليها المواطنة، إذ يشير إلى نوع من الروابط والعلاقات المتينة التي تربط الفرد بجماعته وبوطنه، وهي تجسّد نوعا من الوعي المواطني. والإبراهيمي في كتاباته يستنهض الهمم ويحث المواطنين على ضرورة تقوية الإحساس بالانتماء لأنها السبيل إلى حب الوطن والاعتزاز به والعمل على رقيه. يتساءل مستنكرا: "وهل الجزائر فرنسية?... لا يا قوم لا. إنّ الله خلقها عربية مسلمة، وستبقى عربية مسلمة إلى ما شاء الله، وإنّ الوراثة وسمتها بسمات خالدة، وصفات ثابتة، لا تفارقها حتى يفارق الشمس إشرافها"⁽²⁵⁾.

وختاماً يمكن القول بأنّ مشروع المواطنة لدى الإبراهيمي قد تقاطع مع العمل الإصلاحي في جوانبه المختلفة: الديني والاجتماعي والسياسي، وقد بذل فيه العلامة محمد البشير الإبراهيمي، مع زميله في الكفاح الشيخ عبد الحميد بن باديس وبقية أعضاء الجمعية، مجهودات جبارة من أجل إرساء قواعد وبناء أرضية صلبة تثبت خطى الناشئة والشباب. مُتدرّجاً في مشروعه بدءاً بإنشاء المدارس والتركيز على العملية التعليمية الصحيحة، مع بثّ الوعي الديني والسياسي والاجتماعي، وإنارة درب المواطن الجزائري، ثم الأخذ بيده وحثّه على المطالبة بحقوقه ومطالبته بتأدية واجباته نحو وطنه وأبناء وطنه، مع التمسك بالثوابت والقيم التي تحفظ له وجوده وتحقق له هويته، في مواجهة خطر المستعمر الفرنسي. وقد وُفق الإبراهيمي أيما توفيق في مسعاه بفضح سلوكات المستعمر دونما خوف ولا وجل وتنشئة جيل من الشباب مقدام خاض معترك الحياة بكلّ ثبات وعزم.

الهوامش والإحالات

- (1) - سعيد بوشعير، النظام السياسي الجزائري، دار الهدى، الجزائر، ط 2، 1993، ص 09.
- (2) - سامح فوزي، المواطنة، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة، ط 1، 2007، ص 66-67.
- (3) - شوقي ناجي جواد، الوطنية، الحوار المتمدن، ع 5379، 2016/12/22: <https://m.ahewar.org>
- (4) - الموسوعة العربية العالمية، مج 24، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض، ط 2، 1999، ص 320.
- (5) - أحمد عبد الملك، ما بين المواطنة والوطنية، مجلة الشرق، ع 10898 / 18 أبريل 2018 <https://m.al-sharq.com>
- (6) - شوقي ناجي جواد، الوطنية.
- (7) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997، ص 283.
- (8) - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997، ص 64 - 65.
- (9) - المصدر نفسه، ص 82.
- (10) - علي خذري، أسئلة النهضة في فكر البشير الإبراهيمي، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية جامعة برج بوعرييج، ع 2، مارس 2020، ص 100.
- (11) - آثار الإبراهيمي، ج 1، ص 134.

- (12) - عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، بيروت ط1، تموز/ يوليو 2014، ص 71.
- (13) - علي خذري، أسئلة النهضة في فكر البشير الإبراهيمي، ص 101.
- (14) - دومينيك شنابر، كريستيان باشوليه، ما المواطنة؟، تر: سونيا محمود نجا، المركز القومي للترجمة ع2618، ط1، 2016، ص 283.
- (15) - آثار الإبراهيمي، ج 1، ص 232.
- (16) - آثار الإبراهيمي، ج 2، ص 237.
- (17) - عادل نويهض، البشير الإبراهيمي عظيم من الجزائر، دار الأبحاث، الجزائر، دط، دت، ص 70-71
- (18) - عيون البصائر، ص 275
- (19) - المصدر نفسه، ص 275
- (20) - دومينيك شنابر ... المواطنة؟، ص 369
- (21) - عيون البصائر، ص 60
- (22) - المصدر نفسه، ص 368
- (23) - المصدر نفسه، ص 363 - 364
- (24) - المصدر نفسه، ص 312 - 313
- (25) - المصدر نفسه، ص 348

المثقف ودوره في تعميق الفهم الواعي بالمواطنة عند البشير الإبراهيمي

The Cultured and its Role in Deepening the Awareness Understanding of Citizenship for "Al-Bashir Al-Ibrahimi"

د. فريدة مقلاتي

جامعة عباس لغرور - خنشلة (الجزائر)

meguellati.farida@univ-khenchela.dz

تاريخ القبول: 2021/09/26

تاريخ الإرسال: 2021/09/18

ملخص:

إنّ المثقف فرد ينتمي إلى وطنه وجماعته، وهذا المثقف لابدّ أن يعي واجبه نحو الوطن والمواطن باعتباره شخصا يملك ميكانيزمات المعرفة التي تؤهله إلى إصلاح مجتمعه وتوجيهه الوجهة الصحيحة؛ أي يعمل على نبذ كلّ انتماء قبلي، أو أيديولوجي، وكلّ ما من شأنه أن يشكل خطرا على جغرافية وطنه، وهذا يعني أنّه مطالب بتشكيل وعي الانتماء إلى الوطن، وتنظيف العقول، والأفكار من التخاريف، وهذا ما يعكس فعل المواطنة لدى المثقف، وقد تجلّى ذلك في فكر البشير الإبراهيمي من خلال أعماله منها مقالته الموسومة بـ"واجب المثقفين نحو الأمة"؛ إذ حدّد فيها واجبه نحو الوطن والأمة، وذلك من خلال مشاركتهم في بناء وطنهم، والدفاع عنه، وتوعية مجتمعهم، والذوبان فيه، والعمل على غرس القيم الإيجابية من أجل تكوين مواطن صالح يشعر بالحب والانتماء إلى وطنه.

الكلمات المفتاحية: المثقف، المواطنة، الوعي، الفهم، البشير الإبراهيمي.

Abstract:

Any cultured person belongs to his community and he is expected to be aware of his duty towards his homeland and possesses the mechanisms of knowledge that qualify him to reform his society and redirect it towards righteous path and puts away any subjective or ideological affinity that might endanger the geography of his country. Hence he is required to shape the minds and make them neet from all those myths and this is the core act of a cultivated person. As such was El Ibrahimi in his thoughts through his essay” The Duty of the

Cultivated towards his Nation", where he relates the duty of these people towards their country and their nation and how they participate, defend and awake the fellows and protect them from integration rooting the positive values that forge a citizen proud of loving and belonging to his country.

Keywords: cultured, Citizenship, Awareness, Al-Bashir Al-Ibrahimi.

مقدمة:

المثقفون حسب قول "برهان غليون" هم «تلك المجموعة من الناس التي تتميز عن غيرها بأنها تجعل من التفكير في الواقع والمصلحة العامة عموماً أحد همومها الرئيسية وتشارك في الصراع الاجتماعي والسياسي من أجل دفع هذا الواقع حسب الرؤى التي تراها مشاركة وقد تتخذ أشكالاً مختلفة سياسية وفكرية»⁽¹⁾، وهذا يعني أن المثقف تربطه بمجتمعه، ووطنه علاقة قوية كما أنه يملك حرية، ولكن مع مسؤولية؛ إذ من واجبه الاهتمام بمجتمعه من كل الجوانب الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية والبيئية باعتباره عضواً في المجتمع، وهذه العضوية «تتطلب المشاركة القائمة على الفهم الواعي والتفاهم وقبول الحريات والمسؤوليات»⁽²⁾، وهذا ما يجسد المواطنة؛ لأنّ المثقف عضو في المجتمع، وله علاقة بالدولة التي يعيش فيها، والتي تضمن له حقوقه، وفي المقابل عليه واجبات نحوها منها المشاركة في بناء المجتمع، وبخاصة أنّ المواطنة «تشير إلى علاقة الفرد بالدولة التي يعيش في كنفها، ويكون لها ولاءً عملياً، وولاءً وجدانياً مقابل ضمان الدولة لعدم المساس بكرامته الإنسانية، وصيانتها لحقوقه الأساسية ... أما ولاء الفرد للدولة فيعبر عن نفسه عن طريق تأدية الفرد لواجباته من خلال مشاركته في بناء المجتمع...»⁽³⁾.

وبذلك فمواطنة المثقف تتجسد من خلال مشاركته في بناء وطنه، والدفاع عنه وتوعية مجتمعه وهذا يخلق نوعاً من التوحد والذوبان في أمته، وبيئته، وبذلك فهو عضو فاعل بإمكانه أن يسهم في غرس القيم في نفوس أفراد مجتمعه من أجل تكوين مواطن صالح يشعر بالحب والانتماء إلى الوطن وعليه فمن هو المثقف عند الإبراهيمي؟ وما طبيعة العلاقة التي تربط الفرد المثقف بأمته؟ وكيف يؤدي المثقف واجبه نحو وطنه، وأمته بصفته عضواً فعالاً في مجتمعه؟ وكيف يسهم في توجيه المواطن وتربيته على المواطنة من خلال الحديث عن الوطن والمجتمع...؟

1- المثقف عند البشير الإبراهيمي:

حدد محمد البشير الإبراهيمي مفهوم المثقف بقوله: «المثقف هو الرجل المهذب المستنير الفكر الجوهري العقل المستقل الفكر في الحكم على الأشياء، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على أسس التخريف، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه، الملم بجانب من معرف عصره»⁽⁴⁾ فهذا الحد الذي قدمه "الإبراهيمي" للمثقف يعكس جوهره الحقيقي الذي من شأنه أن يسهم في حفظ توازن الأمة من خلال تنمية الإحساس بالانتماء للوطن والاعتزاز به، وحمائته، والحث على التعاون بين أفرادها، والمحافظة على مكتسباته المختلفة.

كما تطرق الإبراهيمي إلى حقيقة الثقافة التي لا بد أن يكتسبها الفرد والتي من شأنها أن تحقق النهضة الفكرية، فالثقافة عنده قد تتسع بوفرة الحظ من الأخلاق، وكثرة المعلومات، وقد تضيق بقلتهما⁽⁵⁾، ويبقى أساس الثقافة عنده هو «حسن التربية وصحة الإدراك والتقدير للأشياء، وسلامة التفكير والاستنتاج العقلي واستقامة السلوك في معاملة الناس، ويرمي كذلك إلى اعتبار الأخلاق الفاضلة قبل كثرة المعلومات...»⁽⁶⁾، فهذا يعكس الجانب الذاتي الذي يسهم في إضفاء صفة المثقف على الفرد، فكثرة المعلومات وحدها لا تكفي، بل لا بد لها من حسن التربية، صحة الإدراك، سلامة التفكير، والاستقامة في السلوك كل هذا من شأنه أن يسهم في تقاسم إسهامات معتبرة في بناء المجتمع وتوجيه أفرادها توجيهها صحيحا، وذلك من خلال التركيز على الجانبين: الوطني، والمدني.

2- دور المثقف في تعميق مفهوم المواطنة:

إنّ المثقفين حسب تصور "الإبراهيمي" هم خيار الأمة وسادتها، وقادتها، وحراس عزمها ومجدها، فمن واجب الأمة تقديرهم، ومن واجب المثقفين القيادة والتدبير⁽⁷⁾، معنى هذا أنّ المثقف من شأنه أن يقود المجتمع، فهذا الأخير يحتاجه حسب قول "الإبراهيمي" في أيام الأمن وفي أيام الخوف؛ إذ «تحتاج إليهم في أيام الأمن لينهجوا لها سبيل السعادة في الحياة ويغذونها من علمهم وآرائهم بما يحملها على الاستقامة والاعتدال، وتحتاج إليهم في أيام الخوف ليحلوا لها المشكلات المعقدة ويخرجونها من المضائق محفوظة الشرف والمصلحة»⁽⁸⁾.

فمن خلال هذا النص نستشف دور المثقف في تعميق وعي وفهم الفرد بالمواطنة وذلك بتبيان النهج الصحيح للممارسة الفردية في وطنه، فالمواطنون لهم حقوق ومسؤوليات والمثقف وحده يمكن أن يقود الفرد ويساعده على اكتساب مهارات المشاركة الوطنية، من خلال تقديم توضيحات حول مكونات هويته، وبخاصة أنها ملازمة للمواطنة، وتبيان مدى أهميتها وخصوصيتها في حياته، ويوضح أيضا بعض القضايا السياسية، ويُمكن المواطن من المشاركة في أمور وقضايا تهم الأمة، وبذلك فهو يشارك مواطنه في الأمن والخوف.

كما أن زيادة عدد المثقفين عند "الإبراهيمي" أمر لابد منه، ولكن هذه الزيادة حسب تصوره تتوقف على وعي الأمة بأهمية التثقيف؛ إذ يقول: «...ولا نطمح في زيادة عدد المثقفين إلا إذا زاد شعور الأمة بضرورة التثقف وهما أسباب أكثر مما هي متهينة... ولا نطمح في زيادة الكيفية إلا إذا توحدت طرائق التثقيف وجرت على ما يوافق روح الأمة في دينها وعقائدها الصحيحة وتاريخها، ولغتها، وجميع مقوماتها...»⁽⁹⁾. ونعائين من هذا التصريح أنّ المثقف المتشعب بالجانب الروحي الصحيح للأمة، ويؤمن بجميع مقوماتها هو الذي يقود الأمة، ويعمل على تنمية شعور الولاء لدى الفرد نحو وطنه، والانتماء لمجتمعه وهذا يعكس دور المثقف في بناء وطنه.

وأشار الإبراهيمي أيضا إلى اختلاف الثقافة في المجتمع الواحد، فالمجتمع الجزائري في تلك الحقبة عرف ثقافتين مختلفتين؛ إذ يقول: «...إنّ عندنا ثقافتين مختلفتين تتجاذبان الأمة من أمام ومن خلف، إحداهما ثقافة إسلامية أساسها دين الأمة وقوامها اللسان العربي تقوم بها طائفة، والثانية ثقافة أوروبوية أساسها اطراح الأديان وقوامها اللسان الفرنسي... وبين الثقافتين تفاوت... وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الإسلامية جهل مطبق بأحوال العصر ولوازمه، وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الأوروبية جهل فاضح بحقائق الإسلام وأخلاقه وآدابه، وتاريخ الأمة وهو مصباحها المضيء ولبسانها وهو ترجمانها الصادق...»⁽¹⁰⁾.

وبذلك فالاختلاف الثقافي والذي يصاحبه جهل بطبيعة العصر وحاجة الأمة وحقائق هوية الأمة وأخلاقها وآدابها يقود الوطن إلى مفاسد كبيرة، وبذلك «تنقلب الحقيقة ويصير المثقفون بلاء على الأمة ويصرون داءها بعد أن كانوا دواءها، وأعداءها بعد أن

كانوا أولياءها، ولا مخرج لنا من هذا إلا بالجمع بين الثقافتين في معين واحد»⁽¹¹⁾، وبما أنّ المثقف بإمكانه تعليم الفرد أساليب المواطنة فإن الاختلاف بين ثقافتين في مجتمع واحد وجهل كلا الفريقين لخصوصية الأمة والوطن يؤدي إلى مفسدة عظيمة في الوطن والمجتمع وبخاصة إذا كانت الدولة بحاجة للقلم لمحاربة التخاريف المنتشرة في المجتمع، فتحصيل النجاح في هذه الحالة لا يكون إلا بالمثقف العارف بأحوال الوطن والأمة، الجامع بين الدين والحضارة والأشد وعيا بمتطلبات الواقع.

وهذا ما أقرّ به "إدوارد سعيد" إذ يرى أنّ المثقف لا بدّ أن يربط مصيره بمصير أمة ويعمل على إيصال الخير والنفع إليها، وليس إلى أي طبقة سياسية، أو حزب...؛ ويتضح ذلك من قوله: «لا يمكن اختزال صورته بحيث تصبح صورة مهني مجهول الهوية؛ أي مجرد فرد كفاء ينتمي إلى طبقة ما يمارس عمله وحسب... [بل] مهمته أن يطرح علنا للمناقشة أسئلة محرّجة ويجابه المعتقد التقليدي، والتصلب العقائدي بدلا من أن ينتجها»⁽¹²⁾ وبذلك فالمثقف عليه أن يواجه كل المفاصد ويعمل على حماية مجتمعه، ويجسد الوعي بالمواطنة في المجتمع عن طريق تعليم أساليبها لأفراد أتمته.

كما أنّ أفكار المثقف لا بدّ أن تجذ عقولا نيرة لتفهمها؛ لأنها إذا اصطدمت بعقول جامدة فإنها تتعرض للتشويه، وتؤدي إلى فقدان الثقة في هذه الطبقة الفاعلة في المجتمع؛ إذ يقول الإبراهيمي: «...إذا كان أمر الدين في الأمة موكولا إلى طائفة من الفقهاء الجامدين لا يفهمون من حقائق الدين ولا من أسرارها شيئا ولا يعلمون من لغته إلا قشورا، فكانوا يسيئون الظن بالمثقفين ثقافة أوروبية ويحكمون عليهم بالخروج من الدين ويشوهون سمعتهم عند الأمة. يتولد من ذلك في نفوس جمهور الأمة نفور مستحكم منهم وسوء ظن بأعمالهم وذهب خيرهم في شرهم وحقهم في باطلهم، فلا يرضون على أعمالهم ولو كانت صالحة لقيام التهمة، ولا يثقون بأقوالهم ولو كانت سديدة لعروض الشبهة...»⁽¹³⁾.

ولكن هؤلاء المتصلبين حسب "الإبراهيمي" الذين لا يحسنون الفهم، لا بد لهم من ند آخر من المثقفين ثقافة عالية عارفين بمقتضيات الحياة في كلّ عصر باستطاعتهم تطبيق الدين مع الحضارة وعارفين بأقدار الرجال وقيم معارفهم، ومطلعين على أسباب التقدم

والانحطاط، ومشاركين في معارف العصر، فوحدهم القادرين على طمس وتنحية تلك النزعة البغيضة، وبعث شعور جديد لدى الأمة بقيمة المثقفين بالثقافة الأوروبية، فمن الواجب حسب تصوره الانتفاع من آرائهم والاستفادة من مواهبهم⁽¹⁴⁾. فالاحتكاك بثقافة الآخر تمكن المثقف من تجديد التفكير والفكر، واستغلال كل ما هو جديد ونافع في سبيل بناء الوطن وتعليم وتوجيه المجتمع، وفتح المجال أمامه للبحث في جميع المجالات والاستفادة منها.

3- كيف يؤدي المثقفون واجبه نحو الأمة؟:

إنّ الثقافة في كثير من الأحيان تمثل «أداة للمقاومة في مواجهة محاولات الطمس والإزالة والإقصاء. إنّ المقاومة شكل من أشكال الذاكرة في مقابل النسيان، وبهذا الفهم [تصبح] الثقافة... على قدر كبير من الأهمية»⁽¹⁵⁾. وبذلك تبقى الثقافة أداة لمقاومة كل محاولات الطمس والإزالة والإقصاء من طرف الآخر، لذا نجد "الإبراهيمي" في تلك الحقبة ركز على المثقف وواجبه نحو أمته، فهو أداة المقاومة للحفاظ على الهوية والذات فوحده القادر على تعميق الوعي بالمواطنة، وذلك لامتلاكه ميكانيزمات المعرفة، وهذا ما جعل الإبراهيمي يحدد واجباته -المثقف-؛ إذ يقول: «إنّ أول واجب على المثقفين إصلاح أنفسهم قبل كل شيء، كلّ واحد في حدّ ذاته، إذ لا يصلح غيره من لم يصلح نفسه، ثم إكمال نقائصهم العلمية واستكمال مؤهلاتهم التثقيفية حتى يصلحوا لتثقيف غيرهم، إذ ما كلّ مثقف يكون أهلاً لأن يثقف، وإذا كان المثقفون قبل اليوم في حالة إهمال فحالتهم إذا هيأوا أنفسهم لتأدية الواجب تستلزم اهتماماً آخر واستعداداً جديداً وثاني واجب إصلاح مجتمعهم كلّ طائفة مع كلّ طائفة بالتعارف أولاً وبالتقارب في الأفكار ثانياً، ومن طبيعة الاجتماع أنه يجذب الفضول واللغو، وبالتفاهم في إدراك الحياة وتصحيح وجوه النظر إليها ثالثاً...»⁽¹⁶⁾.

ونستشف من هذا النص مدى أهمية المثقف باعتباره أداة للمقاومة، والمواجهة، لذا فقد حدد "الإبراهيمي" واجباته منها إصلاح النفس، وإكمال النقائص العلمية، واستكمال المؤهلات التثقيفية، وحينما يقوم بهذه الواجبات نحو ذاته ينتقل بعد ذلك إلى إصلاح مجتمعه، وتحقيق التعارف والتقارب في الأفكار بين أطيافه المختلفة، ومحاولة تصحيح وجهات النظر المختلفة.

وبذلك قد ركز "الإبراهيمي" على علاقة المثقف بمجتمعه ووطنه، ليبين دوره الحقيقي من خلال هذه العلاقة، فالمثقف بإمكانه تعميق الوعي بالمواطنة من خلال المفاهيم والمعارف، وكلّ ما من شأنه أن يساهم في تنشئة الفرد تنشئة وطنية.

وإذا كان "الإبراهيمي" قد حدد نوعية المثقف التي يمكن أن تساهم في تعميق الوعي بالمواطنة، فإنه تحدث عن نوعية أخرى لا تدخل في عمل إلا وأفسدته، وبالتالي فهذا النوع يمكن أن يشكل خطرا على التربية الوطنية ويساهم في خلق فجوة كبيرة بين الفرد وأمه/وطنه؛ إذ يقول: «...أنا من جهتي لا أرضى بحال أن أحشر في زمرة المثقفين كلّ من يكتب بالعربية الصحيحة مقالة في جريدة، ولا كلّ من يستطيع أن يخطب في مجتمع، وهو مع ذلك عارٍ من الأخلاق، أو لا يحسن الضروريات من المعارف العصرية، وما أكثر هذا الصنف فينا، وهم يعدون في نظر الناس وفي نظر أنفسهم من المثقفين، وأنا أشهد الله أنّ هذا ظلم للثقافة ما بعده ظلم، كما أنه يوجد في قراء الفرنسية عدد كثير من حملة الشهادات يزعمون لأنفسهم، أو يزعم لهم الناس، أو يزعم لهم العرف الخاطئ أنهم من المثقفين، وهذا ظلم للثقافة لا أرضاه. وإنّ أمثال هؤلاء من الطرفين ما دخلوا في عمل إلا أفسدوه لنقص معلوماتهم أو فساد أخلاقهم وقصر أنظارهم وجهلهم بالتطبيق...»⁽¹⁷⁾.

يتضح من هذا النص أنّ "الإبراهيمي" لا يعترف إلا بالمثقف المتحرر من فكرة الإطّار، أمّا المثقف المنحرف العاري من الأخلاق، والفاقد لضروريات المعرفة العصرية، فيعد إدخاله حسب قوله إلى زمرة المثقفين ظلما للثقافة؛ لأنّ ضره أكثر من نفعه، وهذا يؤثر سلبا على التربية الوطنية، ويخلق فجوة كبيرة بين أفراد الأمة الواحدة، بسبب عدم قدرته على التحليل والتطبيق الصحيح.

كما أقر أنّ الشهادات ليست مقياسا لثقافة الفرد، ففي كثير من الأحيان هذا النمط من المثقفين لا يدخل في عمل إلا وأفسده لنقص معلوماته، أو فساد أخلاقه، وقصر نظره وجهله بكيفية التطبيق، فالمثقف لا بد أن يكون «عضوا عاقلا ومعينا في مجتمع ما يخوله إثارة قضايا أخلاقية حتى في صميم أكثر النشاطات تقنية واحترافية؛ لأنها تتعلق ببلاده وقوتها، وأسلوب تفاعلها مع مواطنيها، وأيضا مع مجتمعات أخرى»⁽¹⁸⁾، وبذلك فالمثقف

لا بد أن يكون واعيا بقضايا مجتمعه في مختلف المجالات قادرا على مناقشتها، وتعميق الوعي بتفهم كنهها للمواطن، وقيادته إلى المشاركة في كل ما يخدم مصلحة وطنه في جميع الجوانب (السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية،...).

وقد عمد "الإبراهيمي" إلى تحديد بعض الأسباب التي أسهمت في تحقيق هذا التفاوت بين المثقفين الجزائريين في تلك الحقبة، وقادت بعضهم إلى عدم المشاركة الفعالة في توجيه المواطن، وكشف بعض الدسائس المحاكة سواء أكان ذلك من طرف الاستعمار أو عملائه، وبخاصة أن "الإبراهيمي" يبحث عن المثقف الذي يمارس النقد السياسي والاجتماعي، وغيره ليكشف بذلك الحقيقة ويغرس في وجدانه القيم الصحيحة، قيم الانتماء والاعتزاز بالوطن؛ إذ يقول الإبراهيمي: «... وأنا أشرح لكم بعض السبب وهو أن قراء العربية لم يخرجهم معهد واحد، ولا معاهد متحدة التعليم موحدة البرامج مرتبة الدرجات منظمة الشهادات على التحصيل، وإنما هم متخرجون من معاهد مختلفة لا تجمع بينها جامعة إلا كونها عربية ومعظمها غير منظم ولا مرتب ومعظمهم تلقى تعليمه كيف ما اتفق، ولم يكمل دراسته، ولا أتم تحصيله، أما تربيتهم فجاءت ملونة بألوان تلك المعاهد... كذلك نعلم أن للثقافة الفرنسية في وطننا ثلاثة معاهد متباعدة الغايات متفاوتة الدرجات: الأولى الكليات الجامعة وما يوصل إليها، الثانية دار المعلمين، الثالثة المدارس الثلاث⁽¹⁹⁾... ومن المؤسف أيضا أن دار المعلمين تهيئ خريجيها لأعمال خصوصية محدودة مقيدة يدور المعلم فيها طول عمره فلا يجد الوقت لتوسيع ثقافته بالمطالعة والكتابة والتطبيق...»⁽²⁰⁾.

نعانين من خلال هذا النص أن "الإبراهيمي" قد حدد أهم الأسباب التي أدت إلى التفاوت بين المثقفين الجزائريين في تلك الحقبة، وقد أرجعها إلى طبيعة المدرسة التي يتخرج منها كل مثقف، فهذا أسهم في خلق بون شاسع بين المثقفين، وبالتالي اختلفت طرقهم وغاياتهم في خدمة المجتمع وقيادته قيادة سليمة وواعية تخدم الهوية الوطنية وتحافظ عليها وذلك عن طريق توعية المجتمع، وإبراز نقاط قوته، وتبيان أهمية شخصياته الإصلاحية والدينية، ومحاولته إضفاء بعض الأبعاد الإنسانية على ما عاناه شعبه، وإنكار حقوقه ومحاوله تجريده من هويته من طرف الاستعمار وذلك محاولة منه لتكريس الهوية المزيفة.

والمثقف عند "الإبراهيمي" لا يمكن أن يعمق الوعي بالمواطنة إلا من خلال الاحتكاك المباشر بمجتمعه؛ إذ يقول: «الامتزاج بالأمة والاختلاط بطبقاتها، والتحبب إليها، ومشاركتها في شؤونها الاجتماعية والدخول في مجتمعاتها ومعايدها، ومشاركتها في عبادتها وفي الصالح من عوائدها، فبذلك تحصل الثقة منها، وتنقاد لكل ما نريده منها، وبذلك يسهل على المثقف أداء واجبه على أكمل وجه، وثقة الأمة بالمثقفين هي رأس المال في هذا الباب»⁽²¹⁾.

وهذا يعني أنّ المثقف إذا عرف خبايا مجتمعه، استطاع التأثير فيه، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق الامتزاج والاختلاط بالأمة، والتحبب إليها ومشاركتها في كل جوانب حياتها (الاجتماعية، والدينية...) فهذا يخلق نوعا من التبادل بين الطرفين، ويكتسب ثقتهم، وهذا يفتح المجال أمامه لتعليم المواطنة وذلك بغرس مختلف القيم، والتشجيع على دعم استقرار المجتمع، والقيام بالواجبات، وتحمل المسؤولية، والعمل على اكتساب المعرفة والثقافة، وتعزيز الجانب الروحي والأخلاقي.

كما تتجلى لنا المواطنة من خلال تحديد "الإبراهيمي" لواجب المثقف في حد ذاته إذ يقول: «أما الواجب في حد ذاته فهو في الجملة إيصال النفع والخير إلى الأمة ورفع الأمية والجهل عنها، وحثها على العمل وتغييرها من البطالة والكسل، وتصحيح فهمها للحياة وتنظيف أفكارها، وعقلها من التخريف وتنظيم التعاون بين أفرادها وتمتين الصلة والثقة بين العامة والخاصة منها، وتعليمهم معاني الخير والرحمة والإحسان لجميع الخلق»⁽²²⁾. نعاين من هذا القول أنّ الإبراهيمي حدد للمثقف كيفية تنمية مفهوم المواطنة لدى الأمة، وذلك بتحبيبه في العلم والعمل، وتغييره من البطالة والكسل، وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة وغرس حب التعاون، وزرع الخير والرحمة وتحقيق الإحسان كلّ هذا من شأنه أن يصلح المجتمع ويقوده إلى التطور.

وأخيرا يمكن القول إنّ "الإبراهيمي" حاول من خلال كتاباته تحديد مفهوم المواطنة الجزائرية الصحيحة، وهذا ما تجلّى في مقاله الموسوم بـ: "واجب المثقفين نحو الأمة؛" لأنه كان على دراية تامة بأهمية ودور المثقف في تعميق الوعي بالمواطنة الصحيحة، وتحديد أبعادها، وباعتباره أيضا جزءا من الأمة، لذلك لا بدّ أن يسهم في بناء وطنه، وذلك بتنحية وطمس الأفكار المزيّفة وتخريف الاحتلال للحفاظ على وجود أمته واستمرارها وتجددها.

خاتمة:

- إنَّ مواطنة المثقف عند الإبراهيمي تتحقق من خلال مشاركته في بناء وطنه، والدفاع عنه وتوعية مجتمعه والذويان فيه، باعتباره عضوا فاعلا في المجتمع، يعمل على غرس القيم الإيجابية في أفراد أمتة من أجل تكوين مواطن صالح يشعر بالحب والانتماء إلى وطنه.
- يسهم الجانب الذاتي حسب الإبراهيمي بشكل كبير في إضفاء صفة المثقف على الفرد فكثر المعلومات وحدها لا تكفي، بل لابد لها من حسن التربية، وصحة الإدراك، وسلامة التفكير، والاستقامة في السلوك كلّ هذا من شأنه أن يقوده إلى تقديم إسهامات معتبرة في بناء المجتمع وتوجيه أفرادها توجيها صحيحا، وذلك من خلال التركيز على الجانبين: الوطني، والمدني.
- لا بدّ أن يعمل المثقف على تعميق وعي الفرد بالمواطنة، وذلك بتبيان النهج الصحيح للممارسة الفردية في وطنه، فالمواطنون لهم حقوق ومسؤوليات، فهو وحده يمكن أن يقود الفرد ويساعده على اكتساب مهارات المشاركة الوطنية، وذلك من خلال تقديم توضيحات حول مكونات هويته الصحيحة وتبيان مدى أهميتها وخصوصيتها في حياته، ويُمكن المواطن من المشاركة في أمور وقضايا تهم الأمة.
- المثقف المنتسب بالجانب الروحي الصحيح، هو من يقود الأمة، ويعمل على تنمية شعور الولاء لدى الفرد نحو وطنه، والانتماء لمجتمعه، وهذا يعكس دور المثقف في بناء وطنه.
- الاختلاف بين ثقافتين في مجتمع واحد حسب الإبراهيمي، وجهل كلا الفريقين لخصوصية الأمة والوطن يؤدي إلى مفسدة عظيمة في الوطن والمجتمع، وبخاصة إذا كانت الدولة بحاجة للقلم لمحاربة التخاريف المنتشرة في المجتمع، فتحصيل النجاح في هذه الحالة لا يكون إلا بالمثقف العارف بأحوال الوطن والأمة الجامع بين الدين والحضارة.
- ضرورة الاحتكاك بثقافة الآخر، فهي تمكن المثقف من تجديد التفكير والفكر، واستغلال كلّ ما هو جديد ونافع في سبيل بناء الوطن وتعليم وتوجيه المجتمع، وفتح المجال أمامه للبحث في جميع المجالات والاستفادة منها.
- حدد الإبراهيمي واجبات المثقف الذاتية والغيرية أما الذاتية تتمثل في إصلاح النفس وإكمال النقائص العلمية، واستكمال المؤهلات التحصيلية، أما الغيرية تتمثل في إصلاح المجتمع، وتحقيق التعارف، والتقارب في الأفكار بين أطرافه المختلفة، ومحاولة تصحيح وجهات النظر المختلفة، وبذلك فالإبراهيمي ركز على علاقة المثقف بمجتمعه ووطنه

- فالمثقف بإمكانه تعميق الوعي بالمواطنة من خلال المفاهيم والمعارف، وكل ما من شأنه أن يسهم في تنشئة الفرد تنشئة وطنية.
- إنَّ الإبراهيمي لا يعترف إلا بالمثقف المتحرر من فكرة الإطار، أما المثقف المنحرف العاري من الأخلاق، والفاقد لضروريات المعرفة العصرية يؤثر سلباً على التربية الوطنية، ويخلق فجوة كبيرة بين أفراد الأمة، بسبب عدم قدرته على التحليل والتطبيق الصحيحين.
- الشهادات عند الإبراهيمي ليست مقياساً لثقافة الفرد، ففي كثير من الأحيان هذا النمط من المثقفين لا يدخل في عمل إلا وأفسده لنقص معلوماته، أو فساد أخلاقه، وقصر نظره وجهله بكيفية التطبيق، فالمثقف لا بد أن يكون واعياً بقضايا مجتمعه، قادراً على مناقشتها، وتعميق الوعي بتفهماتها للمواطن، وقيادته إلى المشاركة في كل ما يخدم مصلحة وطنه في جميع الجوانب (السياسية، الاجتماعية، الثقافية...).
- حدد الإبراهيمي أهم الأسباب التي أدت إلى التفاوت بين المثقفين الجزائريين؛ إذ أرجعها إلى طبيعة المدرسة التي يتخرج منها كل مثقف، فهذا أسهم في خلق بون شاسع بين المثقفين، وهذا أدى إلى اختلاف طرقهم وغاياتهم في خدمة المجتمع وقيادته قيادة سليمة وواعية تخدم الهوية الوطنية وتحافظ عليها، وذلك عن طريق توعية المجتمع، وإبراز نقاط قوته، وتبيان أهمية شخصياته الإصلاحية والدينية، وإضفاء بعض الأبعاد الإنسانية على ما عاناه شعبه، وإنكار لحقوقه، ومحاولة تجريدته من هويته.
- يجب على المثقف حسب الإبراهيمي أن يعرف خبايا مجتمعه، بذلك فقط يستطيع التأثير فيه، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق الامتزاج والاختلاط بالأمة، والتحبب إليها ومشاركتها في كل جوانب حياتها فهذا يخلق نوعاً من التبادل بين الطرفين ويكتسب ثقتهم، وهذا يفتح المجال أمامه لتعليم المواطنة وذلك بغرس مختلف القيم، والتشجيع على دعم استقرار المجتمع، والقيام بالواجبات وتحمل المسؤولية، والعمل على اكتساب المعرفة والثقافة، وتعزيز الجانب الروحي والأخلاقي.
- حدد الإبراهيمي للمثقف كيفية تنمية مفهوم المواطنة لدى المواطن، وذلك بتحبيبه في العلم والعمل، وتنفيذه من البطالة والكسل، وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة، وغرس حب التعاون، وزرع الخير، والرحمة، وتحقيق الإحسان كل هذا من شأنه أن يصلح المجتمع، ويقوده إلى التطور.

الهوامش والإحالات

- (1) - برهان غليون (1989)، الانتلجنسيا والسياسة والمجتمع، دط، دار الاجتهاد، بيروت، ص 17.
- (2) - ماجد المحروفي، دور المناهج الدراسية في تحقيق أهداف تربية المواطنة، 2008
http://www.gulfkids.com/pdf/Daor_manaheg.pdf
- (3) - مسعود موسى الرضي (2008)، أثر العولمة في المواطنة، المجلة العربية للعلوم السياسية، ع19، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 115.
- (4) - آثار محمد البشير الإبراهيمي (1997)، ج2، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 125.
- (5) - ينظر، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- (6) - م ن، ص 126.
- (7) - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 126
- (8) - المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- (9) - م ن، ص ن.
- (10) - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 127.
- (11) - المصدر نفسه، ص 127.
- (12) - إدوارد وديع سعيد (2006)، المثقف والسلطة، ط1، ترجمة محمد عناني، رؤية، القاهرة، ص 43
- (13) - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 127.
- (14) - المصدر نفسه، ص 127.
- (15) - إدوارد سعيد (2007)، الثقافة والمقاومة: حوار مع دافيد بارساميان، ط1، ترجمة علاء الدين أو زينة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 143.
- (16) - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 128.
- (17) - المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- (18) - إدوارد سعيد(دت)، صور المثقف، دط، ترجمة غسان غصن، دار النهار، بيروت، ص 80-81.
- (19) - "هي المدارس التي أنشأها فرنسا في الجزائر سنة 1857 في تلمسان وقسنطينة والجزائر العاصمة لتخريج القضاة والمترجمين والأئمة"(آثار الإبراهيمي، ج2، ص 128)
- (20) - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 129.
- (21) - المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- (22) - م ن، ص ن.

المواطنة في فكر البشير الإبراهيمي من خلال آثاره

Citizenship in El-Ibrahimi 's Thoughts through His effects

د. عبد الحق حارش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة (الجزائر)

abdelhakharche@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/09/27

تاريخ الإرسال: 2021/09/05

ملخص:

يتناول البحث موضوع المواطنة في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي من خلال آثاره مبرزاً في الآن نفسه أهم مقوماتها ووسائلها؛ حيث تأكد لنا من خلال هذه الدراسة حضور الحس الوطني والمواطني في التراث العلمي والفكري لهذا العلم الإصلاحية الكبير، الذي سأل فيه قلمه وأفصح فيه مقاله وأكدت عليه فعالة بكل ما بيني هذا الوعي وينميه؛ ليعطي مفهوماً للمواطنة منطلقاً من المبادئ الإسلامية؛ ليخدم الأمة الوطنية الجزائرية، والإسلامية والإنسانية جميعاً.

الكلمات المفتاحية: الإبراهيمي، المواطنة، الوطنية.

Abstract:

The research deals with the topic of citizenship according to Sheikh El Bachir El Ibrahimi's thought through his effects, and highlighting at the same time the most important components and means; as it was confirmed through this study the presence of national sense and citizenship in the scientific and intellectual heritage of this great reformist; which his pen flowed, and his actions confirmed in everything that builds and develops this awareness; to give a concept of citizenship based on Islamic principles; to serve the Algerian nation, the Islamic nation, and humanity in all.

keywords: El-Ibrahimi, Citizenship, National.

مقدمة:

يُعدّ الشيخ البشير الإبراهيمي من الأعلام البارزين الذين نظّروا لمقومات المواطنة وبيان آلياتها ووسائلها من خلال كتاباته وخطاباته ومحاضراته؛ حيث كان له الدور الرائد في بيان معالمها وإبراز دوائرها. وقد ارتأيت في هذا البحث أن أركز بقراءة استقرائية تحليلية لإجلاء معالم المواطنة عند هذا العلم الهام؛ والمصلح الديني والوطني من خلال آثاره.

ولم يتناول البشير الإبراهيمي المواطنة في آثاره بشكل محدّد؛ ولكن جاءت مضامينها ومعانيها ومقوماتها في ثنايا كتبه وآثاره طافحة بهذا الحس الوطني العميق؛ وهذا في حديثه عن الانتماء، وعن العلاقات الاجتماعية بين الناس سواء على المستوى العرقي أو الديني أو الوطني أو القومي وحتى العالمي.

والإبراهيمي في حسه الوطني كان يحمل همّاً وهمّةً ومهمّةً؛ فهُمّه حمل هموم الأمة الجزائرية والإسلامية التي تعاني ويلات الاستعمار، وهمته تكريس حياته لدينه ووطنه وأمهته بمقاله وحاله ونواله؛ وأما عن مهمته؛ فهي الإصلاح والكفاح باللسان والسنان للذود عن كل ما يهدم معالم الدين والوطن.

وبهذا ربط الإبراهيمي الشعب الجزائري بدينه وحنه على الاعتزاز بانتمائه إليه، وأكد على هوية الوطن الجزائري الذي لا يقبل التفسخ والتبني؛ لأنّ جذوره ضاربة في التاريخ، كما حارب التعصب العرقي فأقرّ بتعدد الأعراق ودعا إلى التلاحم والتناغم بينها.

ومما سلف يُمكن طرح التساؤل الرئيس الذي يدور حوله البحث؛ وهو:

- ما مقومات المواطنة وآلياتها في فكر البشير الإبراهيمي من خلال آثاره؟

ويتفرع عن الإشكال الرئيس أسئلة فرعية خادمة لموضوع البحث، وهي:

- ما مفهوم المواطنة في اللغة والاصطلاح؟

- ما مقومات المواطنة في الفكر الإبراهيمي؟

- ماهي وسائل أو آليات المواطنة في الفكر الإبراهيمي؟

وتكمن أهمية البحث في الآتي:

- 1- كونه يعالج مفهوما وموضوعا معاصرا وحيويا عند رائد من رواد الفكر التحريري.
- 2- الاهتمام السياسي والمجتمعي بالمواطنة؛ باعتبارها السبيل الأمثل للحفاظ على الهوية الوطنية قديما وحديثا.

أما عن أسباب اختيار الموضوع، فتتلخص فيما يلي:

- 1- ندرة الدراسات الأكاديمية التي تبرز فكر الإبراهيمي في مثل هذه القضايا الكبرى المتعلقة بالمجتمع، والتي منها المواطنة.
- 2- وجود قراءات ورؤى إقصائية للشخصيات الدينية الإسلامية، وعدم اعترافها بالدور المحوري التي أدته هذه الشخصيات في إرساء مفاهيم ومقومات المواطنة.

في حين تتلخص أهداف البحث في الآتي:

- 1- الوقوف على الفكر المواطني والتنويري عند البشير الإبراهيمي.
- 2- الكشف عن الشخصيات الجزائرية من أبناء الجمعية، التي كان لها دور كبير في إبراز مقومات الوطنية والمواطنة للأمة الجزائرية.

وللإجابة عن التساؤلات الآتية الذكر اتبعت الخطة الآتية:

* مقدمة

* المطلب الأول: تحديد مصطلحات البحث

* المطلب الثاني: مقومات المواطنة في الفكر الإبراهيمي

* المطلب الثالث: آليات تعزيز المواطنة في الفكر الإبراهيمي

* الخاتمة

المطلب الأول: تحديد مصطلحات البحث

أولا: مفهوم المواطنة في اللغة

يُرجع عامة المؤرخين والفلاسفة والمفكرين السياسيين أصل كلمة المواطنة ومدلولها إلى الحضارة اليونانية القديمة، وإلى كلمة (Polis) التي تعني المدينة باعتبارها بناء حقوقيا ومشاركة في شؤون المدينة. كما تستعمل كلمة المواطنة كترجمة للكلمة الفرنسية (Citoyenneté) وهي

مشتقة من كلمة (Cité). وتقابلها باللغة الإنجليزية كلمة (Citizenship) المشتقة من كلمة (City)، أي المدينة⁽¹⁾. وكلمة (Citoyen) تعني قديماً الشخص الذي يتمتع بحقوق المدينة (على العكس من السكان العاديين وهم الرعايا والعبيد والأجانب)⁽²⁾.

ومن هنا فالترجمة العربية لمصطلح (Citizenship) بالمواطنة يمكن اعتبارها ترجمة مقبولة وموفقة؛ حيث رأى فيها الباحثون والمفكرون العرب تأصيلاً للمفهوم، وتقريباً له من ذهن الإنسان العربي، وربطه بالوطنية ذات الأهمية المركزية في العمل المشترك بين جميع المواطنين⁽³⁾.

ثانياً: مفهوم المواطنة اصطلاحاً

أ- بالمفهوم العام: "هي صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءه إلى وطن، وأهمها واجب الخدمة العسكرية وواجب المشاركة المالية في موازنة الدولة"⁽⁴⁾.

ب- ما يتعلق بمصطلح المواطنة من ألفاظ

هناك ألفاظ كثيرة لها علاقة بمصطلح المواطنة؛ نذكر منها:

1- الوطن

- تعريف الوطن لغة: هو المنزل تقييم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه. والجمع أوطان. يقال: أوطن فلان أرض كذا وكذا أي اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيها⁽⁵⁾.

- تعريف الوطن اصطلاحاً: عرفه الجرجاني بقوله: "الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه. وطن الإقامة: موضع ينوي أن يستقر فيه خمسة عشر يوماً أو أكثر من غير أن يتخذ مسكناً"⁽⁶⁾.

وجاء تعريفه في المعجم الفلسفي: "الوطن بالمعنى العام: منزل الإقامة، والوطن الأصلي هو المكان الذي ولد فيه الإنسان أو نشأ فيه"⁽⁷⁾.

2- القومية

- القومية لغة: لفظ يعود أصله إلى كلمة قوم، أي جماعة تجمع بينهم رابطة معينة، وجاء في المحكم المحيط الأعظم لابن سيده: الجماعة من الرجال والنساء جميعاً⁽⁸⁾.

- **القومية اصطلاحاً:** القومية مصدرها اللغوي من القوم، أي: جماعة تجمع بينهم رابطة معينة؛ أما الدلالة السياسية للمفهوم فيرتبط بمفهوم القومية بمفهوم الأمة من حيث الانتماء إلى أمة محددة، والأمة هي الشعب ذو الهوية السياسية الخاصة الذي تجمع بين أفراد روابط موضوعية وشعورية وروحية متعددة تختلف من شعب لآخر، مثل: اللغة والعقيدة والمصلحة والتاريخ والحضارة...⁽⁹⁾.

3- الوطنية

اختلف الباحثون في تعريف الوطنية وتباينت تعريفاتهم بحسب المناهج التي ينتمون إليها، فمنهم من جعلها عاطفة إنسانية تربط الفرد بوطنه، ومنهم من جعلها عقيدة يوالي عليها، ويعادي، ومنهم من جعلها تعبيراً عاطفياً وجدانياً يندرج داخل إطار العقيدة الإسلامية ويتفاعل معها.

الوطنية تعبير قومي يعني حب الشخص وإخلاصه لوطنه. ويشمل ذلك، الانتماء إلى الأرض والناس، والعادات والتقاليد، والفخر بالتاريخ والتفاني في خدمة الوطن. ويوحى هذا المصطلح بالشعور بالتّوحد مع الأمة⁽¹⁰⁾.

والعلاقة بين المواطنة والوطنية علاقة تأثير وتأثر، كما أنّ الوطنية هي الإطار الفكري النظري للمواطنة؛ بمعنى أنّ الوطنية قضية فكرية شعورية وعاطفية، بينما المواطنة ممارسة عملية تطبيقية⁽¹¹⁾.

4- المواطنة

جاء في موسوعة السياسة: "المواطنة هي المواطنة نفسها، وهي صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءه لوطنه"⁽¹²⁾. والعلاقة بين المواطنة والمواطنة هي علاقة ترادف كما أكدها كثير من الباحثين.

5- الهوية

الهوية بضم الهاء وياء النسبة، مصطلح مشتق من الضمير هو، فهي مصدر صناعي مركب منه؛ أي من الضمير المفرد الغائب هو المعرف بـ "أل" التعريف، مع زيادة الياء

المشددة وتاء التأنيث في آخره؛ ومعناها صفات الإنسان وحقيقته وماهيته، وتستخدم للإشارة إلى الميزات والخصائص التي تتميز بها الشخصيات الإنسانية عن بعضها بعضاً⁽¹³⁾.

والعلاقة بين الهوية والمواطنة علاقة تشاركية، فالمواطنة عقد سياسي يتضمن مجموعة الحقوق والواجبات بين المواطن ودولته، في حين تدل الهوية على مجموعة القيم والثقافة لمجموعة من الجماعات داخل الدولة.

المطلب الثاني: مقومات المواطنة في الفكر الإبراهيمي

يُعدُّ البشير الإبراهيمي المقومات التي توجد بها الأمة والدولة؛ فيقول: "أما لباب السياسة بمعناها العام عند جميع العقلاء فهو عبارة واحدة: إيجاد الأمة، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليده صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغلاة بقيمتها وميراثها، وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها، وتستमित في سبيلها، وترى أنّ وجود تلك المقومات شرط لوجودها فإذا انعدم الشرط انعدم المشروع، ثم يفيض عليها من مجموع تلك الحالات إلهام لا يغالب ولا يردّ، بأنّ تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت ولدت وطناً"⁽¹⁴⁾.

ومن خلال النصّ الأنف الذكر يتضح لدينا أنّ الإبراهيمي بنى المواطنة على المقومات التي لا يمكن أن تتحقق إلا بوجودها وتوفيرها؛ وهي الدين واللغة والانتماء. فركز على إحياء الدين الصحيح، ودعا إلى الحفاظ على الهوية اللغوية، وأكد على الاعتزاز بالانتماء الوطني. وفي هذا المطلب سأقتصر على ذكر بعض شواهد كلّ مقوم في فكر وآثار البشير الإبراهيمي؛ وذلك تحت الفروع الآتية:

الفرع الأول: إحياء الدين الإسلامي الصحيح

يُشكل بناء الهوية الدينية الحجر الأساس في فكر البشير الإبراهيمي؛ إذ الدين الإسلامي أعطى كلّ جانب من الجوانب الحياتية حقها؛ فهو لم يترك مجالاً من مجالاتها إلا وأعطى قواعد وأساساً تضبطه وتحكمه. وقد اهتم بالجانب العبادي والجانب المدني، بل إنّ الجانب المدني في التعامل مع الناس وبيان العلاقات الاجتماعية بين المسلمين فيما بينهم أو مع غير المسلمين كان له الحظُّ الأكثر والأوفر في كثير من نصوصه القرآنية والحديثية.

ومعلوم أنّ الهوية الدينية: "هي مجموعة العقائد والمبادئ والخصائص والمميزات التي تجعل أمة ما تشعر بمغايرتها للأمم الأخرى" (15).

ولهذا ما فتى الإبراهيمي إلا أن يؤكد أنّ الحس الوطني لا يقوم إلا عليه؛ وفي هذا يقول: "إنّ الوطن كلّ، أمثّل أجزاءه اللغة والدين، فكيف بمن يخدم دينه في وطنه، ويزرع لغته في أرضها؟" (16).

وبخطاب جلي يصرح الإبراهيمي أنّ فرنسا بدأت بعدواتها بالدين لما علمت أنّه أساس نهضة الجزائريين بمواطنتهم، ولذا ناصبته العداوة وكرست وبذلت كلّ الجهود من أجل إزالته وتحريفه وتشويهه؛ وفي هذا يقول: "وبدأت من المقومات بالدين، لأنها تعرف أثره في النفوس والإرادات، وتقدر ما فيه من قوّة التحصن من الانحلال، وقوّة المقاومة للمعاني الطارئة، فوضعت نصب عينيه، ومدت يدها إليه بالتنقص، فالتهمت أوقافه المحبوسة على مصالحه، لتجرده من القوة المادية التي هي قوامه، وتلصق برجاله الحاجة إليها فتخضعهم لما تريده منهم، فتصيرهم أدوات تآمر بأمرها لا بأمر الدين، وتخضع لسلطانها لا لسلطان الدين، وما زالت بهم تروضهم على المهانة، وتسوسهم بالرغبة والرهبة، حتى نسوا الله ونسوا أنفسهم، ونسوا الفوارق بين رجل الدين الذي يدين بطاعة الله، وبين موظف الحكومة الذي يدين بطاعة الحكومة، وأصبحوا في العهد الأخير كالأسلاك الكهربائية المفرغة من الشحنة ... ليس فيها سلب ولا إيجاب ..." (17).

ولما رأى الإبراهيمي وزملاؤه العلماء في جمعية العلماء الجزائريين حملات النسخ والتشويه للإسلام الحقيقي، انبروا لمحاربة كلّ التشويهات والشبهات والبدع والضلالات التي تعكر صفوه وحقيقته؛ حيث قال: "عاهدنا الله أن نظهر دينه، من الداخل ومن الخارج، وأن ننصره على أنفسنا حتى يكون له عليها سلطان، قبل أن ننصره على الأجنبي حتى لا يكون له عليه سلطان ... لذلك حملنا حملتنا المشهورة على البدع والضلالات" (18).

وبقراءة تاريخية يؤكد الإبراهيمي أنّ الشعب الجزائري متشبث بهويته الدينية الضاربة في جذور التاريخ المنتمية إلى الجامعة أو الوطنية الإسلامية؛ الذي هو فرد من أفرادها؛ حيث يقول: "وهو-مع ذلك- عضو في الأسرة الإسلامية الكبرى، لم يتبع دينه بديلاً منذ هدها

الله إليه، ولم تختلف به المذاهب فيه، فَقَلَّتْ بينه أسباب الخلاف والعصبية، ومن سدَّ الله عليه بابًا من أبواب الخلاف، فقد فتح له بابًا من أبواب الوفاق" (19).

ويوضح الإبراهيمي في عدد من مقالاته ومحاضراته بلغة صريحة؛ أنّ من أهم أهداف المستدمر الفرنسي هو هدم المقومات التي تقوم عليها الدولة الجزائرية الطامحة إلى الاستقلال والتحرر؛ فيقول: "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت وأسباب الموت، فوجد هذه المقومات راسخة الأصول، نامية الفروع، على نسبة من زمنها، فتعهد في الظاهر باحترامها، والمحافظة عليها، وقطع قاداته وأئتمته العهود على أنفسهم وعلى دولتهم ليكوننّ الحامين للموجود المشهود من عقائد ومعابد وعوائد ولكنهم عملوا في الباطن على محوها بالتدريج، وتمّ لهم -على طول الزمن بالقوة وبطرائق من التضليل والتغليل - جزء مما أرادوا؛ والاستعمار سلّ يجارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح؛ وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير" (20).

كما يُلفت الإبراهيمي أنّ من أهم الحقوق والحريات التي يجب أن يتمتع بها المواطن الجزائري كباقي المواطنين من العالم الذين يشاركونه في الإنسانية والآدمية؛ الحقوق الدينية التي يعنى فيها الواقع التي آلت إليه في الجزائر، بما سببه المستدمر الفرنسي من مضايقات واضطهادات وانتهاكات؛ وفي هذا يقول: "وضعنا الديني في هذا الوطن وضع شاذ غريب كوضعنا السياسي أو أشدّ شذوذاً وغبابة، بل ما كان وضعنا الديني غريباً إلا لأنّ وضعنا السياسي غريب، ولو كنا نملك الحقوق السياسية كبنّي آدم لاستتبع ذلك الحقوق الدينية لأننا أمة مسلمة ما زال لنا من قرآنا عاصم من الإلحاد، ومن ميراثنا الجنسي معاذ من الزيف، ومن فطرتنا الشرقية واق من هذا التحلل الذي أصيبت به الأمم" (21).

بهذه النظرة الثاقبة والاستشرافية وضع الإبراهيمي الأساس الأول للنهضة التي تؤسس للوطنية والمواطنة؛ وذلك بالتأكيد على محورية الدين في البناء الوطني، مع إبعاد ومحاربة كل ما يقبض أركانه من تزييفات وتحريفات وخرافات وسخافات لا يقبلها عقل ولا يرتضيها نقل.

الفرع الثاني: الحفاظ على الهوية اللغوية العربية

إنّ المحافظة على كيان الأمة والدولة يقتضي المحافظة على هويتها اللغوية. فاللغة هي الوعاء الذي تحفظ به الأمة تاريخها وعقائدها، ومتى فقدت لغتها فقدت ركنا من هويتها. فاللغة "تمثل السبيل لاستكشاف دواخل الأمة، فمن خلال ألفاظها تعبر عن كوامن الإحساس بالمواطنة والشّعور بالصلة والتوافق بالمشاعر، وهي من أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أبناء الأمة الواحدة. وهي بالتالي تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متماسكاً ومتراصاً تحكمه قواعدها وأصولها، وتوحد تفكيرهم أساليبها وطرائقها"⁽²²⁾.

يقول الرفاعي: "أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه"⁽²³⁾.

فاللغة تُعبّر عن كيان الأمة وعناصر هويتها؛ لأنها تُعطي معالم حيزها المتميز عن غيرها من الأمم؛ وفي هذا السياق يؤكد الإبراهيمي ركنية اللغة في البناء الوطني والاجتماعي ويجعل من ذهاب اللغة وإضاعتها ضياعاً للمقومات الأخرى؛ فيقول: "إنّ اللغة هي المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى"⁽²⁴⁾.

كما يجعل من فهم اللغة سبيلاً للوحدة ولم الشمل؛ حيث يقول: "أما والله لو أنّ شبابنا كانوا على حظ من فهم لغتهم، وكانوا يقرأون "البصائر" لما تفرق لهم شمل، ولا ضلّ بهم سبيل، ولتلاقوا على حب دينهم وهوى وطنهم"⁽²⁵⁾.

ويقول أيضاً: "والنقطة التي يلتقي عندها الكل، هي الإسلام والجزائرية، لذلك كان ضرورياً أن يكون مدار البحث على الإسلام ولسانه، والمسلم وحقوقه في الحياة"⁽²⁶⁾.

الفرع الثالث: تعزيز الانتماء الوطني

معلوم أنّ الانتماء إلى الوطن ركن أساس في الحياة الاجتماعية، فهو الحافز والحيز الذي تتحرك فيه العلاقات الاجتماعية لتكوين الروابط بين أفرادها وجماعاتها. ومن دون انتماء يصبح الإنسان دون هوية تميزه.

وبهذا الانتماء النسبي للوطن يصبح للمواطن شعورٌ بأنّ الوطن هو بيته الكبير، وهو المكان الذي يقيم عليه الإنسان دينه وديناه. فيعمد إلى كلّ ما بينه، ويدفع عنه كلّ ما يهدمه ويدنيه. فيصبح ذلك المواطن جزءاً من ذلك الكلّ لا تكتمل هويته إلا به.

وتتميز المواطنة بنوع خاص بولاء المواطن لبلاده، وخدمتها في أوقات السلم والحرب والتعاون مع المواطنين الآخرين في تحقيق الأهداف القومية⁽²⁷⁾.

والملاحظ أنّ البشير الإبراهيمي بفيض كلماته ورق عبارته ونقّس تأوهاتة ومناداته يرسخ وينقش بها حب الوطن وعزّ الانتماء إليه لدى المهاجرين في القلوب والدروب، ويجعل ذلك غُرماً عليهم ليكون غنما يعود إليهم، فالمواطن الجزائري وإن كان لا يسكن وطنه الجزائر، فإنّ الجزائر تسكن قلبه ووجدانه.

وفي خطابه للمهاجرين الجزائريين ما فتئ الإبراهيمي إلا أن يذكرهم بأنّ الوفاء للوطن بحبّه وتقديمه وتبجيله، وبأنّ عزته تزيد بتعزيز وعزة انتمائهم إليه، وكل هذا دين وغرم عليهم وأنهم ما هاجروا إلا ليعمره ويغمره بكلّ بضاعة حسية أو معنوية تعزّز أركانه وتعلي بنيانه وفي هذا يقول: "وإنكم يا أبناءنا فارقتم الأهل، وفيهم الآباء والأمهات، وفارقتم الديار التي خلعتكم فيها التمام، وفارقتم الوطن الذي له على كل حرّ كريم دين! وفاؤهُ الحب، وكفاؤهُ النفع والجميل... وإن الوطن- وهو أبو الجميع- يتطلع من وراء هذه الهجرة إلى إحياء وتعمير وإعادة مجد وبناء تاريخ... وأن الوطن حين يرضى بخلوّه من أبنائه أنهم ما أخلوه إلا ليعمره، وما قطعوه إلا ليصلوه، وما فارقه شاباً عزلاً إلا ليعودوا إليه كهولاً مسلّحين بقوة التفكير، تظاهرها قوة العلم، تظاهرها قوة العمل..."⁽²⁸⁾.

كما علم الإبراهيمي أنّ تنمية الانتماء للوطن هو مسؤولية دينية بالدرجة الأولى فحسّش النصوص الشرعية سواء القرآنية منها أو الحديثية. لتفعيل تلك الرّوح وإذكائها. ومن الأمثلة على ذلك قوله: "آمنا بأنّ محمداً رسول الله. فقد علّم الناس من قبل أربعة عشر قرناً أنّ تربة الوطن معجونة بريق أبنائه تشفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقداً من المحبة والإخلاص له، وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليقرر لهم من منن الوطن منّة كانوا عنها غافلين، فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أن تربة الوطن تغذي

وُثروي، فحساءهم من علم النبوة أنها تَشْفِي، فليس هذا الحديث إرشادًا لمعنى طبي، ولكنّه درس في الوطنية عظيم، ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرقى والطب، فإنّه باب حب الوطن أشبهه⁽²⁹⁾.

ولارِب أنّ هذا النص يُعطي للمواطن الجزائري نَفْسَيْنِ لِحُب الوطن والانتماء إليه نَفْسُ الفطرة والجنان، ونَفْسُ الدّين والإيمان. وبهذا يتقرر عند كل واحد أن لا عداوة بين ما يدعو إليه الدين وما يبني عليه الوطن.

كما حارب الإبراهيمي فكرة الإدماج ببيان هوية الجزائر؛ فكان يوضح معالمها التي تميزها وتحيّرها عن الهوية الفرنسية، وذلك بخطاب العارف والمؤرخ الحصيف الذي يعرف نسب الجزائر وأصلها، فينكر الإدماج والتبني الذي ينكره الدين نفسه، يقول: "الجزائر ليست فرنسية، ولن تكون فرنسية، كلمات قالها أولنا، ويقولها آخرنا، ومات عليها سلفنا وسيلقى الله عليها خلفنا"⁽³⁰⁾.

كما ردّ على الداعين للانسلاخ والذوبان في الهوية الفرنسية، حيث جاء على لسان أحدهم: "لو أُنِي اكتشفت القومية الجزائرية لكنت من القوميين ولما خجلت من ذلك والرجال الذين ماتوا من أجل مُثْلهم الوطنية مكرمون محترمون، ولا تساوي حياتي أكثر من حياتهم، وعلى ذلك فلن أموت من أجل وطن جزائري لأنّ ذلك الوطن ليس له وجود ولقد سألت التاريخ وسألت الأحياء والأموات وزرت المقابر فلم يحدثني أحد عنه، ولا يمكن البناء على الهواء، ولقد استبعدنا جميعا هذه الأوهام لنربط نَحائنا مستقبلنا بما حققته فرنسا في هذه البلاد"⁽³¹⁾.

ومن خلال النصّ الآنف الذكر ندرِك مدى خطر وأثر التثقيف الفرنسي الممنهج لمسح الثوابت والمقومات الدينية والوطنية عند المثقفين الذين جحدوا وتنكروا لأصولهم وتاريخهم؛ فما بالك بعامّة الناس من المواطنين!؟

في هذا الوقت العصيب يأتي الرد الصريح في "كلمة صريحة" في مجلة الشهاب من الإبراهيمي وزملائه لإبطال هذه الشهادات والافتراءات لتتزيّف نسب الجزائر وتاريخها وإبطال شعار التبني "الجزائر فرنسية". ويعبر بشكل صريح وشهادة علمية أنّ الجزائر جزائرية.

بمذه العبارات والنداءات والآهات غرس الإبراهيمي قيمة حب الوطن والانتماء إليه في ذهنية المواطن الجزائري. وسقاه من روافد شرعيةً نقلية، وعلمية عقلية توضح المعالم وتغذي الفكر وتملاً الوجدان وتبني الأوطان وتوائم الإيمان.

المطلب الثالث: آليات تعزيز المواطنة في الفكر الإبراهيمي

الفرع الأول: الاهتمام بالتربية والتعليم

معلوم أنّ الوعي المواطني لا يقوم إلا على الأساس التربوي والتعليمي؛ فهو الرافد الذي تنبت المواطنة منه شجرتها، وتنمو به أغصانها وتحضر أوراقها. ولهذا نجد أنّ جميع الدول في العالم تراهن على التربية والتعليم لتحصين المجتمع، وذلك بتوفير كلّ الوسائل والآليات التي تدفع إلى حمايتها وتقدمها، حتى يتشبع المجتمع بكلّ المعارف والقدرات الفكرية، ليعطي مواطنا محصنا في فكره، خادما لوطنه ومتفاعلا مع مجتمعه.

يقول الإبراهيمي في هذا السياق: "والعلم - إن كنتم لا تعلمون - هو أساس الوطنية وقطب رحاها، ومركز دائرتها، ودليل سيادتها. لا حق لكم على الوطن، بل الحق كلّ للوطن عليكم، وإنّ أؤكد حقوقه عليكم أن تحقّقوا بالعلم مطالبه، وتعمروا بالعلم جوانبه، وتيروا بالعلم غياهبه" (32).

والناظر في فكر الإبراهيمي يدرك أنّه اهتم بهذه الوسيلة المعززة للمواطنة، فكان يبين أثرها وأهميتها في بناء الإيمان والإنسان والأوطان، وفي هذا يقول مخاطبا أمتة الجزائرية: "أيتها الأمة: قلنا لك إنّ العلم هو عمارة الوطن وأساس الوطنية ومنشئ الوطنيين. وأرشدناك إلى أنّ العلم بالتعلم. وحثناك على تكثير مدارس. وما غششناك في نصيحة، ولا دليناك" (33).

وكان الإبراهيمي يدفع ويحفز الأمة على توفير محاضن العلم وحواضره؛ وعلى رأسها المدرسة التي يقوم فيها التعليم؛ ولا سبيل إلى تحصيله إلا بها؛ وفي هذا يقول: "وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالمدرسة التي تبنيها الأمة بمالها، وتحوطها برعايتها، وتجعلها حصوناً تقي أبناءها الانحلال الديني والانحيار الخلقي وتحفظهم من ترف الغنى وذلل الفقر، وتربهم على الرجولة والقوة، وتوحيد النزعات، وتصحيح الفطرة، وتقويم الألسنة وتمتين الإرادات والعزائم، وتغرس الفضيلة في نفوسهم، وتصلح فيهم ما أفسده المنزل والشارع، وتروضهم على حب الوطن وبناءه طبقاً عن طبق" (34).

ولاريب أنّ التربية والتعليم من أهم عناصرها العنصر البشري المتمثل في المعلم الذي يعتبر محور العملية التعليمية والتربوية؛ لأنه هو الذي يغرس مبادئ المواطنة وينمي روحها في نفوس المتعلمين ووجدانهم. فقد خاطب الإبراهيمي المعلمين والأساتذة قائلاً: "ها أنتم هؤلاء تبوأتم من مدارسكم ميادين جهاد، فاحرصوا على أن يكون كل واحد منكم بطل ميدان، وها أنتم هؤلاء خلفتم مرابطة الثغور من سلفكم الذين حموا الدين والدنيا، ووقفوا أنفسهم لإحدى خطتين: الدفاع المجيد، أو موت الشهيد" (35).

ومعروف أنّ "كلّ ما يقوله المعلم ويفعله في الفصل يؤثر على تعلم التلاميذ، والبحوث التي تمت في العشرين سنة الماضية تشير إلى تأثير سلوك المعلم ليس على تحصيل التلاميذ فقط وإنما على مفهوم الذات والعلاقات الاجتماعية وقدرات التفكير" (36).

لهذا كان الإبراهيمي يدعو المعلمين للمزاوجة بين العلم والعمل، بين التنظيرات والتطبيقات، وبعبارة أخرى بين العلم والواقع، فيقول: "امزجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم، يأت التركيب بعجيبة، ولا تعمروا أوقاتهم كلها بالقواعد، فإنّ العُكوف على القواعد هو الذي صير علماءنا مثل "القواعد"، وإنما القواعد أساس، وإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتمّ البناء؟" (37).

وقد أدرك الإبراهيمي أنّ الحياة العملية لا تصلح إلا بالحياة العلمية لأنها أسها وركنها فنأدى أبناء الأمة: "يا أبناءنا، إنّ الحياة قسمان: حياة علمية، وحياة عملية، وإنّ الثانية منهما تنبني على الأولى قوّة وضعفًا، وإنتاجًا وعمقًا، وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كلّ، إنّ العلم لا يعطي القيادة إلا لمن مهره السهاد، وصرف إليه أعنة الاجتهاد" (38).

كما خصّ رسالته وخطابه إلى العلماء؛ حين قال: "أيها العلماء الخيرة، أيها الأبناء البررة؛ حيّاكم الله ويّاكم، وأبقاكم عوامل رفع لهذا الوطن وأحياكم، وأطال أعماركم للعربية تعلق صروحها وتنقشون في الأنفس لا في الأوراق شروحها، ولهذا الأمة تضمّدون جروحها وتداوون قروحها، وللملة الحنفيه تحمون حماها وترمون من رماها" (39).

وبنّيه الأمة الجزائرية على مكائد فرنسا في صدها عن سبل ووسائل العلم من أجل تحجّينها وتجهيلها، جاء في الآثار: "إنّ الأقدار قد وضعت في طريقكم إلى العلم عائناً جديداً هو شر العوائق وأضرّها... هو هؤلاء الدعاة الغاشون، والسماصرة المضلونّ يدعونكم إلى السياسة ليصدّوكم عن العلم، وإلى الحزبية ليفرّقوكم من الجماعة، وإلى الوطنية ليشغلوكم باسمها عن حقيقتها، ويلهوكم بلفظها عن تحصيل أقوى وسائلها، وهو العلم إنهم يملأونكم بالخيالات صغاراً، لتفرغوا من الحقائق كباراً، وإنّه لنوع من التسميم المرجأ لا يشعر به المصاب إلا بعد فوات الوقت"⁽⁴⁰⁾.

الفرع الثاني: تقوية روابط المجتمع المدني الجزائري ووحده

لا شك أنّ طبيعة الروابط بين المجتمع المدني هي التي تعطي الصورة الحقيقية للمواطنة فإذا كانت هذه الروابط قائمة على العدل والمؤاخاة والتسامح والاحترام والسلم أعطى ذلك انطبعا على وجود مواطنة صالحة؛ وإذا كان عكس ذلك دلّ على مواطنة طالحة.

والمجتمع المدني هو: "مجموعة من المنظمات التطوعية المستقلة نسبياً، التي تُكون المجال العام لتحقيق مصالح أفرادها، أو تحقيق منفعة جماعية للمجتمع ككل، وهي في ذلك ملتزمة بقيم ومعايير الثقافة المدنية والاحترام والتراضي والإدارة السلمية للتنوع والاختلاف"⁽⁴¹⁾.

وقد اتخذ الإبراهيمي وزملاؤه في جمعية العلماء وغيرها من مؤسسات المجتمع المدني عهدهم على تمتين روابط المجتمع الجزائري باختلاف أعرافه وأجناسه، ودعوا إلى الوحدة ولم الشمل؛ ليقفوا صفاً واحداً ضدّ الاستعمار الفرنسي، الذي يريد زرع الفرقة بينهم ومحو هويتهم الجزائرية.

وفي هذا يخاطب الإبراهيمي أمته الجزائرية لتحمل الأحزاب على الوحدة قائلاً: "أيتها الأمة الجزائرية! إنّ هذه الأحزاب تستمدّ قوّتها منك، وأنت الزاد والمدد، والعدّة والعدد فاحملها -بجميع الوسائل- على الاتحاد، إنّها متكلمة باسمك، فاحملها على الاتحاد باسمك، إنّها إن اختلفت كنت أنت الخاسرة على كلّ حال، وقضيتك هي المهضومة على كلّ حال، ويومئذٍ لا ينفعلك نجاح الناجح منهم؛ أما إذا اتحدوا وتقدّموا للانتخاب بقائمة واحدة، فإن نجاحهم في النيابة عنك محقق، ونجاح قضيتك قريب، فإذا لم ترحي الحق ربحت

الاتحاد وكفى به رجحاً" (42). هذه الدعوة من الإبراهيمي للاتحاد بين الأحزاب الجزائرية كان بهدف الوقوف كتلة واحدة ضدّ التكتل الحزبي للاستدمار الفرنسي في ذلك الوقت.

ويؤكد الإبراهيمي في نص آخر أنّ أفضل يوم وحال مضى على الأمة الجزائرية في تاريخها هو عندما حققت وحدتها وألغيت فيه الفوارق الاعتبارية بين مواطنيها، وفي هذا يقول: "لم يمض على الجزائر الإسلامية، في تاريخ ارتباطها السياسي بفرنسا، يوم أغرّ محجل، تمثّلت فيه الأمة روحاً وجسمًا، وتلاشت فيه الفوارق الاعتبارية كهذا اليوم. ففيه التقى، عن فكرة وعقيدة، الجزائري بأخويه القسنطيني والوهراني، وفيه اجتمع -على تلك الفكرة- المصلحون والطريوق وعلماء الدين ورجال السياسة، والشيوخ والشبان والتجار والفلاحون والعمال، جمعت الكلّ صفتنا الإسلام والجزائرية، ووحدتهم قسوة الأيام، وألّفت بينهم المحن والمهموم، فاندفعت ألسنتهم تعبّر عن رغائب الدين بلغة الدين، وعن رغائب الدنيا بلغة السياسة" (43).

بل قد صرّح الإبراهيمي أنّ هذه الدعوة للاتحاد والوحدة بين الجزائريين لم تخص المسلمين فحسب بل تشمل حتى من كان على اليهودية والنصرانية، وهذا ما صرحت به جمعية العلماء: "نعم نهضنا نهضة بنينا على الدين أركانها فكانت سلاماً على البشرية، لا يخشاها -والله- النصراني لنصرانيته ولا اليهودي ليهوديته بل ولا الجوسسي لجوسيته ولكن يجب -والله- أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته" (44).

فالإسلام دين يحترم جميع البشرية في أعراقها وأجناسها ويعايش أديانها ونحلها ويدعو إلى التعايش والتسامح؛ وأسلوبه الحوار، وغايته التعارف والتآلف مهما كان موقع الخلاف والاختلاف. وهذا ما دلت عليه النصوص القرآنية الداعية والداعمة إلى ذلك؛ في مثل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

الفرع الثالث: الوعي بتعدد دوائر الانتماء والمواطنة بينها

إنّ مما يحسب لجمعية العلماء والإبراهيمي على وجه الخصوص، أنّه أحدث تناغماً وانسجاماً بين دوائر الانتماء للمواطن الجزائري؛ لأنّ الإبراهيمي جمع بين حكمة النقل وحكمة العقل وكان رجلاً عالماً بدينه وعارفاً بديناه، مفعلاً للنصوص الشرعية وناظراً في

الظروف والملابسات الواقعية، حيث جمع بين فقهاء من فقهاء النصف وفقه الواقع، وهذا ما أعطاه نظرات استشرافية ومقاصدية تجاوزت عصره وزمانه.

واللافت للانتباه في الفكر الإبراهيمي أنه أسس للفكر المواطني القطري الجزائري والمواطنة الإسلامية والعالمية أو الإنسانية. وهذا من منطلقات دينية إسلامية، والتي جعل منها الإبراهيمي خادمة وداعمة للحس المواطني على مستوى جميع دوائر الانتماء الإنساني.

فالبشير الإبراهيمي لم يؤسس للمواطنة القطرية الجزائرية فحسب؛ ولكن أعطى الحس المواطني للمسلمين وللإنسانية جمعاء؛ لأنّ له وطنية صادقة، وفي الوقت نفسه وطنية ماحقة لكلّ ما يعرض الوطنية الحق إلى الزيف والتحريف. وقد لا أكون مبالغاً أن أقول إنّ فكر الإبراهيمي كان متطلعا حتى للمواطنة العالمية، أو الإنسانية كما هو معروف اليوم.

وفي هذا الإطار يقول: "أتمتله -الوطن- واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كلّ عربيّ أخاً له، أخوة الدم، وكلّ مسلم أخاً له، أخوة الدين، وكلّ بشر أخاً له، أخوة الإنسانية، ثمّ يُعطي لكلّ أخوة حقّها فضلاً أو عدلاً"⁽⁴⁵⁾.

ويدعو في الوقت نفسه أن تربط الأمة الجزائرية بغيرها من الأمم بعلاقة البر والإحسان وأن تساوي غيرها في الحقوق والواجبات، مع الحفاظ على هويتها ومقوماتها؛ فيقول: "إنّ الأمة الجزائرية أمة مسلمة عربية تربطها بالمسلمين رابطة الإسلام العامة، وتربطها بالعرب رابطة العروبة العامة، وتصلها بفرنسا صلة المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة، فيجب عليها بحكم دينها أن تحيّي مع كل من يساكنها حياة الإحسان والخير والرحمة، فتحسن وتطالب غيرها بالإحسان، وتبذل الخير والرحمة وتطالب غيرها بالخير والرحمة، فإذا قامت بواجب حيوي مشترك كان من الإنصاف لها أن تتمتع بالحقوق الحيوية المترتبة على ذلك الواجب وأن تساوي غيرها في الحياة كما ساوته في الواجب، مع الاحتفاظ التام بمقوماتها الطبيعية التي منها الإسلام والعروبة وعدم التنازل عن الشخصية التي هي بها أمة، وهذا هو ما تقتضيه قواعد الإنسانية وقوانين العدل والإنصاف"⁽⁴⁶⁾.

ويقرر الإبراهيمي ألا تنافي بين الوطنية الجزائرية والوطنية الإسلامية والإنسانية، فكلّ مواطنة تدور في فلكها لتخدم مجتمعتها.

فحينما كان طرف من الناس يحدّر من فكرة الوطنية ويرى أنّ أصحاب دعوتها يدور حولهم بين الفسق والكفر، وطرف آخر غلا في تقديسها وجعلها معلما للولاء والبراء، كان الفكر الإبراهيمي وسطاً بين الفكرين حيث تعامل معها بعدل وإنصاف، فأصل لها بما تقوم عليه من المبادئ الإسلامية، وما تتشارك فيه مع الأسس الإنسانية، مع إبطال كل ما من شأنه أن يمس القيم الإسلامية.

يقول الإبراهيمي: "وأنا بصفتي عالماً مُسْلِماً لا أقول بالعصبيات الجنسية، والوطنيات الضيقة، وإنما أدعو إلى الوطنية الواسعة، والعقيدة الروحية الجامعة، فإذا تمّت ورسخت أصولها في النفوس فإنها لا تنافي التمسك بالجنسيات من غير تعصّب، وذلك هو التحقيق لسنة الله الذي جعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا"⁽⁴⁷⁾.

فالإسلام لم يأت ليهدم الانتماءات الأخرى غير الانتماء الديني، يقول الطاهر بن عاشور: "فجعل الإسلام جامعة الدين هي الجامعة الحق للمسلمين وأبقى ما عداها من الجوامع، جوامع فرعية تعتبر صالحة ما لم تعد على الجامعة الكبرى بالانحلال"⁽⁴⁸⁾.

وقد عبّر عن هذا المفهوم زميله ابن باديس بقوله: "الإنسان يجد صورته وخيره وسعادته في بيته ووطنه الصغير، وكذلك يجدها في أمته ووطنه الكبير، ويجدها في الإنسانية كلها ووطنه الأكبر. وهذا الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة. إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها وعلى الأمة بجميع مقوماتها، وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها"⁽⁴⁹⁾.

وبهذا الوعي المستنير استطاع البشير الإبراهيمي أن يوائم بين تلك المواطنات بما يحقق التناغم والتلاحم بينها؛ وينسف في الآن نفسه تلك الدعوات التي جعلت العلاقة بينهم علاقة تحاصم وتزاحم.

خاتمة:

وفي ختام هذا البحث المتواضع؛ نلخص إلى النتائج الآتية:

- إنّ البشير الإبراهيمي شخصية مفعمة بالحس الوطني والوطني إلى حد النّخاع، وأن فكرة المواطنة لها حضور قوي وكبير في فكره وراثته.
- تحقيق المواطنة في الفكر الإبراهيمي مرهون بتحقيق مقوماتها، ومنها إقامة الدين الإسلامي الصحيح، والحفاظ على الهوية اللغوية، والاعتزاز بالانتماء للوطن.

- إن مقومات المواطنة عند الإبراهيمي لن تقوم إلا بوسائل تحققها وتعززها، ومنها التربية والتعليم والوعي والمواطنة بين دوائر الانتماء التي ينتمي إليها المواطن الجزائري.
- إن المواطنة في الفكر الإبراهيمي انطلقت من مقومات ثقافية إسلامية، لتأطير الفعل الاجتماعي والجماعي للمواطن الجزائري.
- الربط بين الحياة العلمية والعملية عند الإبراهيمي، هذا ما أحدث تناغما في دوائر الانتماء للمواطن الجزائري وبيان التكامل بينها، وإبعاد التعصب.

التوصيات:

- وفي نهاية هذا البحث أوصي بما يلي:
- الاهتمام بأعلام الفكر في الجزائر وبيان قصودهم وجهودهم في إحياء الحس الوطني في عصر الاستعمار الفرنسي.
- تفعيل التصوص الدينية لتعزيز المواطنة؛ في الحواضن العلمية والتربوية؛ إذ لا انفصام بين المبادئ الإسلامية والمواطنة الإنسانية.
- إعطاء مفهوم المواطنة الذي يُوائم مقومات الأمة وأصولها.

الهوامش والإحالات

- (1) - نجلاء حمادة: المواطنة والنوع الاجتماعي دراسة نظرية، سلسلة دراسات عن المرأة العربية في التنمية (30)، نيويورك، الأمم المتحدة، الولايات المتحدة، (2001م)، ص: 2.
- سنان برا: إشكالية المواطنة - الرعية في التراث السياسي الإسلامي -، المركز الديمقراطي العربي، ط1 برلين، ألمانيا، (2017م)، ص: 69.
- (2) - dans l'antiquité, celui qui jouissait de droit de cité (par opposition aux simples' habitants: esclaves, sujets, étrangers). Guilbert, L; Lagane; R; Niobey ; G. (1989). Grand Larousse dès la langue Française. P 733..
- (3) - علي خليفة الكوراني: مفهوم المواطنة في الدولة الديمقراطية، ملف بحثي، الدوحة: 2000/08/12
ص: 8، تاريخ الدخول: 2019/07/07، على موقع <http://www.arabsfordemocracy.org>
- (4) - عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ط3، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان، دت ج: 6، ص: 373.
- (5) - محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، (1414هـ)، ج: 13، ص: 451.

- (6) - علي بن محمد الشريف الجرجاني: التعريفات، تحقيق: مجموعة من المؤلفين، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، (1403هـ - 1983م)، ص: 253.
- (7) - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (1982م)، ج2، ص: 580.
- (8) - علي بن إسماعيل المرسي ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (1421هـ - 2000م)، ج6، ص: 593.
- (9) - الكيالي، مرجع سابق، ج4، ص: 831.
- (10) - مجموعة من المؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع الرياض، السعودية، (1419هـ-1999م)، ج27، ص: 113.
- (11) - صالح بن عبد العزيز النصار وراشد بن حسين العبد الكريم: التربية الوطنية في مدارس المملكة العربية السعودية - دراسة تحليلية مقارنة في ضوء التوجهات التربوية الحديثة-، بحث منشور في مجلة "القرأءة والمعرفة"، العدد: 99، السنة: يناير (2010م)، ص: 23.
- (12) - الكيالي، مرجع سابق، ج6، ص: 374.
- (13) - محمد بن علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: علي دحروج، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، (1996م)، ص: 1647.
- (14) - محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، (1997م)، ج3، ص: 64.
- (15) - عبدالكريم بكار: تجديد الوعي سلسلة الرحلة إلى الذات، ط1، دار القلم، دمشق، (1992)، ص: 69.
- (16) - الإبراهيمي، مصدر سابق، ج3، ص: 161 وما بعدها.
- (17) - المصدر نفسه، ج3، ص: 163.
- (18) - المصدر نفسه، ج3، ص: 159.
- (19) - المصدر نفسه، ج4، ص: 162.
- (20) - المصدر نفسه، ج3، ص: 47.
- (21) - المصدر نفسه، ج2، ص: 285.
- (22) - علي خذري: اللغة وشخصية الأمة: مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية للجامعة باتنة، عدد: 2 (1994م)، ص: 85.
- (23) - مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ط1، دار الكتب العلمية، (2000م)، ج3، ص: 26.
- (24) - الإبراهيمي، مصدر سابق، ج1، ص: 134.
- (25) - المصدر نفسه، ج2، ص: 439.
- (26) - المصدر نفسه، ج1، ص: 231.

- (27) - أحمد زكي بدوي: معجم المصطلحات السياسية والدولية، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر (1410هـ-1989م)، ص: 26.
- (28) - الإبراهيمي، مصدر سابق، ج3، ص: 201 وما بعدها.
- (29) - المصدر نفسه، ج1، ص: 353.
- (30) - المصدر نفسه، ج3، ص: 302.
- (31) - عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، (17م)، بيروت، لبنان ص: 247. / مجلة الشهاب ج1، م12: 1936م، ص: 43.
- (32) - الإبراهيمي، مصدر سابق، ج3، ص: 315.
- (33) - المصدر نفسه، ج2، ص: 222.
- (34) - المصدر نفسه، ج2، ص: 431.
- (35) - المصدر نفسه، ج3، ص: 262.
- (36) - صفاء يوسف الأعسر: تعليم من أجل التفكير، دار أنباء، القاهرة، مصر، 1998، ص: 15.
- (37) - الإبراهيمي، مرجع سابق، ج3، ص: 272.
- (38) - المصدر نفسه، ج3، ص: 203.
- (39) - المصدر نفسه، ج2، ص: 152.
- (40) - المصدر نفسه، ج3، ص: 315.
- (41) - إيمان حسن: المجتمع المدني والتحول الديمقراطي، ط2، معهد البحرين للتنمية والسياسة، 2017م ص: 17.
- (42) - الإبراهيمي، مرجع سابق، ج3، ص: 303.
- (43) - المصدر نفسه، ج1، ص: 231.
- (44) - عبد الحميد بن باديس: آثار ابن باديس، تحقيق: عمار طالبي، ط1، دار ومكتبة الشركة الجزائرية (1388هـ - 1968م)، ج3، ص: 557.
- (45) - الإبراهيمي، مرجع سابق، ج3، ص: 509.
- (46) - المصدر نفسه، ج2، ص: 134.
- (47) - المصدر نفسه، ج5، ص: 102.
- (48) - محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس، (1979م) ص: 107.
- (49) - ابن باديس، مصدر سابق، ج3، ص: 368.

الهوية الوطنية وروح المواطنة في فكر محمّد البشير الإبراهيمي

The National Identity and the Spirit of Citizenship in the Ideas of Mohamed Bachir El Ibrahimi

د. عيسى بلكرفة

جامعة محمد بوضياف - المسيلة (الجزائر)

belkarefa.aissa@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/09/28

تاريخ الإرسال: 2021/08/20

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز الدور الإصلاحي الذي أدّاه العلامة "البشير الإبراهيمي" تعزيزاً لروح المواطنة وحفاظاً على هوية الفرد الجزائري، بتطبيق قاعدة انتقد ثمّ اعتقد، وهو ما ساهم في توعية الشعب وتحقيق الشعور بالانتماء لهذا الوطن، الذي عملت فرنسا جاهدةً على طمس معالمه وفق مشروعها العابر للقوميات. وسعى "الإبراهيمي" إلى فكّ الاشتباك بين القيم الوطنية، وما درج الاستعمار على تشويهه بشقّي الأشكال، فدافع عن الجزائر وعن عربيتها وإسلاميته، رافضاً التّجنيس والإدماج.

أروم في هذه المساحة البحثية تسليط الضوء على المشروع الفكري الذي انتهجه "الإبراهيمي"، والذي أرسى من خلاله أطر الحفاظ على الهوية، وبيان تجليات مفهوم المواطنة، ثمّ الإحاطة بمختلف التّحدّيات التي واجهها هذا المشروع.

الكلمات المفتاحية: الهوية، المواطنة، الإبراهيمي، المشروع، التّهضوي.

Abstract:

This present study examines the reformist role played by the scholar "Mohamed Bachir El Ibrahimi" in promoting the spirit of citizenship and preserving the identity of the Algerian individual. His contribution is very apparent in building schools and mosques, forming clubs and associations, and enhancing the press and journalism. He applied his rule of "criticize and think" a rule that helped in educating the people and achieving a sense of belonging to this country, which France has worked hard to destroy in accordance with its trans-national project. El Ibrahimi sought to preserve national

values and to fight the colonial policies that aimed at distorting the purity of these values. Indeed, he defended the Algerian entity, Arabism and Islamism, and rejected naturalization and integration. Thus, the study aims to highlight El Ibrahimi's intellectual project, through which he laid down the frameworks for identity and citizenship, and scrutinized the various challenges faced by this project.

Keywords: Identity, Citizenship, Bachir El Ibrahimi, Project, Intellectual.

مقدمة:

يُعدُّ العلامة "محمد البشير الإبراهيمي" (1889-1965م) رقمًا ثقيلًا في معادلة النهضة والتغيير في العصر الحديث، كيف لا وهو رائد من رواد حركة الإصلاح في الجزائر، ورفيق درب الإمام "عبد الحميد بن باديس"، ونائبه ثم خليفته في رئاسة جمعية العلماء المسلمين ولقد تبنى أفكار تحرير الشعوب العربيّة من الاستعمار، وكان صاحب مشروع نهضويّ وطنيّ قوامه تحرير العقول من الجهل والخرافات. كما أنّه أحد أئمة النهضة العلميّة في العالم الإسلامي، ويعدُّ من الأفاضل المعدودين، فيعزُّ أن تجد له نظيرًا في العلم والعمل.

إنّ المشروع النهضويّ الوطنيّ الذي تبنّاه الشّيخ الإبراهيميّ اصطدم بشكل مباشر مع المشروع الاستعماريّ الفرنسيّ الذي يُعدُّ امتدادًا طبيعيًا للحروب الصليبيّة، فإنّ الدواعي والغايات متشابهة هي بسط الهيمنة والسّلطة على هذه المناطق الرّاحرة بثرواتها الطبيعيّة التي يحتاجها المستعمر، ولتحقيق أهدافه جدّد المستعمر في التّخطيط وتنفيذ سياساته وقراراته بُغية طمس الهوية الدّينيّة والوطنيّة للبلدان المستعمرة بغزوها ثقافيًا بمختلف الأدوات والأساليب وهدم مقومات هويتها وقتل روح المواطنة لدى أفرادها ومواطنيها، وبث الفرقة بينهم وتمزيق البلد إلى دويلات لا تقوى على مواصلة حياتها دون الاستعانة بالاستعمار.

والمحافظة على الهوية الوطنيّة التي قوامها (الدّين واللّغة والتّاريخ والثّقافة والعادات والتقاليد) هو أساس مشروع الشّيخ "الإبراهيمي"، وتعزيز روح المواطنة وبناء الفرد والمجتمع هو سلاحه الذي تحدّى به المستعمر، حفاظًا على الأُمَّة فسخر الله لذلك رجالًا مصلحين حملوا لواء الدّفاع عنها.

فما هو مفهوم الهوية الوطنيّة وما هي مقوماتها؟ وما هو مفهوم المواطنة؟ وكيف تبنى الإبراهيمي هذين المفهومين في مشروعه الوطنيّ؟ وكيف دافع عنهما في ظلّ الرّاهن الاستعماريّ؟

1) مفهوم الهوية الوطنية:

إنَّ محاولة وضع تعريف جامع لمصطلح الهوية أمرٌ صعبٌ، لأنَّه حديث النشأة تجاذبته علوم مختلفة، رغم إسهاب الفلاسفة والباحثين لإشباع المصطلح، فالسُّمة تعريف ناجز ونهائي لكلِّ من الثقافة والهوية نستطيع استعارته باطمئنان وتأسيس الكلام على معانيه⁽¹⁾. وتبعاً لذلك فإنَّ مصطلح الهوية لا بدَّ أن يُحمَّل بمضمون فكريٍّ مختلفٍ يحدّد معنى من المعاني التي أُبْس بها المصطلح تبعاً لهذا التخصص أو ذاك، ومن تلك المفاهيم: "أنَّ هوية الشيء تعني ماهيته وشخصيته الموحدة والدائمة، التي تميّزه عن باقي الهويات ويشير مفهوم الهوية عموماً إلى ما يكون به الشيء أصيلاً، أي من حيث تشخيصه وتحققه في ذاته وتمييزه عن غيره فهو وعاء الضمير الجمعي لأيِّ تكثّل بشريٍّ، ومحتوى لهذا الضمير في آن واحدٍ، بما يشمل من قيم وعادات ومقومات تكيف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها"⁽²⁾.

ويُعزى استعمالها الأوّل لعالم النفس الأمريكي "إريكسون" هذا الباحث الذي كان لجهوده أثرٌ كبيرٌ على كلمة الهوية، فقد انتشر مفهوم الهوية بشكل كبير في الولايات المتحدة الأمريكية في الستينيات، ويعدّ هو أب الهوية بلا منازع⁽³⁾.

إذن، فإنَّ مفهومها يتبلور في إحساس الفرد بوجوده، وبأنَّه يعرف من هو وإلى أين يتجه والفرد إن كان لديه شعورٌ قويٌّ بالهوية فإنَّه يرى نفسه إنساناً فريداً متكاملًا تتوافر شخصيته وسلوكه على قدر معقول من الثبات والاتساق على مرّ الأزمان وتعاقبها.

أمّا مفهوم الهوية الوطنيّة (National Identity) فيُقصد به ذلك المركّب الاجتماعيّ الذي يعكس: ثقافة، قيم، تقاليد وتصوّرات الأمة، ويتضمّن القيم المشتركة والرؤى حول ما تمثله مجموعة بشرية ما لأعضائها وللعالم الخارجي، والأدوار التي يُفترض أن تضطلع بها وعبرها يمكن التمييز بين "الأنا" كشخصية وثقافة متميّزة عن "الأخر"، إنّها تعبير عن إحساس ووعي بالإنتماء والتعلّق بالمجموعة، يعبر من خلالها الأفراد من الخصوصية الشخصية نحو بيئة انتماء اجتماعية وثقافية أوسع، فالهوية تظهر كجزء من تكوينهم الوجدانيّ والذهنيّ والتفسيّ قبل أن تكون مكوناً ثقافياً وقانونياً يُرجع إليه، وتتجسّد الهوية الوطنيّة في مجموعة من المقومات الأساسيّة⁽⁴⁾.

إنّ مفهوم الهوية الوطنية في كلّ جماعة هي تلك الخصائص والسّمات التي تميّز بها وترجم روح الانتماء لدى أبنائها، ولها أهميتها في رفع شأن الأمم وتقدّمها وازدهارها، وهذه السّمات تعبّر عن كيانٍ ينصهر فيه أفرادٌ منسجمون ومتشابهون بتأثيرٍ من هذه الميزات والخصائص التي تجمع ما بينهم. ومن منطلق هذا الشعور الوطني؛ فإنّ كلّ فردٍ يستمدّ إحساسه بالانتماء والهوية، ويشعر بأنّه ليس مجرد فرد نكرة، وإنّما هو مشتركٌ مع مجموعةٍ كبيرة من الأفراد في عددٍ من المعطيات والأهداف والمكونات، إضافةً إلى انتمائه إلى ثقافةٍ مركّبة من جملةٍ من الرموز والمعايير والصُّور.

2) المقوّمات الأساسية المشكّلة للهوية الجزائرية:

لم يقتصر الاختلاف فقط على تحديد مفهوم الهوية بل تعداه أيضا إلى الاختلاف في تحديد عناصرها، وفي هذا سرٌّ للمقوّمات الأساسية المشكّلة للهوية في تفاعلها مع شخصيّة الأمة الجزائرية، لنستنتج ماهية الهوية الجزائرية وطبيعتها:

أ- الدين: من الثابت أنّ فكرة التدين لم تفارق البشرية، ولم تخل منها أمة من الأمم القديمة والحديثة لأنّها نزعة أصيلة ملازمة للناس جميعا⁽⁵⁾، يُعبّر هذا التعريف بقوة ووضوح عن أهمية الدين في تشكيل شخصيّة الفرد والجماعة، ومن ناحية أخرى جاز القول أنّ الدين صار مرادفاً للهوية، فهنا الدين هو الحالة النفسية والعقلية والوجدانية للشخص والجماعة وهو المبادئ والقيم والعادات ... ومحضلة هذه العناصر تحيل مباشرة إلى مفهوم الهوية. فللدين تأثير مباشر في تشكيل هوية الجماعة خاصّة إذا علمنا أنّه ظاهرة تنفّس في المجتمع فتصير ظاهرة جماعية، فهنا أيضا تكمن خطورتها، فالممارسة الدينية لا تأخذ شكل الممارسة الفردية المستقلة، بل تكون ممارسة جماعية يبلغ خطرها مع ما يبتدعه عقل الإنسان وخياله وباختصار فإنّ الدين أفيون الشعوب.

والحديث عن المجتمع الجزائري يفرض علينا الحديث عن الدين الإسلامي مباشرة باعتباره الدين الأكثر انتشارا في ربوع الوطن، ولكن لا يمكننا رسم الهوية الجزائرية من منطلق الدين الإسلامي فقط بل يحتاج ذلك إلى عناصر أخرى لتتضح صورة وشكل هذه الهوية، إلا أنّ ذلك لا يعني ثقل وزن هذا المكوّن في تشكيل الهوية.

ب- اللغة: تعدّ اللغة من الركائز الأساسية لمفهوم الهوية، فقد نعتقد في سداجة أنّ اللغة ما هي إلا وسيلة تواصل وخطاب، غير أنّ اللغة تقوم بأدوارٍ أهم من ذلك بكثير بحسب رأي الباحث "الشريف كرمة" الذي يقول: "إنّ اللغة فكر ووجدان وإرادة، تتجلى في المهارات وتؤدّي وظائف التفكير والتعبير والتواصل. واللغة العربيّة من بين اللغات العريقة التي كانت ولا تزال موضع عناية واهتمام العلماء على مرّ الدّراسات، لأنّها لغة القرآن الكريم. قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف، 02] وقال عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة طه، الآية 113] (6).

ولا يمكن الحديث عن اللغة دون الحديث عن الهوية، لأنّ اللغة تحمل هوم متكلميها وتنظّم سلوكهم وتفاعلمهم وتوحد انتماءهم. فقيمة اللغة إذن؛ ليست في طبيعتها ولا تقع في أساس مكوّناتها الداخليّة إنّما هي فكرة أو مفهوم أو صفة ميّزها الناس بها وتفاهموا على الاعتراف بها واعتبارها فيها دون سواها. وهي بالتالي تحليل رؤية هؤلاء الناس للواقع الذي يعيشونه وتعكس انطباعاتهم وتلقيهم للأحداث التي يمرّون بها (7).

ت- التاريخ: يعدّ التاريخ حاضنة مهمّة لمجمل عناصر الهوية، ففيه نحصل على جميع الحلقات المرتبطة بشخصيّة الأمة وهويتها و"ليس التاريخ وقائعا تروى وأحداثا تسرد، ولكنّه في حقيقته وجوهره، سريان الماضي في الحاضر بما يعنيه هذا السريان من الوعي بالإطار الثقافي لهذا التاريخ والذي يبلور ويكرّس بأنّ الانتماء العقدي والفكريّ لأمة يجسّده تاريخها" (8). وبذلك يخطئ من يعتقد أنّ التاريخ سجّل ميّت، فالّتاريخ بتكريسه لهذا الانتماء العقديّ والفكريّ للأمة يكون في ذات الوقت موجّها لحركة الأمة وخياراتها بحسب هذه الثوابت التي تنطلق منها من حيث الانتماء العقديّ والفكريّ.

وللحديث عن خصوصيّة الشعب الجزائري نوّكد على أنّ التاريخ بصفته مقوما من مقومات هويّته، فحتّى وإن انضوى الشعب الجزائريّ تحت مسمى الهوية العربيّة الإسلاميّة باعتبارها هويّة الأمة جمعاء، إلا أنّ تاريخ هذه المنطقة يحدّد خصوصيّة هذا الشعب عن غيره من شعوب الأمة، وذلك لاختلاف تاريخ منطقة شمال إفريقيا عامّة عن تاريخ غيرها من الشعوب.

ث- **الثقافة:** هي قضيّة جوهرية في مفهوم الهوية ولا نقصد بالثقافة هنا المعرفة، وإّما نقصد المصطلح الذي بلوره علماء الإنسان في القرون المتأخرة، وهو عندهم يطلق على "ذلك الكلّ المركّب المتجانس من العقائد والقيم والأفكار والمعايير والرموز والتعبيرات والإبداعات وأنماط العيش التي تشكل قوام الحياة لمجتمع من المجتمعات، والثقافة بهذا الشمول هي ذات الأمة وآداتها في التعرف على العالم والتعامل معه"⁽⁹⁾. فالحديث عن مفهوم الثقافة بهذا الشكل فإنّه يلامس جملة من العناصر كالمعتقدات والفنون والأخلاق والعرف والعادات والتقاليد... والهوية الثقافية لمجتمع ما تُعدّ القدر الثابت والجوهري والمشارك من المميّزات والسمات العامة التي تميّز كلّ حضارة أو مجتمع من الآخر، وهي عبارة عن ثقافة ما، أو هوية لمجموعة ما أو شخص ما. وتتضمّن في معناها عدداً من القيم والمعايير، إضافة إلى هذا، فهي تعني التناسق بين العقل والهوية عن طريق نبذ التعصّب والتطرّف العرقيّ والطائفيّ في شتى صورته وأشكاله. وتعرّف أيضاً بأنها مركّب متجانس من التصوّرات والدكريات والرموز والقيم والإبداعات والتعبيرات والتطلعات لشخص ما أو مجموعة ما، وهذه المجموعة تشكل شعباً بهويته وحضارته التي تختلف من مكان إلى آخر في العالم.

وثقافة المجتمع الجزائري متنوّعة تنوع الحضارات المتعاقبة التي استوطنت المنطقة من فينيقيين ورومان وبيزنطيين ووندال وصولاً إلى الحضارة العربية الإسلامية، ثم احتكاكه بالحضارة الغربية من خلال اللّغة الفرنسيّة التي يعتبرها البعض غنيمة حرب.

ج- **القيم والمعتقدات والأعراف:** لعلّ القيم والمعتقدات وما تعارف عليه أفراد المجتمع من نظم تسيّر حياتهم ومبادئ يلتزمون بها وقوانين يعودون ويحتكمون إليها، تمثل وجهها من أوجه المجتمع، وقد تبدّى ملامح خصوصيّتهم بحيث "كلّ مجتمع يفرز نظام المعتقدات والقيم الذي يليّ مطالبه، ويتواءم مع نمطه الاجتماعيّ السائد"⁽¹⁰⁾.

وبالرّجوع إلى المجتمع الجزائريّ فإنّ للقيم الرّوحية والأخلاقيّة مكاناً هاماً مقارنة بالقيم الماديّة، فهناك الكثير من القيم التي توارثها الجزائريّ جيلاً بعد جيل وقد تعامل معها بكل احترام وبنوع من التقديس يقول عبد المالك مرتاض: «وهذه العادات والتقاليد الاجتماعيّة من جملة التي تميّز الشعوب بعضها عن بعض، وإنّ هذه العادات يقوى سلطانها في أنفس

الناس داخل المجتمعات حتى تصبح لها قوة القاعدة المتبعة وحكم القانون الكلي فتراهم يحترمونها احترامهم للمبادئ الدينية أو أشد من ذلك أحياناً»⁽¹¹⁾. كما أنّ حرص الجزائريين على اتباع العادات واحترام التقاليد القومية، مما حصّن الشخصية الجزائرية وحفظها من الاضمحلال أو الضعف.

3) مفهوم المواطنة:

تعرف المواطنة لغة على أنّها مشتقة من كلمة الوطن وهو المنزل الذي يقيم فيه الإنسان ويقال وطن بالمكان وأوطن أي أقام ... وأوطن فلان أرض كذا أي اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيه»⁽¹²⁾.

ويعود أصل الكلمة الإنجليزية Citizen والفرنسية Citoyen إلى كلمة Civis الإغريقية القديمة، والتي تعني الشخص القاطن في المدينة Civitas، وتقترب كلمة Civis بمعنى مواطن من كلمة Civil (بالفرنسية والإنجليزية) والتي تعني كلمة مدني، وترتبط كلمة مدني بدورها بمجتمع مستمر ينظم العلاقة بين أفرادها، وبينهم وبين الدولة حسب القانون، أمّا في اللغة العربية فكلمة مواطن مشتقة من الوطن⁽¹³⁾.

وجاء في معجم المجلس الأوروبي حول (مصطلحات التريّة على المواطنة الديمقراطية) المنجز من طرف Karen O'shea أنّ المواطن بصفة عامة يطلق على شخص يعيش مع أشخاص آخرين في مجتمع معين⁽¹⁴⁾. ولا تفرق بعض المراجع الغربية بين المواطنة والجنسية وتعرف موسوعة (كولير) الأمريكية المواطنة Citizenship بأنها أكثر أشكال العضوية اكتمالاً في جماعة سياسية⁽¹⁵⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنّنا لا نكاد نعر على كلمة (المواطنة) في التراث العربي الإسلامي غير أنّ ما تعبّر عنه هذه الكلمة في العصر الحاضر، من قيم الحرية والعدل والمساواة والمشاركة والمسؤولية، تعدّ من المبادئ التي دعا إليها الإسلام، وهناك من يرجع استعمالها إلى المحاولات الأولى لبناء مجتمع ديمقراطي في أئينا.

وتعرف المواطنة على أنّها "اصطلاح يشير إلى الانتماء إلى أمة أو وطن"⁽¹⁶⁾، وهنا إشارة إلى الرابطة الوجدانية والشعور الذي يجعل الفرد مرتبطاً بجهة محددة سواء أكانت وطنه

أم أمته. ويعني أنّ مفهوم المواطنة يختزل في علاقة الشّخص بدولته، وما ينجّر عن تلك العلاقة من حقوق والتزامات.

بناءً على ما سبق يمكن القول إنّ مفهوم المواطنة لا يمكن أن يتحقّق إلّا بتوافر الشُّروط التّاليّة معاً:

- علاقة بين الشّخص والدّولة في ظلّ قانون تلك الدّولة.
- حقوق وواجبات متبادلة.
- الشُّعور بالانتماء للوطن والدّفاع عن قضاياه والمساهمة في نموه.

4) علاقة الهوية بالمواطنة:

انطلاقاً من البسط المفهوميّ لكلّ من الهوية والمواطنة اتّضح أنّ العلاقة بينهما علاقة اتّصال لا علاقة انفصال وأنّ مفهوم المواطنة وأبعادها ما هو إلّا نتاج مكتسب لتمسك المواطنين بثوابت الهوية، فهو مكسب يتحقّق وفق ما يتوقّر له من شروط، فالمواطنة دعامة للهويّة وامتداد لها. وإذا كانت الهويّة الوطنيّة تشير إلى حب الوطن والارتباط به، والانتماء الوطني، وما ينتج عن ذلك من استجابات عاطفيّة، وروحيّة تكمن وراء سلوك المواطنة، وإذا كانت المواطنة تعني، ترجمة سلوكيّة وعملية للشُّعور بالهويّة الوطنيّة، فإنّ المواطنة تعكس الممارسات من حقوق وواجبات تجاه الوطن، مع الالتزام بمبادئ وقيم، وعادات، وقوانين المجتمع، من خلال المحافظة على مكتسبات الوطن والرّقيّ به، وترتبط كلّ مواطنة بالمكوّنات المجتمعيّة السائدة من معتقدات دينيّة وقيم ورموز وعادات وتقاليد وأعراف... إذ تؤثّر كلّها على تمثّل المواطنة لدى المواطنين ودرجة وعيهم بواجباتهم وحقوقهم وكلّ ما يربطهم بالأمة.

والعلاقة بين الهويّة الوطنيّة والمواطنة هي علاقة تلازميّة أيضاً لأنّ الهويّة الوطنيّة تمثّل الجانب الرّوحيّ والعاطفيّ بالأرض والمجتمع، وهي تعبير قويم يعني حبّ الفرد وإخلاصه لوطنه الذي يشمل الانتماء إلى الأرض والعادات والتقاليد والفخر بالتاريخ والتّفاني في خدمة الوطن والدّفاع عنه، في حين تمثّل المواطنة الجانب السلوكيّ لهذا الشُّعور الرّوحيّ والعاطفيّ فالهويّة الوطنيّة هي النّظارة التي من خلالها يرى المواطنون ما هو مناسب وغير مناسب، صالح وغير صالح لوطنهم، لأنّه مبنيّ على قاعدة من المعتقدات والقيم والمبادئ والمعايير التي تمثّل

هويّة الشّعب، وتّضح العلاقة بين الهوية الوطنيّة والمواطنة في أنّ الهويّة ملازمة للمواطنة لكونها السّمة العضويّة والقانونيّة والأخلاقيّة والسياسيّة للمواطنين المنضوين تحتها، وعليه فإنّ الهويّة الوطنيّة هي المعيار الذي يرى من خلاله المواطنون أنفسهم في وطنهم.

5) المشروع الاستعماري وتحدي الهوية الوطنية:

جند الاستعمار الفرنسيّ لتحقيق غاياته الخبيثة خبراه من الفلاسفة والمستشرقين والضباط ممّن لهم معرفة بالإسلام واللّغة العربيّة، لدراسة مميزات الشّعب الجزائريّ ومعرفة مداخل التّأثير فيه. وقد وجدوا أنّ الشّعب الجزائريّ يتميّز بتمسّكه بدينه واعتزازه بلغته العربيّة، وحبّه لوطنه وأرضه وغيرته على عرضه وشرفه، وعليه فإنّ السّبيل للسيطرة على هذا الشّعب يكمن في إحداث التّغيير المرغوب في ذهنيته، وإعادة تشكيلها بما يتلاءم مع أغراض السياسة الاستعماريّة، لأنّ بقاءه متمسّكا بهويّته الثّقافيّة العربيّة الإسلاميّة وبشعوره الوطنيّ يعطيه مناعة تحصّنه ضدّ التّأثيرات التي تأتيه من خارج ذاته، ومن هنا بدأ التّخطيط لسياسة استعمارية تدميريّة تستأصل مقومات الهويّة وتقتل فيه روح المواطنة، ومنها:

أ- استراتيجية القضاء على الدّين (التّنصير): وهناك شواهد تاريخيّة كثيرة تثبتّ انتهاج الاستعمار لسياسات التّنصير في محاولة لإخراج المجتمع الجزائري من دينه بإغرائه أو إرغامه على اعتناق الديانة المسيحيّة التي تحوّل له الحصول على الحقوق مثل أفراد المجتمع الفرنسيّ. يقول الكاردينال "لافيجيري": "علينا أن نخلص هذا الشّعب ونحرّره من قرآنه، وعلينا أن نغني على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير التي شبّ عليها أجدادهم، فإنّ واجب فرنسا هو تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصّحراء بعيدين عن العالم المتحضّر"⁽¹⁷⁾.

ب- استراتيجية القضاء على اللّغة العربيّة: أصدر الحاكم العام الفرنسيّ للجزائر في 24 ديسمبر 1904م قرارا ينصّ على عدم السّماح لأيّ معلم جزائريّ أن يفتح مدرسة لتعليم العربيّة دون الحصول على رخصة من السّلطة العسكريّة بشروط. وفي 8 مارس 1938م أصدر رئيس وزراء فرنسا "كامي شوطون" قرارًا نصّ على حظر استعمال اللّغة العربيّة واعتبارها لغة أجنبيّة في الجزائر. وجعل اللّغة الوحيدة للبلاد هي اللّغة الفرنسيّة، ومُنع أساتذة جمعيّة العلماء المسلمين من التّدريس، حيث نصّ القرار على إغلاق المدارس العربيّة الحرة

التي لا تملك رخصة العمل، ومنع كل معلم تابع للجمعية من مواصلة التعليم في المدارس المرخصة إلا بعد أن يتحصل على رخصة تعليم تقدمها له السلطات المعنية، لكن السلطات الفرنسية أمتعت عن إصدار الرخص رغم الطلبات العديدة التي قدمت⁽¹⁸⁾. وكاد الاحتلال أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو، لولا تدخل جمعية العلماء المسلمين وما عاجلته بين (1938-1962م) مقاومة لأعماله وتخييبا لآماله.

ت- استراتيجية تعريف التاريخ والجغرافيا: بما أنّ مادتي التاريخ الوطني والجغرافيا من المواد العلمية ذات الاستراتيجية الخطيرة في بناء الكيان القومي والوطني، فقد ركزت عليهما جهود الاحتلال بالمسح والتشويه، ففي مادة التاريخ كان أطفال الجزائر في مدارس الاحتلال يدرسون أنّ الجزائر قديما تسمى "الغال" وكان أجدادنا يسمون "الغاليين" تماما مثلما كان يدرس التلميذ الفرنسي في مقاطعة "نورماندي". والقصد من هذا هو المسح والتشويه للتاريخ الوطني، وهم يعتقدون منذ الصغر بأن أصل أجدادهم ينحدر حقيقة من الغاليين في جنوب فرنسا، وأسرع استجابة لقبول نتائج سياسة الفرنسية، والتنصير، والإدماج في فرنسا، وهي السياسة التي تهدف إلى محو شخصية وطنهم القومية محوا كاملا.

كانت جغرافية الجزائر تدرس لأبناء الجزائريين في المدارس الفرنسية وكان المنهاج يحاول أن يغرس في أذهان التلاميذ الجزائريين أنّ بلادهم جزء لا يتجزأ من الوطن الفرنسي (الأم) وأنّ الجزائر تمثل ثلاث مقاطعات فرنسية في ما وراء البحر المتوسط. وذلك لأنّ الجغرافية مثل التاريخ "مادة ذات طبيعة استراتيجية" خطيرة من ناحية تكوين الروح الوطنية والقومية لدى المتعلمين، وبناء شخصيتهم القومية بناء سليما، ويفدوه بكلّ نفس ونفيس في الوقت الذي لا يعرفونه معرفة جيدة في مختلف مراحل تاريخه، وفي موقعه الجغرافي ومكانته الاقتصادية والسياسية بين الشعوب الأخرى، كما لا يرون بعيونهم ما يدره عليهم من منافع وخيرات⁽¹⁹⁾.

ث- استراتيجية تشويه الثقافة: كلّ بلد نُكِبَ بالاحتلال العسكري، كان مصحوبا بالغزو الثقافي، خصوصا المستعمرات الفرنسية. وهو ما يعرف بالاستعمار الثقافي والذي يعدّ أشدّ خطرا من الاستعمار العسكري لأنّ هذا الأخير يمكن التخلص منه نسبيا بخلاف الاستعمار الثقافي الذي يعمد إلى إفساد العقل والفكر والروح وتشويه الشخصية الإنسانية للأفراد والجماعات.

ج- استراتيجية تشويه العادات والتقاليد: حيث صار الجزائريون يمارسون طقوسًا ما كانت من عادات وتقاليد المجتمع ولا من شيم ثقافته، وإنما في حقيقتها هي من صنع المستعمر وأحد خططه لتثبيت خطواته وحده في الوسط الشعبي، وتجدد الإشارة هنا إلى أن المجتمع الجزائري ورث عن الاستعمار الفرنسي سلوكيات اجتماعية سيئة لا تزال إلى حد اليوم متفشية في أوساط أفراد المجتمع.

خلف الاستعمار الفرنسي كل هذه الآثار السلبية في محاولة جادة لحو ومسح وتذويب المجتمع الجزائري في بوتقة وهوية الأمة الفرنسية، ولم تأت النتائج المناسبة مع الجهود المبذولة من أجلها، وكان الحائل الأكبر دون تحقيق الفرنسية والتتصير ونشر التفرقة والعداوة بالكيفية التي أرادها الاحتلال هو الاختلاف الجذري في العقيدة الدينية، وما نتج عن ذلك من اختلاف حضاري وثقافي جعل من المجتمع الفرنسي والمجتمع الجزائري نقيضين حقيقيين يفرقهما كل شيء.

6) استراتيجية بناء الهوية وتعزيز روح المواطنة الذي يحمله "الشيخ الإبراهيمي":

عملت فرنسا على سلخ الجزائر عن هويتها العربية والإسلامية، وأدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" وصديقه "محمد البشير الإبراهيمي" أكبر الأدوار في مواجهة الغزو الثقافي الفرنسي، وتمكنت من إنشاء مدارس عربية وإسلامية في مناطق عدة في الجزائر، وأيقنوا أن العمل يجب أن يقوم - في البداية - على التربية الإسلامية لتكوين قاعدة صلبة فتم تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

إن المتتبع لاستراتيجية الشيخ العلامة في سبيل تعزيز روح المواطنة وبناء الهوية يجده يركّز على ثلاثة محاور أساسية: الدين الإسلامي - اللغة العربية - والوطن، هذه المحاور سخر لها فكره وقلمه وحياته قصد تجسيد مشروع نهضويّ إصلاحيّ يجابه به المشروع الاستعماريّ الداعي إلى تذويب الفرد الجزائريّ وطمس هويته، وسعى إلى بناء أمة بكلّ مقوماتها في الجانب العقديّ والتربويّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ، وفيما يلي شرح لاستراتيجية الشيخ الإبراهيمي في مواجهة السياسة الاستعمارية:

أ- **جهوده في الدفاع عن الدين:** أدرك الشيخ أنّ "الطُّرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرّق المسلمين وأنّها هي السَّبب الأكبر في ضلّالهم في الدِّين والدُّنيا، وأنّنا حين نقاومها نقاوم كلّ شرٍّ، وأنّنا حين نقضي عليها فإنّنا نقضي على كلّ باطل ومنكر وضلال، ونعلم زيادة على ذلك أنّه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أيّ فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطُّرفيّة المشؤومة"⁽²⁰⁾. وكان منتهى غاية الشيخ الإبراهيمي رجوع الجزائريين إلى كتاب الله وسنة رسوله حيث قال: «... يصبح فيه المسلمون كلّهم بهذا الوطن ولا مرجع لهم في التماس الهداية، إلّا كتاب الله وسنة رسوله ولا سلطان على أرواحهم إلّا الله الحي القيوم ولا مصرّف لجوارحهم وإرادتهم إلّا الإيمان الصّحيح»⁽²¹⁾. ورجوع المجتمع الجزائري إلى كتاب الله وسنة رسوله، إمّا هو تحدٍ للمحاولات الاستعمارية وللسياسات التي انتهجتها، ولحركة التنصير التي أرادت من خلالها نشر المسيحية والقضاء على الإسلام، ولكن خططهم باءت بالفشل وبقيت الجزائر إسلامية وبقيت محافظة على هويتها الدنيّة رغم كيد الكائدين.

ب- **جهوده في الدفاع عن اللغة:** كان الشيخ البشير الإبراهيمي، رفقة أقطاب جمعية العلماء المسلمين الحصن المنيع الذي كان يدافع عن اللغة العربية من خلال إيمانه القوي بالمواطنة اللغوية كونها هوية المجتمع وركيزته التي حاول الاستعمار الفرنسي محوها.

كتب البشير الإبراهيمي مقالا له بعنوان "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها ضرة" واستفتح مقاله قائلا: «اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة؛ بل هي في دارها وبين حماها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفتان في المستقبل»⁽²²⁾. ويقول في موطن آخر: «هذه العروبة الأصيلة العريقة في هذا الوطن، هي التي صيرته وطنا واحداً لم تفرقه إلّا السياسة...»⁽²³⁾ ذلك في سياق كلامه عن "عروبة الشمال الإفريقي" كما هو عنوان المقال.

إنّ الاستراتيجية التي انتهجها الإبراهيمي في دفاعه عن هوية الشعب الجزائري التي عربها الإسلام والتفت حولها شعب الجزائر المتعدّد الاثنيات، نابعة من اعتزازه بانتمائه وتثمينه للغة التي أكرمها الله بأن كانت لغة آخر الكتب السماوية، لغة القرآن الكريم، لغة الحضارة والرقي، يقول: «إنّ العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستع من اللغات

الأخرى إلا قليلا من المفردات... ولو لم تكن العربيّة لغة عالميّة لما وسّعت علوم العالم وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون»⁽²⁴⁾. فأساس بناء المواطنة وتعزيز الهوية نابع من روح الانتماء والاعتزاز بمقومات الأمة.

ت- جهوده في تحرير الوطن: لم يتوان الشيخ الإبراهيمي في مساندته للثورة التحريريّة حيث أصدر بيانا مع "الشيخ الفضيل الورثياني" في مكتب جمعية العلماء المسلمين بالقاهرة وكان ذلك يوم 02 نوفمبر 1954م ووزع حينها على الصحافة المصريّة ووكالات الأنباء العالميّة ومّا جاء فيه: «إنّ فرنسا ابتلعت أجزاء الوطن الواحد على ثلاث لقم، ثمّ أوهمتنا وأوهمت العالم أنّ هذه العمليّة لا تسمّى ابتلاعا، ومّا هي تكييف كيميائيّ تصبح به أمة متمدّنة وكذبها الله وكذبها كعب السوء فيها فكنا في حشاشها أشواكا تخز وأوجاعا تؤلم فإذا هدأ الوخز والإيلام فإمّا هي هدأة عارضة ثمّ تعود وستلفظنا مكرهة عند الحشرجة الأخيرة من حياتها، وسنكون سبب موتها»⁽²⁵⁾.

وأصدر أيضا بيانا آخر يوم 11 نوفمبر 1954م ووزع حينها على وسائل الإعلام المصريّة ووكالات الأنباء العالميّة ومما جاء فيه: «انفجر بركان الثورة المباركة ليلة اليوم الأوّل من نوفمبر الحالي وقد كُنّا نحن الجزائريين الموجودين خارج الجزائر نترقب هذه الثورة ونتوقعها، نترقبها لأنّها الأمل الوحيد في تحريرنا من العسف الفرنسي الذي لا يعرفه إلا من ابتلي به، ونتوقعها لأن هذا هو وقتها، ولأنّ فرنسا لا تفهم إلاّ هذه اللغة ولا تفتح آذانها إلا لهذا الصوت»⁽²⁶⁾.

إنّ هذه الجهود التي بذلتها جمعية العلماء المسلمين عامّة والشيخ الإبراهيمي خاصّة لم تكن جهودا قوليّة تمثّلت في إصدار البيانات فحسب بل كانت حسب الشيخ أحمد حمّاني "قولا وعملا وسعيا وجهادا متواصلًا، وتضحيات عزيزة وآلاما جسمية ونفسية كان لها الأثر الأكبر والحظ الأوفر فيما وصلت أمتنا إليه، ولولا أنّ هذه الحركة قد مهّدت للثورة المسلّحة التي نشبت عام 1374هـ (1954م) لما قدر لها أن تجد من النّجاح الباهر ما وجدته»⁽²⁷⁾.

ث- جهوده في الدّفاع عن التاريخ: لم يكتف الشيخ الإبراهيمي بالدّفاع عن الدّين والعروبة فقط بل سعى جهده إلى الدّفاع عن باقي عناصر ومكوّنات الهوية الوطنيّة دون إقصاء، ومن صور دفاعه عن تاريخ الجزائر المجيد يقول ردّا على محاولات فرنسا لتشويه

التاريخ وإدعائها بأنّ الجزائر فرنسية، من خلال الطرح الذي تقدم به الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي "موريس توريز" بقوله: «إنّ الجزائر ليست وطنًا موجودا بل وطنًا يتكوّن»⁽²⁸⁾. وهو ذاته الموقف الذي تبناه "شارل ديغول" بقوله: "إنّ الجزائر لم تكن أمة ولا دولة، ولا حتى شعبًا في تاريخها، بل ولم يكن لها أبدًا من تاريخ تشير هكذا سيهلك، عشائر مركزشة متنافرة وأحلاطًا بعداوات سافرة، غير متجانسة، بل هي متناحرة، ليست بشعبها ولكنها أشتات متداحرة»⁽²⁹⁾.

إنّ هذا من قبيل الحرب التّفسيّة التي مارسها الاستعمار الغاشم وتصدّى لها الشيخ الإبراهيمي بإماطة اللّثام عن هذه السّياسات والمكائد والتّنبية إليها "لذلك كان - الشيخ الإبراهيمي - يؤمن بأنّ الدّفاع عن الوطنيّة يكون بالوقوف أمامها، وكبت جماحها، وتحرير العقول والأبدان من عوائدها الشّيطانية"⁽³⁰⁾.

إنّ قراءة الشيخ الإبراهيمي لواقع المجتمع الجزائري وفي ظلّ الرّاهن الاستعماريّ الذي بذل أقصى ما يمكنه لفرنسة الجزائر وتنصيرها بل ومحو هويتها، جعله يدرك أنّ الأمة بحاجة إلى بناء الإنسان وصنع الرجال، أكثر من تأليف الكتب، حتى اعتبر مع رفيق دربه الشيخ "عبد الحميد بن باديس" أنّ الشعب الجزائري ليس في حاجة إلى تأليف الكتب بقدر ما هو بحاجة إلى تأليف الرجال.

7) الوسائل التي اعتمدها الإبراهيمي في مشروعه الوطني:

اشتغل الشيخ على العديد من الوسائل والآليات التي من شأنها أن تجسّد مشروعه الوطنيّ للحفاظ على الكيان والشّخصيّة الوطنيّة الجزائريّة، حيث ركّز على المدارس والمساجد والنّوادي والصّحافة... ومن تلکم الوسائل:

أ- المدارس: يعتبر الشيخ التّعليم نوعًا من الجهاد، ويعتبر المعلمون مجاهدين يستحقّون أجر الجهاد، لأنّ التّعليم هو عدو الاستعمار الألدّ، وهو أساس الوطنيّة⁽³¹⁾. والأداة الأضمن للحفاظ على الهويّة الوطنيّة، التي كانوا يعتقدون أنّها مهدّدة بالابتلاع من قبل الثّقافة والفكر الفرنسيّ، لهذا حرص الإبراهيمي على بناء المدارس استكمالًا لمشروع جمعيّة العلماء المسلمين، وكان يرى أنّ للأجيال اللاحقة علينا حقًا يجب تأديته يقول: «للجيل الآتي علينا حقوق أولية مؤكّدة، لا تبرأ ذمتنا منها عند الله إلا إذا أديناها كاملة غير مبخوسة»⁽³²⁾.

ب- المساجد والنوادي: رغم اهتمام الجمعية الكبير بالمدارس إلا أنّها لم تهمل المسجد الذي كان له دور كبير في بلورة فكرة الإصلاح التي تبنتها جمعية العلماء، وقد بين الشيخ أنّ المسجد لا يقصر دوره على تأديّة الفروض الدّينية فحسب بل استغلّه من أجل هيكلة الفئات الشّبانية وتنظيمهم في منظمات قومية، كالجمعيات الرّياضية والفنية والكشافة، بقصد ربطهم في شبكة محكمة من العلاقات الاجتماعية والدّينية والوطنية بهدف حماية الشّباب من الانحراف الدّيني والفساد الخلقي، وتربيته تربية عربية إسلامية وتعزيز روح المواطنة وتنشئة فرد سويّ متمسك بهويته.

ت- الصحافة: لقد كانت الصّحافة من أهم الوسائل التي اعتمدها الشيخ الإبراهيمي في مشروعه الوطنيّ فالصّحافة هيأت الأرضية المناسبة لكلّ المصلحين لاقتناع المجتمع بالتّغيير وقبوله بالابتعاد عن الخرافات والأباطيل والدّفاع عن الهوية الوطنيّة؛ الدّين واللّغة والوطن وللإشارة فإنّ أهمّ دور قام به الشيخ الإبراهيمي هو إعادة إصدار جريدة البصائر عام 1947م، والإشراف عليها، حيث كان يعتبر صوتها صوت العرب⁽³³⁾. وإحدى الألسن الأربعة الصّامته لجمعية العلماء المسلمين.

ث- التّشاط الدّبلوماسي: قام الشيخ الإبراهيمي بالعديد من الأنشطة من أجل تحسيس الشعوب العربيّة بالقضيّة الجزائريّة والمساعدة إلى دعمها ضدّ الاستعمار الفرنسيّ، إضافة إلى التّأثير على الجزائريين للالتفاف حول الثّورة الجزائريّة وبث الحماس والغيرة للدّفاع عن القضيّة الوطنيّة وبقيت كلماته خالدة تتعاطاها الأجيال دفاعا عن الأمة وحبّا للوطن.

ويذكر أنّ الشيخ وبعد تضيق الخناق عليه في الدّاخل سافر إلى فرنسا سنة 1952م والذي صادف انعقاد جمعية الأمم المتّحدة بها، فاتصل بالوفود العربيّة والإسلامية وأقام على شرفهم مأدبة عشاء باسم جمعية العلماء المسلمين⁽³⁴⁾ وألقى خطبة بليغة أثّرت في نفوس الحاضرين، وعدّ هذا اللقاء التّاريخيّ فرصة لتوثيق الصّلة بالبلاد العربيّة والإسلامية، والتّشاور حول ما يخدم العرب والمسلمين.

انطلاقا مما سبق يمكن القول أنّ الشيخ الإبراهيمي اعتمد على الكثير من الوسائل منها: المدارس والمساجد والنوادي والصحافة لما لها من أهمية في إيصال أفكاره الإصلاحية

ليس فقط كما كتب عنها الكثير وإنما من خلال شهادات من عايشوا المرحلة عن كتب من تلامذته الذين أجمعوا وأكدوا أنّ الرجل حقيقة هو رائد من رواد النهضة الجزائرية الحديثة.

خاتمة: نخلص في النهاية إلى القول:

- إنّ الاستعمار الفرنسيّ هو سبب بلاء الشعب الجزائريّ وسبب تخلفه وتراجعه الفكريّ والماديّ والروحيّ، من خلال سياسته الشنيعة التي تهدف إلى سلخ مقومات الشخصية العربية الإسلامية، وتزييف تاريخ الأجداد، ونشر المسيحية والتنصير، وقتل العقائد الصحيحة وإحلال الطريقة المنحرفة محلّها.
- إنّ التّحدي الكبير الذي أسّس عليه الشّيخ العلامة مشروعه النهضويّ الإصلاحيّ قائم بالأساس على تحرير العقول أولاً قبل تحرير الأبدان، حيث يرى أنّ الاستعمار الحقيقيّ تمثّل في الجهل والشرك والوثنية والزوايا والطريقة المنحرفة والبدع والخرافات، فإذا تمّ القضاء على هذا الاستعمار الروحي سهل أمر الاستعمار الآخر.
- إنّ الأمة بحاجة إلى بناء الإنسان وصنع الرجال، أكثر من تأليف الكتب، وأنّ الشعب الجزائري ليس في حاجة إلى تأليف الكتب بقدر ما هو بحاجة إلى تأليف الرجال.
- إنّ الانتماء المادي والمعنويّ للوطن يعني الاعتزاز بكلّ مقومات الهوية والاهتمام بالتراث والعادات والتقاليد والأعراف، ودراسة التاريخ الحقيقي من شأنه أن يرسخ الروح الوطنية ومن شأنه تقوية مشاعر حب الوطن والانتماء إليه وتعزيز روح المواطنة لدى مختلف أطياف المجتمع.
- إنّ المتمسك بهويته الثقافية العربية الإسلامية وبشعوره الوطني يعطيه مناعة تحصنه ضدّ التأثيرات التي تأتيه من خارج ذاته، ومن كلّ المحططات الاستعمارية التدميرية لمقومات الهوية، ومن بين هذه المقومات اللغة العربية والدين الإسلامي.
- رغم تناول الباحثين لجوانب كثيرة متعلقة بحياة الرجل إلا أنّها تبقى قليلة مقارنة بما قدمه الرجل كيف لا وقد صرح ذات يوم بأنه يعيش من أجل الإسلام والجزائر.

الهوامش والإحالات

- (1) - هشام مناع، صناعة الهوية، <https://haythammanna.net/identity>، تاريخ الزيارة: 2021/4/25م في الساعة: 10:25.
- (2) - أسماء بن تركي، الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات السوسيو ثقافية للمجتمع الجزائري، مجلة العلوم الإنسانية، 2010، ص: 631.
- (3) - زكريا نوار، خطوة نحو التأسيس ... الأدب والانتماء، <https://www.djazairiss.com/elhiwar/25917>، تاريخ الزيارة: 2021/4/25م في الساعة: 10:35.
- (4) - أسماء بن تركي، الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات السوسيو ثقافية للمجتمع الجزائري، ص: 632.
- (5) - محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1991 ص: 31.
- (6) - الشريف كرم، اللغة العربية وعلاقتها بالهوية، تاريخ الزيارة: 2021/4/26م، في الساعة: 12:00. <https://Annales.univ-mosta.dz/index.php/archive/131.html>
- (7) - بسام بركة، اللغة العربية القيمة والهوية، مجلة العربي، العدد 528، نوفمبر 2002، ص: 86.
- (8) - حسن الوراكلي، المسلمون وأسئلة الهوية، جمعية البحث الإسلامي، تطوان، ط1، 2000م، ص: 70.
- (9) - زهير سعد عباس، ظاهرة العولمة وتأثيرها في الثقافة العربية، رسالة ماجستير، إشراف: سويلم العزي الأكاديمية العربية، 2008/2007، ص: 61.
- (10) - نبيل علي، منظومة القيم والمعتقدات: منظور عربي معلوماتي، الثقافة العربية وعصر المعلومات سلسلة عالم المعرفة، العدد 265، الكويت، 2001م، ص: 447.
- (11) - عبد المالك مرتاض، أصالة الشخصية الجزائرية، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية عدد8، الجزائر، ماي 1972، ص: 214.
- (12) - ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج15، ط2، ص: 332.
- (13) - جمال بن دحمان، المواطنة المسؤولة: دليل المواهيم والمواضيع، المعهد العربي للتنمية والمواطنة، الأردن ص: 06.
- (14) - معجم مصطلحات التربية على المواطنة الديمقراطية، عن موقع المجلس الأوربي في شبكة الأنترنت. تاريخ الزيارة: 2021/4/26م، في الساعة: 15:25.
- (15) - أحمد صدقي الدجاني، مسلمون ومسيحيون في الحضارة العربية الإسلامية، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، 1999، ص: 96.

- (16) - عبد الحفيظ سعيد، المواطنة حقوق وواجبات، مركز ماعت للدراسات الحقوقية والدستورية، القاهرة 2007، ص: 10.
- (17) - كاظم الصالح، الاستعمار الثقافي الفرنسي ... الجزائر نموذجاً، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، نيسان 2018، <https://www.iicss.iq/?id=40&sid=217> تاريخ الزيارة: 2021/4/26م، في الساعة: 14:23.
- (18) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (19) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (20) - محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، مكتبة الغرباء الأثرية، الجزائر، ط1، ص: 52.
- (21) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1997، ص: 138.
- (22) - المصدر نفسه، ج3، ص: 206.
- (23) - المصدر نفسه، ص: 429.
- (24) - المصدر نفسه، ص: 374-376.
- (25) - المصدر نفسه، ص: 39.
- (26) - المصدر نفسه، ص: 10.
- (27) - أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، دار البعث، الجزائر، ص: 52.
- (28) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص: 379.
- (29) - مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر ص: 350.
- (30) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص: 357-358.
- (31) - بشير تريكي، رائد الجهاد الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي (الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه)، دار الأمة، الجزائر، ط2، 2012، ص: 117.
- (32) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص: 272.
- (33) - المصدر نفسه، ص: 27.
- (34) - محمد خير الدين، مذكرات، دار دحلب، الجزائر، ج1، 1985، ص: 63.

حضور الآخر في خطاب الوعي بالوطن عبر كتابات الإبراهيمي النثرية

The Presence of Otherness in the Discourse of Homeland Awareness through El Ibrahimy's Prose

ط د/ ميلود سي الطيب

د. سعيد المكروم

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم (الجزائر)

sitayebmiloud7@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/09/27

تاريخ الإرسال: 2021/08/31

ملخص:

كانت ثورة الجزائر من بين التحوّلات التي أخرجت الفكر الاستعماري من حالة إلى أخرى معاكسة، فبعد أن ظلّ الفرنسي أنّ "الجزائر فرنسية"، وحين كان الجزائري يظنّ بنفسه الهلاك والعسر، ظهرت إصلاحيات ووطنيات عبر حركات مختلفة بناها الوعي وأنتجها الإصرار على العمل، خلال هذا كان البشير الإبراهيمي محافظا على إرث سابقه مقدّما من الأعمال ما يفتخر به الوطن، وفي بحثنا هذا سنتحدّث عن حضور الآخر في كتابات الإبراهيمي النثرية من خلال أدبه الإصلاحي والوطني، وهدفنا من ذلك هو بسط إطلالة على فكر الإبراهيمي المفعم بالوعي، وكذا مواجهته للظروف وإيمانه بالوطن في أدبه.

الكلمات المفتاحية: الآخر، الخطاب، النثر، الإبراهيمي

Abstract:

The Revolution of Algeria was among those transformations that took colonial thought to a contrasting situation. While the French thought that «Algeria has become French», and the Algerian was contented with hardship and misery, reformers and patriotist movements emerged as a result if awareness and perseverance towards achievement . Among those reformers , Bashir Ibrahimy preserving the legacy of his predecessors, and completing the works that made the nation proud and the colonizer perplexed. Through this paper we will talk about the presence of otherness in El Ibrahimy's prose; a reformist and nationalist literature.

keywords: otherness, discourse, prose, Elibrahimi

مقدمة:

إنّ الثّورة الجزائريّة المباركة كانت ثمرّةً من الجهد والفاء الذي تكلّل بالتّجاح، فبعد التخطيط الطّويل والصّبر، تغيّرت ملامح القوى وأصبح الآخر الفرنسي يخترع من الطّرق التي تمكّنه من البقاء، فكان يحاول جاهداً أن يتخطّى ما قامت به الشّخصيات الوطنيّة والثّورية من أمثال البشير الإبراهيمي، الذي كان نقطة اتّصال بين ماضي الإصلاح وحاضر التنظيم والثّورة، فعمل على استغلال هذه الخبرة في مساعدة الجزائريين على الخروج من محتهم، وكانت المحلّات والجرائد تعجّ بمقالاته، التي تصاحب الطّرف، لا تترك المجال للفرنسي، تقف له بالمِرصاد، وهو ما خلق جوّاً تنافسياً، وقف فيه الآخر مستبداً متسلّطاً يسعى بشقّى الطّرق للقضاء على هذا الإصلاح.

ومن خلال بحثنا هذا سنحاول أن نشرح ذلك الصّراع الذي كان يمثّله أنا الجزائري "الإبراهيمي" والآخر الفرنسي، ويظهر هذا الأخير كعرب، عدوّ، معرّ ... في ظلّ تربية الوعي الإصلاحي الذي كان يضع الوطن فوق كلّ تصوّر لدى الأنا، وذلك من خلال الحديث أوّلا عن الأنا الجزائري والآخر الفرنسي، وثانياً عن حضور الآخر في كتابات الإبراهيمي الثّرية. وهدفنا من ذلك هو بسط إطلالة على فكر الإبراهيمي المفعم بالوعي من جهة، ومواجهته للطّروف وإيمانه بالوجود الوطني في أدبه من جهة أخرى.

أوّلا: بين الأنا الجزائري والآخر الفرنسي:**1. الأنا الجزائري:**

"الأنا" الجزائري هو الإنسان الذي مثّل بلده، فحمل عنها كلّ ما يمكنه، من بداية وجوده فيها، وهو جزء من مصطلح عام "فالأنا قد تعني بلاد الشّرق أو الإسلام أو العروبة أو بلدان العالم الثّالث أو النّامي أو المتخلّف، إلى آخر هذه التسميات، فهي دوائر متداخلة يصعب الفصل بينها أو حصرها ضمن مجال محدّد"⁽¹⁾.

وعلى هذا كان الجزائري كذات ضمن هذه التركيبة الإنسانيّة، التي تنتمي إلى الشّرقين/المسلمين/العرب ضمن جغرافية العالم الثّالث، اقتصاديا هو ضمن البلدان النامية أو المتخلّفة وهو هنا نقيضٌ للآخر بكلّ تفاصيله، ولعلّ في هذا الاصطلاح ما يدلّ عن سعي "الآخر" إلى إبعاد "الأنا" عن دائرة انتماءاته "وإذا احتزلنا دائرة الأنا فإننا نجدتها تصبّ في الاستخدام

الشّائع وهو "الشّرق" في مقابل مصطلح "الغرب"، فالآخر اعتبر الشّرق مفهوماً يمثّل نقيض الغرب وليس له حدود، بل يجوز أن يعني كلّ العالم، الذي لا يدخل في دائرة الغرب⁽²⁾.

إنّ هذا المفهوم يبقى في الواجهة المباشرة التي تجمع الأنا الجزائري كشرق بالآخر الغربي، إذ يظهر الأنا الجزائري في مواجهة التحدّي والصّعاب عبر مراحل مرّ بها تشكيل هوية ترتبط بالإسلام أكثر من غيرها، "فتبنيّ الإنسان لانتماآت تعود إلى أصول وجذور الأنا الواعية، مسألة طبيعية لا يمكن إنكارها وتجاوزها، ولكن تشكيل الانتماء واصطناعه وفق رؤى وتوجّهات بعينها يمنع الشراكة المعرفية الإنسانية، ويكرّس ظهور المركزيات التي تتأسس وفق تداول نمطيات متخيّلة، وتنازع المركزيات باعتبارها أنساق ثقافية محمّلة بمعان ثقافية ودينية وعرقية"⁽³⁾.

فإنّ هذا الدّمج من سبيله أن يمنع تغليب شعب على آخر، أو التركيز على لغة أو لهجة، ما يؤدّي بالضرورة إلى تفكيك تلك الذات وهو ما ذهب إليه المجتهدون من المبدعين الذين جعلوا الأنا الجماعية هي المعبرّ الوحيد عن شعب كالجرائر، وجعلوا الأنا الجزائري واحداً ذا هوية جماعية أيضاً "وتستمدّ الهوية قوتها وروحها وربّما وجودها من علاقتها مع الآخر" فهوّ مكوّن وركيزة وركن مركزيّ ورؤية تأسيسية في بناء ماهية الأنا وتحديد موقعها ووظيفتها ضمن المعطى الإنساني في منحزه الحضاري... إنّ المكوّنات العامة والقواسم المشتركة داخل الهوية الجماعية تتفاعل وتتطوّر ضمن ثنائية الصّراع والحوار مع "الآخر"⁽⁴⁾.

ولعلّ في تلك الهوية الجماعية ما يجسّد مقومات أيّ أمة أو مرتكزات الثقافة القومية كما نجد ذلك مع الأنا الجزائري في اعتماده على الإسلام، الوطن، اللغة العربية. وهذه المقوّمات ظلّت هي البناء الذي من خلاله يتأسّس كلّ شيء إذ لا تتأتّى معرفة الأنا الجزائري خارجها، ومع مرور الزمن تكتسب الذات ضمن تلك الأنا الجماعية أشياء أخرى لها علاقة بتطوير تلك الأنا التي تمثّلها، ومن ذلك ما يرتبط بتلك المتغيّرات التي من شأنها أن تساهم في التغيير، ولعلّ في هذا التغيير من السلبيات والإيجابيات التي لا يمكن التحكّم فيها بصورة مطلقة، وهذا يجلبنا إلى ضرورة مراعاة كلّ هذه الطّروف في التعريف بالأنا لأنّها من ستحدّد طبيعة الكتابة فيما بعد "فالأنا هي الذات... بما تمثّله الأنا" على المستوى:

الشخصي، والقومي، والفكري، والثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والواقع أنّ الذات ليست شيئاً موروثاً لدى الإنسان، وإنما يتشكّل خلال التفاعل مع البيئة التي يعيش فيها ابتداءً من الطفولة و عبر مراحل النمو المختلفة، كما أنّ الوعي بالذات يبدأ ضيقاً عند بداية حياته، وينمو ويتطوّر باتّساع البيئة التي يتعامل بها⁽⁵⁾.

هكذا كان حال الأديب الجزائري ممثلاً للأنا، فقد وُلِدَ من رحم المعاناة متحدّياً جميع الظُروف. خاصة حين نتحدّث عن الفترة التي وُضِعَ في إطارها هذا البحث. فقد كانت نشأة هؤلاء الأدياء ضمن تعليم مقتصر على الكتابات والتّروايا وكان أغلبهم يعيش في محيط اجتماعي قاسٍ يجمع بين مسؤوليتهم أمام الوطن وأمام الأسرة "والخلاصة أنّ نمط التعليم وتغلغل التصفوّ والحمود الثّقافي قد جعل من الصّعب على الأدياء أن يبرزوا أو يجدوا لهم مكاناً في الجزائر غداً الاحتلال.. فقد ضرب التعليم ضربة قاضية على إثر مصادرة الأوقاف فأغلقت المدارس، وتوقفت حلقات الدّروس الحزّة في المساجد، وهاجر العلماء.. وانشغل الباقون من المعلّمين بحفظ الرّمق وخافوا من الكتابة، بينما التحق بعضهم بالمقاومة"⁽⁶⁾.

فالأديب كان معلّماً ومناضلاً ومسؤولاً أمام كلّ المتغيّرات التي أحدثتها بالدرجة الأولى الاستعمار، فلم يكن يسمح للآخر بأن يتجاوزته فكان سدّاً منيعاً له، وهذا ما سنوضّحه أكثر من خلال من مثل فترة الإصلاح "البشير الإبراهيمي".

2. الآخر/الغرب:

ارتبط مصطلح "الآخر" بـ "الأنا" فكان له النقيض والندّ، واعتبر مصدر وجوده وبقائه فذلك الصّراع الذي نشأ بينهما كان سببه الارتباط الواقع في علاقتهما ببعض "الآخر مصطلح ومفهوم تجاذبته الديانات والفلسفات والمقاربات العبر مناهجية.. لتحملّه دلالات الوجود والضرورة والحتمية، فمهما اختلفت الرؤى والمقاربات والتأويلات في تشكيل الآخر في تحيّله أو صناعته، أو إقصائه وتهميشه، يبقى الوعي بالآخر ضرورة لصيغة الوجود والكيونة والطرف الفاعل في معادلة الصّراع والبقاء"⁽⁷⁾.

والأنا في عموميته يحمل هذه القيم الاجتماعية والثقافية والتاريخية والحضارية، ويتّخو ذلك البعد الذي تحمل فيه ذات "الآخر" دوراً في بناء "الأنا"، كما أنّ هذا يتمّ عن طريق

إثارة تلك الذات بالعمل واكتشافها عبر العمل المستمر، فالفردية التي كان عليها الإنسان لا يمكنها أن تخدمه "فالآخر .. دليل على تفاعل الذات وتمكين لها بتطوير قدراتها وتحقيق انسجامها النفسي واستعادة توازنها ضمن التسيج الحضاري الإنساني، فهو حتمية مهما كانت صيغة تواجده، سالبا حين يكرس الاغتراب والدونية، وموجبا حين يدفع "الأنا" لاكتشاف نفسها في مرآة الغيرية والاختلاف، قصد إعادة التوقيع في صرح البناء الحضاري العالمي والإنساني"⁽⁸⁾.

ولعلّ الآخر مجسدا للغير في هذا الإطار مثلاً من الإيجابية أكثر من غيرها، لكنّ هذه الصفة لم تبقى ثابتة وملازمة له، بل انقلبت إلى صورة النقيض الذي تظهر فيه الأناية وحب التملك، فأصبح يشار إليه غرباً وأجنبياً، يحمل مقومات المسيحية واللغة الغريبة، ويخالف في ذلك كلّ ماله علاقة بالأنا "والآخر لا عقلي يقوم على الرغبة في السيطرة على الشعوب الأخرى .. فترتعت بذلك الحضارة الغريبة على عرش العالمية، ملغية كلّ مخلفات الشرق الحضارية .. فصار الغرب الحديث مرآة للذات تعكس فيها صورتها، وتجسّد من خلالها كيانها، تسعى للحاق بالغرب وسدّ كلّ ثغرة من ثغرات التخلف المتراكم، في مقابل أوروبا الصاعدة والمتطورة، والتي لا بدّ من ترجمة معارفها بمختلف أشكالها ونقلها إلى البلاد العربية"⁽⁹⁾.

إنّ هذه الرؤية التي ارتبطت بالآخر كانت رؤية تتماشى مع الأنا الضعيف المسالم فالآخر/الاستعمار، فاق تلك النظرة الإيجابية التي كانت تجسدها حضارة الغرب، والتي قابلها الأنا بالانبهار، حين كان مسار البناء منصباً على تواصل جهود الأنا الحضارية في الماضي "لقد اعترف الجميع للعرب بفضلهم في إيصال أعمال الفلاسفة والعلماء القدماء وآثارهم للعالم الحديث، وبهذا الشئ الجزئي الذي يهمل الدور الكبير الذي قام به العرب في تأسيس العلوم والثقافة الغربية، قد تحلّص المؤرّخون الغربيون حتّى اليوم من واجبهم اتّجاه هذا العمل العظيم، فبينما هم يرتّبون على كتف العرب شاكرين لهم تلك الوساطة في نقل الحضارات القديمة للغرب، نجدهم يرتكبون ظلماً صارخاً بسكوتهم عن أفضال العرب الأخرى"⁽¹⁰⁾.

إنّ هذا السكوت لم يكن سوى مؤقتاً، فقد بدأ تنفيذ ردّ الجميل بغير ذلك، لَمّا شهد الشرق زحف الغرب نحوه، فتكسّرت بذلك كلّ روابط التواصل القبليّة، ناهيك عن الماضي

الذي لم يكن جميعه سلما فقد شهد المورسكيون في الأندلس طرد الصليبين لهم، ثم استمرّ الطمع نفسه، بل ازداد مع القرنين التاسع عشر والعشرين، فتجسّدت طبيعة "الآخر" المهيمن والمستعمر مع واقع "الأنا" الضّعيف والمغلوب على أمره "وتأسيسا على هذا الفهم نجد أنّ الصّورة القومية العربية بعامة والجزائرية بخاصّة، قد تعرّضت لما نحبّ أن نسمّيه "استعمار الشّخصية"، ذلك أنّ الصّورة القومية العربية، قد تعيّرت في ذهن الأوروبيين عبر قرون طويلة هيمنت عليها الرّوح الصّليبية، كما هيمنت عليها الجّاهات المنتصر إزاء المهزوم بما يصاحب ذلك من الخطّ من شأنه بعد الغزو الاستعماري، منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى النّصف الثّاني من القرن العشرين" (11).

بعد هذا الاصطدام لم يتحدّد لهذا "الآخر" تصنيف أو ميلان لوجود جنس دون آخر، ولم يكن بالإمكان تحديد طبيعة الغرب في هنا إن كان تابعا للفرنسيين أنفسهم أو غير ذلك نظرا لوجود ذوات متباينة لم يكن لها أن تحدّد بالضبط طبيعة الآخر إن كان معمّرا أو مستعمرا، مثقفا، جنديا، حاكما، سياسيا.. وغير ذلك كثير ممّا لم يكن للأنا مجال واسع من أن تكشف كلّ التفاصيل التي من شأنها أن تنقل لنا ماهية الرحيل بين الجغرافيات لأساسيات استعمارية توسّعية "بلغ الاستعمار العالمي أوجّه.. وكان لا بدّ من ردّ الفعل من طرف المضطّهدين والكادحين.. وقد بدأت ردة الفعل.. في صورة نظريات وأفكار.. وقد ظهرت بوادر ذلك في فرنسا نفسها، وعلى أيدي رجال فرنسيين أنفسهم.. أمثال سان سيمون وبرودون وغيرهما، كما أنّ بعض الأحرار من الفرنسيين أصبحوا يدافعون عن الوضعية الاجتماعية المتدهورة في الجزائر" (12).

فمصطلح الاستعمار العالمي، وكذا الأجنبي كانت من المعاني والمفاهيم التي كان عليها "الآخر" وذلك من خلال التطوّر الذي حدث في بقائه الطّويل في الجزائر، إضافة لتعدّد الرّوى والعلاقات التي ربطت ثنائية "الأنا" و"الآخر"، فلم تكن تربطهما السّلبية والسّواد إمّا وُجد من الإيجابية ما يضبط استمرار ارتباط تلك الثنائية في المستقبل، ولكن بطريقة مختلفة، أو في مكانين و زمانين مختلفين.

وأهمّ شيء في هذا كلّهُ أنّ الآخر في إطاره السّليبي والإيجابي، كان رائدا في محاربة الأفكار وهو ما حوّل للأدب في هذا أن يتجاوز السياسة والتاريخ ليقصد الفكر "وقد اندفع الاستعمار إلى خطّته تلك بزعم أنّ شعوب المغرب العربي كغيرها من شعوب إفريقيا لا ثقافة لها، وهي فكرة أقرّها الغرب زمنا طويلا دون مناقشة واقتزنت بهذا الزّعم فكرة أخرى خاطئة تزعم بأنّ ثقافة الشّعوب المستعمرة.. ثقافة ميّنة عليه أن يفرض ثقافته" (13).

فهل تمكّن الجزائريون فعلا من بلورة ثقافتهم أمام هذا الآخر، أم هذه الأفكار كانت في حدّ ذاتها أفكار استعمار يقدّم لك طريقة للخروج عن إرادته وقبضته، فهل يحدث ذلك؟

ثانيا: الآخر في أعمال الإبراهيمي:

1. الآخر في خطاب الوعي:

إنّ الحديث عن الوعي في فكر البشير الإبراهيمي وأدبه ينطلق من بوابة الإصلاح الذي انطلق مع الثلث الأوّل للقرن العشرين، والذي تجسّد بقوة مع تأسيس جمعية العلماء المسلمين، التي كان وجودها مع الفكر النهضوي الذي كان عليه الوطن العربي عامة والجزائر خاصة، وعبر تلك الأفكار الإصلاحية ظهرت حقيقة الأنا الواعية فعلا، وليس تلك الصّفات التي كان الآخر الفرنسي يخفي واقعا "لقد كان الناظر إلى الشّعب الجزائري . قبل أن يؤدّن فيه العلماء المصلحون . يحسبه يقظا وهو راقد، متحرّكا وهو هامد، نشطا وهو خامد، حيّا وهو جامد، متّحدا وهو متفرق، مهتديا وهو ضال، ذاكرا وهو ناس، واعيا وهو غافل، شاهدا وهو غائب" (14).

ومن خلال هذه الثّنائيات، تظهر بوادر وعي الأنا من خلال نبرات الإصلاح التي ظهرت على السّطح متجاهلة أنانية الآخر الفرنسي، الذي كان يقف ضدّ تنويم الشّعب الجزائري وتفريقه وغفلته، ولا يكاد الإبراهيمي كـ "أنا" يخرج عن خطاب الحقّ الذي كان يدعو إليه العالم بأسره، فيستخدم هذه التّقطة بالذات ليحدّد وعيه المطلق بما يُحدّثه "الآخر" "عجيب لهذه الإنسانية ما كفهاها من مصائب الدّهر تقاطع أبناءها وتدابرههم .. أن يكون في أبنائها قويّ يستعبد ضعيفا.. وهي الآن تستغيث من داهيتين، وتستجير من غائلتين.. تستغيث من داهية الحرب وتحكيم السّيف في مواقع الخلاف.."(15) فغطاء السّلمية

والتشبّث بتعاليم السّلم العالمية هي نفسها التي كان يسعى من خلالها "الفرنسي" إلى تحقيق استبداداته، فذلك الإسقاط هو ما اجتمع في الإنسانية السّمحة التي يخرج منها "الأنا" منتصرا على ذلك التشويه الذي صاحب وجود "الغرب" في هنا.

وبعد الرّبحم الذي أحدثه نشاط الجمعية، وكذا سعي روادها إلى التغيير عن طريق خطاب الوعي الذي جاء تصويرا محكما لحقيقة الآخر، تلك الحقيقة التي ما لبثت أن تنكشف أكثر فأكثر بعد أن امتطى "الفرنسي" مطية الخداع بعد الحرب العالمية، فراح يخرق الميثاق ويخلف الوعد "أسقطت أحداث الثامن ماي كلّ قناع وأثبتت أن الاستعمار لا يرعى عهدا ولا يحترم وعودا.. لقد كان على فرنسا وهي تحتفل باهزام النّازية والفاشية حينئذ أن تستقبل هؤلاء المجنّدين الذين صنعوا لها النّصر والحياة، بالورد والأزهار .. تترك في نفوسهم أثرا مميّزا يدلّ على اعتراف المحتل بالجميل، ولكن عوض هذا المنطق.. عكس المحتلّ الآية.. فأباح سفك دمها في شهر كان الثّاس في بقاع كثيرة من العالم يحتفلون بعيد النّصر"⁽¹⁶⁾.

فالنّصر الذي احتفل به الآخر لم يكن منصبا على الفرنسي وحده، إنّما على ذلك التّحالف الذي كان يمثّل الأجنبي بصفة عامة، وهو ما اتّضح في مساندة ذلك الأجنبي للاستعمار فيما بعد والمشاركة معه، فازدادت على إثر هذا وتيرة الخطاب المفعم بالوعي والمسؤولية، ومعرفة الحقيقة المرّة التي لم تكن مخفية أصلا، لكنّها في المقابل لم تكن لتظهر بذلك الكشّف والتجلّي الذي سيسعى من خلاله الأنا إلى المواجهة المباشرة وهذا ما حدث فيما بعد، فقد ظهر وعي فكري مناهض للجهل الذي طال الأنا طيلة قرن من الزّمن "وهكذا استطاع الإبراهيمي أن يدحض ادّعاءات السّياسيين بإمكان إنجاز الاستقلال دون تحصيل وعي فكري وحظّ من العلم والمعرفة، وهو ما أثبتته التجربة التاريخية، إذ إنّ نجاح الثّورة الجزائرية في تحقيق الاستقلال ما كان ليتمّ لولا الإنجازات التي حققتها الجمعية في تكوين رعييل من الإطارات العلمية والسّياسية التي قادت مسيرة الثّورة الجزائرية"⁽¹⁷⁾.

يمكن الجزم هنا أنّه وخلال هذا الوعي الفكري بدأ "الآخر" يفتتح بضرورة الخروج والابتعاد عن الذي لا يملكه فهو لم يكن بذلك الغباء الذي قد يقوده إلى نتائج أكثر حدّة في معاندة "الأنا" الذي انكشف بالنّسبة له كلّ شيء.

وما يُظْهر خطاب الوعي في قوّة وسجّية، توغّله في المخفي أكثر، وهو ما جعل "الآخر" يدقّ ناقوس الخطر، بفعل المخطّطات التي تجعله يكسب من الوقت والزّمن ما يُوجده في المكان لأطول وقت ممكن "الاستعمار ليس مجرد جيوش تغزو وتحتلّ، وإمّا هو نظام متكامل، إلى فرض هيمنته الكليّة داخل البنيات الاجتماعية.. فكلّ الدول الاستعمارية جرّبت سياسة إخضاع الأرواح والتحكّم في العقول.. ينتقل الإبراهيمي إلى تبيان الوسائل التي يستخدمها الاستعمار الرّوحي الذي يطلق عليه أيضا اسم "الاستعمار العقلي" الذي يعتبره من أخطر أنواع الاستعمار"⁽¹⁸⁾.

فالآخر كاستعمار واحد، والغرب له من الأوجه ما يمكنه من التملّص كيف يشاء وقت يشاء، لكنّ وعي رجال الإصلاح عامة، والإبراهيمي خاصّة كان الفارق الذي صنع النتائج المطلوبة، فلم يكن بإمكان الرّصاص أن يحارب فساد الأفكار والأخلاق.

وليس بعيدا على محاربة الأفكار، استعمال الدّين كوسيلة تضرب عليها الأوتار، وهو ما أشرنا إليه سابقا في تحديد ماهية الأنا والآخر، فقد كان هذا الأخير مركزا على نشر مسيحيته في مقابل طمس الإسلام، وهو ما وُجد في خطاب الوعي عند الإبراهيمي، والذي كشف جزئيات الاستعمار وحيثيات أفكاره القاتلة "ولقد أكّد البشير الإبراهيمي هاته الحقيقة، بقوله إنّ التبشير بصورته الحالية، إمّا هو نتيجة من نتائج التعصّب المسيحي، الذي يستند إلى قوّة السّلاح، وأنّه ثمرة من ثمرات تلكم القوّة الطّاغية، التي تبرّر أعمالها السّلبية بالحرية الدّينية، أو الفكرية أو الاقتصادية "التّجارية"، وأنّه وسيلة من الوسائل السّياسية يلبس لباس الدّين ويتمظهر بمظاهر كهنوتية"⁽¹⁹⁾.

فالآخر المتعصّب، يسعى بمختلف الطّرق إلى أن يثبت أنّه على حقّ وأنّ الأنا لا شكّ أنّه المخطئ، فتلك الشّعوب الضّعيفة لم تسمح له تحت أيّ ظرف كان من أن يمسّ إسلامها، فظلتّ بفعل خطابات الوعي ترتبط بالسّبيل المستقيم الذي يجعلها في حالة من القوّة المعنوية، القوّة التي تربطنا بالنّصر منذ الأزل، ومن ذلك أيضا أنّ الآخر قد ظهر بشكل أوضح بعد أن أشار الإبراهيمي إليه في بعض المواقف، ليدلّ على الآخر كذات فردية تمثّل العنصر السّلي للتبشير والمسيحية "فقد أسقط الإبراهيمي عن التبشير المسيحي

الغربي صفة "الإنساني" بمعناه الحقيقي، وأقرّ بأنّه أداة موجهة لخدمة مصالح الاستعمار لا غير. وفي هذا الصدد أعطى مثالا بالجزائر، فاعتبر الكاردينال "شارل لا فيجري" هو الواضع الأول لأساس التبشير المسيحي بها، ممهدا الطريق للجمعيات التبشيرية التي جاءت بعده والتي استفادت من أموال ضخمة كانت تضحّها إليها الحكومات الفرنسية⁽²⁰⁾.

إنّ هذا العمل لم يكن عشوائيا بل مخطّطا له، وهذا الدّعم الذي كان يخدم "الذّات الجماعية" في الآخر، حصل من الفوائد ما جعله يراقب الأقوال والأفكار، فيصبّ جمّ جبروته على "الأديب" الأنا، يحاول أن يعتصر منه ما يهدف إليه لكن في مراكز السّجون وبين جدران التحقيق والتعذيب، ولم يكن هذا ليوقف ذلك الرّحف الذي استثار من الوعي ما يجعله يواجه "الآخر" بأسلوبه المتلاعب والملتوي "كأنّ في القطر الجزائري حكومات متعدّدة لا حكومة واحدة.. حكومة مستبدّة ترجع في النّقض والإبرام إلى رأي المتصرّف لا إلى القانون العام.. فزيادة على الصّفة اللازمة لحكومة الجزائر الاستعمارية.. كلّ من في هذه البلدة من حكام، وبوليس سرّي وعلني، يجهد جهده في حرب جمعية العلماء ومقاومة حركاتها، وكلّهم مرصّد لتبّع المنتسبين إليها"⁽²¹⁾.

فالخطاب العام الذي توجه به "الإبراهيمي" إلى الفرنسي بكلّ من يمثّله، وضّح درجة الوعي في الخطاب الإصلاحي الجزائري الذي كان نقطة تواصل مع "الآخر" على شكل صراع دائم مع ثنائية الأنا/الاستعمار، فما كان يُحدثه هذا الأخير من مضايقات لأمثال "البشير الإبراهيمي"، لم يكن يخفى على عين، كما كان من واجب هؤلاء أن يكشفوا بأنفسهم تلك الخبايا، وهو ما حدث فعلا.

وُجد للآخر حكومة تحميه وتفرض بفعله ما تفرضه تجاه الأنا/كشعب "ولكن الذي يغيظ ويحنق هو هذه الدّعوى العريضة الطّويلة من الاستعمار في تثقيف الشّعوب، وتعليم الأمم، وقطع دابر الأمية، وكيف تتفق هذه الدّعوى منه مع أعماله التي تقاوم التعليم وتتنكّر له وتنصر الأمية وتحميها، وتغذّي الجهل وتقويه، والتي تفضّل عصا الشقيّ على قلم الكاتب، فتتساهل مع العصيّ حتى تصير عصيّة، وإن آذت وإن قتلت، وتحطّم القلم لئلا يلد أقلاما"⁽²²⁾.

هكذا كان الهدف الحقيقي وراء طمس الوعي، الذي كان الهمّ الذي سكن نفس "الآخر"، وفي المقابل كان مآلا يعود عليه "الأنا" ليكتشف ذاته، ويكشف الأعيب الاستعمار، ورغم كلّ الجهود التي عمد إليها الفرنسي لم يستطع إيقاف ذلك الدّفع الذي توجّح في النهاية بالحرّية.

2. الآخر وحضور الوطن:

يُعَدُّ الوطن عند هؤلاء الثّوار بالدرجة الأولى، المنارة التي أضاءت أدمهم، فهم قبل أن يطرقوا الأدب أحدثوا الثّورة ووقفوا معها، فكانوا خير ممثّل للفترة الاستعمارية على اعتبار أنّهم كانوا يمثّلون ازدواجية النّضال، ولا أدلّ من "البشير الإبراهيمي" الذي كانت روح الوطن تنتثر من أعماله "كما يتجلّى التزام كتاب جمعية العلماء بقضايا أمّتهم ووطنهم في توظيف كلّ إمكاناتهم وقدراتهم لخدمة قضايا الوطن والدّين وحلّ مشاكلها، ومن ذلك تسخير الأدب الهدف في بناء الفرد والجماعة"⁽²³⁾.

فتلك الرّوح الكتابية التي بادر بها الإبراهيمي ورفقاؤه، كان لها دور في كشف الصّورة السّلبية للآخر، والتي مهّدت لسلسلة من الصّدّامات في الخطاب الذي كان للوطن فيه وجود مكثّف، ترتّب عنه مجهودات للدّات "الأنا الأديب" التي حمت عرين الجزائر، حافظت على الأرض، ورفضت كلّ المساومات التي أتاحت لطردها أو إسكاتها "إذن فالقضية أكثر من أن تمّ شخصاً بعينه، إنّما هي قضية أمة، قضية مصير، وما هذه الكتابات إلا انعكاس لأشغال أدباء الجمعية بهذه القضية والتزامهم بها، لأنّها قضية مجتمع يعاني استئصالاً ثقافياً وحرّب مسخ ديني، فكانت القضية قضية هوية وانتماء، وهنا وجد مشايخ جمعية العلماء أنفسهم مسؤولين أمام هذا الموقف الذي يتطلّب آليات دفاعية تحتمي بها الأمة من هول هذا الغزو"⁽²⁴⁾. فوجد الآخر/ مسخا/ استعمارا/ غزوا، في مقابل الأنا/ مُصْلِحًا/ ثوريا/ أدبيا وكان المآل هو إيجاد مجتمع/ أمة/ وحدة للمصير.

وهذا الوجود لما يمثّل الوطن كان خطابا بارزا للآخر، الذي نجده بصور مختلفة فيما ذكرناه آنفا، وفي مقابل ذكر الفرنسي/ أجنبي/ غرب، نجد ذكر الوطن وحضوره مقترنا بذكرهم، وهذه الثنائية الضديّة أو المتوازية، هي المعادلة التي تكشف ما هية الأدب في

شكله البسيط الذي جاء دفاعا عن الذات الجماعية وتصدّ للآخر "إنّ في الجزائر ذلك القطر الذي هو قطعة من وطن العروبة الأكبر، وفلذة من كبد الإسلام، معاني من الدّين وكنوزا من الأخلاق الإسلامية الشّرقيّة لاذت بنفوس عربية، وتوارثتها الأجيال عن الأجيال ومرّت بها فترات من الجهل والضّلال، ونزعات من الظّلم الأجنبي والاعتلال.. وآخر الأحداث التي حلّت بهم هذا الاستعمار الفرنسي الجاثم" (25).

إنّ الوطن الجزائري جزء لا يتجزّأ من الأمة العربية، وهو ما يذكره الإبراهيمي في توضيح روح الانتماء من جهة، والمحافظة عليها من جهة أخرى، فأمام الزحف الاستعماري بأشكال التنويم التي اعتمدها، لم يفكّر هؤلاء المصلحون في التخلّي عن الوطن، حتى وإن كانوا خارجة، والإبراهيمي من خلال الرحلات التي قام بها خارج الوطن ازداد خطابه في الوطن بالكشف عن "الآخر" ووصفه "هذا الاستعمار لعقولنا وأفكارنا هو أخطر أنواع الاستعمار علينا، وإنّ مصائبه منزلة علينا من إجلالنا للفكر الذي يأتي من أوروبا.. هذا التّوع الخطر من الاستعمار العقلي هو الذي مهّد للطامة الكبرى التي هيّ مآرب الاستعمار منّا، وهي هذه الوطنيّات الضيّقة المحدودة التي زيّنها لنا.. ولو كان خيرا لسبقنا إليها في أمه وأوطانه ولكنّه يتزّدد بالعناصر الأجنبية ليقوى في نفسه، ويفرّقنا لنضعف، فيكون ضعفنا قوّة فيه" (26).

هكذا كان خطاب الوطن متميّزا عند الإبراهيمي، تميّز ذلك المدح الذي توجه به إلى مدينة "الموصل" حين زارها، والملاحظ هنا، يجد التركيز على الوطن من الأساسيات التي اعتمدها الأديب/الأنا، وأمام ما اختفى من الاستعمار الغامض والعميق كانت المسؤولية مزدوجة، وهو ذات الخطاب الذي ورد في العنصر السّابق، غير أنّ المختلف هنا كان الارتباط بالهنا، بالمكان الذي سيبقى راسخا بتاريخه، وحدوده، ولغة شعبه وإسلامهم، ولما كان الفرنسي يتلاعب بفعل محاربه للأفكار، كان لا بد أن يقابله الأنا بالمثل، وهو ما حدث من خلال الخطاب المباشر عن الوطن "يا سعادة الوزير: إنّ الأصدقاء المتجاوبة عن زيارتكم للقطر الجزائري أفهمت الأمة الجزائرية المسلمة أنّها زيارة تمهّدون بها لإصلاح سياسي واجتماعي واقتصادي يفتقر إليه الوطن.. إنّ الأمة الجزائرية المسلمة تعتقد أنّ حقّها الدّيني لا ينبغي أن يكون محلّ جدال ومطل لأنّه لا يتماطل مع مصلحة دين آخر وترى أنّ من حقّها - كأمة ذات مقوّمات حيوية- أن تطالب بفصل الدّين الإسلامي عن الحكومة فصلا رسميا عاجلا" (27).

فالحديث إلى وزير الجمهورية الفرنسية كان لسان صدقٍ لكلٍّ من يمثّل "الآخر" الأجنبي عن الوطن، وهو بادرة مباشرة لانطلاق المواجهة التي ما توقفت فيما بعد إلا بالنصر، وما يميّز هذا الحديث أنّه كان يمثّل القطر الجزائري أي جميع التراب ملك للأمة الإسلامية التي ارتكزت على هذا الدين الذي أخذ منه "الآخر" بريقه، وحاول أن يفرض فيه من التغيير ما يخدم بقاءه ودينه.

إنّ ما يمثّل الأفق، ويستثير الرأي في تعلق "البشير الإبراهيمي" بالوطن بدايات نثرياته في معظمها بلفظ الأمة/ التراب/ الوطن.. وهو ما تجسّد مع الكشف الحقيقي عن العلاقة التي ظلّت تربط "الأنا" بوجود "الآخر" وفق دستور مشوّه طيلة ذلك الوجود "إنّ الدستور الذي وضعته الحكومة الفرنسية للجزائر.. هو دستور ناقص من جميع جهاته، لم يحقق رغبة من الرغائب الوطنية للجزائر، وآفته أنّه فرض عليها فرضاً، ولم يؤخذ رأياً فيه، والدستور النافع هو الذي يكون للأمة رأي في وضعه، واختيار مناهجه.. ولتلك الآفة لم يرضه حزب من أحزاب الأمة، ولا نائب من نوابها.. على تفاوت حظوظهم في الوطنية"⁽²⁸⁾.

هكذا استطاع البشير الإبراهيمي متقمّصاً دور الأنا، أن يفرض ذاته في كلّ الأوضاع وعلى جميع الأصعدة فليس سهلاً أن نجد رجلاً بهذا الشكل يتقن الأدب، يفرض رأيه في الاجتماع، ويسعى إلى بسط رأيه في السياسة، ناهيك عن سعيه الدائم وراء، الكشف والتحرّي، فهو جندي متمرس تعرف قيمته عند "الآخر" وهو من ظلّ يعمل له من الحساب والتصيّد مالا يجعله حرّاً، ورغم ذلك يظهر خطاب الوطن هنا متعلّقاً بالسياسة وهي من الجوانب التي بعثت روح التعلّق بالجزائر من جهة، ومن جهة أخرى ترجمة "الآخر" المتماطل في سياسته، والقامع خلف أفكاره التسلّطية "لقد عرف الإبراهيمي معنى الهوية الثقافية.. اكتشف إذن قبل غيره حقيقة المعادلة القائلة بأنّ الهوية الثقافية "الهوية الأمة" ولذلك لطالما دعا إلى ضرورة المحافظة على الشخصية الوطنية (الهوية) وكذا الشخصية الثقافية (الهوية الثقافية)، والتمسك بكلّ مقوماتها، والتّصال من أجل صيانتها وحماتها لأنّ اندثارها يعني اندثار الأمة"⁽²⁹⁾.

فالتأكيد على إبراز هوية "الأنا" الجماعية، كان ركيزة عند "البشير الإبراهيمي"، ذلك أنّ فقدان هذه "الهوية" كان يؤزق المصلحين، ويضعهم أمام حتمية البحث عن حلول تمكّنهم من تحدي الظروف التي أوجدتهم فيها الآخر، وهو الذي حارب بمختلف الطرق ركائز الإنسان الجزائري، وهو الشيء الذي كان لا بدّ من أن يواجهه الأنا معتمدا على فراسته في كشف حقيقة الاعتماد على استرجاع ما أخذه الاستعمار وفترط فيه، "لقد اكتشف الإبراهيمي الخطر الذي يشكّله الاستعمار على هوية أيّ أمة مستعمرة.. أي أنّه تفضّن لكلّ ما طرحه الهوية الثقافية من إشكالات في الدولة الراضحة تحت نير الاستعمار.. تفضّن لها الإبراهيمي وشعبه يئن تحت وطأة الاستعمار.. لقد كان يعي جيّدا ما تعنيه الثقافة الأصيلة لأيّ شعب ينعم بالحرية والاستقلال، وما تعنيه لشعب يعاني ويلات المستبدّ الغاشم" (30).

فالهوية كانت من أهم التفاصيل التي وُجدت في خطاب التعريف بالوطن والمحافظة عليه، وفي الطرف الآخر كانت النقيض من نقيض الأنا للفرنسي بكلّ أشكاله. فمن الناحية الأولى كان دحض الخطر الذي يحدّق بالجزائر من المعالجات التي طرحها "الإبراهيمي"، وكذا الحديث الذي كان كلّما ذكرت الهوية الجزائرية إلا وارتبطت ما ارتبطت بالأمة الجزائرية أي مثّلت "الوطن"، أمّا الثانية فتظهر في هذه الخطابات معاداة للآخر وصياغة لحاله وهو الاستعمار/المستبدّ/الغاشم.. مجموعة من التصوّرات الحقيقية التي ساقها "البشير الإبراهيمي" الذي كان في تمثيله للثقافة وهوية المثقّف الجزائري منصفًا للوطن ومنغصًا على من احتله.

خاتمة:

من خلال حديثنا عن أدب البشير الإبراهيمي وتمثيله للآخر عبر الوعي الذي انتشر بفضل عوامل عديدة أهمّها الإصلاح، توصلنا إلى النتائج التالية:

- لقد كان صدام الأنا والآخر، محلّ حديث طويل لعديد الميادين كالفلسفة، الاجتماع التاريخ، الأدب، وأهمّ ما وجد في هذا الأخير تلك المفاهيم التي ارتبطت بهما، فكان الأنا/الجزائري/أديبا/ثوريا.. أهمّ المعاني التي عرّف بها البشير الإبراهيمي، في مقابل الآخر/فرنسيا/أجنبيا/مستعمرا..

- جاءت خطابات البشير الإبراهيمي ممثلاً في الأنا، ممتزجة الأفكار، متشعبة الرؤى استطاعت أن تكون الطرف الثاني في تلك الثنائية التي مثل الاستعمار أحد أطرافها، فكان اشتغال "الإبراهيمي" على كلّ الجبهات الاجتماعية، السياسية، الفكرية والثقافية قصد كشف الآخر بكلّ أشكاله.

- استطاع الإبراهيمي من خلال خطاب الوعي بالوطن أن يتقصّى وجود الفرنسي في الجزائر ويكشف دسائسه، مركزاً بالدرجة الأولى على روح انتمائه ووطنيته، أي غيرته على التراب والشخصية الجزائرية، محاولاً إبراز الهوية الجزائرية الموعلة في الإسلام والمحافظة على اللغة والمتعلقة بالتاريخ.

- كان "البشير الإبراهيمي" من خيرة المصلحين، والأدباء والثّوار اللذين وقفوا وقفة مستقيمة ضدّ التشويه والاستعمار والاستبداد، ونسعى من خلال هذه الأعمال أن نصنع رؤى جديدة للمحافظة على هذا الإرث وتبني أشكال جديدة لتمجيد ذلك مستقبلاً.

الهوامش والإحالات

(1) - حنان معزّي، حوار الأنا والآخر في رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" ل واسيني الأعرج كلية الآداب واللغات، جامعة ورقلة، 2011/2010، ص19.

(2) - المرجع نفسه، ص19.

(3) - مكّي سعد الله، الأنا والآخر في أدب الرحلة، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، جامعة باتنة 2016. 2017، ص27.

(4) - المرجع نفسه، ص38.

(5) - محمّد كمال سرحان، الذات والآخر في رواية "حبّ في كوينهاجن" لمحمد جلال، مجلّة جامعة الناظر، العدد6، المجلّد 1، جامعة اليمن، 2015، ص243.

(6) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1 1998، ص109.

(7) - مكّي سعد الله، الأنا والآخر في أدب الرحلة، مرجع سابق، ص65.

(8) - المرجع نفسه، ص65.

(9) - عالية زروقي، صورة الآخر في الرواية الجزائرية، كلية الآداب والفنون، جامعة الشلف، 2017، ص40

(10) - زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ت: فاروق ببيضون/كمال دسوقي، دار الجيل بيروت - لبنان، ط8، 1993، ص399.

- (11) - عبدالعزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجليل، بيروت - لبنان، ط1، 1991، ص15
- (12) - المرجع نفسه، ص32.
- (13) - نفسه، ص34-35.
- (14) - أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1997، ص25.
- (15) - المصدر نفسه، ص63-64.
- (16) - عبد القادر معمر الدين، أشكال التعبير الأدبي في كتابات البشير الإبراهيمي، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2010-2011، ص42-43.
- (17) - المرجع نفسه، ص48.
- (18) - بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 2009-2010، ص245-246.
- (19) - المرجع نفسه، ص348.
- (20) - نفسه، ص349.
- (21) - أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1997، ص338-339.
- (22) - المصدر نفسه، ص345.
- (23) - محمد درق، ملامح الاتجاه الإسلامي في أدب المقال عند جمعية العلماء المسلمين، كلية الآداب واللغات، جامعة تلمسان، 2009-2010، ص92.
- (24) - المرجع نفسه، ص89.
- (25) - أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1997، ص97-98.
- (26) - نفسه، ص101.
- (27) - أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان، ط1، 1997، ص154-155.
- (28) - المصدر نفسه، ص190.
- (29) - صياد مليكة، الهوية الثقافية.. الماهية والمقومات الأساسية في خطاب البشير الإبراهيمي، مجلة بدايات، المجلد2، العدد2، جامعة الأغواط، 2020، ص74.
- (30) - المرجع نفسه، ص75.

حضور قيم المواطنة في خطابات الإبراهيمي؛ خطبة جامع كتشاوة نموذجاً

Citizenship Values in El Ibrahimi's Sermons
The Case of Katchawa Mosque Sermon

د. زهور شتوح - جامعة باتنة 1 (الجزائر)

zhour.chettouh@univ-batna.dz

ط.د/ عزيز عز الدين - جامعة باتنة 1 (الجزائر)

aziz.azedine90@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2021/09/11

تاريخ الإرسال: 2021/08/26

ملخص:

لطالما شغلت الجزائر فكر الإبراهيمي وكتابات المتنوعة، نظراً لما عانته من ويلات الاستعمار وظلمه، ومحاولاته طمس معالم شخصية الأمة الجزائرية الوطنية بشتى الطرق، وقد حاول الإبراهيمي من خلال خطاباته استنهاض همم الجزائريين من أجل التصدي للمستعمر من جهة، واستعادة الشخصية الوطنية لدى المواطن الجزائري، وانطلاقاً من كلّ هذا تأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على تجليات قيم المواطنة من خلال الخطاب اللغوي للبشير الإبراهيمي في أول خطبة ألقاها بعد الاستقلال بجامع كتشاوة يوم الجمعة 02 نوفمبر 1962 والتي سيتم تحليلها من ناحية السياق والأبنية الدلالية وأفعال الكلام الواردة فيها.

الكلمات المفتاحية: الوطنية، المواطنة، المستعمر، خطبة، حضور.

Abstract:

Algeria has always preoccupied Ibrahimi's thought and his various writings, due to the ravages and oppression of colonialism, and his attempts to obliterate the features of the national character of the Algerian nation in various ways. This study comes to shed light on the manifestations of citizenship values through the linguistic discourse speech of Bashir Ibrahimi in his first sermon after independence at Jami Katshawah on Friday November 02, 1962, which will be analyzed in terms of context, semantic structures and verbs of speech contained therein.

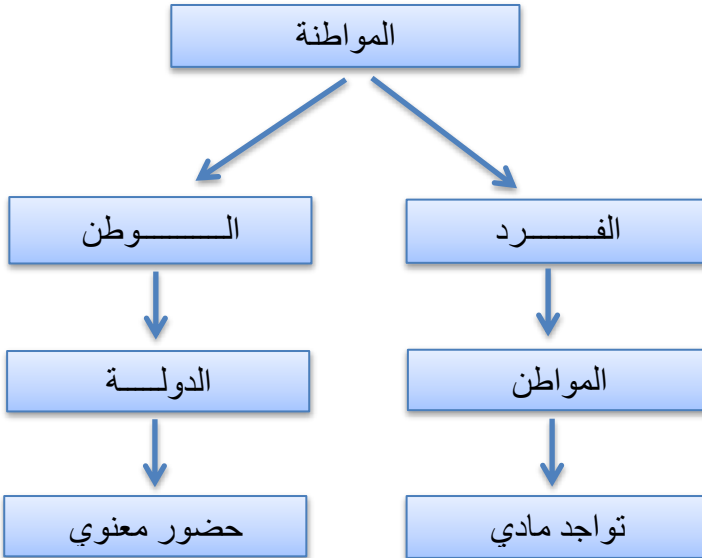
keywords: patriotism, citizenship, colonizers, sermon, Attending.

1. في مفهوم المواطنة والوطنية:

يتسع مصطلح المواطنة للعديد من المفاهيم والتعريفات، فهي "صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءه إلى الوطن"⁽¹⁾ وقد أكد الفيلسوف "جون جاك روسو" على مفهوم المواطنة معلنا أنه يعتمد على دعامتين أساسيتين: المشاركة الإيجابية للفرد في عملية الحكم، والمساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد⁽²⁾.

وفي قاموس علم الاجتماع تم تعريف المواطنة بأنها مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين فرد طبيعي ومجتمع سياسي (دولة) ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول (المواطن) الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية، وتتحدد هذه العلاقة بين الفرد والدولة عن طريق أنظمة الحكم القائمة⁽³⁾، والمواطنة من منظور نفسي هي الشعور بالانتماء والولاء للوطن وللقيادة السياسية التي هي مصدر الإشباع للحاجات الأساسية وحماية الذات من الأخطار المصيرية، وبذلك فالمواطنة تشير إلى العلاقة مع الأرض والبلد.

وبهذا تعبر المواطنة عن حركة الأفراد في اتجاه إثبات وجودهم في إطار جماعة بعينها بحيث تتجاوز هذه الحركة الانتماءات الأضيق إلى الانتماءات الأرحب، أي تتجاوز الانتماء للأشكال الأولية كالطائفة أو القبيلة أو العشيرة إلى الجماعة الوطنية⁽⁴⁾.



ومن ثمّ تعكس المواطنة علاقة بين طرفين، الأول هو الفرد والتعبير السياسي عنه هو المواطن، والطرف الثاني هو الوطن والتعبير السياسي عنه هو الدولة، وحتى تكون هناك علاقة عضوية يشترط في الفرد الذي يحمل صفة المواطن التواجد المادي، وأن يتوفر في الوطن الحضور المعنوي والوظيفي للدولة.

أما الوطنية فهي "تعبير قومي يعني حبّ الشخص وإخلاصه لوطنه، ويشمل ذلك: الانتماء إلى الأرض، والناس، والعادات والتقاليد، والفخر بالتاريخ، والتفاني في خدمة الوطن"⁽⁵⁾

2. إيمان الإبراهيمي بدور المسجد في تعزيز قيم المواطنة:

يعدّ المسجد أحد المقّرات التي يترى الفرد فيها على القيم وأتماط السلوك السوي إضافة إلى تعزيز المعاني الروحية التي تربط الفرد بخالقه وتؤصل فيه حقيقة خلقه ورسالته في الحياة، وحب الوطن أمر مشروع جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة لتؤصله وتحدد معالمه وأسسّه، وهذا ما آمن به البشير الإبراهيمي مستغلا خطبه في تأصيل شعور الافتخار بالوطن والدفاع عنه في نفوس أبناء المجتمع، والشعور بفضله والحرص على سلامته، ولذا جاءت خطب الإبراهيمي لتؤكد على حقوق الوطن، ولتغرس في أبنائه القيام بواجبهم تجاهه بأمانة وإخلاص وتكاتف وتناصح بينهم، وأن يعمل كل فرد بحسب مجاله وتخصّصه فيما أسند إليه من مهام وما طلب إليه من أعمال لأن كل مواطن هو في الحقيقة جندي من جنود الوطن لأن الإحساس بالهوية من أبرز مبادئ المواطنة⁽⁶⁾، أي أنّ الشعور بالانتماء للوطن يولد الإحساس بالهوية ويبرز ذلك من خلال سلوكيات الأفراد داخل المجتمع.

3. وصف مدوّنة الدراسة:

1.3/ عنوان الخطاب: الاسم الذي به يُعرف، وبفضله يتداول، ويشار به إليه، ويدل عليه، ويقوم العنوان بتحديد نوع الخطاب، وفتح قناة الاتّصال بين المرسل والمتلقّي، فعنوان الخطاب ليس من وضع صاحبه بل يسمّى باسم المناسبة التي قيل فيها، ويعرف بها، وقد عرفت الخطبة باسم "خطبة مسجد كشاوة".

2.3/ قائل الخطاب: الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي، وقد جاء الخطاب متأثراً بثقافة قائله وفكره، وأجّاهه، وتجّاره، إضافة إلى عوامل متعدّدة تأثّر بها.

3.3/ زمان الخطاب: يوم الجمعة 02 نوفمبر 1962م، ويفسّر أحداث الخطاب وموضوعه في إطار هذا الزمن، وهناك مؤشّرات زمنيّة أخرى تدلّ على زمن الجمل، مثل: اليوم، في قوله: هذا هوّ اليوم الأزهر الأنور.

4.3/ مكان الخطاب: جامع كتشاوة بالجزائر العاصمة، ومكان الخطاب يحدّد من خلال ذكر اسمه، مثل: "هذا المسجد هوّ حصّة الإسلام من مغامم جهادكم".

5.3/ موضوع الخطاب: تحدّث محمّد البشير الإبراهيمي في هذه الخطبة وهيّ الخطبة الأولى في جامع كتشاوة بعد الاستقلال، عن الجهود المبذولة في سبيل تحرير الوطن، حامداً الله على تحقيق النصر وهزم العدو الفرنسي، دون أن ينسى شهداء الجزائر الذين ضحوا من أجل هذا الوطن الغالي، ودعا الله أن يوفّق القائمين على شؤون البلاد في إصلاح أوضاع المجتمع، وتحقيق الوحدة الوطنيّة، كما افتخر باسترجاع مسجد كتشاوة، وعودته لأداء دوره الذي كان يؤدّيه في السابق، دون أن ينسى الأضرار الماديّة والمعنويّة التي خلفها الاستعمار داعياً الشعب الجزائري إلى التكافل والتضامن وبذل الجهود من أجل مواجهة أضرار المستعمر، محذراً إيّاه من الغرور ووسوسة الشيطان، مؤكّداً على ضرورة مساعدة الحكومة الفتية بكلّ الطّرق الممكنة من أجل التّهوض بالبلاد، والحفاظ عن هذا المكسب.

4. السّياق في خطبة الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي:

تعتمد اللّغة على السّياق في ضبط معانيها وإزالة الغموض عنها؛ فالسّياق هوّ الذي يحدّد ما إذا كان المقصود هوّ المعنى الأصلي أو المجازي، وذلك عن طريق اعتماده على مجموعة من الطّروف الحسيّة والتّفسيّة المحيطة بالنّص، وكذا المحيط الاجتماعي؛ لأنّ السّياق يعتمد على معرفة العادات والتّقاليد والحياة الرّوحية والدّينية والاجتماعيّة بصفة عامّة في تحديد المعنى، وكذلك على الطّروف التّاريخية والجغرافيّة والثّقافية الأخرى، ومن هنا نلاحظ أنّ قرينة السّياق تمتدّ على مساحة واسعة من الرّكائز تبدأ باللّغة وتنتهي بهذه القرائن المختلفة⁽⁷⁾.

وتتنوّع السّياقات بتنوّع الطّروف المحيطة بإنتاج نص ما، سواءً أكانت ظروف داخليّة أم خارجيّة، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم السّياق إلى قسمين: السّياق الخارجيّ والسّياق الدّاخلي.

أ- **السياق الخارجي:** السياق هو الأساس أو المرجع الذي تعتمد عليه الحقيقة وفهمها ولا يتضمّن عند الاتّصال اللّغوي الكلمات فقط، بل يشمل الصّلات والظّروف المحيطة، والحقائق السابقة والأشخاص الذين نتحدّث معهم⁽⁸⁾. ويتضمّن السياق الخارج عن النصّ ما يأتي⁽⁹⁾:

- **الزّمن الذي قيلت فيه الخطبة:** وهو يوم الجمعة 02 نوفمبر 1962م، وهي أول جمعة تُقام في مسجد كتشاوة في الجزائر العاصمة بعد الاستقلال. وقد جاءت داخل الخطبة إشارات زمنيّة يحدّد بها السياق الخارجي، مثل: اليوم، الأمس، ذلك الوقت إلى جانب أزمنة الخطاب التي تحدّد الزّمن والحدث اللّغوي (ماضيا، حاضرا، مستقبلا) مثل: لقد كنّا نمرّ على هذه السّاحة مطّرين، ونشهد هذا المشهد المحزن.

- **المكان:** جاءت في الخطبة إشارات مكانيّة تربط التركيب بالبيئة الخارجيّة، مثل: "إنّكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه وأبوابه وحيطانه"، هذا تُحيل إلى العالم الخارجي، وهو جامع كتشاوة بالجزائر العاصمة، فمعرفة الظّرف الخارجي تُعين على تفسير هذا التّركيب.

وقد يُعين المكان من خلال ذكر اسمه، مثل: الجزائر، الشّمال، المسجد، السّاحة وهذا يتطلّب معرفة سابقة عن المكان، وفهم دلالة تلك الأعلام يتطلّب الرجوع إلى العالم الخارجي الذي يفسّر مفاهيم تلك الأسماء الرّمزية لمسمّيات في العالم الخارجي وكذلك فهم الإشارات التي ترد في الخطبة مرجعها يكون في العالم الخارجي.

ب- **السياق الدّاخلي:** وهو الذي يُفسّر من خلال سياق النصّ، فتفسّر دلالات الألفاظ في إطار السياق النصّي، وخاصّة المعاني المجازيّة، مثل: "وعزيمة تقطع دابر الاستعمار من النفوس"، فقد نقلت الإضافة معنى القطع الحقيقي إلى معنى مجازي هو إبراز صورة الاستقلال الحقيقيّة في أبعدها.

والسياق هو الذي يحدّد معنى الإنارة في: "وتوفيقا يُنير السّبيل"، بمعنى طلب التّوفيق من الله سبحانه وتعالى، وليس المقصود الإضاءة والإنارة؛ فالسياق له معنى غير المعنى المجرّد لدلالة اللفظ، ومنه فالموقف هو الذي يحدّد المعنى المقصود من بين مجموعة من المعاني المتعدّدة للفظ الواحد.

وهناك نوعان من المعنى يحددهما السياق الداخلي⁽¹⁰⁾:

1- المعنى السياقي الذي يتحدد من خلال السياق، أو ما يمكن أن يسمى تنوعات الحديث، أو اختلاف المعنى لاختلاف السياق، مثل قولنا: "شاهدنا فجر الاستقلال" وقولنا: "صلينا الفجر"؛ فالفجر الأول يعني إشراق الحرّة وتحققها والفجر الثاني بمعنى صلاة الفجر، فالأول معنى مجازي والثاني معنى حقيقي.

2- جميع المعاني السياقية التي تأتي بها الكلمة، ومثال ذلك المعاني المعجمية التي يُحصيها المعجم للفظ الواحد، ويذكر لكل معنى شاهد أو سياق يأتي فيه، ومثال ذلك كلمة "السلام" التي تعني في سياق الخطبة (التّحية)، كما تعني أيضا في الحقل الدّيني: اسم من أسماء الجنّة (دار السلام)، أو اسم من أسماء الله تعالى.

5. المستوى الدّلالي (Le niveau Sémantique)

وهو المستوى الذي يدرس معنى الكلمات والتراكيب⁽¹¹⁾، فمستوى الدّلالة يدرس "مكوّنات المعنى اللّغوي وعناصره، واختلاف المعاني باختلاف المنشئين للتراكيب اللّغوية وأهمية الكلمة ودورها في أداء المعنى اللّغوي داخل التراكيب، كما يدرس ربط الكلام بمقام استعماله ومراعاة مقتضى حاله"⁽¹²⁾. ويحدّد الخطاب الدّيني عادة من خلال العلاقة القائمة بين الخطيب من جهة، وبين المتلقين من جهة أخرى، لذلك فإنّ شكل اللّغة ومضمونها يحدّدان بهذه العلاقة، ويتأثّران بها تأثّرًا واضحًا، كما أنّ ثقافة المرسل، وشخصيّته وأبجهااته وميوله، وموضوع الخطاب والظّروف الدّينية المحيطة، عوامل تُسهم في اختياره لمفرداته. وتنقسم بنية الخطاب الدّلالي إلى نوعين، وهما: الأبنية الدّلالية الكبرى والأبنية الدّلالية الصّغرى.

أ- الأبنية الدّلالية الكبرى: وهي أفكار الخطبة ومضامينها أو الموضوعات التي تربط بين الألفاظ والتراكيب، وتشكّل بناءً متماسكا للخطبة، وهذه المضامين هي التي تعمل على تماسك الخطبة، وقد دارت مضامين الخطبة حول: الاستقلال وتبيان كيفية إصلاح مخلفات الاستعمار الغاشم، والدّعوة إلى الوحدة والصّبر والعزيمة لمواجهة مخلفات المستعمر والتّحذير من التعامل معه، بالإضافة إلى الافتخار باسترجاع السّيادة الوطنية والدّعوة إلى الحفاظ على هذا المكسب، ومساعدة الحكومة الفتية والاجتهاد في إصلاح الأوضاع.

ب- الأبنية الدلالية الصغرى: وهي دلالات المفردات والحقول الدلالية التي دارت في حقلها⁽¹³⁾، ومن أبرز المفردات التي جاءت في الخطبة: الثورة، الاستعمار، الاستقلال المصطلحات الدينية، الوحدة الوطنية.

وتتناول هذه المفردات على هيئة حقول دلالية:

- الثورة: السيف، الموت، الجهاد الشهداء، البطولة، الدفاع، الجراح، العزيمة، البنادق القتال، التأثير.
- الاستعمار: العبودية، الباطل، الفناء، التعذيب، التخريب، التحييف، الفرقة، الخلاف التفريق، التمزيق، الفتنة، الفساد، الأذى، القهر، السلب، الاغتصاب، الوحش، البغي الحيوانية، الظلم، اليتامى، الأيامى، المشوهين، الحزن، الضحايا.
- الاستقلال: النصر، الحرية، اليوم الأزهر، اليوم الأعز المحجّل، اليوم المشهود، العزة اللاتحة، التاج المتألق، الصحيفة المذهبة الحواشي، الفرح، الروعة، الجلال.
- المصطلحات الدينية: الحمد لله، المؤمنون، الصادقون، الجنة، التوحيد، دين الحق الإيمان، الصبر، الهدى، الصلوات، التاريخ الإسلامي، المسجد، الساجدين، الكنائس التثليث، دين عيسى، دين محمد، التلاوة، الصلاة، النبي، العبادة، الاستغفار، الشرك الغفور، الرحيم، العظيم.
- الوحدة الوطنية: حقوق الوطن، الألفة، جمع الشمل، الوحدة، الرحمة، التعاون، الإعانة التجديد، البناء، التشييد، خدمة الوطن.

6. توظيف المصادر داخل الخطبة:

المصدر ما دلّ على حدث مجرّد من الزّمان، وقد جاء في الخطاب نحو 86 مصدرا وتتميّز بالخصائص التالية:

- استخدم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي المصادر ذات الحركة والحيوية، لأنّ موضوع الخطبة يتناول حدثا مهما في تاريخ الجزائر وهو تحقيق الاستقلال والانتصار على الاستعمار الفرنسي. مثل: الإخلاص، النصر، الجهاد، الصبر، القوة.

- معظم المصادر أوزانها مزيدة، مثل: استقلال، استعمار، تحرير، استرجاع، وقد جاءت تلك الزيادة لزيادة في دلالة المعنى.
- جاء في الخطبة العديد من المصادر الميمية، مثل: مواكب، مفرق، معهد، منفذ، مدخل. استخدم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي المصدر الصناعي، مثل: الحرية، العبودية، الحيوانية دينية، دنيوية، وقد أخذت تلك المصادر معاني اصطلاحية بإضافة اللاحقة "ية" التي تعني الانتساب إلى مجال من العلوم والاتصاف بخصائصه⁽¹⁴⁾، واللاحقة تعطي الأسماء الجامدة دلالة المرونة والحيوية، مثل: الجمهورية، الملكية، الديمقراطية، ذلك أهما صارت وصفا، يتمتع بالاستمرار والثبات⁽¹⁵⁾.

7. الأفعال الكلامية في خطبة الشيخ البشير الإبراهيمي

نتطرق من خلال هذا العنصر إلى تطبيق نظرية الأفعال الكلامية على خطبة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ولو في شكلها الشمولي غير المجتزئ، وساعدنا كثيرا جمال اللغة باعتبارها عنوان الهوية عند الإبراهيمي، ووعاء الفكر المرتبط باللسان الحامل للموروث العربي الإسلامي، وأداة للتواصل، مما يستوجب الحضور العلمي والثقافي عند السامع، من أجل الانسجام والتفاعل مع لحظة الاستقلال تأثيرا وتأثرا. وقادتنا دراسة الخطبة من منظور تداولي، إلى رصد الأفعال الكلامية التي ترمي إلى بلوغ مقاصد الإبراهيمي وملامسة واقعه وهو يحمل همّ أمته وفق فلسفة إصلاحية، تقدم التربية كاستراتيجية مناهضة للاستعمار بانية للوطن، وفق خطاب ديني إسلامي يهدف إلى إقناع المخاطب بإثارة انفعاله وتحريك مشاعره واستمالته، مع ما حواه الخطاب من تناص مع القرآن والحديث والشعر.

تتراوح الأفعال الكلامية في خطبة الإبراهيمي بين الإخباريات (Les informatives) والتعبيريات (Les expressive) وأفعال التعهد (Les verbs de promesse) ... إلخ، إلّا أنّها ترد فعلا كلاميا واحدا شاملا، وهو فعل الشيخ الإبراهيمي، ولذلك "فإنّ الأفعال الكلامية الكلية لها وظائف في تخطيط وتنفيذ الأفعال الشاملة"⁽¹⁶⁾، ولكي نفهم الخطبة ككل متكامل "يغدو ضروريا فهم الأجزاء، في حين أنّنا لكي نفهم الأجزاء، لا ينبغي لنا إلّا استيعاب شيء من الكل"⁽¹⁷⁾، ونحن نريد استيعاب هذه الخطبة في كلّ متكامل.

فالفعل الكلامي "يراد به الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلقّظه بملفوظات معيّنة"⁽¹⁸⁾ شرط أن يرتبط بالقصد والذي يترجمه السلوك في الفعل الكلامي، لأنّ القصد مُقَدَّم عن الفعل. ونبدأ دراستنا بما يلي:

الإخباريات: تواترت الإخباريات بشكل كبير في الخطبة، فالشيخ الإبراهيمي يوضّح في تعبيراته وهوّ ذو مرجعية فكرية إسلامية متأثراً بأسلوب القرآن؛ لأنّه لولا تحالف شعب وربّ لما حقّق الربّ يوماً سؤال النصر المنزل من السماء، حيث قال الشيخ الإبراهيمي في ذلك: "جعل النصر ينزل من عنده على من يشاء من عباده، حيث يتليهم فيعلم المصلح من المفسد، ويعلم صدق يقينهم وإخلاص نيّاتهم، وصفاء سرائرهم، وطهارة ضمائرهم" وجاءت الأفعال الأدائية موقّفة إلى حدّ كبير في تبيان عدوّة النصر وعسرة ولادته، وأنّ الدنيا تؤتّى غالباً، والحياة الكريمة لا تنقاد إلّا لمن يركب الصّعب، ويصبر على الآلام ومشاقّ الطّريق. ويتجسّد ذلك في قول الشيخ الإبراهيمي: "وولّد الحرّية من العبوديّة، وجعل الموت طريقاً إلى الحياة، وما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقاً... وهذه بضاعتكم ردّت إليكم أخذها الاستعمار منكم استلاباً، وأخذتموها منه غالباً".

وقد تخلّلت هذه الإخباريات أفعال الإيضاح التي تبين كيف يتجلّى الله سبحانه على أقوام بالغضب والسخط من خلال الفعل الكلامي (أحال) وعلى آخرين بالرحمة والرّضا من خلال الفعل الكلامي (تجلّى)، وهي أفعال شاملة تجري مجرى السنن الكونية والاجتماعية التي ليس فيها ظلم ولا محاباة، لتأتي النتيجة ملازمة للفعل الإنجازي المرتبط بمآله وبيئته وزمانه الاستعماري، فقد بينّ الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي في خطبته كيف أنّ الله تجلّى على بعض عباده بالغضب والسخط؛ لأنّه بسبب تفریطهم وتقصيرهم تحوّلت مساجد التوحيد إلى كنائس التثليث، حيث سبحانه وتعالى "تجلّى على بعض عباده بالغضب والسخط فأحال مساجد التوحيد بين أيديهم إلى كنائس التثليث، وتجلّى برحمته ورضاه على آخرين فأحال فيهم كنائس التثليث إلى مساجد للتوحيد". كما جاءت الإخباريات توضح طبيعة الاستعمار الفرنسي في محاربة الإسلام ورموزه، فالحرب التي خاضتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية ضدّ الشعب الجزائري شاملة، من إبادة للجنس البشري وطمس معالمه العربية والإسلامية، وهدم مؤسساته الدينية والثقافية، وهي إخباريات تحدّث فيها الشيخ محمّد

البشير الإبراهيمي عن حالة تحوّل الأشياء لمن يراعي سنن الله في الكون والآفاق في إحداث التغيير، حيث ارتبطت النتيجة بأفعال كلامية إنجازية، بين فيها أنّ ما أخذ بالقوّة لا يسترجع إلاّ بالقوّة، وأنّه من خصائص السنن الكونية والاجتماعية خاصية الثبات والدوام، أي أنّها لا تتغيّر ولا تتبدّل ولا تتحوّل، وهي تجري على الآخرين كما جرت على الأولين، وهي ماضية لا ينفع معها التبرّم والسخط. هذه الإخباريات هي أفعال الإيضاح التي تبين كيف أنّ العبارة المتلفظ بها ترتبط بفعل النّصر، وهو مقدّم بفعل الابتلاء ليخلص الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي إلى النتيجة الإخبارية؛ أي إلى العلم الذي يجري مجرى الاختبار والصّقل والتّمايز فالله سبحانه وتعالى "جعل نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة منوطا بالإيمان والصّبر".

وتتعدّد أفعال الإيضاح (Les verbs de clarification) لتشمل أفعال السنن الكونية لأنّ الله سبحانه وتعالى جعل سننه في المجتمعات، كما جعل سننه في الكون، وسننه في الكون قد تختلف أحيانا بالخوارق والمعجزات، لكنّ سنّته في المجتمعات ماضية لا تحابي أحدا، وتستدعي أن يتحقّق النّصر ويقوم على سواعد البشر، ويكون جهدا جماعيا. فالله سبحانه وتعالى "ما ظلم الأولين ولا حابي الآخرين، ولكنها سنّته في الكون وآياته في الآفاق يتبعها قوم فيفلحون، ويعرض عنها قوم فيخسرون".

كما وردت في الخطبة أفعال تقوم على التّضاد؛ حيث لا تُعرف الأشياء إلاّ بأضدادها فقيمة الحياة تتجلى في هذا التّضاد بين الحقّ والباطل، بين الخير والشرّ، بين النور والظلام بين الهداية والضلالة، بين الحرّية والعبودية، فالّتضاد يوضّح المعنى ويقويه. كما يوضّح لنا الشيخ الإبراهيمي كيف أنّ السعادة لا يُعبر إليها إلاّ عبر المشقّة، وأنّ البدايات المحرقة نهاياتها مشرقة، ويجسدها الفعل الإنجازي (باؤوا)، حيث قال: "وبايعه عباده المؤمنون الصادقون على الموت، فباؤوا بالصفقة الزابحة" مع الله عزّ وجلّ، فالشاري هو الله والبائع هو المؤمن والثمن هو الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: 111).

وتأتي أفعال الكلام من خلال الإخباريات بعد فعل الإقرار وفعل التّعهد من خلال رسالة الإسلام الشّاملة لمناحي الحياة شرعة ومنهاجا، طريقا بيّنا واضح القسّمات في تفريق الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي بين فعل الجهاد؛ باعتباره قاعدة في حياة المسلم، وبين فعل القتال الذي يُعدّ استثناءً في تبيان القصد المرتبط بفعل السّلوك في تشريع القتال من أجل إعلاء كلمة الله، ونصرة دين الحقّ، فالرّسول صلّى الله عليه وسلّم "شرّع الجهاد في سبيل الله، وقاتل لإعلاء كلمة الله حتّى استقام دين الحقّ في نصابه، وأدبر الباطل على كثرة أنصاره وأحزابه"، وهي أفعال تعبيرية تكشف عن النّية والقصد الموافق للسّبيل؛ فالعمل الحسن لا يُقبل إلّا إذا كان خالصا، وهذا هو شعار المؤمنين في حروبهم مع أعدائهم، فهم لا ينتصرون بعدّتهم، ولا بعثادهم فحسب، وإمّا يتنزّل النّصر عليهم من عند الله سبحانه وتعالى على قلتهم وكثرة أعدائهم، فالقوة الإنجازية التي تربط النّصر بفعل الصّبر، تفهم من سبّاق الكلام، فتلازم النّصر مع الصّبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر، إنّه المثال الذي اختاره الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي؛ لأنّ شاهده قائم بين يدي الحاضرين يبصرون كيف تحوّلت كنيسة التّثليث إلى مسجد للتّوحيد، وكيف عاد المسجد لمجده الأوّل الذي أسّس عليه، "فالله سبحانه وتعالى تجلّى على بعض عباده بالغضب والسّخط، فأحال مساجد التّوحيد بين أيديهم إلى كنائس التّثليث، وتجلّى برحمته ورضاه على آخرين، فأحال فيهم كنائس التّثليث إلى مساجد للتّوحيد... فالمسجد كان يؤدّي وظيفة المعهد والمدرسة والجامعة... وما ظلم الأوّلين ولا حابى الآخرين، ولكنّها سنّته في الكون وآياته في الآفاق يتبعها قوم فيفلحون ويعرض عنها قوم فيخسرون"، هنا غضب وهنا رحمة، لا ظلم ولا محاباة، إمّا سنّة الله في خلقه، تتكرّر كلّما تأدّنت أسبابها، وحن أوأنا، وإنّه "جعل نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة منوطا بالإيمان والصّبر".

وبالرّغم من غلبة الظلم وكثرة أنصاره، وهو يقين آخر يضاف إلى اليقينيّات الأولى التي تجعل النّصر مشيئة ربّانية، ليس لها صلة بالكثرة والعدّة، وإمّا هذه كلّها من الأسباب التي تُجرّيها السنّة لإحداث التّغيير، فقد يُهزم الجمع القويّ الغفير، وتُنصر الفئة القليلة الضّعيفة ما دام شرط النّصر إيمان وصبر، وإنّ النّصر الحقّ ليس نصر معركة، وإمّا النّصر نصر التّأسيس والبناء؛ فالشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي يدعو الله أن يُنزل رحمته وصلواته على

الشهداء الأبرار الذين ضحّوا بأنفسهم من أجل الدفاع عن شرف الحياة، وحرّمات الدّين وعزّة الإسلام، وكرامة الإنسان، وحقوق الوطن⁽¹⁹⁾، فالوطن عند الشيخ الإبراهيمي صدق انتماء وبذل وعطاء، وقمة العطاء تتجلى عندما نموت من أجله، وندافع عن شرف الحياة وحرّمات الدّين وكرامة الإنسان وحقوق الوطن، وهيّ في مجملها أفعال إنحازية تؤدّي مقاصدها التّداولية، فالإبراهيمي في خطبته هذه، يعبر عن إحساسه الأليم لهول ما لقيّه الشعب الجزائري من ويلات وما كابده من عذاب، فهذه الإخباريات تخبرنا عن الحقيقة الاستعمارية، وما حدث فيها زهاء قرن وثلاثين سنة، من استباحة للدّم والأموال وتخريب الدّيار والممتلكات.

ويواصل محمّد البشير الإبراهيمي التماسه وطلبه بأفعال أدائيّة، تدعو القائمين بشؤون الأمة والشّأن العام بعد زوال الاستعمار، أن يرفعوا سقف اهتمامهم وأن تعلقو همهم ويتطلّعوا إلى حال أفضل ويتهيّؤوا إلى الاستقلال بعد الاستعمار، وإلى البناء بعد الهدم والخراب، إذا توقّرت عناصر الإرادة والإخلاص والرّحمة والشّورى والتّعاون التي تنير الطّريق.

فدراسة الأفعال الكلامية في خطبة الإبراهيمي، لا تكفّ بالأفعال الكلامية المباشرة، وإنّما تتجاوز هذا المستوى إلى مستوى دلالي أعلى فهيّ أفعال كلامية شاملة، ذات أبعاد متعدّدة، يدعو فيها إلى إعمار الوطن وتشبيده، ونبذ الفرقة والخلاف.

ويواصل الإبراهيمي خطبته، ليصل إلى تقديم توجيهاته من أجل تضافر الجهود والتّعاون على ما يجمع ولا يفرّق، يبني ولا يهدّم، ويدعوهم إلى رفع سقف الاهتمام واستغلال الوقت بما يفيد في تجاوز السّفاسف من الأمور والانصراف إلى الإصلاح والتّجديد والإعمار، ونبذ الفرقة وأسبابها، وإغلاق السّبيل في وجه حظوظ النّفس ومداخل الشّيطان، والانتصار للدّين حيث أكّد الشيخ الإبراهيمي أنّ الحكومة الفتيّة "تلقت تركة مثقلة بالتكاليف والتّبعات... فأعينوها بقوة، وانصحوها في ما يجب النّصح به بالتي هيّ أحسن، ولا تقطعوا أوقاتكم في السّفاسف والصّعائر، وانصرفوا بجميع قواكم إلى الإصلاح والتّجديد، والبناء والتّشيد، ولا تجعلوا للشّيطان بينكم وبينها منفذا يدخل منه". ثمّ يختم بالدّعاء لهم وتأكيد حقيقة الاستخلاف في الأرض القائم على التّوارث في حمل الرّسالة والتّقيّد بالأهداف العليا للأمة والدّين والوطن.

وخلاصة ذلك، أنّ الأفعال الكلامية في خطبة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يتجسّد دورها في توجيه سلوك المتلقّي واستمالاته إلى هدف يصبو إليه الشيخ، والمتمثّل في تحقيق الوحدة الوطنيّة وبناء الوطن في ظلّ السيادة الوطنيّة.

الهوامش والإحالات

- (1) - عبد الحافظ، س، المواطنة حقوق وواجبات، مركز ماعت للدراسات الحقوقية والدستورية، القاهرة 2007م، ص: 09.
- (2) - Claude Kannas (sous la direction de): dictionnaire Encyclopédique la rousse , edition larousse bordas, 1999, p : 319.
- (3) - غيث، م، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، 1995م، ص: 56.
- (4) - علا أبو زيد، هبة رؤوف عزت، المواطنة المصرية ومستقبل الديمقراطية رؤى جديدة لعالم متغير أعمال المؤتمر السنوي السابع عشر للبحوث السياسية 21-23 ديسمبر 2003، مركز البحوث والدراسات السياسية، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2005 م، ص : 1070-1071م.
- (5) - مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض، ط2، 1999م ج 27، ص204.
- (6) - نافع، ع، وعي طلاب التعليم الأساسي بمبادئ المواطنة، دراسة ميدانية، مجلة كلية التربية، جامعة الزقازيق، العدد 5، ماي 2005م، ص: 281.
- (7) - ينظر: البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني)، تمام حسّان، عالم الكتب القاهرة - مصر، د ط، 1993، ص220-222
- (8) - ينظر: علم الدلالة، دراسة في المعنى والمنهج، محمود جاد الزّرب، عامر للطباعة والنّشر، المنصورة مصر، ط1، 1991، ص124
- (9) - ينظر: اللّغة والإبداع الأدبي، محمّد العبد، دار الفكر للدراسات والنّشر والتّوزيع، القاهرة - مصر د ط، د ت، ص30-31
- (10) - ينظر: علم الدلالة دراسة في المعنى والمنهج، محمود جاد الزّرب، ص124
- (11) - ينظر: منهج البحث اللّغوي بين التّراث وعلم اللّغة الحديث، علي زوين، دار الشّؤون الثّقافية بغداد - العراق، ط1، 1986، ص131.
- (12) - المرجع نفسه.
- (13) - ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة- مصر، ط4، 1993، ص79.

- (14) - ينظر: الأسس اللغوية لعلم المصطلح، محمود فهمي حجازي، مكتبة غريب، القاهرة، د ط 2008، ص77.
- (15) - ينظر: لغة الخطاب السياسي دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، مصر، ط1، 2005، ص69.
- (16) - سوزان روبين سليمان: القارئ في النص مقالات في الجمهور والتأويل، تر: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ط1، د ت، ص130.
- (17) - ديفيد كوزنر هوي، الحلقة النقدية الأدب والتاريخ والهيرمينوطيقا والفلسفة، تر: عبد القادر قنيني إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 2000، ص5.
- (18) - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط1، 2005، ص11.
- (19) - ينظر: آثار الإمام الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان، ط1، 1997، ج5، ص305-308.

دور الشباب في ترسيخ قيم المواطنة والهوية الإسلامية قراءة في كتاب الآثار للشيخ البشير الإبراهيمي

The role of young people in consolidating the values of citizenship and islamic identity – through the book El Ibrahimi's Works (*Athar El Ibrahimi*)

ط.د/ العيد بوعافية

مخبر البحوث والدراسات في التنمية الريفية

جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريش (الجزائر)

Laid.bouafia@univ-bba.dz

تاريخ القبول: 2021/09/17

تاريخ الإرسال: 2021/09/02

ملخص:

يأتي بحثنا هذا ليعين الدور الفعال الذي قام به البشير الإبراهيمي في سبيل ترسيخ القيم والثوابت الوطنية لدى الشباب، إذ أنه يرى أنّ الشباب هو القوة المحركة لأيّ مجتمع ومتى اكتسبت هذه الفئة قيما وتشبعت بالروح الوطنية، كانت فعالة في المجتمع واستطاعت أن تؤدي الدور المنوط بها، وسنحاول التركيز على أهم الأفكار التي جاء بها البشير الإبراهيمي من خلال مساهماته في مؤلفاته لاسيما منها "آثار الشيخ البشير الإبراهيمي".

الكلمات المفتاحية: القيم، الهوية، المواطنة، الشباب، الفكر.

Abstract:

Our research attempts to show how Sheikh Al-Bachir Al-Brahimi played a key role in consolidating national values among young people because he thought that youth represent the driving force of any society. When this category acquires national values it becomes effective in the society and can accomplish its role . We will focus on El Ibrahimi's basic ideas along (*Sheikh Al-Bachir Al-Ibrahimi works*).

keywords: values, identity, citizenship, young people, thought.

مقدمة:

يعتبر الشيخ البشير الإبراهيمي من المؤسسين الأوائل لجمعية العلماء المسلمين فقد كان مهتما بقضايا المجتمع الجزائري بشكل عام، وبقضايا الشباب بشكل خاص، ومن أهم القضايا التي ركز عليها: قضية الهوية والقيم الوطنية، خاصة وأن الظروف التي كانت تعيشها الجزائر تستدعي الاهتمام بهذا الجانب، حيث كان المستعمر الفرنسي يسعى إلى طمس الهوية الجزائرية، وتجريد الشعب الجزائري من قيمه الإسلامية وعاداته العربية الأمازيغية فحاءت جهود الشيخ البشير الإبراهيمي في هذا السياق لتحافظ على ما تبقى من قيم ولتعيد ما ذهب منها أو كاد، من منطلق أن فئة الشباب هي الفئة العمرية الأهم في أي مجتمع، فبالحفاظ عليها يمكن أن يصلح المجتمع، وبفسادها يفسد المجتمع، والشيخ البشير الإبراهيمي من المفكرين الذين وظفوا عقولهم وأقلامهم في سبيل خدمة مجتمعهم، ولا أدل على ذلك من الآثار التي تركها "آثار الشيخ البشير الإبراهيمي" والتي سنحاول أن نسلط الضوء على أهم الأفكار التي جاءت فيها.

● **المواطنة:** عرّفت في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية على أنها "مكانة اجتماعية أو علاقة اجتماعية تقوم بين شخص ومجتمع سياسي (دولة)"⁽¹⁾ يتبين لنا من خلال هذا التعريف أنه توجد علاقة بين طرفين الأول عليه واجب الولاء والآخر عليه واجب الحماية.

أما الموسوعة السياسية فتعرّف فيها على أنها "صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءه للوطن وأهمها: واجب الخدمة العسكرية، واجب المشاركة المالية في موازنة الدولة، وللمواطنة معان متعددة: فهي بالمعنى السياسي "الحقوق التي يتمتع بها المواطن في نظام سياسي معين كحق الاقتراع باعتباره عضواً في المجتمع السياسي الذي ينتمي إليه، إضافة إلى مؤشرات أخرى كالولادة أي أنّ المواطن هو ابن مواطن لم يجرم من حقه في المواطنة"⁽²⁾.

وهناك تعريف أخرى للمواطنة ذات صبغة قانونية أو اقتصادية، وغيرها كما يمكن أن نعرفها بشكل عام على أنها مجموعة من الحقوق السياسية والمدنية التي يتمتع بها المواطن في وطن ما بحيث يمكنه المشاركة في الحياة العامة مع باقي الأفراد الذين ينتمون لنفس الوطن.

● **الهوية:** يعرف المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية "الهوية" بأنها حقيقة الشيء أو الشخص الذي تميزه عن غيره، أو هي بطاقة يثبت بها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله وتسمى البطاقة الشخصية أيضا⁽³⁾.

وأما في اللغة الإنجليزية فتعني تماثل المقومات أو الصفات التي تكون الحقيقة الموضوعية لشيء ما والتي بواسطتها يمكن معرفة هذا الشيء وغيره على وجه التحديد⁽⁴⁾.

أما إذا أتينا إلى تعريف الهوية عند المفكرين لاسيما منهم علماء الاجتماع فإننا نجد مجموعة من التعاريف المختلفة غير أنها تأخذ بعين الاعتبار البعد الثقافي والاجتماعي، فقد عرفها سعيد إسماعيل بأنها "جملة المعالم المميزة للشيء التي تجعله هو، بحيث لا تخطيء في تمييزه عن غيره من الأشياء أو لكل إنسان شخصيته المميزة له، فله نسقه القيمي ومعتقداته وعاداته السلوكية وميوله واتجاهاته وثقافته، وهكذا الشأن بالنسبة للأمم والشعوب"⁽⁵⁾.

من خلال هذه التعاريف وغيرها من التعاريف يتبين لنا أنّ الهوية تميز كل شخص عن غيره بمجموعة من الصفات التي لا توجد إلا عنده وكما يتميز الأشخاص بتمايز الأمم والمجتمعات. وقد عرف الإمام عبد الحميد بن باديس الهوية الوطنية: "الهوية الوطنية مجموعة من الأفكار المبنية حول مفهوم الأمة المتعددة الجوانب وحول الروابط التي يرتبط بها الأفراد والجماعات أنفسهم داخل المجموعة وتحتوي الهوية الوطنية على مكونات ثابتة وهي البيئة والبشر والتاريخ والسيادة والدين واللغة والمصير المشترك أو قل هي وعاء الضمير الجمعي".

● **القيم:** إن مادة «قَوْمٌ» استعملت في اللغة لعدة معانٍ، منها قيمة الشيء وثمنه. والاستقامة والاعتدال ونظام الأمر وعماده، والثبات والاستمرار، ولعل أقرب هذه المعاني لموضوع بحثنا هو الثبات والدوام والاستمرار⁽⁶⁾.

أما علماء الاجتماع والتربية، فيعرفون القيم بأنها محكات ومقاييس نحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء، والأعمال والموضوعات، والمواقف الفردية والجماعية؛ من حيث حسنها وقيمتها والرغبة بها، أو من حيث قيمتها وعدم قيمتها، وكراهيتها، أو في منزلة معينة ما بين الحدين⁽⁷⁾.

كما عرف التربويون القيم بتعريفات كثيرة؛ منها:

- مجموعة من المبادئ والقواعد والمثل العليا التي يؤمن بها الناس، ويتفقون عليها فيما بينهم ويتخذون منها ميزاناً يزنون به أعمالهم، ويحكمون بها على تصرفاتهم المادية والمعنوية.
- مجموعة من الأحكام المعيارية المتصلة بمضامين واقعية، يتشربها الفرد من خلال انفعاله وتفاعله مع المواقف والخبرات المختلفة، ويشترط أن تنال هذه الأحكام قبولاً من جماعة اجتماعية معينة؛ حتى تتجسد في سياقات الفرد السلوكية أو اللفظية أو اتجاهاته واهتماماته.

I. الجانب التربوي لدى الشباب في فكر البشير:

عندما قرّر الإمام الإبراهيمي -رحمه الله- مع الكوكبة الأولى من رفاقه تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وذلك في العام 1931م - 1349هـ. كان القرار بتأسيس الجمعية في أساسه هدفاً، وكان الهدف هو الشباب والتربية لأنهم أدركوا أنّ النهوض بواجب تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي الذي كان قد مضى عليه قرن من الزمان يوم تأسيس الجمعية، وبعدها تطوير المجتمع والنهوض بواجب التنمية في مختلف الميادين لا يكون إلا إذا تحقّق أمر به يكون التحرير، وبه يكون التقدّم، إنّه تنشئة جيل يملك من المؤهلات والطاقات والمواهب ما يمكنه من صناعة المستقبل الأفضل، إنّه جيل آمن بالله تعالى، والتزم الكفاح والعمل حتّى النصر وتحقيق التقدّم.

وعلى الرغم من أنّ قانونها كان قد نص في أحد بنوده على عدم التدخل في الشؤون السياسية إلا أنّ تأثيرها السياسي كان بطريقة غير مباشرة، إذ تجلّى من خلال تصحيح المفاهيم الخاطئة، وحثّ الشباب على الاستعداد للحياة والإعداد لها، ومحاربة الفكر الديني الضال الذي يرى في الاستعمار الفرنسي قدراً محتوماً. وكان محمد البشير الإبراهيمي يشيد بدور الجمعية في المحافظة على الهوية الوطنية، ويقول: «لا تستطيع هيئة من الهيئات العاملة لخير الجزائر أن تدعي أنّ لها يداً مثل الجمعية في توجيه الأمة الجزائرية للصالحات، ورياضتها على الفضيلة الإسلامية، وأما عملها للعروة فيها هنا معاهد الافتخار⁽⁸⁾.

هذا الجيل تنطلق عملية تثقيفه، وإعداده من منطلقات ثلاثة هي كما حدّدتها الجمعية: "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا". فذهب عدد من رواد الجمعية أمثال: "محمد

البشير الإبراهيمي" و"عبد الحميد بن باديس"، و"الطيب العقي"، و"العربي التبسي" في صناعة هذا الجيل من الشباب الجزائري الذي حمل على عاتقه مسؤولية تحرير الوطن من الاستعمار، ونفض غبار الجهل، والكسل، والخوف، والذل عن عيون الشباب الجزائري وكان أمل محمد البشير الإبراهيمي في الشباب الجزائري كبيرا لما رأى أنه يمثل «الدّم الجديد الضامن لحياة واستمرار، ووجود كلّ أمة، فهم الامتداد الصحيح لتاريخها، وهم الورثة الحافظون لمآثرها، وهم المصححون لأخطائها، وأوضاعها المنحرفة، وهم الحاملون لخصائصها إلى من بعدهم من الأجيال»⁽⁹⁾.

إننا عندما نتلمس طريقة الإبراهيمي في إصلاح الشباب الجزائري نجدها قائمة على الأمل الواعد في غدٍ أفضل من خلال فهم الحاضر فهما صحيح بعيدا عن الخرافات والدجل والتدليس. إنها طريقة قائمة على استثمار حاضر الشباب، وتحيين ظروفه المختلفة في سبيل تحقيق صحوة شبابية مندفة تجاه النصر والتمكين، إذ نجده يوجه خطابه إلى فئة الشباب خاصة ليقينه أنّ الشباب خير من يرعى الأفكار وينميها، فمنذ ظهور الإسلام والشباب المسلم هو من تكفل بالدعوة ومناصرتها ونشرها، وشباب الجزائر في نظره سليل الشباب المحمدي الذي يعدّ أحق شباب الأمم بالسبق إلى الحياة و الأخذ بأسباب القوة.

ولأنّ الإبراهيمي كان من الرجال الذين يمتازون بالقدرة على فهم الواقع و قراءة مؤثراته قراءة صحيحة فقد كانت كلّ خطابه تظهر فكره في أنّ تربية الشباب التربية الصحيحة ستظهر نتائجها في الثورات وبعدها لأنها ستحقق النصر لا محالة وستساهم في بناء الأمة في ما بعد الثورة، لذلك ركز على الجانب التربوي والتعليمي لطفل ست سنوات حتى يصبح شابا عبر مرحلتين:

- **مرحلة الابتدائي:** وتتم بتعليم الكتابة والقراءة لتقي الشعب الجزائري من شبح الأمية وهذا في مدارس الجمعية ولقد أنشأت الجمعية لذلك شهادة تسمح لحاملها بمتابعة المرحلة التعليمية الموالية⁽¹⁰⁾.

- **المرحلة الثانية:** اهتم البشير الإبراهيمي بالذين أنهوا المرحلة الابتدائية فأسس معهدا يستكمل هؤلاء دراستهم فيه وسعى لربط المعهد بجامع الزيتونة وكان الهدف من هذا

الربط إيجاد علاقة ثقافية علمية بين مختلف المؤسسات العربية وتمكين حاملي شهادات المعهد من الالتحاق بالمؤسسات التعليمية العليا في البلدان العربية⁽¹¹⁾.

إنّ الحركة العلمية التي دعا إليها الإبراهيمي هي تلك التي يتوزّع فيها الاهتمام على الإعداد الخلفي السليم، والديني البعيد عن المتاجرة والمفاهيم الخاطئة مع تنوّع الاختصاصات لكي تلبّي حاجات المجتمع في مختلف الوجوه الروحية والقيمية والاجتماعية والمادية، لذلك وجّه الشباب إلى هذا الاتجاه عندما صرّح بأنه يفضّل "بلدة فيها عشرة مرشدين دينيين وعشرة أدباء، وعشرة أطباء على بلدة فيها ثلاثمائة طبيب، لأنّ الأدباء يرقّقون عواطفها فتميل إلى الروحيات فتقلّ الأمراض، والمرشدون يعلمونها القصد في الأكل واللذات ويحصّونها على النظافة فهؤلاء أطباء، ولكنهم يداوون المرض قبل وقوعه فإذا أفلت واحد داواه الأطباء المعروفون⁽¹²⁾، لأنّ الوقاية من المخاطر والمفاسد بأنواعها المادية والاجتماعية والقيمية الأخلاقية هي صنعة المرين والمعلمين وعلماء الدين، فهؤلاء جميعاً يسبق عملهم عمل الطبيب، لا بل إنهم إن أتقنوا أداء مهمتهم فإنّ الإنسان لا يصل إلى العيادة المولجة بطبّ الأبدان أو بطبّ النفوس، إن هذا المسار السليم في التربية، يسلط العناية على عنصرين أساسيين هما:

الفئة المعلمة: يجب أن تكون في مستوى المهمة المنوطة بها وهذا ما نادى به البشير الإبراهيمي لهذه الفئة في قوله: "إنّ وطنكم مفتقر إلى جيل قويّ البدن، قويّ الروح مستكمل الأدوات من فضائل وعزائم، وإنّ هذا الجيل لمنتظر تكوينه منكم". لذلك أنشأ لجنة خاصة بالتعليم (بمناوبة وزارة التعليم) وعهد إليها وضع البرامج وتقرير الكتب الدراسية وتعيين المعلمين وتنظيم الملتقيات التربوية⁽¹³⁾.

الفئة المتعلمة: وهم الشباب، وهم جيل المستقبل المنشود، والمعلوم أنّ الأمة التي تنجح بإعداد شبابها الإعداد المطلوب في إطار الحياة النفسية السويّة، والمسلك الخلفي القويم وتحصيل العلم النافع، والخبرة الضرورية للعمل، إنما هي أمة تسير في طريق الفلاح؛ وتستطيع بناء صرح حضارتها على أسس متينة، وهكذا أمة تحقق استقلالها وتقدمها. والشبخ الابراهيمى يؤكد على أهمية هذه الفئة فيقول: "الشباب في كلّ أمة هم الدم الجديد الضامن

لحياتها واستمرار وجودها، وهم الامتداد الصحيح لتاريخها، وهم الورثة الحافظون لمآثرها وهم المصححون لأغلطها وأوضاعها المنحرفة، وهم الحاملون لخصائصها إلى من بعدهم من الأجيال"⁽¹⁴⁾.

فنظرة الابراهيمية للتربية للشباب تراوحت ما بين تفاؤل وثقة في عزيمة الشباب وحرص وحزم على الاجتهاد والمواظبة في التعلم والمعرفة بما يخدم الدين والوطن فهو القائل "إنّ الشباب أمل الجزائر، وكيان الأمة الإسلامية فليس من حقه أن ينام في زمن اليقظان أو يهزل والدهر جاد أو يرضى بالدون من منازل الحياة، إنّ الدعوة قائمة لشباب الإسلام بأن يتصلوا بالله تدينا، وبالنبي اتباعا، وبالإسلام عملا، وبتاريخ الأجداد اطلاعا، وبآداب الدين تخلقا، وبآداب اللغة استعمالا... فإن فعل الشباب ذلك حزم من الحياة الحظ الجليل، ومن ثواب الله الأجر الجزيل وفاءت عليه الدنيا بظلمها الظليل"⁽¹⁵⁾.

ويقينا منه أنها اجتهاد راح تحت لواء الجمعية يفكر في إرسال البعثات الطلابية (الشبابية) إلى المشرق وذلك غرضه توجيه النوابع لاستكمال دراستهم. لكنّ الحرب العالمية الثانية حالت دون ذلك وبعد نهايتها بدأت البعثات بتونس والمغرب ثم تمكنت من إرسال الفوج الأول إلى مصر في 1951⁽¹⁶⁾.

II. ترسيخ قيم المواطنة لدى الشباب:

إنّ مفهوم المواطنة خضع لكثير من النقاشات في عالمنا الإسلامي بمجمل هذه النقاشات صنفت إلى ثلاثة أصناف:

- ❖ **الصنف الأول:** يحذر من الوطنية ويحاربها ويرى الدعوة إليها فسوقا قد يصل إلى حدّ الكفر لأنها في نظره فكرة جاهلية ذات أبعاد علمانية لا تراعي الدين في أيّ حال .
- ❖ **الصنف الثاني:** يقدّس الوطنية والمواطنة ويجعلها معقد الولاء ويسعى للتأصيل لها ولو على حساب النصوص الشرعية.

- ❖ **الصنف الثالث:** وهم الوسطيون لم يقبلوا فكرة المواطنة المطلقة ولم يردوها بل تعاملوا معها بعدل وإنصاف، فجردوها أولا من الثقافة الغربية التي غلفت بها، ومن الهوية العلمانية التي علبت فيها ثم قاموا بإخضاعها للقيم الإسلامية والمبادئ الربانية التي

دلّت عليها النصوص الشرعية، فما كان موافقا لها أخذوه وقبلوه وما كان مخالفا لها ردوه وأبطلوه؛ فقد ربط هذا الصنف المواطن بالهوية الإسلامية، محكومة بما لا محكومة عليها.

وهذا الرأي هو الذي تبنته جمعية العلماء المسلمين والبشير الإبراهيمي الذي كان صريحا في موقفه تجاه المواطنة والوطنية السليمة فقال: "والذي روحي بيده لا تقوم لنا قائمة حتى نرجع إلى الوطنية الكبيرة الواسعة الجامعة اللامعة النافعة وهي وطنية الإسلام"⁽¹⁷⁾ وقال أيضا: "الوطنية مكرمة ووطنية الإسلام أكرم وميدانها أنفع وصاحبها أعز نفرا وأقوى ناصر وأكثر عديدا"⁽¹⁸⁾. فكان دائما يدعو إلى تحرير الأوطان وكان يشدد على أنّ تحريرها ليس تحرير رقعة جغرافية إنما هو تحرير رقعة إسلامية فكان يمهّد الطريق في قلوب الناس لبسط هيمنة الشريعة الإسلامية على جميع الأفكار والمبادئ التحررية.

وجلّ هذا الفكر يلخصه في مقولته: "الوطن إذا جرد من هذين (اللغة والدين) لم يعدو أن يكون قطعة أرض يموت يحوزها من طلب أو من غلب"⁽¹⁹⁾.

فراح البشير الإبراهيمي على غيره من رواد الجمعية قلما حارا يصدق بالحق ويحلل الواقع الجزائري مطالبا بحقوق الجزائريين سواء المدنية أو السياسية وذلك من خلال ما ينشره في جرائد الجمعية ليعرفه من في الداخل والخارج.

ولقد سعى إلى تكريس المواطنة الجزائرية واستقلال الذات الجزائرية وإبطال مغالطة الاندماج الاستعمارية، وراح يعزز قيمة المواطنة في أفراد الشعب الجزائري خاصة الشباب منهم، والجدير بالذكر هنا هي النظرة الشمولية لمفهوم المواطنة في فكر البشير الإبراهيمي حيث كان مفهوم المواطنة لا يتوقف عند تحرير البلاد من المستعمر بل يتبعها بمواطنة البناء للدولة الجزائرية ما بعد الاستقلال فكان دائما في خطابه وتوصياته يدعو الشباب للتكوين السليم والصحيح من أجل التحرر وبناء الدولة الجديدة على أسس سليمة.

والإمام الإبراهيمي وهو المرابي الذي اعتمد التربية منهجاً وسيلاً لتنشئة جيل من الشباب يصنع المستقبل الأفضل لأمته، فوجّه الشباب إلى الإيمان والعمل والعلم والتمسك باللغة العربية والتراث، أي بالهوية الثقافية القومية للأمة، يضاف إلى ذلك أن يعملوا بكلّ ثقة بالنفس أسوة بالشباب في الأمم، أو من خلال ما كان في تاريخ الأمم، إنّ العوامل

الناهضة بالشباب والمعززة لقيمة المواطنة، والتي تقود الأمة إلى مستوى أفضل بفضل حكمة شيوخها وعزيمة شبابها يمكن تحديدها حسب الإبراهيمي بما يلي:

- الإيمان مع الوعي، والذي يصدّقه العمل.
- التشبث بالهوية القومية العربية وبالوطنية الجزائرية.
- أن يكون واضحاً عند كلّ شاب جواب على سؤال: من أنا؟ لأنّ ضياع الهوية الدينية والقومية والوطنية يجعل المسار حبط عشواء، ويؤدي إلى العبث والفضى والضياع.
- التزام خطّ القيم التي تتوازن فيها الروح والمادة، والكميات مع الاجتماعيات، أي القيم الإنسانية لأنّ الأخذ بالفكر الوافد القائم على الماديات هو الذي يمنح بالشباب إلى موقع خارج حدود الأمة.

فيقين الإبراهيمي من أنّ الشباب الجزائري في تلك الفترة هو من يجسد مفهوم الشعب الذي يكون وقوداً للتحرر بروح مواطنته العالية هو ما جعله يرسخ للشباب عبر خطباته ودروسه وأفكاره بأنه يمثل الشعب بما يجسده من ترابط بينه وبين أبناء وطنه في العادات والتقاليد والدين واللغة، وأنّ المستعمر يختلف عنه تماماً في العادات والتقاليد والدين واللغة ولم يتوقف عند روح المواطنة فقط بل كان يحرص على توسيع مفهومها لدى الشاب الجزائري لتتصل بالوطن العربي، يقول: "إذا أحبّ الشباب دينه وفضائل دينه ولغته وأسرار لغته أحبّ العرب جميعاً، وأصبح في نفسه دافعا إلى الاجتماع بإخوانه في الدين والعروبة"⁽²⁰⁾.

III. جهود البشير الإبراهيمي في ترسيخ الهوية الإسلامية لدى الشباب الجزائري:

إنّ مبدأ تحرير الجزائر في فكر البشير الإبراهيمي لم يكن قضية تحرير رقعة جغرافيا اسمها الجزائر بقدر ما كانت قضية تحرير الدين الإسلامي من الاستعمار الفرنسي ولقد أكثر الإبراهيمي جدالاً فرنسا في كلّ القضايا التي تمس الدين الإسلامي والهوية العربية الإسلامية للجزائريين وهذا بهدف الحفاظ على الهوية الوطنية⁽²¹⁾.

إنّ الإمام الإبراهيمي الذي تأصّلت في فهمه أسس بناء الشخصية الصحيحة السويّة على مستوى الفرد، وعلى مستوى الأمة، والذي درس تجارب الشعوب وتاريخها، والذي عاش واقع الجزائر والأمة العربية والعالم الإسلامي تحت نير الاستعمار والأطماع في فلسطين وسائر الأمة الإسلامية وما لها من ثروات وقيم ومعتقدات، وعرف كلّ التحديات، لفت

الانتباه إلى أنّ الشباب هم من تقع عليهم مهمة جبهه التحديات، وردع العدوان. فكان فكره يحرص على أن يستفيد الشباب من قواعد مهمة لو التزموا بها لفازوا وفازت بهم الأمة، وانتصر بهم الدين، وسادت بهم القيم والفضائل. ومن هذه القواعد: الإيمان- الحلم الصبر- الطاعة- الامتثال لأمر الله تعالى وأمر الوالدين -الرشاد- الهدى- السعي. ولقد جسد هذا الفكر في المنهاج التعليمي الذي انتهجته الجمعية في تكوين شباب التحرر من خلال المراحل التالية⁽²²⁾:

- إتقان العربية لغة وكتابة.
- ترسيخ مبادئ الدين الإسلامي وأساساته التي لا تتقوم الشخصية إلا بها.
- الاطلاع على السيرة النبوية الشريفة وسيرة الصحابة والسلف فذلك يشكل موطن نظام القدوة الحسنة التربوي خاصة للناشئة.
- تحصيل العلم بالتاريخ العربي الاسلامي ففيه العبر والدروس ويحمل التراث و ينقل الخبرات إلى الأجيال ويحقق التواصل وكما قيل التاريخ ذاكرة الأمم.

فكان دائما يوصي الشباب: "يا شباب الإسلام وصيتي إليكم أن تتصلوا بالله تديناً وبنبيكم اتباعاً، وبالإسلام عملاً، وبتاريخ أجدادكم إطلاعاً، وبآداب دينكم تخلقاً، وبآداب لغتكم استعمالاً، وبإخوانكم في الإسلام ولداتكم في الشبيبة اعتناءً واهتماماً، فإن فعلتم حزتم من الحياة الحظّ الجليل، ومن ثواب الله الأجر الجزيل"⁽²³⁾.

وقد خاطب هاتفا بشباب الإسلام ليعلموا أنّ الإسلام ليس لفظاً تلوكه الألسنة المنفصلة عن القلوب، وتتناوله قوانين التعريف بموازينها الحرفية، وتقلّبه اشتقاقات اللغة على معانيها الوضعية، فينزل به إلى المعاني الوضعية من السلم إلى الاستسلام، إلا أن في الإسلام الشرعي نوعاً من معنى الإسلام اللغوي، ولكنه أرفع تلك المعاني وأعلاها.

خلاصة:

لقد تظن الشيخ البشير الإبراهيمي إلى الدور البارز الذي يقوم به الشباب في سبيل التغيير فركز على هذه الفئة من المجتمع وبالخصوص على الجانب التربوي للشباب إذ من خلال التربية يتم زرع قيم المواطنة وترسيخ الهوية الإسلامية بما يشكل حصانة لجيل الشباب كما يتم نقل هذه الثوابت إلى الأجيال الأخرى، ولقد نجح الإبراهيمي في رسالته هاته وترك

بصماته على أبناء وطنه، وخلد التاريخ كتاباته من خلال الآثار التي يمكن اعتبارها بحق موروثاً فكرياً يستحق أن يكون مرجعاً للمفكرين والعلماء ناهيك عن طلبة العلم والمهتمين بالثقافة والباحثين في قضايا الشعوب والأمم، وما دراستنا هذه إلا محاولة لمقاربة فكر الإبراهيمي حول هذا الموضوع.

الهوامش والإحالات

- (1) - طارق محمد عبد الوهاب، سيكولوجية المشاركة السياسية، دار الغريب، 2000. ص33.
- (2) - عبد الوهاب الكيلاني، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2015، ص373.
- (3) - المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط5، 2011.
- (4) - رشدي أحمد طعيمة، الثقافة العربية الإسلامية بين التأليف والتدريس، دار الفكر العربي، ط1 القاهرة، 1989.
- (5) - سعيد إسماعيل، التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين، مجلة المسلم المعاصر، ع85، 1997.
- (6) - أروى بنت عبد الله محمد الفقيه، بحث في القيم، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1430 \ 1431، ص4.
- (7) - ماجد عرسان الكيلاني، فلسفة التربية، دراسة مقارنة بالفلسفات التربوية، الأردن، دار الفتح للدراسات الإسلامية ط1، 1430 هـ 2009م، ص427.
- (8) - مقال من جريدة البصائر، العدد 214 في 23 جانفي 1953، ص01.
- (9) - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، تقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، 1997. ص267.
- (10) - عبد الغفور الشريف، موقف جمعية العلماء المسلمين من اندلاع الثورة، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، جامعة الجزائر، 2011. ص108.
- (11) - آثار الإبراهيمي، ج2، ص20.
- (12) - آثار الإبراهيمي، ص302.
- (13) - عبد الغفور الشريف، موقف جمعية العلماء المسلمين من اندلاع الثورة، ص107.
- (14) - آثار الإبراهيمي، ج4، ص130.
- (15) - آثار الإبراهيمي، ج1، ص121.
- (16) - آثار الإبراهيمي، ج4، ص24.
- (17) - آثار الإبراهيمي، ج4، ص102.

- (18) - آثار الإبراهيمي، ج4، ص328.
- (19) - آثار الإبراهيمي، ج3، ص161.
- (20) - آثار الإبراهيمي، ج5، ص301.
- (21) - عبد الغفور الشريف، موقف جمعية العلماء المسلمين من اندلاع الثورة، ص110.
- (22) - آثار الإبراهيمي، ج4، ص102.
- (23) - آثار الإبراهيمي، ج4، ص121.

فكرة الوطن خارج الجغرافيا عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي مقاربات في السيرة والمسيرة

The Idea of the Homeland beyond Geography According to
Imam Muhammad al-Bashir Al-Ibrahimi
- Approaches to the Biography and the Career -

د. عبد الحفيظ شريف

جامعة آكلي محند أولحاج - البويرة (الجزائر)

تاريخ القبول: 2021/09/17

تاريخ الإرسال: 2021/09/06

ملخص:

تستهدف الورقة متابعة تشكّل فكرة الوطن الجزائريّ وممّوها واستواءها عند الإبراهيمي من خلال مدخل يؤسّس لطبيعة الفكرة وخلفياتها، بالمقاربة بين حداثة مصطلح المواطنة وولاء التفكير الإبراهيمي لجذور مفهومية تراثية، ثمّ مرافقة المصطلح والمفهوم لمسيرته بعباتها الكبرى وتحولاتها الفارقة، والوقوف على الخصائص البارزة في تقاطعات ثلاثة: أولاها بالمهجر الشاميّ أيام الطلب والاستعداد، وما أحاط نشوء فكرة الوطن من ملابسات تاريخيّة ومرافقات بشرية، وثانيها بالبلاد الفرنسيّة بين الجاليات الجزائرية والعربية والإسلامية وما تخلّلها من نشاطٍ طبع مرحلة التوعية بالفكرة وإسنادها، وثالثها أثناء الرحلة الإبراهيميّة الشهيرة إلى الديار العربيّة والإسلاميّة، وما رافقها من مشروعات الإمداد ودعم الجهاد.

الكلمات المفتاحية: الوطن، المواطنة، الجغرافيا.

Abstract:

The paper aims to trace the formation of homeland as an idea , its growth and its maturity according to Al-Ibrahimi, through an introduction that establishes the nature of the idea and its backgrounds, by approaching the modernity of the term citizenship, and the loyalty of the Al-Ibrahimi thinking to the conceptual roots of heritage, then accompanying the term and the concept in its path with its major thresholds and its differentiating transformations, and standing on the salient characteristics in three intersecions: the first of

which in the Levantine exile in the days of emergence. From historical circumstances and human escorts, the second is in French countries between the Algerian, Arab and Islamic communities, and the activity interspersed that printed the awareness phase of the idea and its attribution, and the third during the famous Al-Ibrahimi journey to the Arab and Islamic world, and the supply projects that accompanied it and the support of Jihad.

Keywords: Homeland, Citizenship, Geography.

مدخل:

يحتكم مفهوم الوطن والمواطنة إلى جدل عريضٍ أفرزه انفتاح المصطلحين على معانٍ واسعةٍ يغلب عليها الشُمول والغموض، وقابليتها لتحمل دلالاتٍ ذات مرجعياتٍ فكرية وثقافيةٍ وتاريخيةٍ وسياسيةٍ متداخلةٍ، ومع أنّ الفكر الغربي الحديث قد حاول ضبط المصطلحين في إطار الخيارات الكبرى التي أطرت الحياة الغربية الحديثة بعد معاهدة وستفاليا 1648م، وجعل هذه المصطلحين مستجيبين لمستجدات العصر الحديث التي ميّزها نشوء الدولة القطرية جغرافياً والمدنيّة عقيدةً. ومع كلّ هذا لم يستطع هذان المصطلحان التخلّص من الحمولة التاريخيّة اليونانيّة والرُّومانيّة التي شُحنَ بهما هذان المصطلحان، كما لم يكن بالإمكان ضبط مفهومٍ قارٍّ وموحّدٍ لكلٍّ منهما باعتبار اختلاف زوايا التناؤل وتعدّد اعتبارات الحكم، كأسبقية الفرد على المجتمع أو العكس، وأثر العامل الجغرافيّ حضوراً وغياباً، ثمّ اعتباراً معيار تحديد الحقوق والواجبات، ومِسْطَرة حزم الالتزام بهما ومداه، وغير ذلك ممّا جعل من الضبط النهائيّ لمفهوم المصطلحين متعذّراً.

ومع هذا التردّد الذي عرفه المصطلحان في الدلالة والإجراء؛ فقد تراوح المصطلح وتعريفه متقلّباً بين معطيات الحياة العامّة الحديثة وتقلّباتها، وتجاذباتها آراء الدارسين والفلاسفة انطلاقاً من التوجّهات الكبرى التي توطّر وجهة البحث والتأصيل لديهم.

1- المواطنة؛ زيادة المصطلح وتردّد المفهوم:

تُعرّف المواطنة في أحد تعريفاتها الكثيرة بأنّها: "تمتّع الشخص بالحقوق والواجبات وممارستها في بقعة جغرافيّة معيّنة، لها حدودٌ محدّدة، تُعرّف في الوقت الرّاهن بالدولة القوميّة الحديثة التي تستند إلى حكم القانون"⁽¹⁾ - والتّعريف كغيره من التّعريفات - لا يخلو من

خلافٍ واضحٍ لم يُفصّل فيه بعد، فإذا كانت المواطنة ممارسةً لحقوقٍ وواجباتٍ، فهل يمكن نزع هذه الصّفة عمّن تأخّر عن ذلك؟ وهل يُسلّب صفةً المواطن؟ وهل إيراد العامل الجغرافيّ يعدُّ قيدياً يتمُّ بموجبه إقصاءُ الجاليات والمهاجرين؟ أم هم استثناءٌ يُشرّع لهم بمقتضاه ما يؤطرّ وضعهم ضمن ثلثية: وطن مواطنة مواطن؟ وهل المواطنة ممارسةً نابعة من ضمائر المواطنين وقناعاتهم، أم هي التزام قانونيٌّ تطبّعه النّفعية؟ والأسئلة حول القضية كثيرة.

لا شك أنّ المسألة على درجةٍ من التّرّدّد بقدرٍ لم يُخفّ فيه أرسطو نفسه صعوبةً البتّ في مثل هذه المفاهيم، والقطع في دلالاتها، وضبط إجراءاتها، فبعد استعراضه لكثير من الجدل الذي يثيره السّعي إلى تثبيت أركان المفاهيم وضبط المصطلحات الدّالة عليها؛ يدي ذلك التّرّدّد الذي انعكس على تحديده حقيقة المواطن بوصفه العنصر الذي يُجلب حقيقة المواطنة ومعنى الوطن، فيقول بعد استعراض جملة من الإشكالات: "نخلص من ذلك إلى أنّ "المواطن" يختلف بالضرورة وفقاً لكلّ دستور، ويفسرّ ذلك وجوده [المواطن] الذي أشرنا إليه في النّظام الديمقراطيّ، لا يحول ذلك دون إمكانية وجوده في النّظم الأخرى غير أنّ هذا ليس بالضرورة"⁽²⁾ وأمام هذا الاضطراب في تحديد المفاهيم واختلالات الممارسة التي شهدتها الفكر الغربيّ الحديث خاصةً بعد الثّورتين الفرنسيّة والأمريكيّة؛ اهتدى المجتمع الغربيّ إلى آلياتٍ عامّةٍ تضمن الحدّ الأدنى من هدوء العلاقة بين الفرد والمجتمع، وفاءً لاجتهاد كلّ دولةٍ ضمن الخطّ الفكريّ العام الذي ترجع خلفياته الأولى إلى الفكرين السّياسيين اليونانيّ والرّومانيّ.

2- الوطن والمواطنة في الفكر العربيّ الحديث:

تنازَع فكرةً الوطن والمواطنة في الوطن العربيّ والشّرق على العموم منزعان: أحدهما ما كان عليه مفهوم الوطن كمصطلح ودلالة، ومفهوم المواطنة كممارسة طيلة العهود التي عرفتها الحياة العربية، ومشهد الدّولة الفتية بمجىء الإسلام. ولئن كان للمفهومين في الدّلالة والممارسة ما يميّزهما في الحياة الإسلامية بخصوصياتهما الكبرى؛ فإنّ وفادة المصطلحين بعد الصّدمة الحضارية الكبرى بين الغرب والشّرق في العصر الحديث، أفرز اضطراباً مزدوجاً أحال على انقسامٍ فكريّ ثنائيّ الحدّ على الأقلّ، أوّلهما تيّارٌ محافظٌ مدينٌ لطبيعة الشّرق

وروحه، والوفاء لمصادر فكره وثقافته، وقد تنازل بعض مكُوناته إلى القبول ببعض المراجعات تأثراً بالوفاة الغريبي الجديد، وهو تيارٌ يستند إلى مساحات تمثيلية شعبية واسعة، ولكنها محدودة الوعي، قصيرة النفس فكرياً وحضارياً، وتيارٌ يسم نفسه بالتنوير، ويدعو إلى إحلال النموذج الفكري الغريبي متعللاً بثمرات التنوير، ومُغفلاً أو متجاوزاً حجم نضاله ونتائجه وناسياً أو متناسياً الاختلاف الجوهرى بين البيئتين الكبيرتين (الشرق والغرب). ولعل هذا وحده كافٍ لتصوير طبيعة المشهد، وتوصيف المسافة بين المنزعتين في الحياة العربية الإسلامية. كان هذا المدخل ضرورياً للعبور إلى موضوع المداخل التي استهدفت متابعة موقع الشيخ الإبراهيمي بين التزعتين، ومدى حضورها في سيرته، والوقوف على عتباتها في محطات معينة من مسيرته.

إنه ليس من المنهج العلمي ولا الالتزام الأخلاقي أن نحاكم الرجل بما خطته يده في مواقفه إزاء الوطن والمواطنة - ولنصف مصطلحا مشتقاً آخر هو الوطنية - وهي مصطلحات حديثة صياغةً ومضموناً، والرجل معروف بالانتماء لبيئة شرقية، ومن أشد الأوفياء لها. ومن هنا فقد رُضيت المداخل لنفسها ضرورةً اتباع مسلكٍ تتابع فيه معاني هذه المصطلحات وحضورها في مسيرة الإبراهيمي بمقابلاتها التراثية العربية والإسلامية، ومعرفة ما إذا كانت نابعة من مفاهيم الشرق ودلالاته وممارساته؟ أم أصابها من معاني المصطلحات وحقائقها في الغرب، وقد كان الرجل ضمن خطوط التماس المتقدمة بين الفكرين والحضارتين؟

3- الوطن والمواطنة في التراث العربي:

لهذا الجذر في المعجم العربي القديم دلالة المكث والاستقرار، ففي أول معجم عربي قال الخليل: "كلُّ مَبْرَكٍ يكون إلغا للإبل فهو عَطْنٌ، بمنزلة الوطن للناس"⁽³⁾ وقال: "الوطن: موطن الإنسان ومحلُّه. وأوطان الأغنام: مرابضها التي تأوي إليها، ويُقال: أوطن فلان أرض كذا، أي: اتخذها محلاً ومسكناً يُقيم بها"⁽⁴⁾ وهو المعنى التي احتفظت به المعاجم حتى العصر الحديث، ويتناوله المعجم الوسيط بالمعنى نفسه مع إضافة نوعية، فجاء فيه: "الوطن: مكان إقامة الإنسان ومقره، وإليه انتماءه، وُلد به أو لم يُولد"⁽⁵⁾ والإضافة الأخيرة في التعريف مستوحاة من المفاهيم الجديدة المتشكلة بفعل تأثيرات الحياة المعاصرة، وبرزها

مصطلح (الانتماء) فبعد أن كانت الدلالة الحسّية (الإقامة - الاستقرار...) ضابطاً لتحديد المصطلح، أُردف بدلالة معنويّة لم تقتصر على الحضور الجسديّ، بل انفتحت على الجانب الشعوريّ والنّفسيّ، ولعلّ ذلك المصطلح المجاور (المواطنة) التي يُعرّفها معجم اللّغة العربيّة المعاصرة بشيءٍ من التّفصيل، وباعتبارات مختلفة:

أ- باعتبار الانتماء الإنسانيّ: "نزعاً ترمي إلى اعتبار الإنسانية أسراً واحداً وطنها العالم وأعضاؤها أفراد البشر جميعاً"⁽⁶⁾.

ب- باعتبار التّشكيل البشريّ في حدود إقليميّة معلومة: "عدم التّمييز بين أبناء الوطن الواحد وسكّانه الذين ينتمون إليه على أساس الدّين أو اللّغة أو العنصر أو الجنس"⁽⁷⁾.

ج- باعتبار الحقوق والواجبات المترتّبة على أفراد المجتمع: "كون المرء مواطناً من مواطني دولةٍ وله فيها حقوقٌ وامتيازاتٌ تكفلها له الدّولة، وبالمقابل عليه الالتزام بالواجبات التي تفرضها عليه"⁽⁸⁾.

ومن التّعريفات الاصطلاحية لمصطلح (الوطن) في الثّراث العربيّ ما جاء في كليات الكفويّ: "الوطن: هو منزل الإقامة، والوطن الأصليّ مولد الإنسان، أو البلدة التي تأهل فيها. ووطن الإقامة: هو البلدة أو القرية التي ليس للمسافر فيها أهل، ونوى أن يُقيم فيه خمسة عشر يوماً فصاعداً. ووطن السكّنى: هو المكان الذي يتوي المسافر أن يُقيم فيه أقلّ من خمسة عشر يوماً"⁽⁹⁾ والتّعريف في مضمونه وفلسفته وصياغته وفيّ منازع تشريعيّة فقهية واضحة، بحكم طبيعة التّأليف السّائد يومذاك، والذي يعكس بشكل واضح أيضاً طبيعة المجتمع والوجهة الفكريّة السّائدة فيه، ولكنّه لم يبرح الرّؤية الحسّية للوطن في اعتباره مكاناً.

4- موقع "المواطن" من المنظومة المصطلحيّة الثّرائية:

في خضمّ التّداول المعجميّ العربيّ القديم والحديث، وما شهدته من تطوّر فكريّ ومفهوميّ نسبيّ، فإنّ مصطلح (المواطن) لم يحضّ بمدخلٍ معجميّ في المعجم العربيّ، ولعلّ ذلك يرجع إلى أنّ المقابل المفهوميّ للمصطلح عولج تحت مداخلٍ أخرى كالرّعية، أو الفرد أو المحكوم، أو غيرها من المصطلحات التي كانت أقرب إلى التّداول الشّرعيّ مقابل: الرّاعي/ الحاكم الذي يقوم على الشّؤون العامّة.

وبفعل الوصف العام للمنظومة الفكرية والاجتماعية والسياسية التراثية وتأثيراتها على صياغة المصطلح والمفهوم؛ فإنَّ هناك بؤنا شائعا بين دلالات المصطلحات بين الغرب (الموطن الأصلي للنشأة) وبين الشرق عموما، وبين العالمين العربي والإسلامي منه تعيينا ومن هنا؛ فإنَّ موقع الرؤية الإبراهيمية لتوليفة المصطلحات التي تداولتها كتاباته: (الوطن - المواطنة - الوطنية - المواطن) سيتشكّل من خلال متابعة سياقات الاستخدام، واكتشاف مبررات التوظيف، واستحضار مواقف الممارسة، ولعلَّ ذلك أنسب المسالك في بناء تصوُّر أقرب إلى الصِّحة، وأبعد عن التزُّيد أو التَّجني.

5- الرؤية الإبراهيمية لمفهوم الوطن والمواطنة: تُحيل المتابعة الشمولية لمسيرة الإبراهيمي العلمية والعملية على مواقف كبرى أخلت نظرتة إلى الوطن، ورسمت فهمه وممارسته للمواطنة، وليس أظهر لهذه المواقف وتلك الرؤية من استحضار جملة من مقولاته، واستعراض أبرز العتبات التي شكّلت مفاهيم الوطن والمواطنة والوطنية في فكر الإبراهيمي.

5-1- الوطن عند الإبراهيمي باعتباره مفهوما تراثيا:

- من خلال مسحة سريعة لسيرة الإبراهيمي ومتضمّن ما نطق به في سرده لكثير من تفصيلاتها؛ نقف على أنّ العوامل التي أسهمت في تشكيل فكرة الوطن ومتعلقاتها لديه:
- التّكوين الديني الذي يجعل من الوفاء للأوطان جزءاً من الوفاء للأديان، ويُرتّب حُبَّ الأوطان من لوازم الإيمان.
 - التّكوين العلمي والمعرفي الذي أشرب به الإبراهيمي الفتى قيم حبّ مراتع الصِّبا، ومنازل الإقامة وهو الذي تناقلته مئات العبارات التي حفّظها وهو دون البلوغ.
 - التّكوين العملي والأثر الواقعي الذي تركته عليه رحلاته نحو الحجاز وهو شابٌّ، ثمَّ إلى بلاد الشّام، وما كان لذلك من أثر على كثير من محطات حياته بعد ذلك.

لئن لم يتوارد الشُّعراء القدامى الوطن بهذا اللفظ في قصائدهم، فإنَّ حقيقته من أكثر ما تناولوه، بل ما أكثر ما تصدّر عيون القصائد وإنْ بغير لفظه، فلَكَم تغنى الشّاعر العربيّ القديم بذلك المفهوم البسيط للوطن، يحنُّ إلى المربع، ومُعِن في وصف المنازل، ولا يتحرَّج من الإفصاح عن لواعج نفسه بذكره إلى آثار الخيام ومواقف القوم، تعيده إلى سابق عهدٍ

وسالفِ زمنٍ، فصِيَعَتْ عيونُ الشَّعرِ القلمِ بذكرِ الدَّمِ والذِّيارِ، وأجادتِ القرائحُ تصديرَ القصائدِ بذلك، وهي المعاني التي تفتنُّ الشَّاعرَ العربيَّ في تقليبها على الأوزان، وترديد صورها فيما توالى من تصاريف الأزمان، فكما أنشد امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَّلَ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي *** كَخَطِّ زُبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانٍ
 دِيَارٌ لِهِنْدٍ وَالرِّيَابِ وَفَرْتَنِي *** لِيَالِنَا بِالنَّعْفِ مِنْ بَدَلَانٍ
 رَدَّدَ ابْنُ الرُّومِيِّ: وَلِي وَطَنٌ أَلَيْتُ أَلَا أْبِيعَهُ *** وَأَلَا أَرَى غَيْرِي لَهُ الذَّهْرَ مَالِكَا
 عَهْدْتُ بِهِ شَرَحَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً *** كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا
 وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ *** مَا رَبُّ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا
 إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتُهُمْ *** عَهْوَدُ الصَّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لَذَلِكَ
 وَأَرْدَفَ الْمُتَنَبِّي: بِمِ التَّعَلُّلِ لَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنٌ *** وَلَا نَدَمٌ وَلَا كَأْسٌ وَلَا سَكْنٌ
 أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبْلَغَنِي *** مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: 8] ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ [هود: 67] ولم تكن مخاطبة الإبراهيمي لوطنه بأبعد عمّا تعنى به الأولون، فهي المشاعر نفسها، وهو الحنين نفسه، صدقٌ غامرٌ، وشوقٌ ظاهرٌ، ومن كتابات الإبراهيمي التي تبقيه على صلة بهذا التوجُّه العربيّ نصُّه الشهير "تحية غائب كالأيب" المنشور في ماي 1953م بمجلة البصائر، وهو بحقٌ من عيون الأدب العربيّ في حبّ الأوطان، فقد جمع إلى قوّة لغته وجزالة لفظه واستواء عبارته؛ شاعريةً عاليةً، وقد أشربت معاني الصّدق، ومشاعر الحبّ، وآيات الوفاء، وها هو الإبراهيمي يحاور وطنه الذي خرج منه كرها، كمن يحاور بشرًا يعي عنه ما يقول "وكأنّ فيك قطعةً من كلّ رُوح، يجد فيك كلّ غريبٍ أنسًا، وكلّ حبيبٍ سلوى، وكلّ مكروب تنفيسًا، خلال كلّها جلال، وما ذلك الرُوح الذي يجده الواله في أنفاسك، إلّا أنفاس المحبّين تمتزج بأنفاسك، فيجدونها بردًا على الأكباد، وبشاشةً في الأسارير، ورضىً في السرائر" (10) تلك هي المعاني التي لقيها الإبراهيمي في أشعار القوم، وأشربها كما أشرب كثيرًا من معاني المروءة والوفاء التي نشأ

عليها العربي، ونشأ عليها من يليه من بنيها، فقد اجتمع على الإبراهيمي من العوامل التي تبوأ بها الوطن عنده مكانة أفضت بها عبارته، ونطقت بها مواقفه، وهو بهذا النوع من العبارات، وجنس هذه الصور لم يخرج عن معاملته لفكرة الوطن بمفهومها التراثي، والتي تناولت معانيها معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني على السواء، ولئن بدا الإبراهيمي في هذا النص يغرف من معين الأوّلين، ويتركز إلى ما فرضته عليه مقتضيات الشرع والدين، فإنّ رؤيته لفكرة الوطن ومفاهيم الوطنيّة والمواطنة والمواطن ستجليها مواقف أخرى من مسيرته النضالية الحافلة.

5-2- تشكّل فكرة الوطن عند الإبراهيمي خارج الجغرافيا الجزائرية؛ المشاهد والآثار:

عرّف الحضور الإبراهيمي خارج الديار الجزائرية محطات نوعية فارقة في طبيعتها وآثارها فقد خرج الإبراهيمي ميمّما تلقاء المشرق سنة 1911م، فمرّ بمصر التي مكث بها نحو ثلاثة (03) أشهر لقي فيها أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، والشّيخ محمد رشيد رضا، وشيوخا من الأزهر، ثمّ نزل الحجاز فمكث بها نحو سبع (07) سنين متعلّما ومعلّما، ثمّ كانت إقامة الإبراهيمي في بلاد الشام لنحو أربع (04) سنوات معرّجا إليها من المدينة، فكانت محصّلة رحلته المشرقية الأولى نحو عشر (10) سنين كان لها الأثر الواضح على تكوينه المعرفي عموما، وصقل خبراته لما سيحمله القادم من الأحداث والمناسبات.

وباستعراض أبرز ما تخلّل هذه المحطات، نحاول اكتشاف تشكّل فكرة الوطن والمواطنة

خارج الجغرافيا الجزائرية عبر التسلسل الزمني الآتي:

5-2-1/ المهجر الشامي؛ ملتقى التاريخ والجغرافيا: من أبرز المحطات التي نظمت

فكر الإمام الإبراهيمي وأعادت صياغة كثير من قناعاته ورؤاه، فترة مقامه في المهجر الشامي لنحو أربع (04) سنوات (بداية من منتصف عام 1916م إلى أوائل عام 1920م تاريخ رجوعه إلى الجزائر) وهي فترة لم تنل -في حدود ما تيسر الاطلاع عليه- ما تستحقّه من المتابعة والتّحليل، فقد كان المهجر الشامي ذا خصوصية رسمت ملامحها الهجرات الجزائرية اللاحقة لهجرة آل الأمير عبد القادر بعد استقراره هناك، وما أردف ذلك من هجرات كان من أبرز ما طبعها على العموم: النخبة المهاجرة، وعددها، وطبيعة نشاطها

هناك، ويسوق أحد ثمار هذه الهجرة الأستاذ سهيل الخالدي (1942م-2019م) في ذلك: "إنَّه من المعروف على نطاق واسع أنَّ المهجَّرين إلى الشَّام، أصحاب هجرة سياسيَّة، وليس هجرة اقتصادية، كإخوتهم الذين هاجروا إلى فرنسا، كما أنَّهم أصحاب كفاءاتٍ عالية أُوليس من المنطق -إذن- أنَّ تظهر فيهم حركةٌ سياسيَّةٌ لصالح وطنهم، أم أنَّ سحر الشَّرْق أنساهم الوطن؟"⁽¹¹⁾ ويكفي أن يكون من أبرز الجزائريِّين في هذا المقام الشَّيخ طاهر السَّمعوني الجزائري (1852م-1920م) صاحب حلقة دمشق الكبرى، والشَّيخ محمَّد الخضر حُسين (1876م-1958م)، وهما اللذان كانا ضمنَ الوجود الجزائريِّ التَّوعِيِّ الوارث لجهود الأمير عبد القادر في بنيه وأتباعه، فمثلاً بقوَّة وفاعليَّة الوجود الجزائريِّ على أرض الشَّام منذ بداية القرن العشرين، وخلال فترة الحرب العالميَّة الأولى وما بعدها تحديداً.

لقد كانت الجهود العلميَّة والعملية التي حضر تفاصيلها الإبراهيميُّ -مؤثراً ومتأثراً- رافداً فاعلاً في تكوين شخصيته، وارتسمت معالمُ ما بعد مُقام المهجر الشَّامي، وفي ذلك يقول الإبراهيمي: "فكنا لا نفرق من اجتماع إلاَّ على موعد لاجتماع، وكان واسطة العقد في تلك المجالس الأستاذُ الجليل والأخ الوفيُّ الشَّيخُ الأستاذ محمَّد الخضر حُسين مدَّ الله في حياته. ولقد أقمْتُ بين أولئك الصَّحب الكرام أربع (04) سنين إلاَّ قليلاً، فأشهدُ صادقاً أنَّها هي الواحة الخضراء في حياتي المُجديبة، وأنها هي الجزءُ العامر، في عمري الغامر؛ وأني كنت فيها أقرَّ عيناً وأسعد حالاً من ذلك الذي نزل على آل المهلب شاتياً، فوجد الإدبار رائجاً والإقبال آلياً"⁽¹²⁾. والنَّصُّ إقرارٌ صريح من الرَّجل في أثر هذا الإقامة في تكوينه الفكريِّ والسِّياسيِّ، وعمق العلاقات التي ستتجددُ في مناسبتينٍ أُخريَّين مستغلَّة هذا الرِّصيد الشَّاميِّ في خدمة فكرة الوطن الجزائريِّ، وبذل الجهد في سبيل تحريره، والمحافظة على انتماؤه الطَّبِيعيِّ في إطاره العربيِّ الإسلاميِّ.

فمع ما كان عليه وضعُ الإمام الإبراهيميِّ الاجتماعيِّ المناسبُ عموماً في بلاد الشَّام فقد كان صاحبَ الأمير فيصل بن الحسين، وقد كان الأخير يريدُه أن يتولَّى إدارة التَّعليم في الحجاز، إلاَّ أنَّ الإبراهيميِّ كانت عينُه على الجزائر، وفي ذلك يقول: "وجاءتني من الجزائر أخبارٌ متواترةٌ تفيد أنَّ الجَوَّ فيها أصبح صالحاً للعمل المُثمر في العلم وفي السِّياسة، فعدتُ

العزم على الرجوع إلى الجزائر"⁽¹³⁾ فلقد كانت إقامته في الديار المشرقية عموماً، وفي بلاد الشام تحديداً فترة أثرت رصيده المعرفي، وأنشأ له بها علاقات اجتماعية وسياسية وعلمية عالية، سيكون لها ما بعدها، فيوظفها في أوقاتها المناسبة لخدمة الفكرة الأولى على سلم أولوياته: قضية الوطن الجزائري بكل تفصيلاتها.

5-2-2/ فكرة الوطن الجزائري في قلب فرنسا الاحتلال: من المشاهد التي تأخذ

القارئ بالحيرة والاندھاش موقف الحركة الإصلاحية الجزائرية بقيادة الشّيخين ابن باديس والإبراهيمي من وضع مشروع الوطن الجزائري بين أفراد الجالية العربية والجزائرية وشمال أفريقيا، فقد تحوّل اهتمام الحركة الإصلاحية في الجزائر نحو فرنسا ذاتها، وكان للإبراهيمي فيها محطات تجدد فيها موقفه من الوطن الجزائري، فبعد أن أصبح للحركة الإصلاحية في فرنسا موضع قدم من النوادي والمدارس ومقرّات الشعب، صار من الضروريّ انتقال الإبراهيمي إلى هناك، وهو انتقال له قراءات كثيرة ما يهّم المداخلة منه هو رؤية الإبراهيمي للوطن الجزائري في ظلّ لقاءاته مع الجالية الجزائرية، وأعيان الشّأن العربيّ، وكذا جهات فرنسية مختلفة من سياسيين، وصحافة ورجال قانون.

انتقل الإبراهيمي وهو رئيس جمعية العلماء إلى فرنسا أواخر أكتوبر 1950م رفقة نائبه الشّيخ العربي التبسي، ودامت رحلته هناك خمسين (50) يوماً، تفقّد خلالها وضعيّة متعلّقات الوطن الجزائري المادّية والمعنوية بين أفراد الجالية الجزائرية، والتقى بأعيانها وعمومها وقد لخص جوهر الرّيادة فيما يتعلّق بالدّاخل الجزائريّ في نقطتين شكّلتا يومئذ ذروة الصّراع بين الحركة الإصلاحية وسلطات الاحتلال، فيقول: "ذهبنا إلى باريس لخدمة قضيتين، باريس هي مركزهما، وهي ميدان الأعمال لهما، الأولى: قضيتنا المعروفة ذات الشّعبتين، وهي فصل الحكومة الجزائرية عن الدّين الإسلامي، وحرية التّعليم العربي"⁽¹⁴⁾ وهما المسألتان التي أظهرت فيهما الحركة الإصلاحية دفاعاً مستميتاً لعلمها بموقع مقوّمَي الدّين واللّغة من استواء فكرة الوطن الجزائريّ الذي تشده، وما إصرارها على افتكاك الإشراف على شؤون الدّيانة الإسلامية والتّعليم العربيّ إلّا يقيّن منها بخطورة بقاء أمرها بيد الاحتلال، بقدر يقينها بحجم الفوز الذي حقّقه لو تمّ لها هذا السّعي كما أرادت، وأمّا القضية الأخرى فهي:

"قضية إخواننا الجزائريين النازحين إلى فرنسا في سبيل العمل للقوت حينما ضاقت بهم بلادهم... وأن نتسبب إلى تأسيس مدارس هناك لتعليمهم وتعليم أبنائهم، حتى تبقى نسبتهم إلى الإسلام محفوظة، وعلاقتهم بالإسلام متينة"⁽¹⁵⁾ والسعي في كلا القضيتين واضح الهدف بئز الوجهة، وهو يضع أسس المجتمع الجزائري النازح إلى بيئة مغايرة للبيئة التي نشأ على مبادئها، فيبقى على صلة بمقومات وطنه، ولو كان على غير جغرافيته، وينشأ الجيل الجديد منهم على ولاء آبائهم، وفيأ لتلك المبادئ والمقومات، حتى ولو ألتأته الظروف الاقتصادية التي هي صنعة الاحتلال إلى ذلك الواقع.

لقد قدمت الرؤية الإبراهيمية تأطير الجالية الجزائرية في فرنسا بما تؤطر به المواطنين الجزائريين في الجزائر، مع ما ترى فيها من كلفة ومشقة، ولكن نجاح المشروع سيجعل من الجزائريين المقيمين في فرنسا -ولأجيال قادمة- يعيشون الوطن وهم هناك، فلا يتأثرون بثقافة البلد الذي يسكنون فيه، وقد سبق أن سكنهم الوطن الذي قدموا منه، وذلك هو المفهوم الجديد للوطن، متحولاً إليه من معنى المكان، بعد أن أصبح تجاوز المكان حقيقة أقرتها تكنولوجيا التواصل والمواصلات، فطويت المسافات، واختصرت الحدود، ومتجاوزا به مفهوم الوطن في الفلسفة الغربية التي "ورثت الديموقراطية الحديثة عن روما تصوراً للمواطنة معرّفاً مسبقاً من ناحية الوضع القانوني"⁽¹⁶⁾ إذ لم تعد المواطنة إيجاد أي صورة أخرى لتثبيت المعاني المجردة لحقيقة الوطن، وتسويق آليات جديدة لتداول القيم المبقية على الإطار العام للمواطنة، وهي أفكار وممارسات تبني عليها الدول والمجتمعات الحديثة وجودها ووجود المنتسبين إليها في مختلف الأماكن والبقاع، وبعد أن كانت الحمية التي يُشهرها المقيمون على إقليم من الأرض يعتزون بالانتساب إليه، ويفاخرون بانتمائهم إلى جغرافيته عنوانا على المواطنة والوطنية؛ فقد جاورها - مثلاً - حمل جواز سفر بلون وشعار معينين، معبراً عن انتماء حامله إلى جهة معينة، ولم يعد ذلك الجواز وثيقة رسمية تبرر العبور بين الحدود وتنظمه، بقدر ما صار عنواناً لهوية وطن تشظى حاملو هويته وقيمه في البلدان، وتفرّقوا بين كثير من الأوطان، ولكنهم يعيشون وطنهم خارجه.

إنَّ الوطنية والمواطنة التي يُناضل الإبراهيميُّ من أجل إشاعتها بين الجزائريين والعرب والمسلمين في ديارٍ غير ديارهم، هي تلك المعاني النَّفيسة التي عبَّر عنها ابنُ باديس في آخر درسٍ ختمَ به القرآن الكريم، وحاز فضل تقييده يومئذٍ الإمام الإبراهيميُّ نفسه، وهو من أعجب المعاني في تعريف الوطن والمواطنة والوطنية، التي سبق أن تناولها محمَّد عبده والكواكبيُّ وحسن البنَّا وغيرهم، إذ يعتبرون الوطن الأكبر هو دار الإسلام، ثمَّ حوزة العروبة ثمَّ الأقاليم التي تضمُّ الأهل والعشيرة، حتَّى ينتهي الأمر بيوتٍ يضمُّ عائلةً من جملة أفرادٍ وهو المعنى الأوَّل البدائيُّ للوطن (محلُّ السُّكنى) وهم مع اتِّفاقهم في هذا، إلاَّ أنَّ تصوير المعنى الحقيقيِّ للمفاهيم السَّابقة مستنبطاً من نصوص الوحي قد أبدع فيه ابنُ باديس تعقيباً على تفسير سورة الفلق، ومستحضراً الحديث النَّبويَّ الذي أخرجه مسلم من حديث عائشة - رضي الله عنها - أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة أو جرح، قال النَّبيُّ بأصبعه هكذا - تعني وضَعَهَا على الأرض كما فسَّرها سفيانُ بالعمل - ثمَّ رفعها وقال: «بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةٍ بَعْضِنَا، لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا» فيقول معقِّباً: "ويقول ذوو المنازع القوميَّة والوطنية ولو كانوا يدينون بالوثنية: آمنة بأنَّ محمَّداً رسول الله. فقد علَّم النَّاسَ من قبل أربعة عشر قرناً أنَّ تربة الوطن معجونة بريق أبنائه تُشفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقداً من المحبة والإخلاص له، وليؤكِّد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليقرِّر لهم من منن الوطن منَّةً كانوا عنها غافلين، فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أنَّ تربة الوطن تغذي وتروي، فجاءهم من علم النبوة أنَّها تُشفي، فليس هذا الحديثُ إرشاداً لمعنى طبيٍّ ولكنَّه درسٌ في الوطنية العظيم، ولو أنصف المُحدِّثون لما وضعوه في باب الرُّقى والطِّبِّ فإنَّه بباب حبِّ الوطن أشبه"⁽¹⁷⁾ وإذا كان ابنُ باديس قد أجاد في تصويره النَّظريِّ لمفاهيم الوطن ومشتقاته، والتَّأصيل الشَّرعيِّ لها، فقد كان الجهد الإبراهيميُّ نموذجاً تطبيقياً لتلك القناعات التي أشرَّها الرَّجُلان وهما يشتركان في ريادة الحركة الإصلاحية في الجزائر الحديثة.

ولعلَّ أصدق ما يبرِّز ما سبق من القول، هو النَّشاط الذي ختم به الإبراهيميُّ رحلته إلى فرنسا باستغلال فرصة انعقاد الدَّورة السَّادسة للجمعية العامَّة للأمم المتَّحدة، والاتِّصال بالوفود العربيَّة والإسلامية القادمة إلى باريس لتمثيل دولها، وبذل الجهود لتسجيل القضية

الجزائريّة في جدول أعمال الجمعية القادمة، وعقد اتّفاقاتٍ مبدئيّةٍ لاستقبال بعثاتٍ علميّةٍ للطلّبة الجزائريّين في البلاد العربيّة والإسلاميّة على نفقتها، وكذا تعاهد نشاط الحركة الإصلاحيّة في فرنسا، فقد كان واضحاً أنّ الإبراهيمي "قد لمس بنفسه أثناء زيارته الأخيرة إلى باريس حالة الرّكود هذه التي انتابت نشاط الشّعبة المركزيّة بباريس"⁽¹⁸⁾ ومن فقرات هذا النّشاط ذلك الحفل الذي أقامته شعبة الجمعية بباريس على شرف الوفود العربيّة والإسلاميّة، وذلك مساء الثلاثاء 29 جانفي 1952م بنزل العالمين (Deux Mondes) بباريس، وقد استقبل الإبراهيمي هذه الوفود بكلمته التي ألقاها بعد كلمة الأمين العام للجامعة العربيّة عبد الرّحمان عزّام بخطاب الأخوة على الوطن الجامع قائلاً: "أيّها الإخوان المتلاقون على هوى واحد، هو هوى الوطن الجامع، المتعبّدون بعقيدةٍ واحدةٍ هي عقيدته تحرير هذا الوطن الجامع، الطّالعون كالكواكب من أفقٍ واحد هو هذا الشّرق الذي أطلعت سماؤه الشّمس والقمر، وأطلعت أرضه الأنبياء والحكماء"⁽¹⁹⁾ ثمّ تحدّث عن الوطن الجزائريّ معرّفاً بقضيّته ضمن جغرافيا شمال أفريقيا وتاريخها: "وإنّ هذا الشّمال الأفريقي كلّ لا يتحرّزاً، تربط بين أجزائه دماء الأجداد، ولسان العرب، ودين الإسلام، وسواحل البحر في الشّمال، وجبال الرّمال في الصّحارى، وسلاسل الأطلس الأشمّ في الوسط، واتّحاد الماء والهواء والغذاء، وإتّما لخصائص تجمع الأوطان المتباينة، فكيف لا تجمع الوطن الواحد؟"⁽²⁰⁾ وتلك مرحلة أخرى من مراحل تموّع الوطن عند الإبراهيمي، ومستوى آخر من مستويات التّمكين له، فقد حضر الحفل عبد الرّحمن عزّام الأمين العام لجامعة الدّول العربيّة، والأسّاذ فارس الخوري رئيس الوفد السّوري، وممثّلين عن الدّول العربيّة والإسلاميّة، وحضره أحمد مزغنة وحسين الأحول ممثّلين عن حركة انتصار الحريّات الديمقراطيّة، وفرحات عباس وأحمد بومنجل عن حزب الاتّحاد الديمقراطيّ للبيان الجزائريّ، إنّه الخروج بالوطن الجزائريّ إلى فضاءٍ أرحب بعد أن ضيق عليه الاحتلال، وإيداع له في حرصٍ بين يدي من تُعتقد فيهم النّصرة والمعونة بحكم اعتبارات كثيرة يشترك في الإيمان بها كثيرٌ من النّخب القوميّة والإسلاميّة الحاضرة، وكثير منهم قد سبق لهم بالإمام الإبراهيمي معرفةً أو لقاءً أو مجالسة منذ سنوات المقام الشّامي السّالفة.

5-2-3 / الإبراهيمي والوطن الجزائري في الديار المشرقية والإسلامية: يتجدد

سعي الإبراهيمي لصالح الوطن الجزائري مرة أخرى، وعلى صعيد آخر في رحلة شهيرة طبعت أواخر حياته التضالية العامرة، وقد بدأت رحلته هذه في السابع مارس 1952م واستمرت حتى بداية ثورة التحرير، وقد بدأها بباكستان ثم العراق فالسعودية ثم مصر فالكويت وبغداد ودمشق وعمان، ثم عاد إلى مصر، ثم خرج منها إلى القدس فعمان ودمشق وبغداد، ثم عاد إلى مصر في أكتوبر 1954م، وهي رحلة طويلة كثيرة الأحداث متنوعة النشاط، لكن جامعها العام هو البحث عن موقع لائق بالوطن الجزائري خارج حدوده الجغرافية التي حاصره فيها الاحتلال، والرُجوع بهذا الوطن إلى ما يؤمن به الإبراهيمي من الامتداد الطبيعي للجزائر في محيطها العربي والإسلامي، فكانت زيارته ذات نشاط رسمي يقابل فيه الزعماء والرؤساء والملوك للتعريف بقضية الوطن الجزائري، وشحن الدعم السياسي واللوجستي لما هو قادم، ومن صور ذلك، مخاطبة هؤلاء في شأن الإجراءات الفعلية لإرسال بعثات طلابية جزائرية لاستكمال دراستهم بهذه الدول على نفقتها، وطلب مساعدات مادية لبناء مدارس عليا في الجزائر يُستقبل فيها المتخرجون من الأطوار الأولى للتعليم الحر في الجزائر، والذي تحمّلت الحركة الإصلاحية أعباء تحضير بُناها التحتية بصعوبة بالغة، وعجزت عن تغطية مسار هذا التعليم في مراحلها العليا، كما كانت هذه الرحلة ذات نشاط شعبي تُقام فيه المحاضرات والمحافل لتعريف الشعوب العربية والإسلامية بحقيقة الوضع الجزائري، وكسر تعميم الاحتلال على ممارساته في الجزائر، وتسويق الصورة الحقيقية لهذا الوطن على لسان أبنائه لا على لسان غاصبيه، وقد تكون هذه الرحلة بتفصيلاتها الكثيرة ويومياتها الطويلة أكبر الفرص لتقدم صورة الوطن الجزائري خارج جغرافيته المعروفة، فقد كان الإبراهيمي بثقله العلمي والسياسي المكتسب خلال الفترات السابقة خير من يعرف به، وأولى من يتكلم عنه، بحكم ما أضحي عليه الإبراهيمي من مكانة حازتها له مراحل نضاله ونوعيته، حتى صار أيقونة الجزائر لتلك الفترة، ويكفي أن تسمع بالإمام الإبراهيمي فيتمثل لك الوطن الجزائري في بلاغة خطاب، وهمة تحرير، وولاء للعروبة والإسلام، ووفاء للشرق ومقومات الشرق وحضارة الشرق.

ولعلّ من بين ما يُلفت الانتباه في هذه الرحلة، هو ذلك اللقاء الذي أعاد فيه القَدْرُ جمع حَمَلَة همّ الوطن من جديدٍ، ولكنّ من مواقعٍ أخرى، فقد "زار الأستاذ الأكبر [الإبراهيمي] الشَّيْخَ مُحَمَّدَ الحَضْر حَسِينِ شَيْخِ الأزْهرِ الشَّرِيفِ واجتمع بأغلب المسؤولين والوكلاء للأزهر"⁽²¹⁾ فيها هو الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الحَضْر حَسِينِ الذي جمعه بالإمام الإبراهيمي حلقةً دمشق الكبرى بين يدي الشَّيْخِ طاهر الجزائريّ خلال الحرب العالمية الأولى، تعيد الأقدار جمعَهُما من جديدٍ، وأحدُهُما يحملُ همّ الأُمَّةِ في حَيِّزِ الأزهر، والآخَرُ يحملُ همّ وطنٍ يجوب به الأمم.

غير أنّ هذه الفترة من خروج الإبراهيمي قد شهدت انطلاق الثورة التحريرية الكبرى والإبراهيمي خارج وطنه، فقد فاجأه انطلاق ثورة بذر في سبيل تحضير وقودها الكثير ولكنّه لم ينل شرف الإشراف عليها ولا الاستئذان في أمرها، فقد فاجأته وهو في القاهرة أخبار الإذاعات والصُّحف ذات صباح من أوائل نوفمبر 1954م باندلاع أحداث نوعية متفرقة متناسبة في الزّمن، ثبت بعدها أنّها بداية ثورة وطنٍ، لتتوالى الأحداث بعد ذلك سراعاً، لبث بعدها الإبراهيمي بالقاهرة حامل شأن الثورة في إنشاء مقرّاتها، وحشد الدّعم المادّي والمعنوي لها، ولكنّ الذي يجب الإقرار به تاريخياً أنّ هذه المرحلة قد تسارعت أحداثها، وغلبت الإبراهيمي على أنّ يحتويها، فحركة الإخوان المسلمين بقيادة حسن البنا قد سطع نجمها وانتشر فكرها، وقد وجد الإبراهيمي نفسه رفقته تلميذه التَّحِيْبُ الشَّيْخُ الفضيل الورتيلاني وسط تحاذبات التّيّار الإسلامي في مصر واليمن، وسلطاهما، كما أنّ قيادة ثورة التّحرير لم تكن على درجة من الولاء المطلق للإمام الإبراهيمي، فقد تربّى الكثير ضمن تيار وطني في الحركة الوطنية خارج إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي يدين منتسبوها للشَّيْخِ الإبراهيمي بولاء يختلف عن ولاء منتسبي بقية تيارات الحركات الوطنية الأخرى، وإن كانوا يكتنون له الاحترام، ولعلّ هذا ما أثار على موقع الإمام الإبراهيمي من التحوّلات الكبرى في الثورة التحريرية فلم يكن له من الحضور على السّاحة الجزائرية مثلما كان له من الحضور قبل اندلاعها، ثمّ كان ظهور التّيّار الاشتراكي واستحواده على معظم الشّرق مقابل التّيّار الرّأسماليّ في الغرب، وتأثير ذلك على الدّول العربية والإسلامية التي وجدت نفسها مجبرة على اختيار أحدهما، وقد كان للجغرافيا منطقتها، فكان لمسايرة النّظم

العربية النَّاشئة اختيار النِّظام الاشتراكي أثره الواضح على خروج التَّأطير العامِّ لشؤون الوطن الجزائريِّ، وقد كانت أواخر السَّنوات العشر التي قضاها الإبراهيميِّ رافداً للثورة الجزائرية في المشرق طافحة بأفول تأثير الإبراهيميِّ على المشرفين الجدد على شأن الوطن الجزائريِّ من السياسيِّين والعسكريِّين، ولم يعد له الكثير ليقدمه وبخاصة حينما أعلنت كلُّ التَّنظيمات الوطنية الجزائرية انضواءها تحت لواء جبهة التَّحرير الوطنيِّ وجيشها، فصار الإمام الإبراهيميِّ أحد أفراد هذا الوطن، ويظهر أنَّ هذا الوضع قد ترك على الشَّيخ أثره، فلم يجد من عزاء إلاَّ أن يخاطب وطنه الجزائريِّ من جديد، بعبارات لم يخنه فيها بيانه كالعادة فيقول مخاطباً جزائره: «حطَّت الأقدارُ في صحيفتي أن أفتح عينيَّ عليك وأنت مُوثَّقةٌ، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عينيَّ فيك وأنت مطلقة؟ وكتبَت الأقدارُ عليَّ أن لا أمْلِكُ من أرضك شبراً، فهل تكتُب لي أن أحوز في ثراك قبراً؟»⁽²²⁾ ومن أبرز المشاهد التي عكست بوضوح لا يخلو من حسرة وأسف موقفه ممَّا آل إليه وطنه، في أول خطبة جمعة بعد الاستقلال والتي أمَّ فيها النَّاسَ في وفود السُّلطة الجزائرية الجديدة ومرافقيهم من مختلف الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة، ثمَّ بيان السادس عشر أفريل 1964م الشَّهير، وما دون ذلك، فقد تحوَّل الوطن عند الإبراهيميِّ مكاناً ينتظر فيه أجله، أما ما كان يرسمه له من أفق، أو يُحصِّره له من أملٍ فقد تناوله عنه قوم، لا شكَّ في بذلمهم، وفي رؤيتهم، ولكنَّ رؤيتهم للوطن كانت على غير ما هي عند الإبراهيميِّ.

خاتمة:

أفضى هذا المسح العجَلُ لمفهوم الوطن والمواطنة في جوانب من مسيرة الإبراهيمي إلى مزيد من الإضاءة لبعض الجوانب من سيرة الرَّجل، وموقفه من هذه المفاهيم، وهو ما يمكن عرضه في النَّقاط الآتية:

- يستقي الإمام الإبراهيميِّ مفهومَ الوطن والمواطنة من الرِّصيد التَّاريخي التُّراثيِّ العربيِّ الإسلاميِّ من خلال المدوِّنة العربية، وما أقرَّه التَّشريع الإسلاميُّ في نصوص الوحي.

- يتجلى موقفُ الإبراهيميِّ من الوطن والمواطنة من خلال مسيرته العلمية والنضالية عبر مشهدين؛ أحدهما نظريٌّ: وعكسته مقالاته وخطبه وخواطره خلال قرابة ثلاثة عقود وثانيهما عمليٌّ: وأظهرته جهوده ورحلاته وإشرافه المباشر على كلِّ ما دعا إليه بقلمه.
- ارتقى الجهد الإبراهيميُّ إزاء وطنه وبناء مواطنةٍ حقيقيةٍ عبر مراحل بدأت بالتكوين ثمَّ الإعداد فالإنجاز، عبر مسارٍ زمنيٍّ مدروس وحذر، أحسن فيه قراءة ظروف المرحلة، ونجح إلى حدٍّ بعيد في مناورة الاحتلال، وبخاصة عند استحضار ظروف الاحتلال وسلطته.
- يُلاحظ المنحى التصاعديُّ لتمرير فكرة الوطن، وترسيخ المفهوم العمليِّ للمواطنة عبر مراحل أفضت السابقة منها إلى اللاحقة، في تناغمٍ استغلَّ المُتاح من الجهود، واستثمرَ المُمكن من الطاقات.
- لم يقف الواقع الذي حاصر فيه الاحتلالُ الوطن الجزائريَّ حاجزاً يمنع الإبراهيميَّ من تمرير مشروعه، بل سعى إلى التَّبشير بذلك الوطن الجزائريَّ خارج جغرافيته إلى حين.
- قد يمكن اعتبارُ الجهدِ الإبراهيميِّ في ترسيخ حقيقة الوطن ومبدأ المواطنة مرجعيةً للعديد من أعلام الحركة الوطنية الجزائرية ومشاريعها، كما كانت الظروف الإقليمية والعالمية سبباً مباشراً في ظهور رؤى أخرى لمفهوم الوطن.

الهوامش والإحالات

- (1) - سامح فوزي، المواطنة، ط1. القاهرة: 2007م، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ص7.
- (2) - أرسطو، مقتطع من نص: ما المدينة إذن؟ سياسة الكتاب الثالث (الفصل الأول). تر: ج. أوبونيه د ط. باريس: 1993م. دار جاليمار، ص 73-75.
- (3) - الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي - إبراهيم السَّامرائي، د ط. د ب: د ت، دار ومكتبة الهلال، ج2، ص14.
- (4) - الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج7. ص 454.
- (5) - المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، د ط. القاهرة: د ت، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدَّعوة، ج2. ص1042.
- (6) - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1. الرِّياض: 1429هـ - 2008م: عالم الكتب، ج3، ص 2462.
- (7) - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص 2462.

- (8) - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللُّغة العربية المعاصرة، ج3، ص 2462.
- (9) - أيوب بن موسى أبو البقاء الكفوي، الكُليات معجمٌ في المصطلحات والفروق اللُّغوية، تح: عدنان درويش - محمّد المصري، د ط. بيروت: د ت، مؤسّسة الرّسالة، ص 940.
- (10) - محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي ط1. بيروت: 1997م، دار الغرب الإسلامي، ج4، ص 181.
- (11) - سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق، دور الحالية الجزائرية في بلاد الشام، د ط. الجزائر: 2016م، دار الأمانة للطباعة والنّشر والتّوزيع، ص 184.
- (12) - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 566.
- (13) - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص 167.
- (14) - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص 371.
- (15) - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص 372.
- (16) - دومنيك شناير وكريستيان باشوليه، ما المواطنة؟ تر: سونيا محمود نجّاح، ط1. القاهرة: 2016م، المركز القومي للترجمة، ص 15.
- (17) - عبد الحميد بن باديس، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، تح: عمّار طالبي، ط1. الجزائر: 1388هـ - 1968م، دار ومكتبة الشّركة الجزائرية، ج2، ص 117.
- (18) - سعيد بورنان، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936-1956م، د ط. الجزائر: 2013م، دار هومة، ص 166.
- (19) - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص 465.
- (20) - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص 467.
- (21) - تركي رابح عمامرة "احتفاء مصر بالأستاذ الرّئيس" البصائر: ربيع الأوّل 1372هـ - ديسمبر 1952م، ع 208، (سلسلة 2)، ص 2.
- (22) - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 183.

المنطلقات المعرفية لفقہ المواطنة من خلال منهجية الشيخ الجليلي الفارسي

Cognitive Bases for the Jurisprudence of Citizenship Through Sheikh Jilali Al-Farsi' Methodology

أ.د/ محمد بن السايح

جامعة الأغواط (الجزائر)

m.bensayah@lagh-univ.dz

تاريخ القبول: 2021/09/30

تاريخ الإرسال: 2021/09/05

ملخص:

من خلال فكر الشيخ الإبراهيمي نرسم خريطة وطنية واضحة الحدود دقيقة المعالم في فقه المواطنة انطلاقاً من المعارف العلمية التي استقاها من وحي التراث الخالد.

وقد سار الأتباع على هذا المنهج قصد تأسيس معرفة مبنية على أصول خالدة تُفرِّع لفقہ يجعل المواطن يحب وطنه ويعتز به ويدافع عنه ويؤميه ويطوره وفق نهج الأسلاف الذين عاشوا في ظروف استعمارية خاصة، ووجب علينا اليوم تجديد هذا الفكر واستثماره لئنتج نمواً اجتماعياً ووطنياً متماسكاً مسترشداً في ذلك بمنهجية الشيخ الجليلي الفارسي أحد قادة الجمعية في منطقة الشلف.

الكلمات المفتاحية: فقه المواطنة، منطلقات معرفية، جمعية العلماء، الهوية الوطنية، صناعة الوعي

Abstract:

Through the thought of Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi we draw a national map with clear borders and precise features in the jurisprudence of citizenship based on the scientific knowledge that he derived from the inspiration of the eternal heritage. The followers adopted this approach in order to establish knowledge based on eternal principles that branched into a jurisprudence that would make the citizen love his country, cherish it, defend it, develop it and develop it according to the approach of the ancestors who lived in special colonial conditions. The methodology of Sheikh Al-Jilali Al-Farsi, one of the leaders of the association in the Chlef region.

Keywords: Citizenship Jurisprudence, Knowledge Based, Scholars Association, National Identity, Creating Awareness.

مقدمة

رغبت بالمشاركة في الملتقى الدولي الثالث، الذي تنظمه كلية الآداب مشكورة بجامعة محمد البشير الإبراهيمي العامرة بولاية برج بوعرييج، وسعدت أيما سعادة بعنوان الملتقى الذي يخدم الوطن والمواطن وهو (المواطنة وبناء الوعي في فكر محمد البشير الإبراهيمي) لأنه يؤسس لتحديد فكر وترسيخ مبدأ وبناء هوية وفق أسس ومنطلقات معرفية صحيحة تحقق المواطنة الحققة والشاملة التي طالما أشار إليها وعبر عنها الشيخ الرئيس بن باديس وحسدها نائبه الشيخ الإبراهيمي حية تمشي بين الناس في كتاباته وخطاباته وإرشاداته الفاعلة.

لذا لم أتردد في المشاركة في هذا الملتقى ضمن المحور الثاني وهو: (جمعية العلماء ونص الوعي بالمواطنة في بناء واستعادة تحقيقات الهوية)

وقد أحسنت اللجنة الموقرة باختيارها هذا المحور الهادف كونه ينقل النص التاريخي لبناء الجمعية وقادتها بأمانة لتوجيه الأفكار وإحياء التراث ويقظة الضمير وإرشاد النفوس إلى فقه جديد وفاعل هو: (فقه المواطنة الشاملة) الحققة والعادلة، بناء على ثوابت الأمة ومقوماتها بحيث لا يتعارض النص الخطابي مع الفكرة العملية الصحيحة في تحقيق المواطنة الصالحة.

وعزمت على أن أختار لذلك المحور الهام والهادف عنوانا، رأيت أن له انعكاسات على تنمية فقه المواطنة في وطننا الحبيب وهو (المنطلقات المعرفية لفقه المواطنة من خلال منهج الشيخ الجيلالي الفارسي)، حيث استطاع هذا الأخير أن يجسد فقه المواطنة في الواقع الذي عاش فيه، كيف لا وهو الذي تتلمذ على أيادي الشيخين الرئيسين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واستطاع من خلال هذه المنطلقات التي أسست عليها الجمعية شعارها التاريخي الخالد أن يستثمر هذا الخطاب المتعلق بالمواطنة ليُنمي بها منطقة الشلف، وتظلّ تترَوَّى من هذا المعين إلى يوم الناس هذا.

ومن أجل تجلية هذا العنوان أكثر أصوغ الإشكالية التالية:

ما المراد بفقه المواطنة، وما هي منطلقاته المعرفية، ومن هو عمدتها في ولاية الشلف خلال فترة القرن الماضي، وكيف وظفها في استثمار خطابات الشيخين الرئيسين، وانعكاسات ذلك على الوطن والمواطن، وأخيرا هل من رؤية جديدة لتطوير فقه المواطنة؟

خطتي في البحث:

استقرأت خطابات وكتابات الشيخين الرئيسين وما تبناه منهما الشيخ الجليلي الفارسي، ثم أصف ما قصده من ذلك وأستنتج الخلاصة دون نقل لنصوصهم التي أصبحت مشهورة عند المثقفين المهتمين، وللأمانة ألحقت بعض أقوال الشيخين في ملحق وأشرت فيه للمرجع تحفياً للقارئ. وللإجابة على هذه الإشكالية رسمت الخطة التالية:

* مقدمة

* تمهيد يُبين مفهوم وتطور فكرة المواطنة.

* أولاً: تحديد المصطلحات.

1- المنطلقات المعرفية 2- فقه المواطنة 3- الشيخ الجليلي الفارسي

* ثانياً: منهج الشيخ الجليلي الفارسي في دعوته انطلاقاً من فقه المواطنة.

* ثالثاً: خلاصة المنطلقات المعرفية لفقه المواطنة.

* رابعاً: التكيف الشرعي لفقه المواطنة وفق رؤية جديدة.

* خلاصة

* الهوامش والإحالات وقائمة المراجع

* ملحق بكلمات الشيخ البشير الإبراهيمي وعبد الحميد بن باديس كمنطلقات معرفية

لبناء فقه المواطنة، والتي استثمرها الشيخ الجليلي الفارسي في منطقتة للبناء عليها.

* تمهيد: مفهوم وتطور فكرة المواطنة

قبل أن أدخل في المنطلقات المعرفية لفقه المواطنة أُسجل أنه وفي السنوات الأخيرة برزت فكرة المواطنة بناء على تغير العالم، فأعطاهم واقعا جديدا له مفاهيم مُستجدة ضمن التعايش في حدود جديدة ونظم حديثة وشاع بينها ما أصبح يُعرف بالمواطنة والوطن والعلم والتعاضد. وأنتج هذا الواقع الجديد ثلاث مصطلحات جديدة هي: الأرض والشعب والسلطة.. كما أنتج مفاهيم حديثة هي: الوطن والوطنية والمواطنة.. ومن هنا ندخل إلى معرفة مدلول هذه المصطلحات الهامة.

* مفهوم وتطور فكرة المواطنة:

لغة: من الوطن، وتعني الإقامة والحماية، ويمكن تحديد مدلولها بالنظر إلى عدة اعتبارات سياسية واجتماعية ونفسية.

أ- سياسيا: وتعني الحقوق المدنية والسياسية والالتزامات.

ب- اجتماعيا: وهي العلاقة الاجتماعية بين فرد طبيعي ومجتمع سياسي وهي الدولة، فللفرد الولاء للدولة.

ج- نفسيا: وهو الشعور بالانتماء للوطن وقيادته وإشباع الحاجات الاجتماعية وحماية الذات من الأخطار.

أما مفهوم المواطنة باعتبارها مصطلحا معاصرا فقد عرفت بأنها: علاقة بين الفرد والدولة يحددها القانون ويترتب عليها حقوق والتزامات.

إذ إنّ المواطنة لم تعد ولاء عشائريا ولا قبليا ولا عرفيا ولا طائفيا كما كانت في البداية إنما تجاوزت هذه الأطر القديمة والضيقة إلى الوطن الأم الحاضر.

وللمواطنة بالمفهوم القومي اهتمامات وهي: قيم الولاء، حب الوطن، خدمته، التعاون والمشاركة في الأمور العامة.

"الوطن" هو منزل الإقامة للموطن وجمعه "أوطان" وأوطنة، ووطنه واستوطنه اتخذه وطنا، وواطنه على أمر ما وافقه عليه⁽¹⁾.

فالمعنى اللغوي للكلمة، كما يبدو، يفيض بعلاقة ما بين أرض وإنسان، أو بين إنسان وإنسان. وهي كذلك على كل حال في الاصطلاح.

فالمواطن هو الإنسان الذي يستقر في بقعة أرض معينة، وينتسب إليها. فالحقيقة الأولى للمواطن تظهر في شكل علاقة بأرض معينة، علاقة ثنائية فيها حركية واستمرار⁽²⁾. وهنا يلاحظ امتزاج البعد الجغرافي والبعد الاجتماعي في حقيقة المواطن كما البعد الديني.

نخلص من ذلك كله إلى القول بأننا إذا نظرنا إلى علاقة الفرد أو الجماعة بالأرض التي يستوطنونها فنحن نتحدث عن المواطنة، وإذا نظرنا إلى علاقات الفرد بجماعته المشاركة له في

وطنه فنحن نتحدث عن المواطنة. وإذا نظرنا إلى علاقة المواطن بوطنه من الناحية النفسية فنحن نتحدث عن الوطنية. ولا يخفى أنّ للمدلولات الثلاثة تداخل كبير ووشائج قري لا ينفك بعضها عن البعض؛ كما هو الشأن في الاصطلاح القانوني للمواطن: "هو الشخص المتمتع على أرض تقوم عليها السلطة، بحقوق مدنية وسياسية"⁽³⁾.

وأنّ المواطن هو الفرد الذي ينتمي للموطن ويحمل جنسيته ويتمتع بمجموعة من الحقوق بحكم الانتماء والولاء.

وفي نظري فإنّ تنمية عنصر المواطنة يُبنى في مستودع التربية والتوعية الأسرية الصحيحة ونعني بها الثقافة التي تحملها الأسرة عن دورها ومكانتها داخل المجتمع، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة حقوقها والتزاماتها حتى يتسنى لها حوض غمار المواطنة الحقّة، والتي تنطلق أول ما تنطلق من الأسرة باعتبارها المؤسسة الأولى في المجتمع، وتتجسد فيها عملية المواطنة حليا.

فالأسرة تُكوّن المنظومة الدينية والقانونية والأخلاقية وتُثمي في أبنائها عنصر الولاء والطاعة والاحترام والتعاون والحب وكلّ القيم النبيلة التي يمكن أن يتغذى منها المجتمع وتتغذى منها الدولة الواحدة.

* أسس قيام المواطنة:

في أي دولة من الدول التي ننتمي إليها يجب أن تتوفر أربعة أسس لقيام المواطنة وهي:

- 1- الاستقرار والأمن الناتج عن ميزان العدل.
- 2- وضوح الحقوق والواجبات (وجود قانون).
- 3- الشعور بالمسؤولية وقيام الجزاء.
- 4- الانتماء الثقافي والديني للوطن.

أولا: تحديد المصطلحات:

1- المنطلقات المعرفية

ما المراد بالمنطلقات المعرفية؟ هي الأسس العلمية التي اتصف بها علماء الجمعية وأسسوا عليها فكرة المواطنة بالوطن والإقامة فيه والدفاع عنه، ومعلوم لدى الجميع أنّ أبناء الجمعية

وعلماءها بنوا ثقافتهم على أساس من الدين الإسلامي الحنيف، كونهم جزء من هذا الشعب عاشوا آلامه وسعوا لتحقيق آماله. فالمنطلقات المعرفية هي الحقائق العلمية المشتقة من شعار الجمعية وهو الإسلام الذي حدد هويتها ورسم منهجيتها وبنيت على أساسه عقيدتها.

ومعلوم أنّ فقهاء الإسلام اجتهدوا في دراسة الأحكام الشرعية المتعلقة بالوطن، ورتّبوا عليها آثارا شرعية متعلقة بالواجبات العينية كالصلاة والزكاة والصيام والحج ... والجهد في سبيل الله دفاعا عن الوطن والمواطن. فالمنطق المعرفي الأول المحدد لمفهوم الوطن هو الإسلام أو الدين الإسلامي، وما يترتب عليه من آثار في الاعتقاد والعمل والسلوك.

2- فقه المواطنة:

وأعني به الأحكام الفقهية العملية المستنبطة من الأدلة الشرعية (قرآنا وسنة) نحو الوطن والمواطن فيما يتعلق بالفروض العينية والكفائية والواجبات والحقوق.

ولا شك أنّ شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوصي وبوضوح إلى هذا الفقه انطلاقا من اعتبار الإسلام دينا والجزائر وطنا، وهذا الشعار قد ربط تصرفات المواطن نحو وطنه بالأحكام الشرعية المنبثقة من الإسلام أو من الدين الإسلامي الذي ينتمي إليه هذا الشعب.

ولأن الإقامة والدار والسكن كلها تعبيرات مختلفة المباني، إلا أنّها متحدة المعاني في الدلالة الواضحة على الوطن الذي نسكنه، وبالتالي فإن الأحكام المتعلقة بالسكن والجار والنفقة والتعاون والتناصح والتسامح ... كلها معاني ناتجة عن هذه المصطلحات الكثيرة في مبناها والواحدة في معناها، وهذا يحقق مقصدا شرعيا معتبرا في المحافظة على النوع الإنساني في الوطن ليتحقق مقصد ضبط دينه ويحافظ على ماله وعقله ونسله ونفسه، ومن خلال هذا الفقه المتعلق بالوطن والمعبر عنه بفقه المواطنة.

3- الشيخ الجيلالي الفارسي

هو أحد رموز وقادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من ولاية الشلف، وأحد قادة الفكر في العصر الحديث، يعرفه أبناء الجمعية كما يعرفه أبناء مدينة الشلف.

وقد أخذ مبادئ هذه المنطلقات كبقية علماء الجمعية من المعين الصافي وهو الإسلام حيث نشأ في بيئة دينية متواضعة ثم بدأ يكبر هذا العلم إلى أن سافر خارج البلاد لتونس

وتعلم منها ثم عاد إلى وطنه، وكان يستخلفه الشيخ ابن باديس -رحمه الله- في بعض دروسه عند سفره كما ذكر ذلك مترجمو حياته⁽⁴⁾.

وقد اخترت أن أتحدث عن المنطلقات المعرفية لفقهِ المواطنة عند الجمعية من خلال هذه الشخصية بالنظر في بعض ما وقفت عليه من آثارها العلمية رغبة في إحيائها ومساهمة بسيطة في نشرها وتوريثها للأجيال اللاحقة للسير على منوالها والبناء عليها، حرصاً على الوطن والمواطن، وتأكيذاً لفقهِ المواطنة الصافي والهادف عند علماء الجزائر متمثلاً في رجالها من أبناء الجمعية الفضلاء.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ هذه الآثار العلمية المستوحاة من بعض دروس الشيخ الفارسي هي من مصدر الشيخ الرئيس: عبد الحميد بن باديس⁽⁵⁾ مؤسس الجمعية ونائبه الشيخ البشير الإبراهيمي⁽⁶⁾، ولهم عبارات نفيسة حول الوطن والمواطنة سار على منوالها الشيخ الفارسي عملياً في سلوكه وعلمه ودعوته، وتمثل ذلك جلياً فيما يلي:

1- إنشاء وتأسيس الصحف والمجلات التابعة للجمعية كجريدة المنقذ (1925) والبصائر (1935) الأولى والثانية والشهاب (1935).

2- تأسيس المدارس الحرة في أهم المدن كقسنطينة وبسكرة رئيسية والأغواط وتلمسان للبنين والبنات.

3- المشاركة في الخطب والإرشاد العام في المناسبات الدينية والوطنية والعالمية، كالأعياد والمولد النبوي الشريف وعيد العمال، وتوجيه القراء إلى دراسة الكتب القديمة والحديثة لتحرير العقول والبلاد.

والمدرسة الخلدونية بالشلف شاهدة على ذلك، ولازال لحد الآن أبناء الجمعية في مدينة الشلف يحافظون على هذا الإرث وزيادة، من خلال المحافظة على هذا التراث واسترجاعه واستعماله فيما أسس من أجله، وزادوا عليه مدارس ومكتبات وجوامع يلتقي فيها أبناء الولاية من أجل دراسة قيم هذه الفقه وما ينتج من أحكام تقود المجتمع إلى الأمن والأمان والسعادة والاستقرار في وطنه وتنور عقله وتهدي قلبه وتسعد روحه، فجزاهم الله على هذا الصرح خير الجزاء، وجعل هذا العمل في ميزان حسناتهم.

ثانيا: منهج الشيخ الجليلي في دعوته انطلاقا من فقه المواطنة:

لاشك في أن الشيخ الجليلي الفارسي بما عُرف عنه من تفانيه في خدمة الوطن والمواطن، قد رسم لنا منهجا من خلال دعوته ودروسه تؤسس لفقه قويم متعلق بحب الوطن والدفاع عنه والدعوة له ... وكان هذا الفكر الفارسي منطلقا من الإيمان العميق بالشعار الجامع الذي وضعه مؤسسو الجمعية وعلمائها وهو: (الإسلام، والعربية، والجزائر).

فكان هذا الشعار جامعا وحاميا للهوية واللغة والوطن، وعليه انبثق مفهوم الوطن والمواطنة في فقه الشيخ الفارسي، وتميز هذا المفهوم عن بقية المفاهيم المعاصرة في الدولة الحديثة، والتي ربطت مفهوم الوطن بالجانب المادي متمثلا في الإنسان والجغرافيا والسلطة.

أقول تجاوز مفهوم الوطن هذا الحد المادي إلى مفهوم أوسع وأشمل وأعم ارتبط فيه بالجانب المعنوي أو الروحي، حيث أصبح حب الوطن من الإيمان والإسلام فامتزج بالهوية والثقافة والمجتمع، ليس هذا فحسب، بل قد يتجاوز إلى أوطان أخرى نشترك معها في هذه المعاني الروحية. وعليه فقد أسس هذا الفقه (فقه المواطنة) لمفهوم جديد جزئي متعلق بالوطن وکلي متعلق بالأخوة الإسلامية، ومن هنا بات النضال الوطني يتعدى الحدود الجغرافية إلى الوطن العربي والإسلامي، بل والإنساني.

ولاشك فإن هذا المفهوم هو الذي جعل أبناء الجمعية وقادتها الفضلاء يساهمون في هذه الجائحة (كوفيد 19) بالمشاركة في إغاثة إخوانهم وبني وطنهم، كما جعلهم من قبل ومن بعد يشاركون إخوانهم في فلسطين المحتلة انطلاقا من المفهوم الوطني التشاركي نحو فلسطين من كل أبناء الجزائر في الداخل والخارج.

كما جعلهم يساعدون إخوانهم الروهينغا وغيرهم من المسلمين المستضعفين في هذه المناطق وغيرها من العالم، مما جعل مفهوم المواطنة لا يحجز أو يحجر عن المواطن الإحساس بغير من لا يسكن الوطن معه.

أعود لألخص منهجية الشيخ الفارسي انطلاقا من فقه المواطن، لأنني استمعت - لما كنت مقيما بالشلف - إلى بعض دروسه وقرأت لبعض ما كتب عنه، فاستجمعت هذه المنهجية المتعلقة بالمواطنة في النقاط التالية:

* حياة الشيخ الفارسي ونضاله في سطور:

أُلخِص في هذه الورقة البحثية حياة الشيخ الفارسي مستأذنا طلبته الذين كتبوا عنه في منطقة الشلف، كوني كنت مدرسا بها ومتعاوناً في تأسيس مكتبها الجديد، وذلك من خلال العناصر التالية:

- هو الشيخ الجيلالي بن محمد بن هني بن مصطفى ولد يوم 28 أكتوبر 1909م ببلدية أولاد فارس⁽⁶⁾ وفي بيئة ريفية محافظة.
 - حفظ القرآن الكريم في صباه وتلقى بعض علوم العربية كألفية ابن مالك والأجرومية ومبادئ في القواعد النحوية، ومختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي، كما تعلم فن الخط ورسم المصحف في مازونة، ثم ترجم ذلك إلى أن كتب المصحف بخط يده ورسم أنامله عام 1929م.
 - مرحلة التجنيد الإجباري في البلدية ووثق علاقته بشيوخ المدينة كالشيخ "أحمد بن عاشور" والشيخ "ابن خدة" والشيخ "محمد بن جلول".
 - حضوره الاجتماع التأسيسي لجمعية العلماء المسلمين عام 1931م، مما يجعله مرتبطاً بأهل الإصلاح من العلماء والمجاهدين.
 - انتقل إلى مدينة قسنطينة للدراسة على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس عام 1933م.
 - كان الشيخ الفارسي معلماً ومساعداً للشيخ الرئيس في قسنطينة، وتلمذ عليه كثير من رجال الوطن.
 - سافر إلى تونس لطلب العلم حيث التقى بالشيخ "الطاهر بن عاشور" و"محمد النخلي القيرواني" وغيرهما.
 - عودته من تونس إلى قسنطينة وحضوره لحفل ختم الشيخ الرئيس لشرح الموطأ عام 1938م، وأصبح مدرسا رسمياً رفقة بعض زملائه.
 - عودته إلى مسقط رأسه واستئنافه لأنشطة حرة دون العدول أو ترك التربية والتعليم.
- هذه بعض المقتطفات السريعة، والتي لها صلة بموضوع المواطنة وأهم الضوابط والعوامل المعرفية التي كونت فقهه.

* العوامل التي ساعدت في تكوين الشيخ الفارسي:

- الصلة الحقة بالله - السفر - التربية والتعليم - الاستعدادات الفطرية.
- الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية - الصلة بالمجدين والمصلحين.

* دوره في الحركة الإصلاحية:

- زيارة الشيخ الرئيس للشلف عام 1931م.
 - تأسيس نادي الإصلاح عام 1936م
 - تأسيس شعبة الشلف التابعة للجمعية عام 1937م.
 - تأسيس مدرسة ابن خلدون عام 1943م وأدارها الشيخ الفارسي وافتتحت رسميا عام 1944م عضويته في لجان التعليم التابع لعمالة وهران.
 - مساهمته في نشاط الحركة الثورية التحريرية بمدينة الشلف والتحاقه بالثورة الجزائرية عام 1955 وتعرضه للسجن.
 - المشاركة بالكتابة في البصائر.
 - عمل مفتشا بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف.
 - مشاركته في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر عام 1964، والمؤتمر الأفروآسيوي في أندونيسيا عام 1965 رفقة المفكر مالك بن نبي، والدكتور بوعلام بن حمودة رحمهم الله جميعا⁽⁷⁾.
 - إنشاؤه للمعهد الإسلامي بالشلف
 - تتبعه وتأثره بالشيخ البشير الإبراهيمي ونشر وطبع رسالة الضب ورواية الثلاثة فضلا عن ثنائه عليه لحبه للجزائر والدفاع عنها وعن تراثها.
- هذه هي أهم المحطات التي نركز عليها في استنباط فقه المواطنة ومنطلقاته المعرفية والتي تتجسد في النقاط التالية:
1. إن فكرة الوطنية تجاوزت مدلولها اللغوي الذي يربطها بالجغرافيا والعناصر المادية فقط، بل زانه بالانتماء الديني والثقافي، وما يرتبط بالهوية والنظرة الإنسانية.

2. نشوء هذا الفهم كان بناء على التربية والتوجيه الأسري القائم بالمحافظة على التراث والتاريخ، ونبذ الاندماج الذي يدعو إليه المستعمر الفرنسي، مما جعل دراسة العربية والثقافة الإسلامية شرطا في بناء الشخصية الوطنية.
 3. مبادئ الإسلام والعربية أمور مقدسة تتفق مع أحكام العقيدة الصحيحة الدافعة إلى التشبث بهما والدفاع عنهما كونهما من أركان التواجد الحر والصحيح على البقعة الجغرافية.
 4. مناهضة المستعمر ومجاهدته عنوان عريض في فقه المواطنة نتج عن المعتقد الصحيح والإرشاد السليم لشعار الجمعية ومبادئها الأساسية، حيث لا يعيش المواطن آمنا إلا في ظل الإسلام العربي اللسان، وفي وطن يسمى الجزائر المستقلة.
 5. أهمية وجود علاقة روحية دينية تربط المرابط بأرضه، ولا يمكن أن يتجلى ذلك بدون أسلمة الحياة الروحية والعلمية والعملية في سلوك المواطن، بعيدا عن أفكار الوطنية الحديثة التي تربط الإنسان المواطن بالناحية الجغرافية والسلطة الحاكمة وتجعل الدين عنصرا أحاديا فرديا لا علاقة له بالجمتمع.
 6. ابتكار وسائل مهمة في التركيز على بناء المنطلقات المعرفية الصحيحة للمواطنة وذلك من خلال:
 - أ- إنشاء وتأسيس الصحف والمجلات التابعة للجمعية كجريدة المنقذ (1925) والبصائر (1935) الأولى والثانية والشهاب (1935).
 - ب- تأسيس المدارس الحرة في أهم المدن كقسنطينة وبسكرة رئيسية والأغواط وتلمسان للبنين والبنات.
 - ت- المشاركة في الخطب والإرشاد العام في المناسبات الدينية والوطنية والعالمية كالأعياد والمولد النبوي الشريف وعيد العمال، وتوجيه القراء إلى دراسة الكتب القديمة والحديثة لتحرير العقول والبلاد.
- ولا زالت هذه الوسائل المعبرة عن روح الجمعية وثقافتها وهويتها تستعمل لحد الآن خصوصا وأنّ الوسائط الآن أصبحت متاحة أكثر من ذي قبل.

وهنا نجد أنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد ساهمت وتساهم في بناء الفكر الوطني الصحيح من جميع جهاته الروحية والجغرافية والثقافية والاجتماعية انطلاقاً من المراكز المعرفية التي اختارتها تحت شعار دائم لها وهو (الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا)، وهذا أيضاً لا يتناقى مع كون الأمازيغية هي العمق والبعد الذي ناضل به أهلها من أجل تحرير البلاد وبنائها وفق أسس هذا الشعار الخالد.

ثالثاً: خلاصة المنطلقات المعرفية لفقه المواطنة

نخلص مما سبق إلى أنّ المنطلقات المعرفية تتمثل في:

1- الإيمان العميق والصادق بالله عز وجل ودينه والعمل به والدعوة إليه والصبر في سبيله مما جعل كلّ مواطن مُلتزم باتباع الأحكام التكليفية المنوطة به، بحيث يجب تأديتها ولا نجاة له إلا بأدائها. وترتب على هذا الاعتقاد فوائد وطنية كثيرة عجّلت بالتحبّة في سبيل الله لتحرير الوطن من فرنسا، كما نتج عنه اتجاه قومي إسلامي هام عزز الروابط العربية والإسلامية بين الشعب الجزائري والشعوب الأخرى العربية والإسلامية، كما أكد وجوب الرجوع إلى التراث لتجديده ودراسته والتمسك به.

2- الكفر الصريح بفرنسا الاستعمارية وبكل ما يصدر عنها وأنها تريد محاربة الجزائر المسلمة وتفرض عليها دينها ولغتها وتاريخها وثقافتها، كما تريد أن تزرع الجهل والفقر والكفر في بلادنا، وأنها تحارب اللغة والدين والتاريخ والجغرافيا وأتة لاخير فيها وهي ظالمة وكافرة. كما أنّ كلّ من ساندها أو تواطأ معها فهو مثلها أو قريب منها يجب اتخاذ موقف صريح منه، لأنّ الموقف جدّ والمعركة سجال والوطن محتل فإما النصر وإما الشهادة وليس هناك مساحة وسط الميدان في مثل هذه الظروف.

3- اعتبار الجزائر وطناً خاصاً بالجزائريين، وعليه فيجب الدفاع عنه بل والموت في سبيله وطرده المستعمر وإجباره باتخاذ وسائل كثيرة للتفكير في تسليم الراية لأهلها الحقيقيين. وقد اتخذت الجمعية من أجل تحقيق هذه الغاية وسائل كثيرة ومتعددة كالتعليم والتربية وإنشاء المدارس والصحف وغير ذلك، بغية قيام وطن حر للجزائر المستقلة، مع وجود نافذة نطل من خلالها على العالم العربي والإسلامي والعالم الآخر دون انغلاق.

4- اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية للجزائر وهي اللغة الأولى وقد تم دسترة هذا التوجه لاحقا إلا أنّ العمل به كان محتشما، وفرنسا الاستعمارية تريد القضاء على اللغة العربية لأنها لغة الحرية ولغة الدين الإسلامي ولغة الوطن والمواطنة. وقد اتخذت الجمعية وسائل معتبرة لإحياء هذه اللغة وإثباتها في الواقع الجزائري نطقا وتعلّما وتدرّسا كتكوين المعلمين، وإنشاء المدارس الحرة، وإنشاء الصحف والمجلات وغير ذلك مما في قدرتها لتحقيق هذا الهدف التاريخي والنبيل.

واللغة العربية كونها اللغة الأولى لا تُلغي غيرها من اللغات الأخرى لأنه لا يُمكننا التواصل مع العالم الآخر إلا بتعليم لغته لبناء شراكة بين الأمم والشعوب، لكن فيما يتعلق بالثقافة والهوية فإنه يجب أن نتعلم اللغة العربية أولا.

هذه هي المنطلقات المعرفية الأساسية التي انطلق منها فكر المواطنة وفقهها من أساتذة وشيوخ الجمعية. وكلّ منطلق من هذه المنطلقات تتفرع عليه فروع كثيرة على مستوى الأفراد والأسر والجماعات والدول والعالم الإنساني كله.

ونكتفي هنا بإرسال هذه الإشارات السريعة لإبراز المبادئ والأسس التي بُني عليها فكر وفقه المواطنة عند الجمعية في الجزائر.

وما هذه الجامعة العامرة بمنسوبيها وبكم إلا أثرا بارزا من آثار فكر وفقه المواطنة الحقّة والصحيحة والصالحة عند الشيخين الرئيسين وتلامذتهما من بعدهما إلى يوم الناس هذا وعندما نلاحظ ربوع وطننا الكبير نجد فيه جامعات وكليات ومعاهد وأقسام إسلامية تابعة لوزارة التعليم العالي تنطلق من هذه المنطلقات المعرفية التي حافظت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والشعب الجزائري كله من بعدهم.

رابعا: التكيف الشرعي لفقه المواطنة وفق رؤية جديدة

ينبغي تكيف فقه المواطنة ضمن إطار مفهوم الدولة الحديثة بعيدا عن هواجس التخوف من العولمة التي أصبحت كلما ذكرت الهوية الوطنية إلا وتبرز كعامل مشاكس للمواطنة الصالحة.

والذي يبدو من هذا هو التوجه نحو ترسيخ فكرة الديمقراطية ضمن الحديث عن المواطنة، إذ إن الاختيار الحر والتمثيل الحق يُزيل هذا الخوف ويُبدد هذا الهاجس لأنّ الدكتاتورية كلّما وُجدت أنشأت هذه الثنائية بين المواطنة الحقّة بكل أبعادها الجغرافية والحضارية وبين الدولة الوطنية التي تتخذ من العولمة نبراسا لها.

وإذا كانت الجنسية كقانون أساسي في تحقيق كامل للمواطنة للحصول على كل الحقوق وأداء كافة الالتزامات فإنها لا تتعارض مع شرط الانتماء الروحي أو الديني لربط المواطن بدينه الإسلامي أو أيّ دين يختاره غيره.

فالمواطنة في الفكر السياسي الإسلامي توسعت رؤاها إلى أبعد في العقد الوطني بعيدا عن العوائل الأيديولوجية واقترابا من المرونة الفقهية حيث يمكن أن يتعايش المواطن المسلم مع المواطن غير المسلم في بقعة جغرافية واحدة.

وهنا تثار عدة تساؤلات في فقه الموازنة بين حفظ النفس وحفظ الدين كما هو مقرر في مقاصد الشريعة الإسلامية، ويُمكن أن نقيس عليه الترجيح بين الهوية الوطنية والهوية الدينية، فكما يجب تقديم حفظ النفس كذلك تُقدم الهوية الوطنية الجامعة. وذلك من أجل الحفاظ على النظام العام للوطن من القلاقل والفتن والصراع⁽⁸⁾.

وبنظرة وسريعة في العالم الإسلامي اليوم نلاحظ بعض هذه الظواهر السلبية سواء في العراق أو في إيران أو في مصر مثلا، فالصراعات الدائرة في عالمنا الإسلامي وما مر به وطننا وبالتأمل في عصب الحكم والارتباطات الدولية يجعلنا نُرجح تقديم الهوية الوطنية الجامعة عن الهوية الدينية في إطار الفقه السياسي الإسلامي الحديث، وذلك إعمالا واعتبارا لفقه مآلات الأحداث.

ويتساءل بعضنا، هل المعتقد الديني شرط في المواطنة؟ لأنّ الإجابة على هذا السؤال تحل الإشكالية، وإذا كانت الإجابة بالسلب فهذا يجعل فكرة ترجيح الهوية الوطنية مقدّمة على ترجيح الهوية الدينية، كما يجعل فكرة الولاء للوطن حاضرة قولاً وعملاً وحالا وخدمة. والناظر في وثيقة المدينة وهي أول دستور ينظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم في المجتمع الإسلامي تجعلنا نؤكد ذلك حيث جمعت بين المسلمين وغيرهم في مدينة واحدة ولم تجعل

للولاء للدين هيمنة في تحديد أسس المواطنة، بل جعلت الإقامة بالمدينة واحترام الحقوق والالتزام بالواجبات هي الأساس، كما جعلت التعايش والتواطن انطلاقا للاندماج الحضاري في المجتمع المدني الاسلامي الأول بالمدينة المنورة.

وهناك أحكام فقهية عملية تُعزز هذا الرأي وهي:

* إباحة الزواج بالكتائب.

* إعطاء سهم من الزكاة للمؤلفة لقلوبهم من غير المسلمين.

* الأحكام العديدة المتعلقة بأهل الذمة.

وتأسيا على هذا فإنّ مفهوم الأمة لا يجب أن يقوم على أساس ديني أو عقدي في الدولة الإسلامية ليدخل فيه أصحاب العقائد الأخرى. ويكون الوطن هو الجامع لكل وبه تتحقق الشراكة الحضارية الدافعة للتعايش السلمي بين أبناء الوطن الواحد، هذا فضلا عن الأحكام الفقهية التي تسع المقيمين غير المواطنين وما يتمتعون به من حقوق داخل الوطن. ويحكم هذا التوجه عدة قواعد أصولية وفقهية وهي:

1- قاعدة فقه المآلات

2- قاعدة الحاجة والضرورة.

3- قاعدة المصلحة والموازنة بينها وبين المفساد.

وتقصد هذه القواعد إلى تحقيق المقاصد الشرعية التالية:

1- التماسك الاجتماعي والتعايش السلمي

2- المحافظة على الأنفس والعقول

3- المحافظة على الأموال والحريات العامة والخاصة.

4- المحافظة على الوحدة الترابية للوطن دون الانغلاق عن الأوطان الأخرى المجاورة أو البعيدة، وما يربطنا بها من بعد ديني ولغوي وحضاري.

إنه ووفقا لهذه القواعد والمقاصد يمكن الاجتهاد في تطوير المنطلقات المعرفية لفقه المواطنة، انطلاقا من أفكار الشيوخ والأساتذة المؤسسين وانتهاء بما وصل إليه الحال من تغيرات وأعراف جديدة.

وهنا تحضرنى جلسة جمعتنا مع مفتي الأردن السابق الشيخ نوح القضاة يرحمه الله حيث سأله بعضنا من الحاضرين: هل نحن اليوم أقرب عمليا إلى الفترة المكية أو إلى الفترة المدنية؟ فأجاب رحمه الله: نحن أقرب إلى الفترة المكية.

ولعل لهذه الإجابة دلالات تفيدنا في التأصيل لفقهاء المواطنة من عالم صاحب تجربة عاش للدعوة، وهذه الدلالات تتمثل في أنّ الدول الإسلامية وبمحكم العلاقات الدولية والاتفاقات والمعاهدات، وبمحكم القانون الدولي العام والخاص، فإنّ الدول القوية أو الاستعمارية سابقا لها هيمنة عليها؛ فهي محكومة ضمن نسيج ما وبالتالي ينبغي تحديد العلاقة ضمن هذه الدائرة الواسعة في هذه المرحلة الحرجة من حياة الدول القطرية والتي اتخذت من الوطن والوطنية وسيلة للترويج لنظمها وتشريعاتها.

إنني أثير هذه النقاط قصد تطوير فكرة المواطنة والتأصيل لها فقها، تلكم المواطنة التي دعا إليها الشيوخ المؤسسون لجمعية العلماء لكي تُنميتها بما يخدمها وفق المعطيات السياسية والدولية الراهنة مع وجوب التمسك بالبعد الروحي والجغرافي والثقافي لمفهوم المواطنة فقها.

خاتمة:

نخلص مما سبق إلى النقاط التالية:

- 1- كانت فكرة الوطن وتحريره والدفاع عنه والعيش في كنفه هي الشغل الشاغل لمؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد ساهمت بخطاباتها في بث روح الجهاد والنضال والاستشهاد في سبيل الله تعالى من أجل تحرير الوطن وترسيخ فكرة المواطنة.
- 2- تربي الشيخ الجيلالي الفارسي على مبادئ هذه الجمعية، وتشبع بأفكارها ونضالها وساهم معها منذ التأسيس في هذا الخطاب الوطني الثوري إبان القرن الماضي، وربّي جيلا كبيرا في منطقة الشلف واصل مشواره التنموي إلى يومنا هذا.
- 3- ارتبط مفهوم المواطنة بالدين الإسلامي كمنطلق معرفي وأساسي ثابت في منهج الجمعية وروادها كون الإسلام هو الشعار الأول للجمعية، والذي ينتمي إليه هذا الشعب ضمن هذا القطر والشمال الإفريقي والعالمين العربي والإسلامي.

- 4- أثر خطاب الجمعية في جمهور الجزائريين ولا يزال لحد الآن، ولما اختلفت الظروف ظهرت الدول القطرية مما استدعى تكييفها فقها جديدا لتطوير مفهوم المواطنة وعلاقتها بالهوية والوطن والولاء لهما.
- 5- الولاء للوطن هو الجامع الراجح دفعا للمفسدة وتخفيفا للأضرار واستشرافا للمستقبل وفق دراسة فقهية مؤسسة لإمكانية أن يجمع الوطن مواطنين ينتمون لأكثر من دين وهذا لا يتعارض مع فكرة المواطنة ذات البعد الديني والتي دعا إليها مؤسسو الجمعية عملا باعتبار المتغيرات الدولية والأعراف الإقليمية في عالمنا اليوم.
- 6- الدعوة إلى تجديد الفكر السياسي الإسلامي من منظور فقه المواطنة قصد ترتيب الأولويات في تحقيق أكبر قدر ممكن من التعايش والتسامح والتصالح بين الأديان والشعوب لكي تُسهل حركة وطنية إقليمية عالمية تُنتج أثرا إيجابيا دون أن يتعارض مع فكر المواطنة، وتؤسس لنهضة إنسانية عالمية تُنمي وتُطور الأوطان وتُحقق العمران.

الهوامش والإحالات

- (1) - الفيروز آبادي (817هـ): القاموس المحيط، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1412هـ/1992م. ص1598
- (2) - ناصيف نصار: "في فلسفة التربية المواطنة التجربة اللبنانية". مجلة "أبحاث تربوية". كلية التربية الجامعة اللبنانية، بيروت، ع17. ص1986، ص8.
- (3) - Citoyen: Individu jouissant sur le territoire de l'Etat dont il relève des droits civils et politiques". Raymond Guillien et Jean Vincent: Termes Juridiques p102,10 èd, dalloz, paris 1995.
- (4) - المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة قسم التاريخ بحث تخرج عام 2009م بعنوان: الشيخ الجيلالي الفارسي للطالب جيلالي بن فرج حسين.
- (5) - متوفى عام 1359هـ رحمه الله.
- (6) - متوفى عام 1385هـ رحمه الله.
- (7) - المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة قسم التاريخ بحث تخرج عام 2009م، بعنوان: الشيخ الجيلالي الفارسي للطالب جيلالي بن فرج حسين.
- (8) - المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة قسم التاريخ بحث تخرج عام 2009م، بعنوان: الشيخ الجيلالي الفارسي للطالب جيلالي بن فرج حسين.
- (9) - انظر بحثا على الشبكة العنكبوتية للأستاذ عبد الرحمن الحاج نُشر عام 2014 بعنوان: الهوية الوطنية والهوية الدينية ومأزق الاجتهاد الفقهي

*** أهم مراجع البحث:**

- 1- آثار الامام محمد البشير الابراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الابراهيمي، دار الغرب الاسلامي ط1، 1997م.
- 2- مجلة الآداب واللغات، المجلد 06، العدد 12، ديسمبر 2020م، أنساق الإسلام والعروبة والوطن في خطابات البشير الابراهيمي جامعة البويرة.
- 3- مجلة الدراسات الإسلامية العدد: 09 جوان 2017م، أسس الوطنية ومعالمها ومقوماتها في فكر عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الابراهيمي.
- 4- تطور الخطاب الديني من خلال منهجية الشيخ الجيلالي الفارسي؛ سورة القدر نموذجاً بحث مقدم من الباحث نفسه عام 2008م ضمن أعمال الملتقى الوطني للإصلاح المقام بالشلف بإشراف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- 5- آثار ابن باديس، تحقيق عمار طالبي، مكتبة الشركة الجزائرية-الجزائر، ط1، 1968.
- 6- الموسوعة العربية العالمية لمجموعة من المؤلفين، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض، ط2 1999م.
- 7- المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة قسم التاريخ بحث تخرج عام 2009م بعنوان: الشيخ الجيلالي الفارسي للطلاب جيلالي بن فرج حسين.
- 8- التعليم في اهتمامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931-1954) مذكرة ماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، بجامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة، 2018م.
- 9- مذكرة ماستر من جامعة التكوين المتواصل بالشلف حول الفكر السياسي للشيخ هني بن عدة الجيلالي المدعو البودالي 2008م، لطالين: بلقاسم حميد ونور الدين ملكاوي.

*** ملحق بأقوال الشيخين في الموضوع**

ملحق ببعض أقوال الشيخين: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ ابن باديس كأصل تبني عليه المنطلقات المعرفية لفقهِه المواطن عند الشيخ الجيلالي الفارسي وأتباع الجمعية مستلة من آثارها المطبوعة في الجزائر:

قال الشيخ البشير الإبراهيمي في وصف الاستعمار: (جاءت فرنسا الى الجزائر بالراهب الاستعماري لتفسد به على المسلمين دينهم وتفتنهم به عن عقائدهم وتشككهم بتبليته في توحيدهم. وجاءت بالمعلم الاستعماري ليفسد عن أبناء المسلمين عقولهم ويلقي الاضطراب

في أفكارهم، ويستنزطهم عن لغتهم وآدابهم ويشوه لهم تاريخهم ويقلل سلفهم في أعينهم ويزهدهم في دينهم ونبئهم..)

(أيها الإخوة الكرام: إن هذه الأمة الجزائرية أمة واحدة ولا كلام، ربحا الله وإمامها القرآن ونبئها محمد ولغتها العربية ودينها الإسلام...).

(إنّ جمعيتكم هذه أسست لغايتين شريفتين، هما في قلب كل عربي مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة وهما: إحياء الدين الإسلامي، وإحياء مجد اللغة العربية..).

(إنّ الإسلام في الجزائر ثابت ثبوت الرواسي، متين القواعد والأواسي، قد جلا الإصلاح حقائقه فكان منه كفيل مؤتمن، واستنارت بصائر المصلحين بنوره فكان له منهم حارس يقظ..).

(..و شاء الله أن يكون ظهورها في تلك الجزيرة الجامعة بين صحو الجو وصفو البدو.. وقد كانت هذه اللغة ترجمانا صادقا لكثير من الحضارات المتعاقبة..)

(لو لم تكن اللغة العربية لغة مدينة و عمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق، غنية بالمفردات والتراكيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند ولألزمتمكم الحاجة إلى العلوم تعليم تلك اللغات..).

(اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثمة فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية، ولهذا اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان كلّ منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتمعا حق من حيث أنها لغة دين الأمة، بحكم أنّ الأمة مسلمة، وحقّ من حيث أنها لغة جنسها بحكم أنّ الأمة عربية الجنس ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا).

(وجمعية العلماء التي تعدّ أشرف أعمالها تعليم العربية قد أقامت خمسة عشر عاما تطالب في غير ملل بحرية التعليم العربي الذي هو أساس التعليم الديني، وما زالت تصرع العوارض الخائلة وهي عوارض القرارات الإدارية والقوانين الموضوعة لخنق العربية وقتلها، وما زالت الجمعية تنكر تلك القرارات وتقول عنها في صراحة: إنها قرارات جائرة)

(مشكلة العروبة في الإسلام أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي، وهو عدو سافر للعرب عربيتهم ولغتهم ودينهم الإسلام، ووجود المشكلة منوط بوجوده، فإذا زال زال العنصر الأكبر منها والسبب الأعظم فيها..).

(إنّ الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة فهو-منذ احتل الجزائر- عمل على محو الإسلام الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام، قد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو، لولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأس القرن بالمقاومة لأعماله، والعمل على تخييب آماله).

(إنّ اللغة هي المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا أضاعت وجودها).

(لغة الأمة هي ترجمان أفكارها وخزانة أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية زيادة على ذلك القدر المشترك - أنها حافظة دينها ومصححة عقائدها ومدونة أحكامها وأنها صلة بينها وبين ربها تدعوه بها وتعترف وتبوء بها إليه فيما تقترف وتؤدي بها حقوقه.. وما تود أن لها بها لغات الدنيا وإن زحرت بالآداب وفاضت بالمعارف، وسهلت سبل الحياة وكشفت عن مكنونات العلم، فإن أخذت بشيء من تلك اللغات فذلك وسيلة إلى الكمال في أسباب الحياة الدنيا، أما الكمال الروحاني والتمام الإنساني، فإنها لا تنشده ولا تجده إلا في لغتها التي تكون منها تسلسلها الفكري العقلي ... وكانت في جميع الأوقات مستودع آداب الشرق وملتمقى قياداته الفكرية).

(في هذا الوطن الجزائري شعب عربي مسلم، ذو ميراث روحي عريق وهو الإسلام وآدابه وأخلاقه، وذو ميراث مادي شاده أسلافه لحفظ ذلك التراث وهو المساجد بھاكلها أوقافها وذو نظام قضائي مصلحي لحفظ تكوينه العائلي والاجتماعي وذو منظومة من الفضائل العربية الشرقية.. وذو لسان وسع وحي الله، وخاد حكمة الفطرة، وجرى بالشعر والفرن).

(إنّ الجزائر وطنكم الصغير، وإنّ إفريقيا الشمالية ووطنكم الكبير، وإنّ فلسطين قطعة من جزيرة العرب التي هي وطنكم الأكبر، وإنّ الرجل الصحيح الوطنية هو الذي لاتلهيه الأحداث عن القيام بواجبات وطنه الأصغر والأكبر..).

(الوطنية مكرمة، ولكن وطنية الإسلام أكرم، وميدانها أوسع وصاحبها أعز نفرا، وأقوى ناصرا، وأكثر عديدا).

(وأنا بصفتي عالما مسلما لا أقول بالعصبية الجنسية، وإنما أدعو إلى الوطنية واسعة، والعقيدة الروحية الجامعة، فإذا تمت ورسخت أصولها في النفوس فإنها لاتنافي التمسك بالجنسيات من غير تعصب).

وقال الشيخ الرئيس (إنما يُنسب للوطن أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي، ومصالح الحاضر، وآمال المستقبل، فالذين يعمرّون هذا القطر وتربطهم هذه الروابط هم الجزائريون).

(نُحضنتنا نُحضّة بنينا على الدين أركانها، فكانت سلاما على البشرية) (وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة).

(على الطلبة أمران: إقبال على العلم بصحبة إيمان بضرورته، وتحمل متاعبه وانقطاع إليه بصحة اعتقاد جازم بشرفه، وأنه نور الحياة وأساس الوطنية ورائد الحرية).

وقال الشيخ الرئيس: من مصدر ابن باديس حياته وآثاره دار مكتبة الشركة الجزائرية للطباعة والنشر 1968م للدكتور عمار طالبي:

(الحق فوق كلّ أحد والوطن فوق كلّ شيء) في شعار مجلة المنتقد.

وجعل ابن باديس للإنسان ثلاثة أوطان: صغير وكبير وأكبر (البيت والبلد والأمة والإنسانية) (لا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف وأحب الوطن الكبير ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف واحب الوطن الصغير).

(لا شرف لمن لم يحافظ على شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه).

المواطنة ومساءلة العقل في الخطاب الإصلاحية لدى قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

Citizenship and Mind-questioning in the Reformist Discourse
of the Association of Algerian Muslim Scholars Leaders

د. ياسين سرايحية

جامعة محمد الشريف مساعدية - سوق أهراس (الجزائر)

seraiaia_yassine@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2021/09/23

تاريخ الإرسال: 2021/09/09

ملخص:

تكونت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ظروف خاصة وكانت جمعية إرشادية تهيئية ولا علاقة لها بالمسائل السياسية، بل كان عملها تهيئيا محضا متمثلا في محاربة الآفات الاجتماعية وتهديب الناس وفق ما ينص عليه الشرع المستمد من القرآن والسنة. من هذا المنطلق تسعى هذه الورقة البحثية إلى تقصي فكر المواطنة لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والوعي الذي غرسته في أذهان مجتمع كان يعيش تحت وطأة التخلف والفقر والرجعية التي سببها له المستعمر وعملاؤه، وكيف استطاعت هذه الفئة التنويرية في ظرف خاص من الانتقال بالفكر العفوي إلى الفكر العقلي؟ وفكر لا يروم إلا التفكير في حيثيات يومه إلى فكر عميق؟ فكر انتقل من العفوية إلى التجريد ومن الاستسلام لواقعه المرزي إلى فكر يتأسس على الوعي والانتقاد الذاتي والاختلاف.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، المواطنة، الوعي، جمعية العلماء، الحرية.

Abstract:

The Algerian Muslim Oulemas Association was founded as a non political association in a very special time to combat all those social flaws, to bring up and to educate population in the light of Islam directives from the Holly Quran and the Suna. In the line of this perspective comes this paper to trace back the idea of citizenship among the association members and the awareness rooted in the mind of the population that experienced pauverty and old-fashioned thoughts that were caused by the colonizer and his agents. Moreover, this paper shows the extent of success in eradicating spontaneous thinking and rooting rational thinking in a very brief time, going beyond spontaneous thinking in daily life needs to deep rational thinking to construct self-criticism, awareness and diversity.

Keywords : Islam, freedom, citizenship, awareness

توطئة:

لو سلّمنا بالسؤال التالي لشعب من الشعوب ما هو سر الوعي المميز الذي تتسمون به؟ فيجيبك لا محالة أنّ ذلك لم يكن من محض الصدفة بل كان نتاج مجهودات أناس يعيشون في زمان ومكان محددين، ذلك أنّ الوعي لا يحقق الخلود في أيّ مجال من مجالات التنمية الإصلاحية إلا إذا وصل إلى مستوى العموم النظري.

وفق هذا المنحى بدأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعمل من أجل مقومات الشعب الجزائري لاسترجاعها بعدما عمل المستعمر على طمسها بكل ماله من إمكانيات على مدار قرن بالتمام. علما أنّ استرجاع صنيع رجال الجمعية سبقته بعض الأعمال السابقة عليه متحلية في تلك المقاومات السياسية التي قادها الأمير خالد الذي نفته الإدارة الفرنسية خارج الجزائر سنة 1917، ثم مجهودات حزب نجم شمال أفريقيا الذي حلّ في 1929 ثم حزب الشعب الجزائري.

تكونت جمعية العلماء المسلمين في الجزائر في هذه الظروف الخاصة وكانت جمعية إرشادية تهذيبية ولا علاقة لها بالسياسية، بل كان عملها تهذيبيا محضاً متمثلاً في محاربة الآفات الاجتماعية وتهذيب الناس وفق ما ينص عليه الشرع المستمد من القرآن والسنة.

ركزت الجمعية على بعث عناصر الهوية الوطنية (اللغة والدين والتاريخ)، وهذه العناصر هي القاسم المشترك بين جميع أطراف المجتمع، وكان هذا مبتغى الجمعية لأنّ أيّ خطاب مهما كان دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً لا يكتب له النجاح إلا إذا احتضنه المجتمع وما دون ذلك سيبقى خطاباً حالمًا.

لذا سعت الجمعية من أجل تنشيط أو اصر المجتمع إلى تقديم دروس الوعظ والإرشاد في المساجد وفي بعض النوادي، كما كانت تركز على تعليم الصغار للغتهم وتربيتهم تربية عقديّة إسلامية سليمة بعيدة عن براثن الطرق الطرقية والمرابطية التي عملت على إبعاد المجتمع عن أي حركة تنويرية، وأرست تقاليد الفكر المغلق العاجز عن التفكير، ويذكر مبارك المليلي أنّ جلّ أنشطة الجمعية في مجالات الكتابة والخطابة تتضمن محاربة الطرقية كجزء مهم من نشاطاتهم⁽¹⁾.

فما كانت تؤديه الجمعية هو إصلاح شامل غايته توعية الجزائريين، وهو إصلاح تربوي اجتماعي وطني ذو طابع سياسي يتم في المدارس الحرة والكتاتيب القرآنية، بمعنى أن الإصلاح والتعليم كانا غايتنا عبد الحميد بن باديس منذ سنة 1931 إلى سنة 1940 حين وفته المنية، حيث كان هدفه من هذا العمل وطنيا وسياسيا وهو هدف بعيد المدى⁽²⁾.

وكانت رسالة الجمعية تركز على ما أعلن عليه شيخها ابن باديس في قوله "أما اليوم فقد تأسست في الوطن كله جمعيات ومدارس ونواد باسم الشباب وشعارها التاريخي العربية لغتنا والإسلام ديننا والجزائر وطننا"⁽³⁾.

ولمقاربة أهم مرتكزات الوطنية والوعي بها وجب علينا أن نسائل بعض القضايا الدالة عليها في الخطاب الإصلاحي لدى جمعية العلماء المسلمين بغية تمكين المواطن الجزائري من بناء هويته وترسيخ مبدأ الشعور بالانتماء.

1- أنطولوجية المواطنة والوعي بها في خطاب جمعية العلماء المسلمين:

تأخذ المواطنة حيزا كبيرا في أعمال جمعية العلماء كون الحديث عنها بمفهومها الحدائثي شبه غائب ويتجلى في مفهوم الأخوة الذي يعزز هذا البعد الديني الذي يحث المسلم على ضرورة التعايش مع المسلمين وغيرهم من الملل الأخرى إلا المعتدين على الشعوب وعلى الإسلام، لذلك نجد أن ابن باديس يركز على هذه القيمة الإنسانية الضرورية لبناء وطن متحرر يقوده فكر متنور تراعى فيه الأخوة التي تسمو على كل اعتبار وتتسع لكل الجزائريين، فيقول: "أيها الإخوان هو مرادي بقولي: "إني أعيش للجزائر والآن -أيها الإخوان- قد فهمتموني وعرفتم سمو فكرة العيش للإسلام فهل تعيشون مثلي للإسلام؟ نعم! نعم! بصوت واحد"⁽⁴⁾.

ربط ابن باديس المواطنة بالانتماء إلى الإسلام الذي يحث على حب الوطن، فهو خطاب يراعي كل المتغيرات التي عرفتها الإنسانية، الخاصة قضايا العصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تستند إلى ثوابت الشرع ومقتضيات العقل.

وظف ابن باديس أسلوبا اعتمد فيه على الوظيفة الإفهامية "فهل تعيشون مثلي للإسلام وللجزائر"، فهذه الجملة تحتوي على قيمة تداولية الهدف منها هو التقرير

والاستفهام التقريري لا ينتظر منه المستفهم جوابا، وإنما غرضه تقرير ما ترسخ في ذهن المستمع من معارف ومعلومات، ويكون الجواب عن هذا السؤال غالبا بالإيجاب، وهذا ما يؤكد جواب الحاضرين بقولهم "نعم، نعم"، كما يؤكد أيضا مشاركتهم فحوى الخطاب مع الخطيب، فكان هدفه هو إثارة المتلقي وتوجيهه والتأثير فيه، فالفعل "التواصل هو فعل العمل الذي يتخذه هدفا له إثارة عمل ما"⁽⁵⁾.

كما تتحلى المواطنة كهدف في المشروع الإصلاحية لدى ابن باديس في القضاء على عناصر التفرقة وزرع الفتنة التي تؤدي إلى الضعف وزرع الضغينة، وبالتالي تشتت الوحدة يقول ابن باديس: "وقد كتب أبناء يعرب وأبناء أمازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون... فأبى قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم، ولا الظنون الكواذب والأمانى الخوادم. يا عجب! يفترقوا وهم الأقوياء فكيف يفترقون وغيرهم القوي؟..."⁽⁶⁾.

فالعروبة لدى ابن باديس امتزجت بكيانهم وأجسادهم ولا يستطيع أي مباحك أن يفصل العروبة عن الجزائريين، وقد أعلن سنة 1938 أن رسالة جمعية العلماء المسلمين تركز على ثلاثة عناصر أساسية وهي الإسلام والعروبة والجزائر⁽⁷⁾.

ويرى أن الخطوة الأولى في سبيل تحرير الجزائر من الاستعمار تبدأ من تحقيق الوحدة الوطنية والقومية، لذلك عمل على إيجاد هذه الوحدة وكانت جملة أهدافه لتحقيقها تربية وإصلاحية لذلك ربط بين العروبة والدين كمرتكز أساسي لتحقيق هذا الهدف⁽⁸⁾.

أما المحاولات التي أراد أصحابها تفريق الجزائريين فقد تصدّى لها ابن باديس من خلال برامج الجمعية التعليمية التي تأسست على دعائم العقيدة الإسلامية السمحة والامتنال للشعار الذي رفعه من البداية والمتمثل في: "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، والجزائر وطننا" و"ما جمعه يد الله لا تفرقه يد الشيطان" هي إشارة لكل أولئك الذين أرادوا تكريس التفرقة التي أرادها الاستعمار وأذياله.

كما يقدم ابن باديس مفهوما للمواطنة يرى أنها مرتبطة بواجباته من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية والمحافظة على شرف اسمه وسمعة بنيه، فلا شرف لمن لا يحافظ على وطنه.

إنّ تركيزه على الوحدة الوطنية لم يكن بالانتماء إلى العرق العروبي فحسب بل كانت متجسدة في نبذ التفرقة والاختلاف في المسائل الدينية المرتبطة بالأصول لا بالفروع التي هي واقع فيه لا محالة، وكلها كانت امتدادا لتكريس الوحدة الوطنية⁽⁹⁾.

وما يستنتج من خطابات ابن باديس أنّها تحمل إنسانية المواطنة وتمثل في التركيز على الوحدة من الخارج التي تؤطر الاختلاف من الداخل، ففي استقرائنا لبعض نماذجها نجد أنه يركز كثيرا على الدعوة إلى الإصلاح والتسامح والحب لكلّ الإنسانية، وما تركيزه على الوحدة الوطنية العربية والإسلامية بكلّ أطيافها ولغاتها وألوانها وأجناسها وعقائدها إلا دليل على عدم التفريط أو التنازل على حق من حقوق الوطنية كالحرية والتحرر المستمدة من العقيدة الإسلامية السمحة، ذلك "أنّ الإسلام يسوّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان"⁽¹⁰⁾. كما أن الإسلام يدعو "إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين وبين الإنسانية والبشر جميعا"⁽¹¹⁾.

فالإسلام دين عدل بين جميع الخلق، ويفرض العدل فرضا تاما ويحقق مبدأ التساوي بين الناس، وضرورة الالتزام بالحقوق والواجبات، يعني أن ابن باديس يهدف إلى تأسيس دولة وطنية منطلقها الأساس هو الاختلاف في إطار الوحدة الدينية.

كما يرى أنّ غرس الوطنية والبرهنة على الانتماء للوطن والسمو بمقامه وهمته لا تكون بشعارات جوفاء أو مجرد جمعجة لا ترى لها طحينها، بل يؤكد أنّ الوطنية هي برهان وانضباط، ويؤكد هذا الخطاب الذي توجه فيه لأهالي قسنطينة "أيها القسنطيون... برهنوا على وطنيتكم، برهنوا على ديانتكم، برهنوا على حياتكم، برهنوا على محبتكم للعلوم والآداب، برهنوا على محبتكم للرقى والمدنية، برهنوا هذه كلية بإقبالكم العظيم على الاحتفال العظيم الذي ستقيمته الكلية الجزائرية"⁽¹²⁾.

تبرز هنا سلطة المتكلم وقصديته وهي التأثير في المتلقي بواسطة الإمكانيات اللغوية المتاحة التي نلمسها بواسطة أداة النداء، والتكرار المتمثل في فعل الأمر الذي تكرر ستة مرات لخلق دافعية يستنهض بها الهمم بغية تحقيق مشاركة فعالة لأفكاره من المتلقي، ذلك أنّ الخطاب الإصلاحي هو فعل تواصلية ونشاط اجتماعي غايته الربط بين أفراد المجتمع في تحقيق مصائرهم المشتركة.

وبالتالي فإنّ فعل المواطنة في خطاب جمعية العلماء المسلمين كان شاملا لكلّ البلدان العربية وخاصة تلك التي تعاني صراعا تاريخيا مثلما هو حال فلسطين، إذ يقول: "باسم الأمة الإسلامية أرفع احتجاجي الشديد ضدّ مشروع تقسيم فلسطين ذلك القطر العربي الذي ضمنت له العهود والمواثيق الدولية حفظ كيانه واستقلاله ... لي الأمل في تخل الحكومة الفرنسية لمنع هذا التقسيم"⁽¹³⁾.

يؤمن الإمام بالمشروع الأوسع للوطنية الذي يتجاوز به حدود الوطن الجزائري إلى الأمة العربية برمتها ليعلن إيمانه القوي بالقومية العربية، ويذكر عثمان سعدي أنّ ابن باديس يصف محمد رسول الله أنه "رجل القومية العربية إلى جانب كونه رسولا للناس جمعا"⁽¹⁴⁾.

ولو أنّ الدين الإسلامي جاء ليوحد شملهم فهو يرى أنّ قضية فلسطين تبقى وظيفة كل مسلم غير على دينه، بل هي القضية الجوهرية التي يلتزم النضال حولها، والقومية عنده هنا ليست شوفية كما هي عند الغرب أو عنصرية بل مرتبطة بالتراث الإسلامي ومشوية بالتراث الذي يقرّ الحق ويمقت الباطل ويجعل الكلّ على حدّ سواء حقا وواجبا، لذلك نرى أنّ هدفه السياسي لم يكن محليا أو إقليميا فقط بل كان كونيا، وهي سمة الفكر الحر المنثور.

ومنه نخلص أنّ أساس المواطنة عند ابن باديس مبني على مقومات الأمة: اللغة والدين والوطن. وهو الشعار الذي نافح عليه البشير الإبراهيمي أيضا إضافة إلى قضايا أخرى مشتركة بينهما كالقضية الفلسطينية، ويؤكد بإلحاح على ارتباط الجزائريين بها فينادي "يا فلسطين، إنّ في قلب كلّ مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محتك عبارات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقك كلمة مترددة هي: فلسطين قطعة وطني العربي الصغير، وفي عنق كل مسلم جزائري لك - يا فلسطين حق واجب الأداء ومتأكد الرعاية"⁽¹⁵⁾.

فالمسألة الفلسطينية ليست مسألة المبكى أو البراق بل هي مسألة استعمار واغتصاب لبلد بريء، ومن يشعر بهذا هو من عانى استعمارا مشابها له ولبلاده، لذلك كان تنديد الإبراهيمي في أكثر من موقف ومحطة، ومقته للاستعمار الفرنسي في الجزائر والكشف عن الرغبة في تصفية كلّ يؤر الاستعمار في العالم. وهذا في الأصل هو واجب كلّ عربي مسلم

غيور على بلاده ولغته ودينه. لذلك نجد أنّ الإبراهيمي كتب ما يربو عن خمس عشرة مقالة عالج فيها موضوعات مشتركة حول مسألة الوعي بأهمية الانتماء للوطن وغرس روح الوطنية كتيمة أساسية في خطابه لا كمادة فقط⁽¹⁶⁾.

2- المواطنة في خطاب الجمعية وسؤال العقل والتنوير:

سعى رواد الخطاب الإصلاحي في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى تبني العقل والتنوير كقيمة قارة ومعرفية في خطاباتهم، وتعاملوا معهما كقيمة جوهرية وكهدف أسمى لتحقيق قضاياهم.

فإذا كان التنوير في أوروبا ارتبط بالعقل والحرية وهما ركيزتان أساسيتان لتحقيق النهضة فيبدو أنّ الحركة الإصلاحية في الجزائر هي الأخرى واكبت وانطلقت من ذات المنطلق الذي انطلقت منه أوروبا في عصر الأنوار رغم تباين الأهداف، خاصة فيما يخص النظر إلى مفاهيم الميتافيزيقيا، فكان للعقل حضورا باذخا في خطابات ابن باديس والبشير الإبراهيمي وغيرهما، وتطرقا إلى مساءلة العقل لتبرير أهمية التوعية والإرشاد وإخراج الفكر الإنساني من التحجر والتجهيل الذي مارسته فرنسا المستعمرة وبإيعاز من الفرق الدينية الضالة كما سلف الذكر على المجتمع الجزائري، ومن ناحية أخرى فقد فقه رواد الإصلاح أنّ العقل هو الوحيد القادر على تمثل الخطاب الديني الإسلامي ويومئ إليه من حاجة الفرد لوطن يؤطره ويرعاه كإطار وكفكرة محمولة في الأذهان، ووعوا أيضا أنّ العقل التنويري ملازم للوطنية كمشروع وللغة كعنصر هام يوحد الصفوف.

ويرى الإبراهيمي أنّ الإصلاح الحقيقي والشامل لا يهتم إلا بالعقل وما فوق العقل والعقل هو أساس وحدة الأمة، وعنصر رئيسي من العناصر التي تحقق به الأمة وحدتها ذلك أنّ "الكمال في المجموع متوقف على الكمال في الأفراد، وأنّ النقص في المجموع مترتب على النقص في الأفراد فمتى أخذ الأفراد بأسباب الكمال وسلكوا له وسائل كمل المجموع"⁽¹⁷⁾.

ويعتقد البشير الإبراهيمي أنّ سبب تخلف المسلمين يعود أساسا إلى تعطيل العقل فالقرآن في صورة المصحف بمعزل عن الإنسان لا شأن له، فهو مجرد ختم من الخواتيم أو أثر من الآثار تنتظر الحفر والإظهار، هو كتاب مغلق يفتح بالعقل هو "كتاب الدعوة، ولا

تكشف عن حقائقه العليا إلا تصاريف الدهر، والقرآن كتاب الهداية الإلهية العامة، فلا يفهمه إلا المستعدون لها، والقرآن لا يبلى جديده ولا تنقضي عجائبه⁽¹⁸⁾.

فالإبراهيمي يدعو إلى ضرورة تشغيل العقل كضرورة قصوى يتجاوز بها الإنسان قصوره وتخلفه وقابليته للاستعمار وللسيطرة، فالعقل هو أساس التحرر وهو الوحيد الذي سيقود لا محالة إلى تحقيق وغرس وتمثل مفاهيم الوطنية وبناء وعي جاد ذلك أنّ العقل لدى الإبراهيمي مرتبط بالعمل ومساءلة الذات والآخر، ولذلك يطرح الإبراهيمي إشكالية رئيسية لتشغيل العقل وهي مساءلة الواقع وعدم الانقياد وراء الفكر الشمولي المغلق دوغمائيا، لكون العقل المتنور هو الوحيد المحرر من طغمة الجهل ويكشف عن الرذائل والدسائس.

كما يدعو صراحة إلى ضرورة تحديث الماضي بتفكيكه ومساءلته للكشف عن إيجابياته ومآخذه ونقرأ للإبراهيمي في هذا السياق: "ومع طول الزمن رانت الغفلة، وقست القلوب وطغت فتنة التقليد، وتقديس الأئمة والمشايخ، والعصبية للأبناء والأجداد وغلت طوائف منهم في التعبد، فجمحت ناجمة التصوف والاستغراق، فاختلت الموازنة التي أقامها القرآن في الجسم والروح، وغلت الحظائر الغيبية، فتشعبت به السبل إلى الحق في معرفة الله وتوحيده"⁽¹⁹⁾.

يدعو الإبراهيمي إلى إمعان العقل وتحريره وفق ما ينص عليه الدين الإسلامي، لأننا أمة مختلفة عن الغرب، فإذا كان الفكر الحر الذي ولد في الغرب انبنى على مبدأ التمرد على الله فعند المسلمين يظلّ الفكر الحر هو أساس الشرع ولا نفقهه ولا نتمثله إلا بالعودة إلى التعاليم الدينية السمحة التي تتجاوز الانغلاق والتحجر والسلطة الماضية. فدعوة الإبراهيمي صريحة وهي تؤمن بأنّ الدين الإسلامي جاء لإحياء العقول دون مغالاة أو تطرف.

نستنتج مما سلف أن خطاب الجمعية الإصلاحية المتحلي في خطاب الإبراهيمي لا يركز على الانغلاق على الذات والانفصال على روح العصر، بل يدعو إلى الاستفادة منه، لما يحمله من كسب حضاري لتنمية حركة التغيير في المجتمع الجزائري، ودفعه نحو تجاوز إخفاقاته، ليحقق مشروعه المتمثل في الوعي بالمواطنة والانتماء للوطن، لذا نقول إنّ الشيخ الإبراهيمي ينتمي إلى فكر التنوير والتثوير والتجديد في الخطاب الإسلامي الذي ينادي بالالتزام بأصول الإسلام وأحكامه وقبول مبدأ الحوار بين الأنا/الإسلام، والآخر/الغرب

والاستفادة من معارف وعلوم الآخر مقتنعا في ذلك من أنّ الحضارة ملك مشاع بين جميع البشر فالمدنية التي تردد لفظها الألسن ويصطلح المؤرخون نسبتها إلى أمم مختلفة، ويميز بينها بطوابع خاصة ويشتد المتعصبون في احتكارها لأمة دون أمة... هي في الحقيقة تراث إنساني تسلمه أمة لأمة⁽²⁰⁾.

فالإبراهيمي يدعو إلى ضرورة الأخذ من الحضارة الغربية ما يخدمنا ليتمكن العالم الإسلامي من تجاوز ضعفه وأزماته والنهوض من كبوته المستلبة، مع التأكيد على تجاوز مظاهر الإيديولوجية الغربية التي تتنافى مع المرجعية الإسلامية السمحة⁽²¹⁾.

كما تتجلى أهمية المواطنة في الخطاب الإصلاحية لدى جمعية العلماء المسلمين في خطابات باعث النهضة الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي حارب الجهل وكلّ مظاهر التخلف الاجتماعي والركود إلى الشعارات الجوفاء الجامدة، وغياب الوعي والاكتفاء بالنقل والانزواء بالذات فيرى أن "الجاهل به ولو كان من أعلم الناس بغيره، وما علمه بما علم يرفع جهله فيما جهل، إن هذه الحقيقة من الواضح بمكان، يحتاج إلى تكرار ذكرها بقدر ما يتكرر من وقوع مخالفته، إن الناس قسمان: الجاهلون بكل علم، والعالمون وليس منهم من يعلم كل علم. ومن العجيب أن أهل الجهل أعرف بجهلهم فلا يتكلمون فيم لا يعلمون، وأما أهل العلم فكثير ما يتجاوزون حدود علمهم فيتكلمون بما لا يعلمون..."⁽²²⁾.

تأسس الفعل الإصلاحية لدى ابن باديس على النزعة العلمية التنويرية السليمة الصحيحة، المستمدة من الكتاب والسنة النبوية التي استوحى منها الإمام منهجه، فكان ابن باديس يهدف بخطابه الإصلاحية نشر العلم النافع الذي يخاطب الفطرة الإنسانية السليمة، ولا يتحقق ذلك إلا بالتناغم بين الإنسان كجزء وباقي أجزاء الكون الذي ينتمي إليه وهي الرابطة التي تحقق سعادته في الدنيا والآخرة.

كما سعى ابن باديس إلى محاربة كل أشكال الجهل الذي تمكن من المجتمع الجزائري والذي ساعدت على نشره فئتين ضاليتين وهما: فئة الجهلة وفئة المتعلمين، لذلك حاول صاحب الآثار أن يحذر من شر هاتين الفئتين، ودفعت هذه الأوضاع السائدة وغيرها ابن باديس إلى وضع خطة استراتيجية خطايبية أساسها تنوير العقول رغبة في تغيير سلوكيات

الأفراد وتصحيح المفاهيم السائدة وإعادة تشكيل ذهنيات تتجاوب مع المتطلبات العلمية السليمة الدين الإسلامي.

وتتحلى الدعوة في ذلك في تفسير ابن باديس انطلقا من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُحَّانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف 118].

فيقول هو "كان يدعو إلى الله على بينة (يقصد رسول الله) وحجة، ويصل بها إلى الإدراك التام للعقل حتى يصير الأمر المدرك واضحا لديه كموضوع الأمر المشاهد بالبصر وهو على بينة ويقين من كل ما يقول ويفعل، وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة إلى الله في حياته كلها وفي جميع أحواله وكانت دعوته المبينة على الحجة والبرهان مشتملة على الحق والبرهان، فكان يستشهد بالعقل ويعتضد بالعلم ويستنصر بالوجدان، ويحتج بأيام الله في الأمم الخالية"⁽²³⁾. وخلق الله محمد وجعله قدوتهم وفرض عليهم اتباعه والاستئناس به فلا وصول إلى تحقيق السعادة في الدارين إلا باقتفاء آثاره والسير في سبيله⁽²⁴⁾.

إن مشروع المواطنة كظاهرة أنطولوجية في الخطاب الإصلاحية لدى ابن باديس يتأسس على مبدأ الاختلاف واستبطان العمق لقراءة التراث، ومن هنا تطرح إشكالية القراءة الواعية التي تتأسس على مبدأ المقاربة واختلاف زوايا تناول للقضية الواحدة⁽²⁵⁾ وبالتالي كما رأينا عند الإبراهيمي فإنها تتحرر من العقل الأبوي الذي يحكم السياسة والمرجعية إلى فئة واحدة ضالة (الطرقية، والمرابطة) قراءة تفرض نمطا متكونا من المواطن - القارئ الممنوع من حرية الاختيار بين أكثر من رأي واحد.

وكما يذكر زعماء الإصلاح وحب علينا أن نتجاوز بإمعان عقولنا في وقائع الحقيقة المسطرة قبلنا من طرف زعامات ثقافية تدعي احتكار الحقيقة فرديا وبناء فكر مواطني لديه القدرة على مساءلة الحقيقة بما تقتضيه مرجعية قوامها السن والشرع.

3- مرتكزات حركة المواطنة في فكر جمعية العلماء المسلمين

3-1- الشمولية: كانت فكرة الجمعية شاملة لكل مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، فكانت تدعو إلى فهم شامل للإسلام عبادة وأخلاقا ودينا ودولة وفق

مشروع بناء مجتمع متكامل يحقق له روح الشعور بالانتماء إلى الوطن الذي يربطه. فالشمول هنا هو شمول الإنسان الذي هو مدار الفكرة والمعول عليها في إنجازها⁽²⁶⁾.

3-2- الكونية: تتجلى فكرة الكونية في فكر المواطنة لدى جمعية العلماء المسلمين في خطاب البشير الإبراهيمي ذو النزعة العالمية وفهمه للإسلام وللأخوة فيه، فالأمة الجزائرية عنده قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلة من المجموعة العربية من جهة اللغة... فالأمة الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان تكوّن وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله أن تتفرق مهما كانت دعاوى التفريق.

3-3- الإنسان أساس التغيير: يقتضي التغيير أن يكون في النفوس، فالفرد لا يغير مجتمعه إلا بتغيير نفسه، وإذا ما عدنا إلى الفكر الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين نجد أنه يتأسس على البعد الإنساني المستمد من العقيدة الإسلامية فلا نلمح إلا سمات الحب والتسامح للإنسانية على اختلاف ألوانها وأجناسها وعقائدها ويجب أن يكون حبّ الوطن دليل الإنسانية. وتجلّى هذا في المقولة المشهورة: "نحب من يحب وطننا ونبغض من يبغضه ويظلمه".

3-4- المواطنة: ركز ابن باديس على روح الانتماء للوطن: "أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص وتفرض علي تلك الروابط لأجله - كجزء منه - فروضا خاصة وأنا أشعر بأنّ كلّ مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أو ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة"⁽²⁷⁾.

بهذه المرتكزات تمكن رواد الإصلاح من غرس أفكار سامية في نفوس الطلاب، مبنية على روح التعاون والإخاء وخدمة الوطن بوعي وعقل متنور وفكر متطلع، بعيدا عن الحقد والكراهية والتعصب والأحادية.

خلاصة:

نخلص من هذه الورقة البحثية المتواضعة حول مشروع المواطنة ومسوغاته في فكر جمعية العلماء المسلمين إلى:

- 1- ما قامت به الحركة الإصلاحية في الجزائر جاءت لرحمة الإنسان من عالم الأشياء إلى عالم الأفكار، فالعقل الناضج والفكر الواعي والقلب المستنير هي المعادلة التي دأب ابن باديس على إيجاد تناسقها واتساقها وانسجامها حتى يكون له فكر تنويري وطني تغييرى شامل للبناء الحضارى.
- 2- يتأسس مشروع المواطنة كظاهرة أنطولوجية في الخطاب الإصلاحي لدى ابن باديس على مبدأ الاختلاف واستبطان العمق لقراءة التراث بوعى حدثى.
- 3- تركيز زعماء الإصلاح على تجاوز وقائع الحقيقة المسطرة قبليا من طرف زعامات ثقافية تدعى احتكار الحقيقة فرديا وبناء فكر مواطنى لديه القدرة على مساءلة الحقيقة ولا يتم ذلك إلا بإمعان العقل.

الهوامش والإحالات

- (1) - مبارك بن محمد المليي: رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط3، 1982، ص284.
- (2) - محمد العيد تاورته: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (رد فعل وأسلوب في المقاومة)، أشغال الملتقى الوطنى للفكر الإصلاحي، دار الهدى، (عين مليلة)، الجزائر 2003، ص77-81.
- (3) - ابن باديس حياته وآثاره: إعداد وتصنيف عمار طالبي، دار اليقظة، دمشق، 1968، ج3، ص571.
- (4) - الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، الجزء2، المجلد 3، إعداد وتصنيف عمار طالبي، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص215.
- (5) - فرانسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، سوريا، دط، ص75.
- (6) - ابن باديس : مج 3، ص 214 - 215.
- (7) - عثمان سعدي: جمعية العلماء المسلمين وعروبة الجزائر، أشغال ملتقى الفكر الإصلاحي في الجزائر دار الهدى، (عين مليلة)، الجزائر 2003، ص92.
- (8) - رايح تركي: عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط3، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص270.

- (9) - لاستزادة انظر عمار بن مزوز، عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ومنهجه في الدعوة والإصلاح، دار الأمل للنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2010، ص 109-110.
- (10) - أصول الدعوة الإسلامية: عبد الحميد بن باديس، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1993، ص 16.
- (11) - المرجع نفسه، ص 15.
- (12) - عبد الحميد بن باديس، الجزء 02، المجلد 03، ص 52.
- (13) - عبد الحميد بن باديس، مج 1، ص 93.
- (14) - عثمان سعدي: جمعية العلماء المسلمين وعروبة الجزائر، الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، ص 93.
- (15) - محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص 483.
- (16) - محمد بن قاسم ناصر بوحجام: دراسات عن الأدب الجزائري الحديث، نشر جمعية التراث، القرارة الجزائر، 2011، ص 8-9.
- (17) - تقرير البشير الإبراهيمي: مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، دار المعرفة، ط 1، الجزائر، 2008، ص 90.
- (18) - آثار الإمام البشير الإبراهيمي: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997، ج 4، ص 226.
- (19) - المرجع نفسه، ص 227.
- (20) - آثار البشير الإبراهيمي: ج 1، ص 258.
- (21) - محمد زومان: المضمون الإصلاحي في أدب الإبراهيمي، أدب الحركة الإصلاحية، مفاهيم وقضايا دورة علال الفاسي، أعمال الملتقى الدولي الرابع للأدب الإسلامي، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبدالله، فاس، المغرب، مارس، 2004، ص 287-288.
- (22) - عبد الحميد بن باديس: الجزء 2، مج 3، ص 9-11.
- (23) - عمار بن مزوز: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 87. وانظر إحالته: بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط 1، قسنطينة، دار البعث، 1982، ص 60.
- (24) - عبد الحميد بن باديس: الجزء 1، مج 1، 2013، ص 169.
- (25) - محمد الحداد: حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2002، ص 10.
- (26) - بومعالي نذير: نقاط تقاطع في فكر مالك بن نبي وفكر بعض مدارس الإصلاح في العالم الإسلامي، دراسات إسلامية، دورية فصلية تعنى بالدراسات في مختلف العلوم الإسلامية، ع 6 سبتمبر 2009، ص 113.
- (27) - رابع تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة موقف للنشر، الجزائر، 2013، ص 96-97.

تجليات أفعال الهوية في فكر أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "شعار الجمعية أنموذجاً"

Representations of Identity- acts in the Thought of the Members
of the Algerian Muslim Scholars Association
"Association's Logo as a Case"

د. عبد المجيد قديح

جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريش (الجزائر)

abdelmadjid.kedideh@univ-bba.dz

تاريخ القبول: 2021/09/28

تاريخ الإرسال: 2021/08/31

ملخص:

نسعى في هذا المقال إلى إبراز دور الجمعية التوعوي في بناء الفكر الجمعي المقاوم لسياسة المحتل؛ من خلال تحليل مكونات شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا" وبيان رمزيته وبعده التحرري عند الشعب الجزائري.

إنّ الشعار الذي تبنته الجمعية كان مدروسا بشكل دقيق تضمن ثلاث قيم أساسية -الدين واللسان والوطن- عملت الجمعية على ترسيخها بالأفعال والأقوال؛ فأحيت بها النفوس الخاملة والعقول الجامدة؛ فكان لها الدور الكبير في المحافظة على مقومات هوية الشعب الجزائري، وحماية مكوّنه الاجتماعي بمختلف أطيافه وفئاته من خرافات الاحتلال المضلّة والبدع المدلّسة؛ ما أكسب المجتمع مناعة روحية ومعنوية دفعته إلى التحرك والنهوض؛ وجنّبه السكون والخنوع والاستسلام للأمر الواقع، والذوبان في مستنقع المستعمر الغاشم؛ فحقّق الشعب الاستقلال ونال الحرية، وتحرّرت أرض الجزائر، وتحرّر معها الإنسان الثائر بعد عقود من الزمن.

الكلمات المفتاحية: أفعال الهوية، شعار الجمعية، النهضة الفكرية، بناء الوعي، المواطنة.

Abstract:

In this article, we seek to highlight the association's awareness-raising role in building collective thinking resistant to the occupier's policy from analyzing the components of the motto of the Association of Algerian Muslim Scholars, "Islam is our religion, Arabic is our language and Algeria is our homeland," and to show its symbolism and its libertarian dimension to the Algerian people.

The motto adopted by the association was carefully considered and included three fundamental values - religion, tongue, and homeland- which the Assembly consolidated with deeds and words; which awakened rigid souls and inanimate minds; It played a major role in preserving the identity of the Algerian people; protecting its social component from misguided myths of occupation and its heresies; This gave society spiritual and moral immunity to move and rise; Prevented it from silencing, subjugating, succumbing to the harsh reality and prevented it from dissolving in the wanton colonizer's swamp; so people achieved independence and freedom; And the land of Algeria was liberated and the rebel man was freed after decades.

Keywords: Acts of identity, The motto of the association, intellectual renaissance, building awareness, Citizenship.

مقدمة:

كانت مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830 - 1962م) مرحلة تعيسة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى؛ عاش فيها الشعب الجزائري أوضاعاً تعليمية وفكرية واجتماعية وأمنية واقتصادية ... مزريّة، ضاعت معها الحقوق والحريّات وكرامة الإنسان الجزائري طيلة هذه الفترة، هذه الأوضاع الصّعبة والخطيرة أسّست إلى ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 05 ماي 1931م - بعد قرن من الاحتلال الفرنسي - التي أخذت على عاتقها توعية الشعب الجزائري والحفاظ على هويّة الأمة وعقديتها، والدّفاع عن الشّخصية الجزائرية في وجه الخطط التغريبية للمحتل، والتصديّ للخُرافات والبدع والأُمّية التي نشرها بين مختلف فئات الشعب، فشوّهت معتقداته الدّينية السمحة، وزعزعت ثقافته العربية العريقة، وقيّمه الحضارية والإسلامية العتيقة.

أولاً/ نبذة عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

في عشرينيات القرن 20م، تزعم الشيخ الإمام "عبد الحميد بن باديس" التيار الوطني الإصلاحية بمعية ثلثة من أصحابه العلماء والمشايخ، استغلّوا فيها المساجد كمراكز وعظ وإرشاد، ودعوة إلى النضال والكفاح في سبيل الإسلام والحرية واستقلال الوطن.

ثم استغلّ الإمام قلمه الرصين بإصدار مجلة "الشهاب" سنة 1343هـ/1924م، التي كان مبدؤها الإصلاح الديني والدنيوي معاً، وتبحث في كلّ ما يهتمّ بالإنسان الجزائري المسلم ورفيقه؛ وما يرفع من وعيه الفكري، حيث اعتمدت المجلة الأساليب الإصلاحية من خلال تصحيح عقائد الناس وأعمالهم، والاهتمام بالتعليم؛ كما اهتمت بقضايا الأمة الإسلامية⁽¹⁾ ثم بعد ذلك قاد الإمام "ابن باديس" جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في يوم الثلاثاء 17 ذي الحجة 1349هـ، الموافق لـ 5 ماي 1931م، بنادي الترقّي بالجزائر العاصمة على يد مجموعة من الأساتذة، وهم: عبد الحميد بن باديس، محمد البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي، محمد الأمين العمودي، مبارك المليي، إبراهيم بيوض، المولود الحافظي، ومولاي بن الشريف، والطيب المهاجي، والسعيد اليجري، وحسن الطرابلسي وعبد القادر القاسمي، ومحمد الفضيل الورثاني⁽²⁾.

انتُخبت الهيئة الإدارية للجمعية في اليوم التالي للتأسيس، فُعّين كلّ من:

- عبد الحميد بن باديس: رئيساً للجمعية؛
- محمد البشير الإبراهيمي: نائباً له؛
- الأمين العمودي: كاتباً عاماً؛
- الطيب العقبي: مساعداً له؛
- مبارك المليي: أميناً مالياً؛
- إبراهيم بيوض: مساعداً له.

وقد تعاقب على رئاسة الجمعية بعد وفاة العلامة الإمام "عبد الحميد بن باديس"

- رحمه الله - كلّ من:

- الشيخ الأمام محمد البشير الإبراهيمي - رحمه الله -؛

- ثمّ من بعده الشيخ أحمد حمّاني-رحمه الله-؛
- ثمّ من بعده الشيخ عبد الرّحمان شيبان-رحمه الله-؛
- ثمّ من بعده الشّيخ علي مغربي-رحمه الله-؛
- وحالياً الأستاذ عبد الرزاق قسوم⁽³⁾.

ثانيا/ تجلّيات أفعال الهويّة في مبادئ أفكار الجمعية:

تتلخّص المبادئ التي ناضلت من أجلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في شعارها الموسوم بـ "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا"؛ المتضمّن المقوّمات الأساسية للشخصيّة الجزائرية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، حيث ناضلت جمعيّة العلماء -بكلّ ما تملك- نضالاً مستميتاً، ضدّ كلّ ما يمسّ بمقوّمات الشخصية الجزائرية؛ سواء من قريب أم من بعيد؛ وقد أخذت على عاتقها محاربة الأمور الخطيرة التي من شأنها التأثير على بناء الشخصية الجزائرية السويّة؛ ومن هذه الأمور:

- محاربة التنصير؛
- محاربة اللغة الفرنسية؛
- محاربة التجنيس؛
- محاربة الاندماج؛
- محاربة زواج الجزائريين بالأوروبيات.

وانطلاقاً من شعار الجمعية سالف الذكر المتضمّن روح الهويّة والمواطنة؛ نستلهم منه الأهداف الظاهرة والمضمرة؛ التي قامت عليها الجمعية؛ والتي تهدف إلى تحقيقها عبر مراحل قريبة ومتباعدة؛ وقد نشر هذه الأهداف الشّيخ عبد الحميد بن باديس (رحمه الله) في جريدة البصائر في العدد 160 الصادر في 07 أفريل 1939؛ وهي⁽⁴⁾:

- ✓ التربية والتّعليم؛
- ✓ تطهير الإسلام من البدع والخرافات؛
- ✓ إيقاد شعلة حماسة المقاومة في قلوب الجزائريين؛
- ✓ إحياء الثقافة العربية ونشرها بعد أن عمل المستعمر على وأدها؛

- ✓ المحافظة على الشخصية الجزائرية بمقوماتها الحضارية والدينية والتاريخية؛
- ✓ مقاومة سياسة الاحتلال الرامية إلى القضاء عليها.

ولتحقيق تلك الأهداف، أسست الجمعية فروعاً لها على المستوى الوطني، ركزت جهودها (عبر هذه الفروع) على نشر اللغة العربية على نطاق واسع من الشعب الجزائري وإحياء الثقافة العربية الإسلامية في حياتهم، وبعث التاريخ العربي الإسلامي في نفوسهم.

كما سعت الجمعية إلى ترسيخ الغيرة الوطنية وحبّ الوطن لدى عامة الجزائريين في وجه سياسة الاحتلال العدائية، حيث اجتهدت في إعداد النّخبة -رجالاً ونساءً- ليكونوا عماد النهضة القوميّة في الجزائر، فقامت في سبيل ذلك بإصلاح مناهج التعليم وطرائق التدريس، وإصلاح الكتب التعليميّة.

والمتمعنّ في أفعال وأفكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ يستنبط بأنّ "علماءها قد وقفوا في صالح كيان جزائري ينفصل في النهاية عن فرنسا، ودعوا إلى القوميّة العربية الإسلامية، وعارضوا بشدة تجنيس ودمج الجزائر في فرنسا وكان شعارهم: (الجزائر بلادنا والإسلام ديننا والعربية لغتنا)"⁽⁵⁾.

وقد استطاعت أفكار جمعية العلماء -أفكارها قبل أفعالها- من التغلغل في نفوس مختلف فئات الشعب الجزائري وذلك لملاءمتها لروح عقيدته وموافقته لتكوينه القومي الأصيل؛ يقول شارل روبير أجرون: "وما من شكّ فإنّ العلماء في مناخ المعارضة القويّ من أعوام 1933م حتى حزيران 1936م، قد وطّدوا نفوذهم ووجّهوا الرأي العام الإسلامي لصالحهم"⁽⁶⁾، وكأنّ علماء الجمعية واثقون تماماً "بما كان يدبّره الاستعمار من مخططات تدميرية لكلّ البنى في الوطن الجزائري؛ من دين ولغة وحضارة وتاريخ وعادات وتقاليد وثقافة وغيرها من مكونات الشخصية الجزائرية"⁽⁷⁾؛ حيث أنّه "لم تكف فرنسا بما تركته من خراب ودمار من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، بل سعت إلى تفتيت البنية الاجتماعية للشعب الجزائري؛ التي كانت تتميز بالتلاحم وشدة الترابط بعد أن جمعها الإسلام في حلقات قويّة التماسك، وكان الهدف من تفكيك وحدة الشعب، والتفريق بين العرب والبربر هو إضعاف روح المقاومة لدى أفرادها وقتل كلّ المحاولات للثورة ضده"⁽⁸⁾.

كما انتشرت أفكار جمعية العلماء المسلمين بشكل كبير ولافت؛ وذلك "لما بذلته من جهود من أجل المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية، والتمسك بالهوية التي حارها الاستعمار بأساليبه المختلفة بدعوى التحضر والمدنية التي جاء ينشرها في ربوع شمال إفريقيا"⁽⁹⁾.

وفي هذا الإطار يقول الأستاذ (محمد زمران) في حق هذه الحركة المباركة "لقد اشتد الصراع بينها وبين الاستعمار الفرنسي الذي كان يهدف إلى مسخ الشخصية الجزائرية وطمس معالمها؛ لكنّها وقفت حجر عثرة في طريقه طوال سنوات الاحتلال"⁽¹⁰⁾.

ثالثا/ مكونات شعار الجمعية "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا":

1. المكوّن الأوّل / (الإسلام ديننا):

إنّ المكوّن الأوّل الذي ارتكز عليه شعار الجمعية هو "الإسلام"؛ لأنّ الإسلام هو دين الله القويم الذي ارتضاه للبشرية قاطبة؛ دينا للهداية والسعادة الأبدية في الدارين؛ وهذا مصدقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾⁽¹¹⁾؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽¹²⁾.

وقد ارتضى الشعب الجزائري لنفسه الدين الإسلامي طواعية منذ قرون خلت؛ فكان فيه خلاصهم من الاحتلال ومن كلّ البدع والضلالات؛ التي سيطرت على العقول عقودا طويلة (أكثر من قرن من الزمن)؛ حتّى أنّ الشيخ البشير الإبراهيمي يُعدّ تلك الضلالات والخرافات استعمارا ثانيا إلى جانب الاستعمار الفرنسي؛ فكان الإسلام بمثابة المحرّك الروحي الذي استغلته الجمعية لتحريك النفوس ورفع المهم.

ولقيمة هذا المكوّن - الإسلام ديننا - وأهميته عند عامّة الشعب الجزائري؛ وضعته الجمعية في الترتيب الأوّل في الشعار؛ لعلمها بأنّ التّحصين بالدين الإسلامي وتعاليمه؛ ترفع الهمة وتنير البصيرة؛ وبه يتوحد الصّف ويجتمع الشّمل؛ فهو السبيل في إحياء روح المقاومة والدفاع عن الوطن والمقدّسات.

2. المكوّن الثاني / (العربية لغتنا):

أمّا المكوّن الثاني الذي ارتكز عليه شعار الجمعية فهو اللسان الجامع "اللغة العربية"؛ هذا المكون كان العصب الحساس الذي أرادت فرنسا أن تقطعه حتى لا يشعر الجزائري

بعروبته؛ ولا يتذوّق طعمها وينسى امتداده إليها، فعملت على ضرب الثقافة العربية الإسلامية بالجزائر، من خلال التركيز على سكان القبائل بتعليمهم اللغة الفرنسية (فرنستهم) وبثّ النزعة البربرية بين المناطق والجهات، وكذا تفعيل سياسة التنصير والتجنيس (كما أشرنا سلفاً)، وتشويه التاريخ وادخال التحريفات والتشويهات والتشكيك في الانتماء للأمة العربية والإسلامية.

وفي هذا الإطار ردّ شيخ النهضة والاصلاح والتنوير في الجزائر (عبد الحميد بن باديس) على أقوال الاحتلال وأفعاله؛ بقوله: "إنّ هذا الشعب له لغته؛ وهيّ العربية ودينه وهو الاسلام؛ ووطنه وهو الجزائر.... إنكم لا تعرفون شيئاً عن هذا الشعب؛ وتريدون كلّ مرّة وبجرة قلم أن تستبدلوا بحضارته حضارة أخرى؛ ومقوماته بمقومات أخرى؛ وتاريخه بتاريخ آخر؛ وهذا أمر مستحيل لو أنكم فكّرتم قليلاً"⁽¹³⁾.

كما جاء ردّ رئيس الجمعية (الشيخ عبد الحميد بن باديس-رحمه الله تعالى-) على سياسة فرنسا التي حاولت قطع صلة الشعب الجزائري عن لسانه الأصيل "اللغة العربية" ودينه القويم "الإسلام"؛ وفصله عن مقوماته الحضارية العربية الإسلامية؛ بقصيدته الخالدة "شعب الجزائر مسلم" فكان الردّ ردّاً قوياً زلزل به مخططات فرنسا وأتباعها؛ وقطع بذلك قول كلّ خطيب؛ يقول في قصيدته:

وَالِىَ الْعُرُوبَةِ يَنْتَسِبُ	شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ
أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ	مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ
رَامَ الْمُحَالَ مِنْ الطَّلَبِ	أَوْ رَامَ إِدْمَاجًا لَهُ
وَبِكَ الصَّبَاحِ قَدِ اقْتَرَبَ	يَا نَشْءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا
وَحُضِّ الخُطُوبِ وَلَا تَهَبْ	خُذْ لِلْحَيَاةِ سِلَاحَهَا
حَسَانَ وَاصْدُكُمْ مَنْ عَصَبَ	وَأَرْفَعِ مَنَارَ الْعَدْلِ وَالْإِ
فَمَنْهُمْ كُلُّ الْعَطَبِ	وَأَقْلَعِ جُذُورَ الْخَائِنِينَ
سُمًّا يُمْرِجُ بِالرَّهَبِ	وَأَذِقْ نَفُوسَ الظَّالِمِينَ
فَرِيْمًا حَيَّ الخَشَبِ	وَاهْزُرْ نَفُوسَ الْجَاهِلِينَ

مَنْ كَانَ يَبْغِي وَدَنَا	فَعَلَى الْكِرَامَةِ وَالرَّحْبِ
أَوْ كَانَ يَبْغِي دُنَا	فَلَهُ الْمَهَانَةُ وَالْحَرْبِ
هَذَا نِظَامُ حَيَاتِنَا	بِالنُّورِ خُطٌّ وَبِاللَّهَبِ
حَتَّى يَعُودَ لِقَوْمِنَا	مَنْ مَجِدِهِمْ مَا قَدْ ذَهَبَ
هَذَا لَكُمْ عَهْدِي بِهِ	حَتَّى أَوْسَدَ فِي التُّرْبِ
فَإِذَا هَلَكْتُ فَصَيِّحْتِي	تَحِيَّا الْجَزَائِرِ وَالْعَرَبِ

هذه الأبيات التي أنشدها -ابن باديس- كانت "كفعل البارود وصداه في نفوس الشعب الجزائري على امتداد أرض الوطن وأطرافه السياسية، حيث بقيت إحدى أهم أسلحته المعنوية في مقاومة العدو حتى تحرير الوطن"⁽¹⁴⁾.

وهناك من السابقين واللاحقين من الأدباء وأهل النقد وغيرهم؛ يقرّون بأنّ هذه الأبيات تضاهي في قيمتها المعنوية المفحمة بالكلمات الثورية والتّبرة الحماسية النشيد الوطني الجزائري "قسماً"؛ وهناك من يشبّهها بقصيدة "إذا الشعب يوماً أراد الحياة" لـ "أبي القاسم الشابي" الشاعر التونسي الفدّ؛ باعتبارهما عنوانين للتحرّر ومقاومة للظلم والظالمين.

3. المكوّن الثالث/ (الجزائر وطننا):

هذا المكوّن المادي "الجزائر وطننا" استغلّته الجمعية كعامل عاطفي (الشعور بالانتماء) في إحياء الهمم ورفعها في نفوس الشعب الجزائري؛ من أجل الدّود عن كرامة الوطن والمواطن وتحريره من المحتلّين الأجنبيّين.

وانطلاقاً من القول المأثور "حبّ الوطن من الإيمان" سعت الجمعية أن تبين آثار هذا الحب على المواطن وما يترتّب عليه من واجبات تجاه أرضه - الجزائر - من خلال ما يحثّ به ديننا الإسلامي الحنيف في الدفاع عن الوطن بالقول والفعل؛ وبالنفوس والنفيس كواجب وفرض عين.

وإذا كان هذا من مبادئ الدّين الإسلاميّ وقيمه؛ فإنّ حبّ الأوطان أيضاً مرتبط ارتباطاً وثيقاً بكلّ الأديان السماوية والشرائع الوضعية التي تحثّ عليه وتأمّر به وتعاقب عليه

(من يخونه)؛ لأنّ الأوطان تعدّ من أحبّ الأشياء إلى الإنسان وأفضلها إلى النفس وأقربها إلى الفؤاد؛ فالوطن-الموطن- يعني الأمن والآمان والسكينة والاستقرار؛ ويعني التاريخ بأزمته؛ الماضي والحاضر والمستقبل؛ ويعني البناء والتشييد؛ والتضحية وبذل المزيد.

وفي هذا المقام نتذكّر قول رسول الله-صلى الله عليه وسلّم- في حقّ موطنه ومسقط رأسه؛ عندما أخرج من مكّة المكرّمة مُكرها: "وَاللّٰهُ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللّٰهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللّٰهِ إِلَيَّ اللّٰهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ". رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

حقّا فالوطن هو مكان الولادة ومسقط الرأس وفراش الطفولة ورداء الشباب؛ وحماية الكهولة وأمان الشيخوخة؛ وهو بهذا كلّه مكان لاجتماع الأجداد بالأحفاد؛ والآباء بالأبناء والأحباب بالأصحاب..؛ هذا التوصيف المميّز للوطن يجعل المرء على أهبة الاستعداد لبذل الغالي والنفيس قبل الزهيد والرخيص من أجل وطنه وبلاده. لذلك عملت الجمعية على ترسيخ هذه المعاني في ذهن المواطن (الإنسان الجزائري)؛ حتى يزداد ارتباطه بوطنه؛ فيجتهد للدفاع عنه ولا يتخلّى عن تحريره مهما طال زمن الاحتلال وبطشه؛ فأحيت في نفسه الحماسة والهمة العالية؛ وغرست فيه حبّ الوطن حتى صار الحنين إلى تحريره يسري في كلّ نفس توّاقة للاستقلال والحرية.

خاتمة:

انطلاقاً ممّا جاء في متن المقال حول أفعال الهوية في فكر أعضاء الجمعية -جمعية العلماء المسلمين الجزائريين- تبين لنا استنتاجاً؛ بأنّ تجلّيات فكر أعضاء الجمعية كان له الدور الفعّال في:

- إحياء قضية الوطن التحرّرية، من خلال إيقاظ الشعب من سباته وتخليصه من ضلالات البدع والخرافات التي انتشرت وانتشار النّار في المهشيم؛ فأحيت الجمعية بفكرها النفوس الهامدة والعقول الجامدة.
- ترسيخ ما يحمله شعار الجمعية من مبادئ مقدّسة (الدين؛ اللغة؛ الوطن) في عقول وقلوب عامة الشعب الجزائري.

- المحافظة على مقومات هوية الشعب الجزائري؛ وحماية مكوّنه الاجتماعي بمختلف أطيافه وفتاته من خرافات الاحتلال المضلّة والبدع المدلّسة.
- إكساب المجتمع مناعة روحية ومعنوية دفعته إلى الثورة والتحرّك وجنّته السكون والخضوع.
- الدفاع عن مقومات الشخصية الجزائرية والمحافظة على قيمها الدينية والتاريخية، هذه القيم مهّدت الطريق لجيل-جيل النهضة الفكرية- فجر الثورة التحريرية الكبرى فيما بعد فحرّر الإنسان قبل الأرض من سجن الاستعمار الفرنسي الحقيير.
- هكذا سيبقى فكر الجمعية وشعارها الخالد "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا" شعارا تردّده الألسن جيلا بعد جيل في كلّ زمن وحين.

الهوامش والإحالات

- (1)- ينظر: عمّار الطالبي؛ آثار ابن باديس، مكتبة الشركة الجزائرية، ط1؛ الجزائر، 1968؛ الرابط: <http://www.maktabatalfekker.com/book.php?id=9076>؛ تاريخ الاطلاع: 2021.04.10
- (2)- ينظر: موقع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ التعريف بالجمعية "النشأة والمسار"؛ الرابط: <https://www.oulamadz.org>؛ تاريخ الاطلاع: 2021.04.10.
- (3)- ينظر: المرجع نفسه؛ تاريخ الاطلاع: 2021.04.10.
- (4)- ينظر: رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981؛ ص 66 وما بعدها.
- (5)- ينظر: وزارة الإعلام والثقافة، كيف تحزرت الجزائر، الذكرى الخامسة والعشرين لثورة نوفمبر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر؛ 1974؛ ص54.
- (6)- ينظر: شارل روبري أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، تر: عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط2، 1982؛ ص142.
- (7)- ينظر: جلال العالم، قادة الغرب يقولون (دمروا الإسلام أبيدوا أهله)، دار ابن تيمية، البلدة (د.ت)، ص30-50.
- (8)- ينظر: محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، (د.ت؛ دط)؛ ص21.
- (9)- ينظر: محمد علي دبو، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزء1، المطبعة التعاونية، دمشق ط1، سنة 1965؛ ص21.

- (10) - محمد زومان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص3 (بتصرف).
- (11) - سورة، آل عمران، الآية 19.
- (12) - سورة، آل عمران، الآية 85.
- (13) - ينظر: موقع "الألوكة"؛ هكذا تكلم ابن باديس؛ تاريخ الاطلاع: 2021.04.15. الرابط: [/https://www.alukah.net/culture/0/99346](https://www.alukah.net/culture/0/99346)
- (14) - ينظر: فهمي توفيق محمد مقبل؛ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والنهضة في تاريخ الجزائر الحديث (1889-1940)؛ (دط. دت)؛ الرابط: <https://www.noorbook.com>، تاريخ الاطلاع : 2021.04.15.

جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الوجدوية من خلال المؤتمر الإسلامي الجزائري 1936 - 1938

The Unitary Efforts of the Association of Algerian Muslim
Oulemas through the Algerian Muslim Congress

د. حورية جيلالي

المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (Crasc) - وهران (الجزائر)
djilali.houria76@outlook.fr

تاريخ القبول: 2021/09/02

تاريخ الإرسال: 2021/08/22

ملخص:

عرفت مرحلة الثلاثينيات في الجزائر المستعمرة نشاطا سياسيا مكثفا مثلته مختلف التشكيلات السياسية القائمة آنذاك بنشاطاتها المتعددة، خصوصا مع وصول الجبهة الشعبية للحكم في فرنسا وإظهارها في بداية أمرها انفتاحا على مطالب الطبقة السياسية الجزائرية التي توحدت لأول مرة في اجتماع تاريخي عقد بالعاصمة في شهر جوان 1936 وعرف هذا الاجتماع بالمؤتمر الإسلامي الجزائري، الذي يعتبر حدثا تاريخيا هاما، حيث استطاع أن يحقق تقارب الاتجاهات السياسية الوطنية من علماء ونواب ومناضلين وبقية الفئات الاجتماعية الأخرى، محاولا خلق تفكير وحدوي.

في هذا الإطار نحاول من خلال هذا العمل تسليط الضوء على جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في إطار المؤتمر الإسلامي الجزائري، الذي يعتبر أهم وأول حركة وحدوية عرفت الساحة الجزائرية خلال هذه المرحلة.

الكلمات المفتاحية: المؤتمر الإسلامي الجزائري، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، البصائر النواب المسلمون الجزائريون، الحزب الشيوعي الجزائري، عبد الحميد بن باديس.

Abstract:

The period of the thirties in colonial Algeria knew an intense political activity, represented by the various political formations which existed at the time, with their various activities, in particular with the arrival of the Popular Front in power in France and its opening at the beginning to the demands of the Algerian political class, this is how the Algerian Muslim Congress was formed which met for the first time in a historic meeting held in Algiers in June 1936, it is considered an event important historical, which was able to achieve the convergence of political tendencies of Oulamas, elected officials, activists and other social groups, trying to create a unitary thought and a common social spirit.

In this context, we try, through this article, to focus on the efforts of the Association of Algerian Muslim Oulamas within the framework of the Algerian Muslim Congress, which is considered to be the most important and the first known unitary movement. on the Algerian scene, during this period. This work will be based on the follow-up of the efforts of the Association of Algerian Oulamas during this period in terms of appeal to this Muslim congress, and establishment of its active personalities and its dissemination in order to make it a success.

keywords: The Algerian Muslim Congress; the Association of Algerian Muslim Oulamas; the Algerian National Movement; Algerian Muslim elected officials; the Movement for the resignation of elected officials; the Algerian Communist Party.

مقدمة

انعقد المؤتمر الإسلامي الجزائري الأول يوم 07 جوان 1936 بالجزائر العاصمة بقاعة سينما الماجستيك (الأطلس حاليا) بحي باب الوادي في ظلّ ظروف مميزة داخليا وخارجيا؛ فخارجيا تميزت هذه المرحلة بانعقاد عدة مؤتمرات إسلامية على غرار مؤتمر الخلافة بالقاهرة، ومؤتمر مسلمي أوربا بجنيف، والمؤتمر الإسلامي بالقدس الذي شارك فيه إبراهيم أطفيش، كما تميزت هذه المرحلة أيضا بتأثير أفكار الأمير شكيب أرسلان الذي كان يدعو جميع المسلمين للاهتمام بشؤون الأمة الإسلامية والدفاع عنها. أما داخليا فقد تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، والحزب الشيوعي الجزائري سنة 1936، إلى جانب بروز دور فيدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين ونجاحها في الانتخابات البلدية لعام 1934 ووصول الجبهة الشعبية إلى الحكم و طرحها لمشاريع إصلاحية منها مشروع بلوم فيوليت.

ومن جهة أخرى فقد عرفت سنة 1936 حركة إضرابات واسعة مست كل عمالات الجزائر وأدت إلى شلل تام للمؤسسات الاستعمارية في مدن وهران، سيدي بلعباس ومستغانم واستجاب عمال الميناء لهذه الإضرابات، والثابت أنّ هذه الحركة قد غيّرت مجرى تاريخ الطبقة العاملة في الجزائر المستعمرة عامة والقطاع الوهراني خاصة وحققت عدة مطالب منها الاعتراف بالتنظيم النقابي، تزايد عدد النقابات المهنية وتحسين الأجور⁽¹⁾.

• دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عقد المؤتمر الإسلامي الجزائري

تزامن انعقاد المؤتمر الإسلامي الأول مع احتفالات المولد النبوي الشريف، وحضرته شخصيات سياسية وطنية من مختلف التيارات، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعدد كبير من النواب الجزائريين، وأعضاء من الحزب الشيوعي الجزائري، إلى جانب بعض رجال الطرق الصوفية وشيوخ الزوايا ماعدا نجم شمال إفريقيا⁽²⁾ الذي رفض ما أقرّه المؤتمر الإسلامي الجزائري من ارتباطات، ورفض أيضا التمثيل النيابي بباريس.

ويتفق المؤرخون على أنّ فكرة عقد مؤتمر إسلامي تعود إلى الشيخ عبدالحמיד بن باديس الذي دعا أعضاء المكتب الدائم لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لحضور اجتماع طارئ في أواخر سنة 1935، وخلال الاجتماع ذكر الشيخ ابن باديس "نظرا لتدهور الحالة العامة في الجزائر والبلبلّة السياسية السائدة واختلاف الأحزاب والهيئات الوطنية وتشتتها رأيت أن أدعو إلى مؤتمر إسلامي جزائري عام، يجمع الشمل ويوحد الصف، ويحدد الهدف لأنّ المرجع في أمور الأمة يعود إلى الأمة، والواسطة لذلك هي المؤتمرات والندوات التي تفحص فيها الأمور وتحصص النتائج، والإجماع أصل من أصول تشريعنا الإسلامي، فلماذا لا نعمل به في السياسة لهذا جمعتمكم لأستطلع رأيكم، وأطلب منكم الموافقة على توجيه الدعوة باسم رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى مثقفي العربية والفرنسية والنواب والأحزاب، وكل من يهمه أمر البلاد والعباد من الطوائف والمنظمات الوطنية..."⁽³⁾.

وفي حديث آخر للشيخ ابن باديس لصحيفة الدفاع⁽⁴⁾ La Défense، دعا في يناير 1936 إلى اجتماع جميع الأحزاب الجزائرية في مؤتمر إسلامي أو جبهة وطنية لوضع قائمة من المطالب التي يطلبها الجزائريون من فرنسا⁽⁵⁾. وقد كتب الشيخ البشير الإبراهيمي في

مقال بمجلة الشهاب بعنوان "يوم الجزائر" في جويلية 1936، أنّ التاريخ المنصف يسجل أنّ فكرة المؤتمر الإسلامي الجزائري هي للأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس⁽⁶⁾.

كان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الدور الأبرز والأكبر من حيث التحضير للمؤتمر ويتجلى ذلك من خلال التسمية "المؤتمر الإسلامي الجزائري" والذي تقرر خلال الاجتماع التمهيدي الذي انعقد في نادي الترقّي المقر الرسمي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما قام بعض رجالات الجمعية وعلى رأسهم الشيخ البشير الإبراهيمي بطرح فكرة كانت في غاية الأهمية والخطورة في آن واحد وهي ضرورة إلغاء البرامج التي تبناها مختلف هذه التيارات، لأنها وضعت في ظروف ضيقة⁽⁷⁾.

بدأ الشيخ عبد الحميد بن باديس بعقد اتصالات مع فدرالية النواب المسلمين للقطاع القسنطيني قصد إقناعها بفكرة المؤتمر وكانت نتيجة هذه الاتصالات إصدار الطرفين لنداء يوم 16 ماي 1936 إلى المسلمين الجزائريين لكي يشكلوا لجأهم ويعيدوا كراريس المطالب قصد الإعداد لعقد هذا المؤتمر⁽⁸⁾، وفي أول جوان 1936⁽⁹⁾، تأسست كتلة التنظيمات الإسلامية للقطاع الوهراني⁽¹⁰⁾ التي ترأسها الشيخ السعيد الزاهري عضو بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين⁽¹¹⁾، وكان هدفها تحقيق المطالب الخاصة بالجزائريين، ونادت المسلمين لتنظيم أنفسهم لتحقيق ذلك لتبدأ عملية تجنيد مختلف التنظيمات (الدينية، الثقافية النقابية، المحاربين القدامى، الرياضية والخيرية) وتشكل بذلك كتلة لمنظمات متناسقة لا يتوقف هدفها على إعداد برنامج مطلي بل يتعدى ذلك إلى تنفيذ هذه المطالب.

وكان السبب الذي دفع العلماء للعمل بجانب دعاة الإدماج فهو أملهم في رؤية الجبهة الشعبية تنصف الجزائريين وتمنحهم الحقوق نفسها التي استفاد منها معمرو الجزائر من قبل⁽¹²⁾، مع الإشارة إلى أنّ الإدارة الاستعمارية لم تكن تغفل عن هذه التحركات ففي أحد التقارير الخاصة بالإدارة المركزية لاحظنا استمرار الحديث حول تطور الأوضاع السياسية بالغرب الجزائري حيث وصف التقرير الحالة بالمقلقة أحيانا وبالهدوء المخيف أحيانا أخرى ورأى صاحب التقرير أهمية اتخاذ عدة إجراءات منها ضرورة تأسيس حزب إسلامي بهدف تأطير الشباب المسلم بزعامة الزوايا التي كانت لا تزال تحافظ على امتيازاتها، ومنع الجزائريين من إقامة التجمعات أو الأنشطة النقابية⁽¹³⁾.

كان لهذا المؤتمر أهمية بالغة في أوساط الجزائريين، وقد ذكر البشير الإبراهيمي "أنّ الأمة الجزائرية كلها قد حشرت في هذا المؤتمر، وبأنّ الجرائد الفرنسية قدّرت من ضمتهم قاعة المؤتمر بخمسة آلاف أو ستة آلاف شخص، وحرزناهم نحن بسبعة آلاف أو يزيدون"⁽¹⁴⁾، واعتبرت وسائل الإعلام أنّ هذا المؤتمر حدث هام مكنّ الاتجاهات المختلفة من التقارب فيما بينها وبداية لتفكير جماعي مشترك لاسيما وأنّه شهد مشاركة شخصيات كان لها وزنها السياسي كما هو الحال بالنسبة لمحمد الصالح بن جلول عن فدرالية النواب بن علي بوقرط عن الحزب الشيوعي مع غياب رئيس فدرالية النواب المسلمين للقطاع الوهراني مكي بزغود⁽¹⁵⁾، وهكذا فقد كانت النتيجة الأولى لاجتماع المؤتمر الإسلامي الجزائري بعاصمة الجزائر يوم 7 جوان هي انتخاب لجنة مؤقتة لتسيير أعماله وتنفيذ مقرراته التي أجمع عليها ممثلو الأمة من سائر الطبقات وكلّ الهيئات، وكان عمل اللجنة المؤقتة هو الدعاية الواسعة لتأسيس اللجان بالعمالات الثلاث لكي تنتخب من يمثلها في اللجنة التنفيذية للمؤتمر⁽¹⁶⁾. وبمشاركتها في هذا المؤتمر تكون جمعية العلماء قد دخلت رسميا وعليا العمل السياسي إلى جانب مختلف الاتجاهات السياسية في الحركة الوطنية.

وذكر محمد البشير الإبراهيمي في وصف المؤتمر "ما كادت الساعة المقررة لافتتاح المؤتمر تدق، حتى كانت قاعة الماحستيك الفسيحة وإيوانها الفخم وشرفاتها كلّها، مكتظة بالوافدين من الأقطار الثلاثة، فكان منظرا مؤثرا، وإنّ الناظر ليدرك لأول نظرة أنّ طبقات الأمة كلها تمثلت في المؤتمر، فترى العامل والتلميذ، والفلاح، والغني والفقير، والوجيه والخالل، والفتى، والشيخ، ممتزجين متلاصقين، فتحكم بالبداهة كيفما كان سنك وحظك من شهود المجتمعات أنّه أول مشهد من نوعه شهدته في عمرك بهذا الوطن" وكان هذا اليوم مشهودا بالنسبة للبشير الإبراهيمي "يوم الجزائر المشهود الذي يحق لها أن تبدأ به تاريخها الجديد، ففيه تجلّى تضامن الجزائر الإسلامية وإحواؤها واتحادها"⁽¹⁷⁾.

وكانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية من خلال تتبعها لنشاطات المؤتمر، تدرك أنّ رجالات جمعية العلماء وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد قد لعبوا الدور البارز في الدعوة إلى عقد هذا المؤتمر والتحضير له وتنظيمه، فصاحب الفكرة الأول هو رئيس الجمعية ابن باديس الذي طرحها خلال بدايات شهر جانفي 1936، وهو ما تجمع عليه جلّ المصادر⁽¹⁸⁾.

• مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري

جاء في مجلة الشهاب مقال بعنوان "حقوق الأمة الجزائرية التي تطلبها من الأمة الفرنسية - النيابات - اللغة العربية - والدين الإسلامي"⁽¹⁹⁾، وكان ملخص مطالب جمعية العلماء في المؤتمر الإسلامي الجزائري يتمثل في جزأين، مطالب فردية عن طريق ابن باديس تناولها باسمه، تضمنت الحق في المساواة بين الجزائريين المسلمين والأوروبيين في المجالس النيابية، وإلغاء المعاملات الخاصة مثل قانون الأهالي، ومطالب تقدم بها باسم جمعية العلماء، أبرزها فصل الدين عن الدولة، وتحرير اللغة العربية من خلال التعليم الديني واللغة العربية، وتحرير القضاء من خلال قضاء شرعي على أساس العدل والمساواة واستحداث مدارس لتكوين القضاة الشرعيين⁽²⁰⁾، أما المطالب العامة، فقد تم تقديمها إلى رئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم وتمثلت في:

- إلغاء كل القوانين الاستثنائية المطبقة على المسلمين.
- إلحاق الجزائر بفرنسا وإلغاء الولاية الجزائرية ومجلس النيابات ونظام البلديات المختلطة.
- المحافظة على الحالة الشخصية الإسلامية مع إصلاح هيئة المحاكم الشرعية بصفة حقيقية.
- الإصلاحات الاجتماعية.
- الإصلاحات الاقتصادية.
- مطالب سياسية تمثلت في:

- ✓ إعلان العفو السياسي.
- ✓ توحيد هيئة الناخبين في سائر الانتخابات.
- ✓ إعطاء الحق لكل ناخب في ترشيح نفسه.
- ✓ النيابة في مجلس الأمة.

مثل عمالة الجزائر الشيخ الطيب العقبي عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عمارة فرشوح، الدكتور بشير عبد الوهاب نائب عمالي بالبلدية، ابن الحاج ولحاج مستشار بلدي بالجزائر، بوكردنة عبد الرحمن مستشار بلدي بالجزائر، ومثل عمالة وهران كل من طالب عبد السلام (محامي ومفوض مالي)، الحاج حسن باشطارزي (مستشار بلدي بوهران) بوشامة عبد الرحمن (مهندس معماري وممثل لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين) إضافة إلى

ممثلي عمالة قسنطينة⁽²¹⁾، وهم: الشيخ عبد الحميد بن باديس عن ج ع م ج، الدكتور ابن جلول (نائب بلدي ومستشار عام بقسنطينة)، فرحات عباس (مستشار عام)، طاهرات العربي (نائب بلدي بقسنطينة) إلى جانب ابن قلعية. وعن الصحراء الحكيم سعدان والأمين لعمودي، ومن الشبان ثلاثة واحد من كل عمالة وهم ابن الحاج المستشار البلدي بالجزائر ابن قليعة إبراهيم عن قسنطينة، بوشامة عبد الرحمن من عمالة وهران، وقبل انطلاق الوفد (حسب المقال دائما) تقدّم أحد الشبان وطلب الكلمة قائلاً: "بصفتي من المنخرطين في جمعية نجم شمال إفريقيا الشمالية وددت لو استصحبتم معكم أحد ممثليها بالجزائر وحيث لم توفقوا لذلك فإنكم ستجدون بباريس السيد مصالي الحاج فأشركوه معكم في الأعمال التي ستقومون بها" وكان جواب الدكتور ابن جلول بأن مهمة الوفد عامة تمه كل جزائري ورجال الوفد لا يستغنون عن كل عامل للمصلحة العامة⁽²²⁾.

واشترط المؤتمر تحقيق مضمون الميثاق المطلي في إطار سياسة الإدماج واحترام نظام الأحوال الشخصية، كما أنه لم يغفل العمال وحقوقهم⁽²³⁾، ورغم أن الحكومة الفرنسية حاولت إرضاء الوفد بوعده بالنظر في مطالبه إلا أنها قامت بعدة مناورات لإفشال مهمته بإنشاء لجنة برئاسة المفوض المالي لتيارت الشيخ غلام الله للذهاب إلى باريس وتقديم مطالب باسم المرابطين ضد مطالب المؤتمر، كما أن تخوف ابن جلول من قوة الحزب الشيوعي جعله يشكل وفدا مع الجبهة الشعبية ويوجهه إلى باريس في 22 جويلية 1936 الأمر الذي أثار على الوثيقة المطلية للمؤتمر⁽²⁴⁾.

وفي 2 أوت 1936 اجتمع المؤتمر ثانية بالملعب البلدي بالعاصمة ليقدم الوفد الباريسي نتيجة مهمته علما أن أعضاء النجم حضروا هذا التجمع الكبير للتعريف بأفكارهم الاستقلالية، وفي هذا الصدد تطرقت جريدة البصائر لهذا الاجتماع في مقال بعنوان: "اجتماع عظيم لم يبق له نظير يعقده وفد المؤتمر الإسلامي بالملعب البلدي"، حيث ذكر أنه أعطيت فيه الكلمة لعضو اللجنة التنفيذية السيد أوزقان ثم الدكتور ابن جلول والدكتور البشير وبعدها تدخل الصيدلي بوكردنة أمين مال الوفد وأعطيت الكلمة بعدها إلى الأستاذ باديس ثم البشير الإبراهيمي وطلب مصالي الحاج الكلمة فأذن له وتكلم بما في نفسه من كل ما يوافق مبادئه وغاية جمعيته، وعلى إثر نهاية الاجتماع تم حث الجمهور على ملازمة

الهدوء والسكون خوفاً من الاشتباك مع بعض المغرضين المعارضين للمؤتمر الإسلامي⁽²⁵⁾ وفي أكتوبر من نفس السنة عقد المؤتمر اجتماعاً له بوهران ثم مستغانم.

غير أنّ المؤتمر سرعان ما بدأ يعاني من الانشقاق الداخلي بانسحاب فدرالية النواب المسلمين للقطاع القسنطيني، إلى جانب موقف الأحزاب اليمينية عبر العمالة والذي مثله تصدي كلّ من فدرالية شيوخ بلديات الجزائر برئاسة غابريال لامبير Gabriel Lambert بعض البرلمانيين والإدارة الاستعمارية لنشاطات المؤتمر الإسلامي⁽²⁶⁾.

ومع ذلك فقد كان لفروع المؤتمر الإسلامي عدة نشاطات ونظمت بعض الفروع القوية مهرجانات واجتماعات توجت بعضها باقتراحات تلح على ضرورة تحقيق مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري وأخرى بالتأييد للحكومة الشعبية ومشروع بلوم فيوليت الموسع ومع ذلك فقد كان لفروع المؤتمر الإسلامي عدة نشاطات ونظمت بعض الفروع القوية مهرجانات واجتماعات توجت بعضها باقتراحات تلح على ضرورة تحقيق مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري وأخرى بالتأييد للحكومة الشعبية ومشروع بلوم فيوليت الموسع⁽²⁷⁾.

وعبّر مدير جريدة البصائر المقال في مقال نشر بها على عدم موافقته لمصالي الحاج ومن معه على فكرة طلب الاستقلال الذي هو بعيد عن الأمة الجزائرية وبعيدة عنه مادامت لم تستقل في أفكارها ومعلوماتها ومادامت لا تقدر على أن تحرر نفسها من رقة بعض المرابطين واستعبادهم لها باسم الدين، وواصل مقاله "بأننا نطلب الحرية والمساواة في العيش والحقوق كغيرنا من بقية أبناء فرنسا"⁽²⁸⁾.

• البعد الوطني للمؤتمر الإسلامي الجزائري:

تعتبر سنة 1936 سنة تطور تاريخي وأيديولوجي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بفضل لجان المؤتمر التي أقيمت في مختلف المدن. فقد تمّ تشكيل لجنة الستة والستين (66) لتكون جهازاً تنفيذياً لتسيير المؤتمر وأوكلت لها مهمة طبع مطالب المؤتمر باللغتين الفرنسية والعربية والقيام بجولات عبر التراب الجزائري لتأسيس لجان محلية تعطي لأعضاء المؤتمر بعداً وطنياً، وهي تعتبر الهيئة الإدارية الأساسية في المؤتمر باعتبارها الوحيدة التي تقرر إنشاؤها من طرفه، وكلفت لجنة مؤقتة بتكوينها في مدة حددت بشهر ينتهي عندما يعقد المندوبون

المخليون اجتماعهم يوم 5 جويلية 1936 بالعاصمة⁽²⁹⁾، وبتاريخ 17 جانفي 1937 اجتمعت هذه اللجنة بنادي الترقى لوضع القانون الأساسي للمؤتمر والنظر في الحالة الحاضرة، وبعد المفاوضات تقرر تكليف المكتب بوضع قانون وعرضه على اللجنة التنفيذية للمصادقة عليه وتقرير إرسال برقية تأييد للحكومة الشعبية وإرسال وفد إلى فرنسا في الأول من فبراير 1937 ليعمل هناك على شرح المطالب الوطنية للمؤتمر لدى اللجان البرلمانية، وتقرر أن يكون الوفد مكونا من الرئيس (الدكتور البشير عبد الوهاب) ونائبه الأستاذ لعمودي والسيد جيلاني بن طالب، والكاتب العام ابن الحاج، أمين المال عبد الرحمن بوكردنة إلى جانب الشيخ عبد الحميد بن باديس، الأستاذ طاهرات. كما تقرر إرسال منشور إلى لجان المؤتمر وأنصاره في العمالات الثلاث والحث على تنظيم اللجان الموجودة، إلى جانب تأسيس لجان جديدة للمؤتمر لتكريس بعده الوطني⁽³⁰⁾، وعلى إثر نشر جريدة مارساي ماتان Marseille Matin لمقال ناسبة ما جاء فيه للدكتور ابن جلول بعنوان: "تصريحات الدكتور ابن جلول"، تعرضت جمعية العلماء في أحد اجتماعاتها لما جاء في المقال لاسيما وأنه كان يضر بالجمعية التي حاولت العمل بكل وسيلة على أن يكذب الدكتور تصريحاته ولكنه لم يفعل، ليظهر بذلك تباعد كبير بينها وبينه وذلك من خلال مقال نشر بجريدة البصائر العدد 40 الصادر يوم الجمعة 7 شعبان 1355 هـ الموافق ل 23 أكتوبر 1936 بعنوان: "كيف تكون المؤتمر الإسلامي الجزائري؟ ولماذا تخلى عنه الدكتور ابن جلول؟" ومقال بعنوان أبناء الشمال الأفريقي حول "واجب الزعماء على ذكر إسقاط الحكيم ابن جلول من رئاسة المؤتمر الإسلامي الجزائري" نقلا عن جريدة الزهرة في عدد 21 رجب (الصفحة الرابعة)⁽³¹⁾، وهكذا فقد كانت بدايات التباعد لابن جلول ومقدمات لإيجاد حل في ظل سياسة التسوية الفرنسية لمطالب المؤتمر ليكون الحل هو الدعوة لعقد مؤتمر ثان.

لقد كان المؤتمر الإسلامي المنعقد يوم 7 جوان في نظر العلماء ومؤيدي هذه المبادرة أكبر حدث تمخضت عنه حركة الإصلاح الوطني في القطر الجزائري ونتيجة عملية لجهود رجال العلم والعمل، ففيه توحدت الجهود واجتمعت الكلمة من كل عناصر الأمة وجميع أحزابها على المطالب الوطنية للجزائريين، وفيه انضم رجال السياسة إلى رجال الدين والمصلحين للطرقين والأحزاب المتطرفة لجماعة الرجعيين، وكل الجميع كتلة جزائرية وطنية

موحدة، وفي هذا الصدد ذكر ابن علي بوقرط أنّ الشيء المثير للاهتمام أنّ هذا المؤتمر ضمّ كلّ الطبقات الاجتماعية التي استجابت للنداء من عمال الموانئ، التجار، الأساتذة الحرفيين، عمال البريد وغيرهم ليشكل بذلك تحولا عميقا في تاريخ الجزائر⁽³²⁾، ويعبّر عن بعده الوطني الوحدوي.

غير أنه وبعد مضي عام على تأسيسه والأمة الجزائرية في انتظار الوعود ولكنها لم تظفر بغير التسوية والإحالات المتعددة على نتيجة بحوث الأفراد أو اللجان أو الجماعات التي تؤمّ الجزائر لتفحص حاجاتها الضرورية ومطالبها المستعجلة⁽³³⁾.

• المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني:

أمام تماطل السلطات الفرنسية في الرد على مطالب المؤتمر الأول، وقدم اللجنة البرلمانية للتحقيق إلى الجزائر في مارس 1937 لدراسة الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للجزائريين برئاسة لاغروسيليار Lagrisilière حيث ضمت هذه اللجنة عددا من النواب ودخلت في اتصالات مع الجزائريين وأعدت تقريرا لصالح مشاريع الإصلاحات الحكومية⁽³⁴⁾ ونتيجة لكل ذلك قررت لجنة المؤتمر أن يجتمع الأعضاء المفوضين في اللجان لانتخاب المقررين للمسائل المختلفة ولتوزيع الأعمال وتعيين الخطباء المختصين للمواضيع الجوهرية للمؤتمر⁽³⁵⁾، وبدأت جولات الشيخ عبد الحميد بن باديس رفقة الأمين لعمودي والسكرتير بلحاج وعقدوا عدة تجمعات، مع العلم أنّ تأثير الشيوعيين الكبير جعل الاشتراكيين بالقطاع الوهراني والمؤيدين لمشروع بلوم فيوليت يؤسسون في بداية مارس 1937 ما عرف بـ: "لجنة الحركة الإسلامية للقطاع الوهراني"⁽³⁶⁾ C.A.M.O، والتي تكونت من مناضلين مؤيدين للقسم الفرنسي للأمية S.F.I.O ومؤيدين لمشروع بلوم فيوليت⁽³⁷⁾ وكانت لجنة 66 قد قررت منذ شهر ماي 1937 عقد المؤتمر الإسلامي الثاني بالجزائر عند الذكرى الأولى للمؤتمر الإسلامي الأول⁽³⁸⁾.

انعقد المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني في مطلع شهر جويلية 1937 بنادي الترقّي بحضور مكتب خاص بتعقب الأعمال التي كانت في سنة المؤتمر الأولى وعرض ما يجب أن يسير عليه المؤتمر الثاني وذلك بحضور حوالي 156 نائب⁽³⁹⁾.

وقد سعى قادة المؤتمر إلى تجنيد الشباب وتكوينهم وتوعيتهم من خلال توحيدهم فيما عرف بشباب المؤتمر الإسلامي *Jeunesses du congrès musulman* وكان أهم مسيريه رشيد كرتوي وحمودة حيث بلغ عدد أعضائه في جويلية 1937 حوالي 4000 شاب غير أنه سرعان ما ظهرت تنظيمات شبابية موازية له بالبليدة، وقسنطينة وغيرها مما أدى إلى ظهور منافسة شديدة، وكان من المفروض أن تتبع هذه التنظيمات جمعية العلماء، فحسب مقال صدر بجريدة الدفاع *La Défense* بتاريخ 10 سبتمبر 1937 أنّ جمعية العلماء تمثل مركز هذه التجمعات وأنّ هؤلاء الشباب كان من المفروض أن يتبعوا الشيخ ابن باديس كما كان بالإمكان أن يتمّ تحويلها إلى حزب وطني إسلامي جزائري، ويبدو أنّ هذا التجمع قد ضمّ أعضاء مؤيدين للعلماء وآخرين ذوي ميول شيوعية بينما كانت بعض العناصر ذات توجه استقلالي مؤيد لحزب الشعب الجزائري، وبعد حلّ نجم شمال إفريقيا انضمّ أنصاره إلى المؤتمر الإسلامي الجزائري⁽⁴⁰⁾. علماً أنّ فدرالية النواب المسلمين لقسنطينة كانت ترى في ضرورة تحويل المؤتمر الإسلامي الجزائري إلى حزب غير أنه لم يتم إقرار ذلك وتم الاتفاق على إلغاء لجنة 66 واستبدالها بلجنة تنفيذية تضمّ 45 عضو لتشكيل مكتب للمؤتمر⁽⁴¹⁾.

• أهمية المؤتمر الإسلامي الجزائري:

رغم كلّ المعوقات التي واجهها المؤتمر إلا أنّه استطاع أن يبقى تجمعا جزائريا وجبهة ضمّت كلّ الاتجاهات داخل الحركة الوطنية ما عدا النجم الذي ناهضه بصورة واضحة غير أنّ الانشقاقات سرعان ما بدأت تظهر داخل لجنة المؤتمر ومنذ 14 فبراير 1937 حيث ظهرت معارضة لكتلة الجمعيات الإسلامية للقطاع الوهراني تمثلت في "لجنة الحركة الإسلامية للقطاع الوهراني" *Comité d'Action Musulmane d'Oranie* التي شكلها الاشتراكيون الذين لم يتحملوا سيطرة الشيوعيين وتأثير الشيخ الإبراهيمي، وهذا الأخير كان لا يتقبل الوفاق بين الزاهري والشيوعيين لتزيد بذلك القطيعة والخلاف بين الزاهري رئيس كتلة الجمعيات للقطاع الوهراني والشيخ الإبراهيمي، وفي محاضرة عقدت يوم 23 مارس 1937 بالنادي الإسلامي بتلمسان ذي الاتجاه المرابطي، دفع الزاهري لتأسيس كتلة المنظمات الإسلامية ليكون مقرها نادي العشعاشي الذي كان أحد أعداء الإبراهيمي أيضا، وقد ندد الشيوعيون بهذا التحالف، بالمقابل وكرد فعل قام الإبراهيمي بتأسيس ناد مؤيد له بوهران

وهو جمعية الفلاح برئاسة زدور ميلود المهاجي وجريدة المغرب العربي⁽⁴²⁾ التي جعل رئيس تحريرها أحد تلامذة الشيخ ابن باديس وهو الشيخ حمزة بوكوشة غير أنّ هذه الجريدة سرعان ما ستتوقف عن الصدور خلال شهر أوت 1937 بسبب مشاكل مادية، وأمام هذه الانقسامات والمشاكل الداخلية تراجع التأييد الشعبي للمؤتمر الإسلامي، ففي اجتماع اللجنة العمالية لهذا المؤتمر فيما بين 23 و 24 مارس بغليزان لم يحضر في اليوم الأول سوى 300 شخص وفي اليوم الثاني حوالي 30 مستمع فقط⁽⁴³⁾.

ومع ذلك فيمكن القول إنّه إذا كان الشباب هو الغالب والناشط بالمؤتمر الإسلامي فإنه سيشكل المحرك الرئيسي للوطنية وفكرة الوحدة، خصوصا وأنّ عدد المناضلين الذين لا يتجاوز عمرهم 25 سنة مثلوا حوالي 55%⁽⁴⁴⁾، ونقول أيضا أنّ هذا المؤتمر قد جمع الكثير من التناقضات ولاسيما على مستوى الأهداف الاستراتيجية، فالذي كان يهم النواب والنخبة هو تطبيق مشروع بلوم فيوليت الذي وضع في الحقيقة من أجلهم، وكان العلماء مشاركين بنصف حماس وكانت مطالبهم محصورة في تحرير الدين الإسلامي من الدولة الفرنسية وتعميم التعليم العربي الحر بواسطة أبناء الشعب أنفسهم، أما الشيوعيون والاشتراكيون فما كان يهمهم بالدرجة الأولى هو جمع قوى الشعب الجزائري وراء الجبهة الشعبية، لذلك فإنّ صياغة قائمة موحدة من المطالب كانت أمرا عسيرا⁽⁴⁵⁾.

كما أنّ من بين عوامل ضعف هذا المؤتمر الانقسامات التي كانت قد بدأت تظهر وتزيد في تراجع قوته، كما أدى تراجع مواقف فدرالية قسنطينة إلى تراجع موقف المؤتمر الإسلامي الجزائري بشكل عام، وكان تراجع عدد من مسيري المؤتمر بالجزائر العاصمة بما في ذلك رئيسها الدكتور بشير بتاريخ 29 أكتوبر 1937 نتيجة لصراعات داخلية تتعلق بالانتخابات العمالية قد أدى إلى تراجع دور عمالة الجزائر وظهرت في 14 جانفي 1937 (في الوقت الذي كان فيه الشيخ ابن باديس يقوم بجولته بالقطاع الوهراني لجمع التأييد للمؤتمر) معارضة لكتلة المنظمات المسلمة للقطاع الوهراني بالتجمع الذي عرف باسم لجنة النشاط الإسلامي للقطاع الوهراني⁽⁴⁶⁾ السالفة الذكر.

فالمؤتمر الإسلامي سرعان ما اندثر وتلاشى لأنه انطلق من مبدأ أنّ اليسار الفرنسي قادر على حلّ المشاكل التي يعاني منها الجزائريون⁽⁴⁷⁾، ورغم أنه قد لاح في الأفق أمل لدعاة حركة المؤتمر عندما عادت الجبهة الشعبية إلى الحكم لمدة قصيرة خلال مارس 1938 لكنها لم تعمر طويلا فسقطت وخلفتها حكومة دلاديه الذي تكون وفد من المؤتمر لمقابلته وكان جوابه محبطا مستفزا حيث قال: إن البرلمان معارض لمشروع بلوم فيوليت ولا يظهر عليه أنه يعتبر المواطنة الفرنسية متناسبا مع الحالة الشخصية الإسلامية، وأمام هذا الوضع فإني لا أستطيع أن أقول أيّ شيء، وواصل قائلاً: "أسألكم أن تعينوني على الإبقاء على النظام ولا تضطروني إلى استعمال القوة التي تملكها فرنسا لأنّ فرنسا أمة قوية..."⁽⁴⁸⁾.

خاتمة

لقد مثّل المؤتمر الإسلامي الجزائري أول تجمع سياسي شعبي حضرته جلّ التيارات السياسية والفكرية التي كانت تنشط على الساحة الجزائرية، فقد ضمّ كلا من الاتجاه الإدماجي، والمساواتي، ناهيك عن الشيوعيين، والإصلاحيين، ولم تعرف الجزائر طيلة أكثر من قرن تجمعاً تشترك فيه كلّ الاتجاهات وتمثل فيه كلّ الطبقات، وتبرز خلاله وحدة الصف والكلمة على مطالب معينة⁽⁴⁹⁾، وفي هذا الصدد كتبت صحيفة وهران الجمهوري Oran Republicain لسان حال الجبهة الشعبية في القطاع الوهراني والتي غطت لوحدها أشغال المؤتمر الإسلامي الثاني⁽⁵⁰⁾ "إنّ المؤتمر الإسلامي قد أصبح إيماناً صحيحاً بمثاليته التي تدعو إلى تحرر فرنسي الجزائر من المسلمين...، ولقد حقق المؤتمر معجزة وهي توحيد الشعب... شيئاً فشيئاً ولكن بثبات. إذ أنّ هذا الإيمان قد استمال جماهير الناس. إنّ الاتحاد هو حقيقة وليس حلماً. وهو أول مكسب وإلى مكاسب أخرى"⁽⁵¹⁾.

أدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دوراً بارزاً في سير أعمال أول مؤتمر إسلامي جزائري وفرضت مطلبها الأساسي في هذا المؤتمر، الأول الخاص باللغة العربية وضرورة تعليمها وجعلها لغة رسمية في الجزائر إلى جانب اللغة الفرنسية، ويشمل الثاني الشؤون الدينية الإسلامية بتسليم المساجد وأوقافها إلى جمعيات دينية إسلامية، أمّا النواب والنخبة فقد ركزوا على ضرورة تطبيق مشروع بلوم فيوليت بينما سعى أعضاء الحزب الشيوعي إلى جمع قوة الشعب الجزائري وراء الجبهة الشعبية التي كانوا أعضاء فيها بهدف محاربة الاضطهاد والظلم⁽⁵²⁾.

أبرز هذا المؤتمر مساعي جمعية العلماء لتحريك الجزائريين ودفعهم إلى ضرورة توحيد كلمتهم لإفنتكاك حقوقهم، وفتح أعينهم على قضايا لم يكونوا يعرفون عنها شيئا، كما عمل الوفد الذي سافر إلى باريس على التعريف بالقضية الجزائرية عن قرب، وعلى إثر اتهام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالعمل السياسي بحكم مشاركة قياداتها في وفد المؤتمر الذي توجه إلى باريس، ذكر الشيخ البشير الإبراهيمي "وإنك لتسمع بعض الألسنة التي تترجم عن قلوب جاهلة أو مريضة تردد هذا السؤال: ما معنى مشاركة العلماء في مؤتمر سياسي؟ كأنهم يريدون تخويفنا بهذا القول الموهوم، وتفويت الفرصة علينا بمثل هذه الترهات..."⁽⁵³⁾ ومع أنّ قانون جمعية العلماء الأساسي يبعد عنها الخوض في السياسة، فقد حاول الإبراهيمي أن يعلل ذلك قائلا: "إنّ جمعية العلماء حررت العقول، وصقلت الأفكار وأيقظت المشاعر، والنتيجة الطبيعية لذلك هي تحرير الأبدان، لأنّ الأول مدرجه إلى الثاني"⁽⁵⁴⁾ منوهاً بذلك إلى تحرير الأوطان كخطوة لاحقة، وقال أيضا "إنها جمعية سياسية في ثوب ديني، وإنها تستر القومية بستر الدين، وتخفي الوطنية بخفاء العلم والعربية"⁽⁵⁵⁾.

كانت مشاركة جمعية العلماء في المؤتمر فعالة حتى قبل تأسيسه، عن طريق رجالها على غرار ابن باديس والإبراهيمي والعقبي والعمودي وغيرهم من الأعضاء، كما لقيت مطالب العلماء المسلمين في المؤتمر القبول والموافقة وتبناها كلّ المؤتمرين⁽⁵⁶⁾، فكانت بذلك تمارس السياسة تحت غطاء الدين، وتعمل على تكوين الأجيال لهدف بعيد إلى أن تم حلها سنة 1956 كبقية الأحزاب الأخرى خلال الثورة التحريرية، ليلتحق أفرادها بالثورة المسلحة.

الهوامش والإحالات

- (1) - محمد قناتش، "الأحداث المسلسلة لنجم الشمال الأفريقي"، مجلة الدراسات التاريخية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، العدد 20، النصف الثاني من سنة 1985، ص 95.
- (2) - أمال علوان، أثر الحركة الكشفية الإسلامية الجزائرية على الحركة الوطنية والثورة التحريرية (1935-1962) أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2012-2013.
- (3) - الشيخ محمد خير الدين، مذكرات، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 327-329.
- (4) - جريدة الدفاع كانت تصدر باللغة الفرنسية تحت إدارة الشيخ الأمين العمودي، وهي لسان حال الحركة الإصلاحية.
- (5) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، (1900 - 1930)، بيروت، الطبعة الرابعة، دار الغرب الإسلامي، ج 1، 1992، ص152.

- (6) - محمد البشير الإبراهيمي، "يوم الجزائر"، مجلة الشهاب، 12 جويلية 1936.
- (7) - إبراهيم لونيبي، تداعيات اغتيال المفتي كحول بن دالي على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والمؤتمر الإسلامي الجزائري (1936-1939)، ص 98.
- (8) - إبراهيم مهديد، "الحركة الوطنية في القطاع الوهراني خلال عقد الثلاثينيات، النهضة والصراع السياسي"، دار القدس العربي، 2015، ص 122.
- (9) - Claire Marynower, « Le moment Front populaire en Oranie, mobilisations et reconfigurations du milieu militant de gauche », Le Mouvement Social, Paris, mars 2011, pp 9-22, p 16
- (10) - Bloc des Organisations Musulmanes de l'Oranie (B.O.M.O) (ك.ت.ا.ق.و)
- (11) - ذكر أحد التقارير الفرنسية بأنّ الشيخ السعيد الزاهري كان يسعى لتأسيس جريدة ناطقة باللغة العربية باسم "جريدة المغرب العربي" بالتعاون مع أحد السوريين من دمشق والذي كان موجودا بالقطاع الوهراني ويعرف باسم "مصطفى"، وهو يعمل لصالح الجريدة السورية "القبس" ويبدو أنّ الزاهري حسب التقرير كان يسعى لربط علاقات مع قادة الحركة المغربية والتي سيقترح عليها الاجتماع مستقبلا بالقطاع الوهراني، وذكر نفس التقرير أنّ الزاهري قد يكون يحصل على الدعم الشيوعي. للمزيد من المعلومات يمكن العودة إلى
- A.N.O.M, 9H28, Préfecture d'Oran, Affaires Indigènes, N3407, Rapport du Préfet d'Oran, à Mr le Gouverneur General, Alger, Oran, le 04/03/1937.
- (12) - محمد بكار، "علاقة جمعية العلماء المسلمين بنواب فدرالية المنتخبين المسلمين لعمالة قسنطينة (1931-1936)"، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، ديسمبر 2013، ص 89.
- (13) - D.A.W.O, Carton N 2260, Affaires musulmanes, Etudes, notes sur l'Oranie, Rapport du voyage en Oranie, Signé Mr A.B.H, avril 1935
- (14) - أحمد طالب الإبراهيمي (جمع وتقدم)، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الأول (1929-1940)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997، ص 231.
- (15) - إبراهيم مهديد، المرجع السابق، ص 126.
- (16) - البصائر، العدد 30، الجمعة 12 جمادى الأولى 1355 هـ الموافق لـ 31 جويلية 1936، "وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري يوم أم العواصم باريس"، ابن الحاج محمد، كاتب الوفد العام، ص 1.
- (17) - أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 250
- (18) - إبراهيم لونيبي، المرجع السابق، ص 95.
- (19) - سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص ص 45-47.
- (20) - جريدة الشهاب "عدد المؤتمر"، الجزء 4، المجلد 12، جويلية 1936، ص ص 210-213.

- (21) - خيرة بوسعادة، نشاط النخب الجزائرية في عمالة وهران ما بين 1919-1954"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة وهران، 2012-2013، ص 218.
- (22) - البصائر، السنة الأولى، العدد 29، الجمعة 25 جمادى الأولى 1355هـ الموافق لـ 24 جويلية 1936.
- (23) - محمد قنانش، المرجع السابق، ص ص 80-81.
- (24) - إبراهيم مهديد، المرجع السابق، ص 133.
- (25) - البصائر، السنة الأولى، العدد 31، الجمعة 19 جمادى الأولى 1355هـ الموافق لـ 7 أوت 1936 "اجتماع عظيم لم يبق له نظير يعقده وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري بالملاعب البلدي صبيحة الأحد 2 أوت 1936"، ص 1.
- (26) - إبراهيم مهديد، المرجع السابق، ص 136.
- (27) - المرجع نفسه، ص 225.
- (28) - البصائر، السنة الثانية، العدد 52، الجمعة 10 ذو القعدة 1355هـ الموافق لـ 22 جانفي 1937 "من آثار المؤتمر الإسلامي الجزائري"، محمد خير الدين، ص 3.
- (29) - عبد الرحمن بن إبراهيم العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، الفترة الثانية (1936-1945)، ج 2، الجزائر، م. و. ك، الجزائر، 1984، ص 27.
- (30) - البصائر، السنة الثانية، العدد 52، الجمعة 10 ذو القعدة 1355هـ الموافق لـ 22 جانفي 1937 "من آثار المؤتمر الإسلامي الجزائري"، محمد خير الدين، ص 3.
- (31) - البصائر، السنة الأولى، العدد 39، الجمعة 30 رجب 1355هـ الموافق لـ 16 أكتوبر 1936 "قرار قرره الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العربي التبسي، ص 5.
- (32) - Benali Boukort , Le Souffle du Dahra, E.N.A.L, Alger, 1986, p 61
- (33) - البصائر، السنة الثانية، ع 73، الجمعة 23 ربيع الأول 1356هـ الموافق لـ 2 جويلية 1937، "مظاهر الحياة في الجزائر، يوم المؤتمر الإسلامي أو وحدة الأمة في يوم عيدها العظيم"، بدون اسم، ص 1.
- (34) - إبراهيم مهديد، المرجع السابق، ص 178.
- (35) - البصائر، السنة الثانية، العدد 67، الجمعة 3 ربيع الأول 1356هـ الموافق لـ 14 مارس 1937 "المؤتمر الإسلامي الجزائري مظهر اتحاد الأمة الجزائرية وقوتها، البشرى بقرب انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني"، البشير الإبراهيمي.
- (36) - C.A.M.O : Comité d'action musulmane d'Oranie
- (37) - ibid., p 20
- (38) - FR .A.N.O.M, 10H88, op.cit., le 2eme C.M.A, Alger, février 1938
- (39) - أحمد لشهب، التحالفات السياسية في الحركة الوطنية من 1936 إلى 1951، أطروحة دكتوراه دولة في العلوم السياسية، فرع تنظيم سياسي وإداري، إشراف أ.د/ بوعشة محمد، جامعة الجزائر، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، أكتوبر 2007، ص 366.

- (40)- FR .A.N.O.M, Oran, 10H88, op.cit., Les Jeunesse Du Congres Musulman, Alger, février 1938.
- (41)- FR .A.N.O.M, 10H88, op.cit, le 2eme C.M.A, Alger, février 1938
- (42)- جريدة المغرب العربي: أسبوعية صدرت بوهرا ن ابتداء من شهر ماي 1937، ذات اتجاه إصلاحى .
- (43)- Lahouari Touati, Economie , Société et Acculturation , l'Oranie colonisée, 1881-1937, thèse pour le doctorat du 3eme cycle, tome2, sous la direction du professeur André Noushi , 1984, Université de Nice , faculté des lettres , et sciences humaines , U.E.R d'histoire et de civilisation, pp395-396
- (44)- Fouad Soufi, «De l'Etoile Nord-Africaine au PPA, continuité ou rupture .Implantation et développement du Mouvement Nationale dans l'Ouest Algérien ,1936-1938 , Recueil de conférences, L'Etoile Nord-Africaine et le mouvement national Algérien, Actes du Colloque du 27 février au 1^{er} mars 1987, Centre Culturel Algérien, Paris, 1988, au PPA... », p182
- (45)- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ص 152.
- (46)- Lahouari Touati, op.Cit, p395
- (47)- محمد حربي، الثورة الجزائرية سنوات المخاض، طبعة خاصة، وزارة المجاهدين، موفم للنشر، الجزائر 2008، ص 144.
- (48)- Abbas Ferhat, La nuit coloniale, Editeur Anep, Alger, 2005, op.cit, p 75
- (49)- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1930-1945)، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 2005، ص 151.
- (50)- Fouad Soufi, Oran Républicain et les problemes algériens (1937-1938), un journal Front Populaire face à la question nationale en Algérie, D.E.A, Alger, 1976, p54-59
- (51)- Oran Républicain, n du 10 juillet 1937.
- (52)- أمال علوان، أثر الحركة الكشفية الإسلامية الجزائرية على الحركة الوطنية والثورة التحريرية (1935 - 1962)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس 2012 - 2013، ص 73.
- (53)- أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 258.
- (54)- المرجع نفسه، ص 171
- (55)- المرجع نفسه، ص ص 40-41
- (56)- جريدة الشهاب، "عدد المؤتمر"، الجزء 4، المجلد 12، ربيع الثاني 1355هـ، جويلية 1936م، ص ص 210 - 213.

مشروع المواطنة في برنامج وخطاب حزب نجم شمال إفريقيا (1926م - 1937م)

Citizenship Project in North African Star Party Program and Discourse (1926-1937)

ط.د/ فاروق زروق

جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة (الجزائر)

farouk-zerrouk@univ-constantine2.dz

تاريخ القبول: 2021/09/28

تاريخ الإرسال: 2021/09/13

ملخص:

لطالما كانت المواطنة في صميم القضايا التي حركت النخبة والحركة الوطنية الجزائرية إبان فترة الاحتلال الفرنسي وتصدرت مطالبها، وهذا أمام السياسة الاستعمارية ومخططاتها الهادفة إلى تدميرها وإدماجها في المدنية الفرنسية، فالجزائري الذي فقد صفة المواطنة وما تحمله في جوهرها من معانٍ، أُخضعت له في الجهة المقابلة شروطا للحصول عليها في أرض كان من الحق الطبيعي أن يعيش فيها تحت سلطة تكفل له حقوقه وتصور حرياته.

تصدر حزب نجم شمال إفريقيا منذ تأسيسه مشهد الكفاح والمقاومة السياسية بأفكاره الجريئة وبرنامج الواقعي الذي ارتكز على مطالب سياسية واجتماعية في أفق دولة جزائرية مستقلة ومتحررة من قيود الاحتلال الذي عانى جراء ممارساته الشعب الجزائري.

الكلمات المفتاحية: نجم شمال إفريقيا، الأمير خالد، مصالي الحاج، برنامج الحزب، المؤتمر الإسلامي.

Abstract:

Citizenship has always been at the heart of issues that fueled the elite and the national movement towards claims during the period of the French occupation, in front of the colonial policy and its plans that aimed to dissolving and integrating Algeria into the French civilization. The Algerian who lost the status of citizenship and the meanings it carries in its essence was subjected to conditions in a land where it was the natural right to live under an authority that guarantees him his right and preserves his freedoms.

Since its founding the North African Star Party has led the scene of political struggle and resistance with its bold ideas and realistic

program, with was based on political and social demands on the horizon of an independent Algerian state liberated from the occupation.

keywords: North African Star, prince Khaled, Messali Hajj, party program, Islamic Conference.

مقدمة:

أبانت الإدارة الفرنسية عبر مشاريعها الاستيطانية وسياساتها الإدماجية عن مشروع استعماري واسع ومخطط له، يهدف إلى فكّ كلّ ارتباط للجزائري بأرضه وهويته الحضارية وكلّ مقوماته الوطنية، سواء كان ذلك بشكل مباشر أو من خلال قوانين ومراسيم تسعى نحو نفس الهدف، لذا جاء مشروع المواطنة الذي حمّله حزب نجم شمال إفريقيا في مسعى بمواجهة هذه السياسة طيلة مساره النضالي (1926م-1937م)، وامتداداً لنضال الجزائريين ضدّ الإمبريالية الاستعمارية، معربين عن ارتباطهم وحسهم الوطني تجاه بلادهم، أين نسعى في هذه الدراسة إلى محاولة استجلاء وتوضيح مشروع النجم بخطابات مناضليه ومحتوى برامجهم إضافة إلى مواقفه نحو مشروع المواطنة الجزائرية، وتمسكه بها وكذا ترسيخها في أذهان الشعب الجزائري والدفاع عن ذلك في كلّ فرصة تتاح له أو منبر يشارك فيه، وهذا باعتبارها قضية أساسية في صراعه ضدّ الاحتلال وإثبات وجوده.

1- مشروع المواطنة وفق المنظور الفرنسي:

إنّ مسعى السلطات الاستعمارية من إبراز قوتها العسكرية وقمعها المفرط وكذا مشاريعها السياسية ضدّ الجزائريين، لهُو بهدف فرض وجودها وسيطرتها وتكريس هيمنتها وفق أطر الدولة الفرنسية رغم التعارض الصارخ والكبير مع مقومات الجزائر وأبعادها الحضارية، فقد جاءت جلّ هذه الممارسات والتشريعات القانونية لتحدث قطيعة وانفصاما بين الجزائري ووطنه كعلاقة ارتباط وانتماء، فعلى هذا الأساس وجد الجزائريون أنفسهم يسعون لمحاولة استرجاع هذه العلاقة بما يتيح لهم الحصول على صفة المواطنة، غير أنّ ذلك اصطدم بعراقيل وصعوبات فرضت إزاءها الإدارة الفرنسية شروط وعقبات لا لشيء إلا لجعل الأهالي الجزائريين بمنأى عن تحقيق ذلك في الإطار الجماعي، باستثناء فئة تتوفر فيها الشروط المصاغة والمحددة لذلك.

إنّ استيفاء الجزائريين للشروط التي حددتها السلطات الفرنسية للحصول على صفة المواطنة الفرنسية جاء بمقتضى قرار مجلس الشيوخ لسنة 1865م والذي يعتبر فيه الجزائريين فرنسيين، لكنهم في المقابل لم يكونوا يتمتعون بصفة المواطنة، وجرت العادة على تسميتهم برعايا فرنسيين، وعلى أساس هذه الشروط المحددة وحصول الجزائري بموجبه على الجنسية الفرنسية فإنها تُدخله في دائرة الاستفادة من صلاحيات المواطن الفرنسي، وبالتالي فهو غير خاضع لقانون الأهالي⁽¹⁾، هذا الأخير الذي ظلّ سوطاً على الجزائريين لكبح حرياتهم وتقييد ممارسة حقوقهم ونشاطاتهم بصفة طبيعية، كما ساهم في تغييب إسهامهم عن تحديد المسار العام لحياتهم وتغيير أوضاعهم الاجتماعية نحو الأفضل، وفي الجانب المقابل من هذا الوضع انفرد الأوروبيون بتسيير شؤون الجزائر وفق ما تمليه عليهم مصالحهم دون أدنى اعتبار للجزائريين، لذا كان هذا الأخير محور اهتمام الطبقة السياسية والنخبة الجزائرية بمختلف توجهاتها في سبيل رفع القيود والإجراءات المسلطة على الشعب الجزائري ليكونوا على قدر المساواة مع الأوروبيين.

2- تأسيس نجم شمال إفريقيا:

في خضم الظروف والمناخ العام للجزائر، أين أحكمت الإدارة الفرنسية قبضتها عليه برزت بوادر الحركة الوطنية وتفاعل النخبة الجزائرية مع المستحجات والمتغيرات، وإن كان النضال السياسي في بدايته أخذ شكلاً فردياً لم يرق إلى أحزاب سياسية مطلع القرن العشرين، مثله بالخصوص الأمير خالد الذي اتخذ موقف المدافع على منح الأهالي الجزائريين صفة المواطنين الفرنسيين مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية، بعيداً عن السياق العام الذي رسمته وخطته الإدارة الاستعمارية وسياستها ونظرتها التقليدية للجزائريين، والتهميش الذي طاهم على كلّ الأصعدة، غير أنّ هذا الموقف والتوجه قد جلب للأمر خالداً اعتراضات ومضايقات من قبل الأعيان الجزائريين وأصحاب المصالح وكذا المعمرين ذوي النفوذ الكبير وصناع القرار بالجزائر، الشيء الذي دفع الإدارة الفرنسية إلى نفيه إلى فرنسا سنة 1923م⁽²⁾.

بفرنسا سمحت الظروف الملائمة نسبياً بما هي عليه في الجزائر وهامش الحرية السياسية التي افتقدها الأمير خالد بالجزائر ببعث نشاط الحركة الوطنية الجزائرية، عبر رفع انشغالات ومطالب الجزائريين والدعوة إلى تمثيلهم في المجالس المنتخبة وانخراطهم في العمل السياسي بما

يكفل لهم حقوقهم المدنية، وهنا واستنادا إلى نشاط الأمير خالد ونضاله يجمع العديد من المؤرخين على أنّ فكرة تأسيس نجم شمال إفريقيا في 20 مارس 1926م إنما تعود إلى فكرته هو⁽³⁾، والتي بلورها الحزب فيما بعد كتجمع مستقل عن الحزب الشيوعي الفرنسي وسط المهاجرين هناك، ففي هذه المرحلة أبان الأمير خالد عن نشاط سياسي كبير مستندا إلى تفاعل الجماهير الشعبية مع أفكاره وتوجهاتهم في مجارة الإدارة الفرنسية نحو افتكاك حقوق وحرّيات تكون على قدر المساواة مع الفرنسيين، ومعبراً في الوقت ذاته عن وطنية وتعلق كبير بالجزائر وإحساس بالشعب الجزائري ومعاناته، مبيّناً وحاملاً طموحات كبيرة جسدها في تحريره لعريضة وجهها للرئيس الأمريكي ولسن مطالبا فيها بإياه بإيجاد حلّ للقضية الجزائرية⁽⁴⁾.

الحقيقة أنّ تأسيس النجم ولو من حيث الفكرة والأرضية لهو من طرف الأمير خالد كما أشرنا إليه، وهذا على أنقاض جمعية دينية بباريس وهي جمعية الأخوة الإسلامية، وهو ما ذهب إليه عدد كبير من المؤرخين الجزائريين مثل محمد قنانش وهو مناضل من الجيل الثاني والذي تبني وجهة النظر حول انتقاله من منظمة اجتماعية إلى حزب سياسي فيما بعد⁽⁵⁾، وضمّت هذه الجمعية عمال شمال إفريقيا بفرنسا خلال سنتي 1923م و1924م ممن كانوا يحضرون تجمعاته ويسمعون لخطاباته ومحاضراته، أين شكّلوا اللجنة الأولى لهذا النضال الوطني والانخراط في الميدان السياسي الذي ظلّ حكراً على الأوروبيين فقط، وقد ارتكزت مطالب الأمير خالد حول إلغاء قانون الأهالي وغيرها من القوانين الاستثنائية وفتح المجال العام أمام الجزائريين للتعبير عن آرائهم من خلال حقّ الاجتماع وحرية الصحافة، مسهما بذلك في فتح الأبواب وتوطيد طريق ستأخذ فيه الحركة الوطنية فيما بعد مشعل النضال الوطني⁽⁶⁾، وأمام هذا التاريخ الذي أثير حول تأسيس نجم شمال إفريقيا سواء سنة 1924م أو 1926م فإنّ النجم معترف به بفرنسا وسط المهاجرين المغاربة قد تأسس طبقاً للقوانين المصادق عليها في الاجتماع العام المنعقد يوم 20 جوان 1926م، ويهدف حسب ما ينص عليه قانونه الأساسي إلى تدريب مسلمي شمال إفريقيا على الحياة في فرنسا والتنديد بجميع المظالم، وقد قرر النجم منذ تأسيسه توحيد العمل مع كافة المنظمات الشغلية والفلاحية والشعوب المضطهدة، واستلهم مؤسسوه شعاره من المبدأ التالي: "إنّ الشمال الإفريقي لا يقومون بواجباتهم فقط بل أكثر من واجباتهم، لذا فإنهم يطالبون بكامل حقوقهم"⁽⁷⁾.

تطورات عدة عاشها حزب نجم شمال إفريقيا منذ تأسيسه سواء داخليا أو خارجيا فبحكم أنّ بداية مسيرته كانت جماعية بين مناضلي شمال إفريقيا، وعلى أساسه ساق تسميته كنضال موحد بين الجزائريين والتونسيين والمغاربة، إلا أنّهما (التونسيون والمغاربة) لم يُبديا تحمسا كبيرا للعمل فيه بحكم أنّ الفكرة الموجودة عندهم هي أنّ القضية الجزائرية أكثر تعقيدا من قضيتهما، وعلى هذا فإنّ مشاركتهم للجزائر يبعد قضيتهما على الحل، انطلاقا من كون أنّ تونس والمغرب لم تكونا في حال الجزائر، فهناك اختلاف بحسبهم بين وضعية الحماية التي كانتا عليها ووضع الجزائر كمستعمرة، الشيء الذي جعل حزب نجم شمال إفريقيا منذ ذلك الوقت يأخذ الطابع الجزائري المحض⁽⁸⁾.

3- صياغته للبرامج ومسايرته للمستجدات:

أفضت الإمبريالية الاستعمارية بالجزائر واقعا تعيسا ومزرا، حيث كابد بسببه الشعب الجزائري تداعيات الأزمات الاقتصادية والقوانين الترهيبية وكلّ أشكال القمع، وفوق هذه الوضعية افتقاده لأبسط حقوقه، فقد سبق شبابه لميدان الحرب العالمية الأولى تحت قانون التجنيد الإجباري سنة 1912م، وهو ما أثار امتعاض واستياء الجزائريين نحوه، كلّ هذه الأوضاع مرّ بها مصالي الحاج وعاش حيثياتها مباشرة، فقد جند سنة 1916م شأن أقرانه من الشباب الجزائريين والتحق بفرنسا أين زادت معانيته عن كُتب للأحوال هناك، ومن جهة أخرى زادت من احتكاكه بالحركات الوطنية والأفكار التحريرية سواء على مستوى العالم العربي أو الدول المستعمرة عامة.

تميز برنامج نجم شمال إفريقيا بالعمق في طرحه للنقاط المتعلقة بالقضية الجزائرية كتصورها خارج أطر السياسة الفرنسية⁽⁹⁾، فبحكم تجربته النضالية في الميدان ومعايشته لحياة الشعب الجزائري عن كُتب، كالتغيب الكبير للجزائريين عن الحياة السياسية ومنعهم من التعبير عن وجهات نظرهم وغلق المجال السياسي أمامهم، هو ما دفع بالنجم إلى تبني القضايا الأساسية للجزائريين للخروج من هذه الوضعية، وعليه حمل برنامج نجم شمال إفريقيا عدة مطالب أبرزها:

- حقّ الانتخاب والترشح في جميع المجالس من بينها البرلمان الفرنسي بنفس الحق الذي يتمتع به المواطن الفرنسي.

- إلغاء تام لجميع القوانين الاستثنائية والمحاكم الزجرية والمجالس الجنائية والمراقبة الإدارية والتي فرضت بموجب قانون الأهالي، وذلك بالرجوع للقوانين العامة.
 - التطبيق التام لقانون التعليم الإجباري وحرية الصحافة والجمعيات.
 - تطبيق القوانين العمالية والاجتماعية على الأهالي دون تمييز.
- وقد حملت جريدة الإقدام الباريسي لسان النجم في البداية مطالب وانشغالات الجزائريين التي رافع من أجلها الحزب إلى أن تم تعطيلها في فبراير 1927م⁽¹⁰⁾.

إنّ الإمعان في المطالب التي تضمنها برنامج الحزب يحيلنا إلى القول بأنّها ثورة على الأوضاع التي أسستها فرنسا بقوانينها ومحاوله لاستعادة الجزائري لحقوقه الذي تكالب عليه الاستعمار، ورغم حل النجم سنة 1929م وما صاحبه من قمع إلا أنّه واصل نشاطه في السرية وشقّ درب النضال المستميت بفضل مسؤوليه والروح الوطنية التي طبعت نضالهم الصادق وتشبعهم بمبادئها، عبر تعبئة كامل قواه (النجم) وصنع أداة كفاحه بنفسه في سبيل تعزيز الوعي الوطني، منددين بمختلف المناورات السياسية الاستعمارية التي ما انفكت منذ مائة عام تعبر عن نفسها بالنار والتجهيل وسلب الممتلكات والحريات الأساسية وبعث القوانين الاستثنائية، لقد كانت هذه السياسة تستهدف تفكيك المجتمع الجزائري ووحدته الوطنية وثوابته الأساسية واستبداله في نهاية الأمر بأناس أجنبية عن الوطن لا يمتون بأيّ صلة له ويحظون بجميع الامتيازات، وليس هذا إلا مشروع التدمير الوطني المقنع بالرسالة الحضارية، والذي اصطف النجم بهياكله وبرامجه يقاوم هذا المشروع الذي أدرك خلفياته وأهدافه منذ مدة⁽¹¹⁾.

خلال الجمعية العامة التي انعقدت في 28 ماي 1933م وهي الجمعية التي صادقت على القانون الجديد وعلى القيام بنشاط واسع وتكليف الحزب مع طموحات الشعب الجزائري، أين حملت هذه الجمعية مطالب عاجلة وأكثر جرأة لصالح القضية الجزائرية⁽¹²⁾، وحدد المؤتمر البرنامج السياسي والمطالب المستعجلة والفورية إلى جانب النقاط التي كان قد طرحها الحزب في برنامجه السابق وهي:

- الحق لجميع الجزائريين في الوظائف العامة دون أيّ تمييز، وظائف متساوية بأجور متساوية.
- التعليم باللغة العربية إجباري ومباشرة التعليم في جميع المستويات.

كما ضمّ القسم الثاني المطالب التالية:

- الاستقلال التام للجزائر وإنشاء جيش وطني وحكومة وطنية ثورية.
- الاقتراع العام في جميع المستويات وحق الترشح في جميع المجالس لجميع السكان⁽¹³⁾، وبالمقارنة بين برنامج سنة 1927م وسنة 1933م نلاحظ تطورا في مطالب الحزب كورود مطالب جديدة لم ترد في البرنامج الأول مثل إلزامية التعليم، إضافة إلى بعض المطالب الأكثر وضوحا مثل انتخاب برلمان وطني جزائري، ومرد ذلك هو تأثير النجم بالفكر التحريري الذي كان سائدا في أوروبا والعالم مع نخبة وشخصيات نضالية كشكيب أرسلان، ومشاركته في اجتماعات الدول المستعمرة والمناهضة للإمبريالية بكل أشكالها، كما يوحي هذا التطور على مستوى المطالب النزعة الوطنية للحزب وتحديه للإدارة الفرنسية.

4- النزعة الوطنية في خطابات حزب نجم شمال إفريقيا:

إنّ السبيل الذي سلكه الحزب في مناهضة الإمبريالية الاستعمارية وتحديه لسياستها دفعه للبحث عن آليات يعبر بها عن ذلك خاصة مع حملة التضييق التي طالته ومحاوله ثنيه عن نشاطه، فكانت الاجتماعات الدولية والمنابر الإعلامية فضاء بالنسبة له لعرض القضية الجزائرية وإخراجها من الميدان الضيق، فمن بين مشاركاته على المستوى الدولي، مشاركته في مؤتمر بروكسل الذي انعقد ما بين 10 و15 فيفري 1927م، أين اغتنم مصالي الحاج الفرصة وقدم فيه مطالب تخصّ الجزائر والمغرب، وقد نشرت جريدة الكفاح الوطني الجزائري الصادرة بالجزائر بتاريخ 11 مارس 1927م نص التقرير الخاص بالجزائر وعنوانه "يقظة العبيد"، وهو عرض لحالة الجزائريين أمام ساسة الإمبريالية والتسلط على حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية مطالباً في الوقت نفسه برفع هذه الإجراءات ومنح الشعب الجزائري حقّ تقرير مصيره⁽¹⁴⁾.

إنّ تمرس مناضلي حزب نجم شمال إفريقيا ومؤسسيه على المطالب في الميدان السياسي قبل ميلاده، يمثل إرثا نضاليا للجزائريين والمهاجرين بفرنسا على الخصوص، فقد ولد انخراطهم المبكر واحتكاكهم بالنقابات العمالية حسنا ونزعة مطلبية، كما اكتسبوا تجربة في الدفاع عن حقوقهم المهنية والاجتماعية والتي كان لها أثر فيما بعد في النضال الوطني والدفاع عن مصالح الجزائر، إذ يعلن أحد المؤسسين الأوائل للحركة الوطنية وهو الحاج علي عبد القادر عن هدفهم

بقوله: "إننا نناضل من أجل استقلالنا"، من جانبه يعرف المناضل إسعاد حزب نجم شمال إفريقيا في إحدى محاضر الجلسات بأنه: "منظمة ثورية وطنية"، وهو ما يثبت الأسس القويمة له كحزب وطني يرمي إلى أهداف وطنية يساير طموحات الجزائريين ويحمل أبعادا تحريرية⁽¹⁵⁾ وفي إحدى المقالات التي ظهرت في جريدة الإقدام الباريسي كان عنوانها "إنّ هدفنا هو الاستقلال الوطني أملنا الأسمى وخلصنا الأسمى"، والتي أشارت إلى الصراع القائم من أجل الاستقلال ضمن مفهوم الوطنية الثورية التي يناضل ويسعى إليها الحزب⁽¹⁶⁾.

5- مشروع بلوم فيوليت ... المواطنة الجزائرية مبدأ أساسي للنجم:

لم تكن سياسة الإدماج التي كثيرا ما أوهمت بها فرنسا الأهالي سوى أداة سيطرة واستغلال وتوليحا من لدنها على أهما تنازلات للجزائريين، إذ أنها استخدمت في الأصل لمحاربة الهوية الوطنية الجزائرية وفك ارتباط الأهالي وانتمائهم لأرضهم ووطنهم، فباستثناء قلة قليلة من المتجنسين الذين قبلوا التخلي عن أحوالهم الشخصية والحصول على الجنسية الفرنسية، كان الرفض عاما من قبل الشعب الجزائري، وبالأخص حزب نجم شمال إفريقيا لهذا المشروع فمشروع بلوم فيوليت الذي أثرت حوله هالة إعلامية كبيرة لم يكن يعني في حقيقته، وبحسب نظر أكثر الساسة الفرنسيين، سوى ما أدركه النجم مسبقا، فبحسب المؤرخ شارل أندري جوليان هو ليس إلا مشروعا لكسر وضرب الوطنية في الصميم بعيدا عن التصورات التي أحيطت به، يقول: "هذا الحصول على المواطنة المأمولة كان من وجهة النظر الفرنسية أنجح حاجز أمام الوطنية"⁽¹⁷⁾، ومن هنا نفهم خلفية المشروع الذي لا يندرج إلا في نطاق ضرب الحركة الوطنية التي اعتادت عليها السلطات الفرنسية عبر طرح مشاريع وتنازلات مزيفة ومشفرة وهذا عوض الاستجابة المباشرة للمطالب التي يرفع من أجلها الجزائريون⁽¹⁸⁾.

تزامن وصول الجبهة الشعبية للحكم في فرنسا سنة 1936م مع إعادة إحيائها لمشروع بلوم فيوليت، فالمشروع في أساسه هو مشروع استراتيجي إندماجي بالدرجة الأولى، يمنح بموجبه حق المواطنة الفرنسية لحوالي 20000 من الأهالي المتعلمين دون مطالبتهم بالتخلي عن أحوالهم الشخصية، وهو ما أثار حماس النخبة الجزائرية والتي علقت عليه آمال كبيرة ورحبت به أيما ترحيب، وفي هذا الشأن جاء انعقاد المؤتمر الإسلامي في 7 جوان 1936م لمناقشة هذا

المشروع، أين حمل وفد منه ممثل من جماعة النخبة وأعضاء من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جملة من المطالب تمت صياغتها إضافة لمشروع بلوم فيوليت إلى الحكومة الفرنسية بباريس ونشير هنا إلى غياب النجم على هذا الحدث والوفد المرافق له، وبتاريخ 2 أوت 1936م اجتمع الآلاف من الجزائريين في الملعب البلدي بالجزائر العاصمة للاستماع إلى تقرير الوفد ومهمته في باريس، وكان مصالي الحاج من الحاضرين، إلا أنه لم يكن في جدول المتكلمين وأثناء السماح له لإلقاء كلمة، ألقى خلالها خطابا شعبيا حماسيا، تعرض فيه بالدرجة الأولى لشرح برنامج ومبادئ النجم ونضاله في أرض الغربية، وكذا أهدافه ووجهة نظره حول مشروع بلوم فيوليت وسبب معارضته له، وتحفظه على بعض النقاط التي ضمّها والتي لا تتوافق وطموح الشعب الجزائري وآماله، إذ عبّر عن ذلك رئيس الحزب مصالي الحاج في قوله: "ربط بلادنا بفرنسا وعن التمثيل البرلماني، ذلك أنّ الجزائر مرتبطة بفرنسا وهو ارتباط جاء نتيجة احتلال قاسٍ وليس عن اختيار وإرادة"، وقد فتح هذا الخطاب الباب بمصراعيه للنجم وعلى مستقبله في الجزائر⁽¹⁹⁾، وبنداء مشبع بروح وطنية ومسؤولية عبّر عن دعوته إلى التمسك بالقيم الثابتة للشعب الجزائري والنضال في سبيل حقوقه وحرياته وصون دينه وتاريخه ومقوماته الأساسية نحو حياة كريمة بما تقتضيه من حقوق له وواجبات تجاهه، وهو ما عبّر عنه بهذه العبارات: "إنّ حزب يعمل لغاية شريفة ويجب أن يناهض طوعا أو كرها قصر المدى أم طال ... إنّ رجاله هم هم لم ينسلخوا ولم يتجنسوا ولم يندمجوا ولم يتفرقوا وسيبقون كذلك ما دامت الأرض أرضا والسماء سماء والوطنية تسمى وطنية"⁽²⁰⁾، بطبيعة الحال وأمام تجاهل السلطات الفرنسية وحكومتها لمطالب المؤتمر والضغط الذي فرضه المعمرون بقي المشروع معلقا، وبتاريخ 8 فيفري 1938م لم يناقش المشروع في مكتب الجمعية العامة خاصة مع تحديد رؤساء البلديات بالاستقالة الجماعية، أين استجابت حكومة بلوم لضغطهم وتم بعدها سحب المشروع نهائيا⁽²¹⁾، وقد جلب هذا التوجه للحزب والتفاعل الجماهيري معه والتفاف الشعب الجزائري حول برنامجه وخطابته التي تمثل واقعه حقا، وتحدد مستقبله ومصيره، سهام الريبة من قبل الإدارة الاستعمارية ممثلة في الجبهة الشعبية التي لم تكن مستعدة لأن تشرف على حلّ الإمبراطورية الفرنسية بتسليم الاستقلال الذي يطالب به النجم، فساءت بذلك العلاقة مع تعاطف شعبية النجم ما دفعها إلى حله في جانفي 1937م، لتكون بذلك نهاية مرحلة من مراحل الحزب الذي أسس لبرنامج وفكر وطني لم يزل ولم يذهب بذهاب الاسم⁽²²⁾.

خاتمة:

- حاولت الإدارة الاستعمارية جاهدة بمختلف الأساليب والإجراءات فرض حضارتها المزعومة بأرض الجزائر، كل هذا على حساب الهوية الجزائرية وانتماءاتها الحضارية ومقوماتها الأساسية، والتي أبانوا فيها عن رفض تام ومطلق ومجابهة ذلك بكل الوسائل المتاحة.
- مثل نجم شمال إفريقيا البداية الأولى للحركة الوطنية الجزائرية كحزب وطني جزائري بفضل نضال وتمرس مسؤوليه في الساحة السياسية والعمل النقابي، أين استطاع أن يرفع مطالب الجزائريين إلى المستوى الدولي ببرنامجه المركز وخطاباته الجريئة حول المواطنة كمشروع أمل للجزائريين ضدّ الإمبريالية الاستعمارية وأهدافها السياسية، فهذا التوجه والرؤية للنجم نحو القضية الوطنية مكنته من أن يستند وأن يجند خلفه قاعدة جماهيرية كبيرة من الشعب الجزائري ممن آمنوا بمطالبه وأطروحاته.
- رسم نجم شمال إفريقيا بنشاطه السياسي والمبادئ الثابتة القائم عليها والتي ظلّ وفيها لها خارطة الطريق نحو الهدف المنشود للشعب الجزائري نحو الوطنية كعلاقة انتماء وارتباط تكون الحقوق والحريات التي يرحوها في مستوى طموحاته والواجبات التي يقوم بها، وهي الحقيقة المغيبة في الواقع أمام المخططات الفرنسية التي تسعى دوما لإحداث تنافر بين الجزائري ووطنه وتسوق في سبيل ذلك المشاريع لقطع هذا الاتصال.

الهوامش والإحالات

- (1) - محفوظ قداش: الحركة الوطنية الجزائرية 1919م-1939م، ترجمة: أحمد بن البار، ج1، ط1، دار الأمة الجزائرية، ص44.
- (2) - أحمد محساس: الحركة الثورية في الجزائر 1914م-1954م، دار المعرفة، الجزائر، 2007، ص49.
- (3) - شارل روبيرت أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصر، ج2، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2008، ص569.
- (4) - محمد قنانش ومحفوظ قداش: النجم الشمال الإفريقي 1926م-1937م، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، 2009، ص19.
- (5) - سطورا بنجامين: مصالي الحاج، ترجمة: محمد المعراجي، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائرية، 2007، ص55.
- (6) - عبد الحميد زوزو: الدور السياسي للمهاجرين إلى فرنسا بين الحربين 1914م-1939م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص55.

- (7) - قنانش وقداش: المرجع السابق، ص 47.
- (8) - هشماوي مصطفى: جذور نوفمبر 1954م في الجزائر، دار هومه، الجزائر، 2006، ص 38.
- (9) - الحاج مصالي: مذكرات مصالي الحاج، ترجمة: محمد المعراجي، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 75.
- (10) - محمد قنانش ومحفوظ قداش: المرجع السابق، ص 41.
- (11) - أحمد محساس: المصدر السابق، ص 85.
- (12) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 3، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 43.
- (13) - محمد قنانش ومحفوظ قداش: المرجع السابق، ص 57.
- (14) - محمد قنانش ومحفوظ قداش: المرجع السابق، ص 47.
- (15) - كمال بوقصة: مصادر الوطنية الجزائرية، دار القصة، الجزائر، 2005، ص 357.
- (16) - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 125.
- (17) - أحمد محساس: المصدر السابق، ص 208.
- (18) - محفوظ قداش: الحركة الوطنية الجزائرية 1919م-1939م، ترجمة: محمد بن البار، ط 1، دار الأمة الجزائر، ص 58.
- (19) - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص 139.
- (20) - مصطفى هشماوي: المرجع السابق، ص 41.
- (21) - عز الدين مغرة: فرحات عباس ودوره في الحركة الوطنية، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر إشراف: عبد الكريم بوصفصاف، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2004م-2005م، ص 166.
- (22) - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص 205.

أبعاد المواطنة وأصول الخطاب السياسي والإصلاحي في كتابات بعض علماء الجمعية

Citizenship Dimensions and the Origins of Political and Reform Discourse in some of the Oulema Association Scholars's Writings.

ط.د/ قدّور عبدلي

د. عبد الرحمن عيساوي

جامعة آكلي محند أولحاج - البويرة (الجزائر)

kaddourbbr@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/09/30

تاريخ الإرسال: 2021/09/11

ملخص:

يتناول هذا المقال مفهوم المواطنة في جانبه اللغوي والاصطلاحي مع توضيح الأسس والأبعاد التي تقوم عليها، وفي المقابل هو محاولة متواضعة للحديث عن دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال شخصيتين بارزتين من أعضائها، هما: عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي - رحمهما الله - مع ذكر العوامل المساهمة في تكوين شخصيتهما.

وقد انصب الحديث على ذكر أصول الخطاب السياسي والإصلاحي لكل منهما حيث كانا يسعيان من خلال ذلك إلى الوصول إلى تثبيت عناصر الهوية الوطنية في كتاباتهما مع محاولة ترسيخ أبعاد المواطنة بين أفراد المجتمع الجزائري بمقوماتها التاريخية والحضارية والوطنية خلال الفترة التي عاشاها من الحقبة الاستعمارية؛ والتي حاولت فيها فرنسا القضاء عليها من خلال محاولات سياسة الإدماج وقانون التجنيس وعمليات التنصير... إلخ.

الكلمات المفتاحية: المواطنة، الهوية، الأبعاد، المجتمع، الجمعية، الأهداف.

Abstract:

This article deals with the concept of citizenship in its linguistic and idiomatic aspect, with an explanation of the foundations and dimensions on which it is based. On the other hand, it is an attempt to talk about the role of the Association of Algerian Muslim Scholars, characterized by two prominent figures among its members ; They are : Imam Abd al-Hamid ibn Badis and Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, with a mention of the factors contributing to the formation of their personality.

The discussion focused on mentioning the origins of the political and reformist discourse of both. They were trying to reach the consolidation of the elements of national identity in their writings, in the same time they were trying to establish the dimensions of citizenship among members of Algerian society with its historical, civilisational and patriotic components; Which France tried to eliminate through attempts to integrate politics, the naturalization law and Christianization processes... etc.

Keywords: the citizenship, the identity, the dimensions, the society, the association. The goals.

مقدمة:

قد يختلف مدلول مصطلح المواطنة من مجتمع إلى آخر، غير أنّ هناك عوامل مشتركة تجمع بين أفراد المجتمع الدولي من الناحية القانونية والسياسية والاجتماعية والثقافية في تحديد معناه... ومهما يكن من أمرٍ فمصطلح المواطنة مشتقّ من كلمة (الوطن) وهذا ما يحدّد من اختلاف الناس في تحديد المعنى العام.

ومن الأسئلة المعالم التي توطّر بحثنا نذكر:

- ما هو مفهوم المواطنة؟
 - ما هي أهمّ الأساليب التي انتهجها الاستعمار الفرنسيّ البغيض لصرف أفراد المجتمع الجزائريّ عن حبّ وطنهم والدّفاع عنه ضدّه؟
 - ما موقف جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين اتجاه هذه الأساليب؟ وما الذي قدّمته للمحافظة على عناصر الهويّة الوطنيّة الجزائريّة خلال تواجد المحتل بالجزائر؟
- بالإجابة عن هذه الأسئلة سنحاول الإحاطة بمفهوم "المواطنة"، وإبراز دور جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في نشر الوعي بين المواطنين الجزائريين، والسعي إلى المحافظة على مبدأ التلاحم بين أفراد المجتمع في الإطار الدّيني والوطنيّ والاجتماعيّ والثّقافيّ من أجل تحقيق روح المواطنة في تلك الفترة الصعبة من تاريخ الجزائر.

1- مفهوم المواطنة:

يقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]. ويقول الرّسول ﷺ تعبيراً عن اشتياقه لوطنه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ

بن الحُمراء أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ وَقِفٌ بِالْحُزُورَةِ فِي سُوقِ مَكَّةَ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرٌ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ⁽¹⁾. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: مَا أَطْيَبَكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ⁽²⁾.

من خلال الآية القرآنية الكريمة نستنتج أنّ المسلمين المضطهدين من طرف قريش أمروا بقتال قريش لأنهم أخرجوا من مكة؛ أي: (من ديارهم) بغير حق. ومن خلال الحديثين الشريفين نجد أنّ قريشاً قامت بإخراج الرسول ﷺ وبعض صحابته من مكة عن طريق اضطهادهم؛ وهذا بتسليط أشدّ العذاب عليهم بما جعل البعض منهم يهاجرون إلى الحبشة ثم إلى المدينة المنورة، وكانت مكة أحبّ البلدان إلى نفس الرسول ﷺ؛ وهذا الأمر ليس شيئاً غريباً باعتبار أنّ مكة هي موطنه الأصلي وموطنهم الذي شبّوا فيه، ولهم فيه من ذكريات الصبا ما لهم.

فالوطن إذاً هو تلك البقعة الجغرافية التي يشبّ الشخص ويتعرّع فيها، وترطبه بها أمور كثيرة؛ مثل ذكريات الصبا، وله منه بعض الحقوق، وعليه الكثير من الواجبات تجاهه؛ مثل: الدفاع عنه عند اللزوم.

والوطن في "لسان العرب" المنزل تقيم به؛ وهو موطن الإنسان ومحلّه، والجمع أوطان⁽³⁾. وقد خففه رؤية في قوله: أوطنت ووطنًا لم يكن من وطني، لو لم تكن عاملها لم أسكن بها ولم أرحن بها في الرّجن⁽⁴⁾... وأوطان الغنم والبقر هي مراتبها وأماكنها التي تأوي إليها. ووطن بالمكان، وأوطن مكانًا؛ أي: اتّخذ موطنًا. ويقال: أوطن الرجل أرضًا؛ أي: اتّخذها مسكنًا ومحلًّا له⁽⁵⁾.

وأما المواطنة؛ فهي من مشتقات الفعل (وَطَنَ)؛ والذي مصدره (وَطَنٌ)، ومنه نلخص إلى المصطلح (مواطنة). والمواطنة باللّغة الإنجليزيّة (citizenship)، وبالفرنسيّة (citoyenneté) ويقوم هذا المصطلح على الحقّ في الإقامة بالوطن والمشاركة والعمل فيه ضمن حدوده الجغرافيّة والسياسيّة المعترف بها دوليًا، كما يشير إلى الانتماء لمجتمع ما؛ والذي يرتبط فيه أفراده بروابط دينيّة واجتماعيّة وثقافيّة... ضمن هذه الحدود.

ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نلخص عوامل تحديد المواطنة فيما يلي:

- حقّ التراب؛ أي: الولادة على أرض الوطن.
 - حقّ الدّم؛ أي: الجنسية كيفما كان مصدرها من الوالد، أو من الوالدين معاً، أو من الأجيال السابقة.
 - الزّواج: وتقوم بعض الدّول التي تعاني من موجات الهجرة البشريّة - ولا سيّما غير الشّرعيّة منها - بمحاربة حالات الزّواج المزوّرة للحصول على جنسيّتها.
 - حقّ التجنيس: ويتمّ هذا الأمر عن طريق إعطاء بعض الدّول الجنسيّة للأفراد الذين دخلوا إليها بشكلٍ قانونيٍّ؛ أمّا فيما يخصّ مواطنيها الأصليين فالأمر هو تحصيل حاصل.
- وقد يقف المواطن بين الوطن والمواطنة والوطنية؛ حيث أنّه يجب أن يكون منتمياً إلى هذا الوطن ل يتمتع فيه بحقوقه المدنيّة والسياسيّة والاجتماعيّة ... وتترتب عليه في المقابل مسؤوليّات تجاهه كالدّفاع عنه عند الضرورة؛ وبذلك يكون شخصاً وطنياً غيوراً عليه من كلّ ما يهدّد أمنه وسلامته ووحدة ترابه.

2- أسس المواطنة وأهدافها: ويمكن أن نخصر الأسس والأهداف في هذه الحالة فيما يلي:

- أ- أسس المواطنة: تتمثّل أسس المواطنة فيما يلي:
 - الانتماء: ويعني شعور الإنسان بالانتماء إلى مجموعة بشريّة أو بلدٍ ما على اختلاف التنوّع العرقيّ والدّينيّ.
 - الحقوق: ويتمتّع فيه الفرد بحقّ المواطنة الخاصّة والعامة؛ مثل الحقّ في الأمن والسّلام والصّحة والتّعليم والعمل والخدمات الأساسيّة العموميّة وحرية التنّقل والتّعبير والمشاركة السياسيّة... إلخ.
 - الواجبات: وتتمثّل في احترام النّظام والآداب العامّة، والحفاظ على الممتلكات، والتكافل والتآزر مع أفراد المجتمع، والمساهمة في بناء الوطن والدّفاع عنه عند الضّرورة، إلى جانب المشاركة في اتّخاذ القرارات السياسيّة عن طريق الانتخاب والتّرشّح والترشيح وتسيير المؤسّسات العموميّة والمشاركة فيه بما يخدم مصالحه العامّة.

ب- أهدافها: من الأهمية بمكان أن يتمتع المواطن بحقوقه المدنية والسياسية والاجتماعية مثل: الحق في التعليم والصحة والتقل...، غير أنّ الأهمّ من كلّ ذلك أن يكون هذا الشخص عند حسن ظنّ هذا الوطن الذي ينتمي إليه، وذلك باحترامه للنظام العامّ الذي يقوم عليه، والدّفاع عنه عند الحاجة، والمشاركة في بنائه بكلّ إمكانيّاته الماديّة والمعنويّة للوصول به إلى ركب التّقدّم والتّطور، كما يسعى بكلّ ما أوتي من قدرة إلى المحافظة على المصلحة العامة للمجتمع دون إهمال المصالح الخاصّة. وبهذا يكون هذا المواطن إنساناً صالحاً نافعاً لمجتمعه وغيوراً على وطنه ومعامله الوطنيّة والتّاريخيّة.

3- المواطنة وخطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

قبل أن ندخل صلب الموضوع نتطرّق إلى بعض النّقاط التمهيدية التي قد تكون ذات أهمية بالغة؛ وهي كالتالي:

- أ- العوامل المساعدة في تكوين شخصيات علماء الجمعية:** من العوامل أذكر:
- تلقّهم لعلوم الدّين والشّريعة الإسلاميّة في مقرّ إقامتهم؛ مثل ابن باديس بقسنطينة (عاصمة العلم والمعرفة)، والإبراهيمي بمنطقة أولاد براهيم بمنطقة رأس الوادي شرق ولاية برج بوعرييج ...
 - هجرة البعض منهم إلى البلاد العربيّة كالإبراهيمي الذي سافر إلى منطقة المشرق العربيّ مثل: مصر والحجاز واحتكّ ببعض علمائها ومشايخها؛ مثل: مشايخ الأزهر الشّريف.
 - التواجد الاستعماريّ ببلادنا وسياسته التّعسفيّة في محاربة المعالم الرّوحيّة للمجتمع الجزائريّ؛ حيث قام الاحتلال الفرنسيّ بعدّة محاولات يائسة وفاشلة بغرض فرض حقّ المواطنة المزعوم لصالحه سعياً لتمكين بقائه في بلادنا إلى الأبد، أو على الأقلّ لمدة أطول؛ ومن هذه المحاولات البائسة واليائسة:

- التّجنيس (La naturalization):

كان قانون (السّيناتوس كونسولت) الصّادر في 14 جويلية 1865م؛ القانون الأوّل المانح الجنسيّة الفرنسيّة للجزائريين شريطة تخليهم عن أحوالهم الشّخصيّة، ومنذ ذلك التاريخ إلى نهاية سنة 1899م كان عدد المتجنّسين بالجنسيّة الفرنسيّة 1131 مواطناً^{(6)*}.

- سياسة الإدماج (L'assimilation):

نشأت فكرة الاندماج في وسط المتجنّسين الذين أصبحوا يرغبون في رؤية جميع الجزائريين الذين يتمتّعون بالجنسيّة الفرنسيّة حتّى يتخلّصوا من وضعهم الشاذ في المجتمع الجزائري؛ حيث كانوا ينظر إليهم على أنّهم أقلّيّة ملعونة. ومن أبرز الدّعاة إلى سياسة الإدماج الزناتي صاحب جريدة صوت الأهالي وبعض النّواب وشخصيّات أخرى مثل: الدكتور ابن تامي والفاسي ... إلخ⁽⁷⁾.

وقد استمرّت عمليّة التجنّس بين المواطنين الجزائريين في حدود العشرات كلّ سنتين كما يوضّحه هذا الجدول التّوضيحيّ:

السنة	عدد الأشخاص المتجنّسين من الجزائريين	الرّقم
1920 م	17 شخصًا.	01
1922 م	56 شخصًا.	02
1924 م	29 شخصًا.	03
1926 م	67 شخصًا.	04
1928 م	38 شخصًا.	05
1930 م	152 شخصًا.	06
1932 م	127 شخصًا.	07
1934 م	155 شخصًا.	08
1936 م	142 شخصًا.	09
1938 م	190 شخصًا.	10

الأمر الذي جعل رجال الجمعيّة، وفي مقدّمهم الإبراهيمي يقفون له بالمرصاد في مجلّاتها كالشّهاب والإصلاح والمغرب ... (8)**).

- محاربة القيم الرّوحيّة والمعالم الحضاريّة للمجتمع الجزائريّ:

قام الاستعمار الفرنسيّ ببعض الإجراءات التّعسفيّة عن طريق محاربة القيم والمعالم الرّوحيّة؛ مثل:

* **المسجد:** كانت فرنسا تهرع إلى المساجد بعد احتلالها لأيّ مدينة جزائريّة لتهدم بعضها وتحوّل البعض الآخر إلى كنائس أو مستودعات عسكريّة؛ وعلى سبيل المثال في العاصمة قامت سنة: 1830م بإغلاق (13) مسجداً كبيراً، و(108) مسجداً صغيراً و(32) جامعاً و(12) زاوية، وفي سنة: 1862م لم يكن مخصّصاً للمسلمين في إقامة شعائرهم الدنيّة سوى (04) مساجد كبيرة، و(08) مساجد صغيرة، و(09) جوامع فقط⁽⁹⁾. والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا يحارب الاستعمار الفرنسيّ البغيض المسجد بهذا الشكّل؟

المسجد هو الحجر الأساس بالنسبة لعقيدة المسلمين في الجزائر- وهم غالبية المواطنين- بل كلّهم تقريباً، وليس غريباً فالله تبارك وتعالى يوضّح ذلك في الذكر الحكيم وهو ما يفسّر بعض الخصوم والأعداء للمسلمين في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِئٍ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120]. أو كما يقول أيضاً: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217]. وهذا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر؛ لأنّ الأمر في الحقيقة لا يشمل التّصوّر.

- **الأوقاف:** أخلفت فرنسا ما وعدت الجزائريّين به من عدم المساس بالدّين الإسلاميّ وحرّياتهم؛ ففي 08 سبتمبر 1830م صدر قرار استعماريّ يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الإسلاميّة، وفي 07 ديسمبر من السنّة نفسها صدر قرار آخر يعطي للحاكم العامّ حقّ التّصرّف في أملاك الأوقاف الإسلاميّة بالتّأجير أو الكراء؛ وهكذا أصبحت الحكومة الفرنسيّة تسيطر على الأوقاف وعلى المساجد كما أصبحت تمسك برقاب الأئمة والمفتين والقضاة المسلمين وغيرهم من الموظفين في السلك الدّينيّ وكلّ من يتقاضى راتبه من الأوقاف الإسلاميّة⁽¹⁰⁾.

- **التّعليم:** عملت فرنسا على محاربة التّعليم العربيّ سواء أكان في المدارس الإسلاميّة كالمساجد، أم الرّوايا، ليحلّ محلّها التّعليم الفرنسيّ ولنسبة محدودة فقط.

- **الانتماء التاريخي:** وقامت بمحاربة الانتماء التاريخي الحضاريّ إلى العالم العربيّ الإسلاميّ عن طريق التبشير بالتصاريّة المحرّفة. فقد جاء الاستعمار الدّنس إلى الجزائر يحمل السّيف بيدٍ والصّليب باليد الأخرى؛ فذلك للتّمكّن، وهذا للتّمكين⁽¹¹⁾.

ب- أبعاد المواطنة:

يمكن أن نحصر أبعاد المواطنة في ثلاثة أشياء متلاحمة مع بعضها البعض:

- **البعد الثقافيّ الحضاريّ:** ويقوم على الجانب الرّوحيّ والتّفنسيّ والمعنويّ للفرد والمجتمع على أساس احترام الهويّة الثقافيّة والحضاريّة مع رفض محاولات الاستيعاب والتّهميش.
- **البعد الاجتماعيّ الاقتصاديّ:** ويهدف هذا البعد إلى وجوب إشباع الحاجيات الأساسيّة للفرد مع الحرص على توفير الحدّ الأدنى اللازم للحفاظ على إنسانيّته وكرامته.
- **البعد القانونيّ:** ويجب أن يكون هناك لتحقيق البعدين السابقين ما ينظّم العلاقات التي تكون كعقد اجتماعيّ قائم بين الحاكم والمحكوم؛ مما يوازن بين المصلحة الخاصّة والعامّة أو بين مصلحة الفرد والمجتمع.

ومن خلال ما ذكر فإننا لا يمكن أن نختزل المواطنة في حقّ الحصول على بطاقة تعريف وطنيّة، أو جواز سفر، أو جنسيّة، أو ما شابه ذلك؛ وإنّما تتجسّد المواطنة في الغيرة على الوطن وحبّه والدّفاع عنه أثناء اللّزوم، والمشاركة في بنائه بكلّ الطرق القانونيّة.

ج - أصول الخطاب السياسيّ والإصلاحيّ في كتابات بعض علماء الجمعيّة:

كانت خطابات شيوخ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين كلّها تعبّر عن أصالة الشّعب الجزائريّ ووحدة ترابه في ظلّ معالمه الحضاريّة والتّاريخيّة، وتدعو إلى التّمسك بشخصيّة الوطنيّة بما يحقّق هويّته الوطنيّة وحقّ المواطنة فوق أرضه، وبما يؤكّد تطلّعاته المستقبلية في الانعتاق من ريق الاستعمار الفرنسيّ العاشم وسياساته التّعسفيّة.

ولأنّ المقام لا يسمح بذكر كلّ شاردة واردة عمّا كانت هذه الجمعيّة تدعو إليه؛ كان الاختيار قد انصبّ على شخصيّتين بارزتين فقط من أعضائها لذكر بعض ما بذلاه من جهود هي من الأهميّة بمكان في عمليّة الإصلاح في العديد من المجالات التي كانت تسعى لخدمة المجتمع الجزائريّ وتحقيق كلّ تطلّعاته بما يخدم معالمه الحضاريّة والتّاريخيّة والوطنية فوق

ترابه وأرضه إلى ما بعد النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي؛ ألا وهما: (عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي).

● جهود الإمام عبد الحميد بن باديس (ت 1941م):

كانت أمنية بن باديس أن يحاكي الشعب الجزائري في تقدمه شعوب العالم الرأية وكان السبيل الوحيد في نظره للوصول إلى تحقيق هذا الهدف النبيل هو الإصلاح التربوي والديني والاجتماعي، ويمثل فيه الفرد الجزائري الأداة التي يجب صقلها لتصل إلى تحقيق هذه الغاية؛ ولهذا راح يخاطب الفرد مرشداً إياه إلى السبيل الأقوم للترقي فكرياً ومادياً؛ حيث يقول: "حافظ على مالك فهو قوام أعمالك، فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته واطرق كل باب خيري لبذله، وحافظ على حياتك ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك، وإذا أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل"⁽¹²⁾. وهنا نجد العلامة يركز على محاكاة الشعوب المتطورة لتحقيق النمو الاجتماعي والاقتصادي بما يخدم وطننا - الجزائر - وديننا ولغتنا وجميل عاداتنا بأسلوب سهل يصل إلى قلوب أفراد الشعب الجزائري بأسرع ما يمكن من وقت؛ وهذا كله حباً في هذا الوطن.

وفي حوار له مع بعض الشبان المثقفين بالثقافة الغربية؛ يقول: "عليكم أن تلتقوا على أمتكم فتنتشلوها مما هي فيه بما عندكم من علم وما اكتسبتم من خبرة، محافظين على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية الحقة بين الأمم، وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الإنسانية بإحاض أمة عظيمة تاريخياً، ولا يمنع أخذ العلم من كل أمة وبأي لسان كان وكذا اقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا، ومد اليد إلى كل من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام"⁽¹³⁾. يشير في هذا المقطع القصير إلى العمل على انتشار الجزائر مما هي فيه من تخلف مستعملاً مصطلح الأمة؛ وهو مصطلح يضم كل أفراد المجتمع المشتركين بلا شك في كثير من المعالم والمقومات الروحية؛ مما يجعلهم أكثر التحاماً ببعضهم البعض من خلال الأصول والتاريخ والمصير المشترك، ناهيك عن العادات والتقاليد وما شابه ذلك ... ويؤكد على أنه لن يتحقق هذا الأمر إلا بواسطة تحصيل العلوم والمعارف والخبرات وإن كانت بلسان أجنبي دخيل.

إنّ ابن باديس - رحمه الله - كان لا يتصوّر مستقبلاً آخر للجزائر إلّا في ظلّ عروبته وإسلامها؛ وهما ركنان أساسيان من أركان الشخصية الجزائرية⁽¹⁴⁾ (***) . وهنا نجدّه يركّز على أنّ مستقبل الجزائر لن يكون إلّا بهما؛ لأنّهما ركنا الشخصية الوطنية. وفي هذا المساق، حاول الشيخ لمّ شمل أبناء الجزائر بما فيهم من بني يعربٍ وأمازيغٍ سعياً لتحقيق مبدأ الأخوة والمواطنة يقول: "إنّ أبناء يعربٍ وأبناء أمازيغٍ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرناً خلت، ثمّ بدأت تلك القرون تخرج فيما بينهم في الشدّة والرّخاء، وتؤلّف بينهم في العسر واليسر وتوحد بينهم في السّراء والضّرّاء حتّى كوّنت منهم منذ أحقابٍ بعيدةٍ من الزّمن عنصرًا مسلمًا جزائريًا؛ أمّه الجزائر وأبوه الإسلام. وقد كتب أبناء يعربٍ وأبناء أمازيغٍ آيات اتّحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشّرف لإعلاء كلمة الله، وبما أسألوا من محابرمهم في مجالس الدّرس لخدمة العلم... فأيّ قوّة بعد هذا يقول عاقلٌ تستطيع أن تفرّقهم؟ لولا الظّنون الكواذب والأمانى الخوادم. يا عجبًا لم يفترقوا وهم الأقوياء. فكيف يفترقون وغيرهم الأقوياء؟ كلاًّ والله بل لا تزيد كلّ محاولةٍ للتّفريق بينهم إلّا شدّةً في اتّحادهم وقوّةً لرابطتهم⁽¹⁵⁾. بذلك يؤكّد العلامة بأنّ مكوّنا هذا المجتمع العريق (العرب والأمازيغ) قد جمعهما الإسلام ووجد بينهما دون أيّ تفرقة، وأقام بينهما العلائق وفقاً لمبدأ التكامل؛ أي بما يخدم مصالح النّاس وفق ما يرضي الله تبارك وتعالى؛ وهو ما يفسّره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات، الآية: 13].

ويتميّز ابن باديس بشكلٍ دقيقٍ بين الدّولة والأمة؛ حيث أنّه بالإمكان أن تكون هناك أمةٌ إلّا أنّها لا تملك دولتها إمّا نتيجة احتلالها، أو أن تكون مندجّةً مع أمةٍ أخرى، أو مع مجموعة من الأمم في دولةٍ واحدةٍ. وإنّ ما يميّز الأمة عن الأخرى حتّى ولو انتمت هاتان الأمتان إلى دولةٍ واحدةٍ هو وجود ثلاث عوامل؛ وهي: (اللّغة، العقيدة، التّاريخ)⁽¹⁶⁾.

ويعتبر بن باديس: "أنّ الأمة الجزائرية موجودةٌ منذ زمنٍ طويلٍ، وتتميّز عن الأمة الفرنسيّة في كلّ شيءٍ؛ وبشكلٍ أخصّ في المقوّمات التي تحدّد الأمة فيقول: إنّ التّاريخ والحاضر يثبتان أنّ الأمة الجزائرية المسلمة متكوّنة وموجودة كما تكوّنت ووجدت كلّ الأمم ولهذا الأمة تاريخها الحافل ولها وحدتها الدّينية واللّغوية، ولها ثقافتها الخاصّة وعوائدها وأخلاقها"⁽¹⁷⁾.

وهنا نجده يؤكد باستفتاحه بالجملة المنسوخة (ب أن) على أن الأمة الجزائرية هي أمة موجودة منذ زمن بعيد ليست كالأمة الفرنسية التي تختلف عنها في كل شيء؛ ولا سيما في مسألة المقومات والمعالن الروحية المكونة لأفراد المجتمع. ويؤكد على أنها: "ليست فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا، حتى ولو أرادت ذلك؛ لأنها مختلفة عنها وبعيدة عنها كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ... ولها وطن محدود ومعين؛ وهو الوطن الجزائري بحدوده الحالية"⁽¹⁸⁾. فالجزائر لن تكون فرنسا؛ فهي تختلف عنها كل الاختلاف.

ومن كل هذا نستنتج أنه هناك مقومات كثيرة تربط بين أفراد المجتمع الجزائري؛ كاللغة والدين والتاريخ والمصير المشترك والعادات والتقاليد ... إلى جانب ما يتطلبه الوضع في ذلك الوقت العصيب بالوقوف إلى جانب الجزائر في محنتها أثناء الحقبة الاستدمارية؛ وخاصة فئة الشباب الذين يمكنهم أن يقوموا بواجب الدفاع عن أممتهم في محنتها، وهو ما سيقوي الشعور بروح المواطنة في نفوسهم.

• جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (ت 1965م):

الإبراهيمي صاحب ثقافة عميقة ذات أبعاد إيديولوجية عربية وإسلامية مما يكشف بإدراك عميق عن حقيقة الأصالة، ويثبت الذات العربية بدلالات دينها ولغتها وتاريخها عن قناعة وجرأة، ويعرب عن سلاح عتيدي يقف كحجر عثرة في وجه الاستلاب الثقافي الهادف إلى تحقيق الغزو الفكري الأجنبي لأفراد المجتمع الجزائري⁽¹⁹⁾.

وإن من شيم الرجال ذوي الأصول الطيبة أن يقفوا في وجه المخاطر التي تهدد مصير أممتهم؛ والإبراهيمي واحد من هذه الشخصيات التي حملت لواء الدفاع عن مصالح أفراد المجتمع الجزائري وهويته الثقافية ووطنيته أثناء هذه الحقبة مع إخوانه من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بإعلانهم التمرد على هذه السياسة الاستدمارية التي كانت فرنسا تسعى إلى تحقيقها، والتي كان الهدف منها أن تصرف الجزائريين عن حق المواطنة في بلادهم بقراراتها وقوانينها الاستعمارية؛ وهذا ليس حبا بل رغبة في استغلالهم بما يخدم مصالحها السياسية والاقتصادية، واستثمار خيرات بلادهم لصالح أبنائها... إلخ.

ومّا جاء في قوله عن الأطماع الاستعماريّة في بلادنا: "جاء الاستعمار الدّنس إلى الجزائر يحمل: (السيف والصّليب)؛ ذلك للتمكّن، وهذا للتمكين، فملك الأرض، واستعبد الرّقاب، وفرض الجزية، وسخر العقول والأبدان. ولو وقف عند الدّنيويات لقلنا تلك: هي طبيعة الاستعمار الجائع الذي تدفعه شهواته إلى تحقيق المادّات، فيجري إلى مداها ويقف وتدفعه الأنانيّة إلى الحيوانيّة فيلتقم ولا ينتقم؛ ولكنّه كان استعمارًا دينيًّا مسيحيًّا عاريًّا حيث وقف للإسلام بالمرصاد من أوّل يوم، وانتهك حرّماته، وابتزّ أمواله الموقوفة بالقهر وتصرّف في معابده بالتحويل والهدم، وتحكّم في الباقي منها بالاحتكار والاستبداد، وتدخل في شعائره بالتضييق والتشديد بروح مسيحيّة رومانيّة تشعّ بالحقد وتفور بالانتقام، ولم يكتف بذلك؛ بل راح يحتضن اليهود، وحمى أهلهم، كما أشركهم في السيّادة ليؤلّبهم مع المسيحيّين على حرب الإسلام، ويجنّدهم في الكتائب المغيرة عليه..."⁽²⁰⁾****).

ولو تمعنا فيما قاله في الذكرى المئويّة لاحتلال فرنسا لبلادنا، وما فيها من دلالة واضحة في بشاعة الاستعمار الفرنسي: "أيّها الجزائريّون، إنّ هذا العيد هو عرس فرنسا في مأمّتكم، وهو تذكيرٌ بقتلها لآبائكم، ولكلّ ما صاحب الاحتلال من انتزاع أرضكم وانتهاك عرضكم، وهو إشهار للأمم على قهركم وإذلالكم..."⁽²¹⁾. هنا يتّضح موقفه من إنكار تامّ لوجود الاستعماريّ ببلادنا؛ لأنّه استغلالٌ للأرض، وإذلالٌ للشعب الجزائريّ رغبةً منه في استنهاض الهمم الوطنيّة في الدّفاع عن الجزائر ولو بعد مرور مائة سنة على احتلالها.

ومّا يمكن أن نقوله في مجال الإصلاح أنّ الإبراهيميّ عمل على إصلاح العقيدة وتربيّة المجتمع على التمسك بأصول الدّين من كتابٍ وسنةٍ وتزويده بالوعي والعلم والفتنة؛ حيث أنفق في سبيل ذلك جهودًا كبيرهً وأوقاتٍ طويلةٍ مدرّسًا ومحاضرًا وخطيبًا وكاتبًا فخلف بذلك إنتاجًا أدبيًّا إصلاحيًّا حيًّا وراقيًّا⁽²²⁾. ومن أعظم ما كتب الإبراهيميّ في مجال الإصلاح المقدّمة الطويلة التي دبّج بها كتاب سجّل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين المنعقد بنادي الترقّي بالجزائر (العاصمة) عام: 1935م؛ حيث بيّن فيه منهجها في الإصلاح الدينيّ، ومّا جاء في قوله: "كيف يشقى المسلمون وعندهم القرآن الذي أسعد سلفهم؟ أم كيف يتفرّقون ويضلّون وعندهم الكتاب الذي جمع أوّلهم على التقوى؟ فلو أنّهم اتّبعوا القرآن وأقاموه لما سخر منهم الزّمان، وأنزلهم منزلة الضّعة والهوان، ولكنّ الأوّلين آمنوا

فأمِنُوا، وَاتَّبَعُوا فَارْتَفَعُوا، وَنَحْنُ آمِنًا مَعْلُولًا مَخْذُولًا، وَاتَّبَعْنَا اتِّبَاعًا مَخْذُولًا، وَكَلَّ يَجْنِي عَوَاقِبَ مَا زَرَعَ" (23).

ويشرح منهجه من ذلك قائلاً: "ولكن ما هو هذا القرآن الذي نكرّره في كل سطرٍ أو هذه الأحزاب (السنن)، أو الأجزاء (الثلاثون) التي نحفظها ونفق على حفظها سنوات الطفولة العذبة، وسنوات الشباب الزهر، ثم لا يكون حظنا منه عند هجوم الكبر إلاّ قراءته على الأموات بدرهيماتٍ واتّخاذه جنةً من الجنة وغير ذلك من الهنات الهينات. إن كان هذا هو فلم لم يفعل في الآخرين فعله في الأولين؟ ولم نر حفظه -على كثرتهم- اليوم أتقى الناس من هذه المعاني التي كان القرآن يفيضها على نفوس حفاظه بالأمس؟ ونجدهم في أخريات الناس أخلاقاً وأعمالاً حتى لقد أصبحوا هدفاً لسخرية السّاحرين يتكسّبون بالقرآن فلا يجديهم، ويقعون في المزالق فلا يهديهم مع أنهم يقولون: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9] (24). ثم يقول: "ولكن سرّ القرآن ليس في هذا الحفظ الجاف الذي نحفظه، ولا في هذه التلاوة الشلاء التي نتلوها، وليس من المقاصد التي أنزل لتحقيقها بتلاوته على الأموات ولا اتّخاذه مكسبةً والاستشفاء به من الأمراض الجسمانيّة؛ وإنما السرّ في تدبّره وفهمه وفي اتّباعه والتخلّق بأخلاقه" (25).

ولو عدنا إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24] لكانت الحجة الدامغة لديه في وجه الاستدمار الفرنسيّ وغيره من الطرقيين الذين كانوا في الدرك الأسفل من خدمة هذا الأخير.

وفي هذا المقطع من هذا الكلام الهامّ نجد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يشير إلى دور القرآن الكريم في استنهاض الهمم لتكون عاليةً شامخة شموخ الجبال الراسيات في أعماق الأرض بفهمه الفهم الصحيح له، ومحاولة تدبّر آياته عن طريق الوقوف عند كلّ صغيرة وكبيرة، ومعرفة معانيها ومدلولاتها، لا أن يكون مجرد كلام غير مفهوم يتلى على الموتى في المقابر أو في المآتم دون تمعّن في آياته؛ وهو ما كان الاستدمار الفرنسيّ يعمل على محاولة تثبيته في عقول أفراد المجتمع الجزائريّ، وهو ما كانت الفرق الضالّة من الطرقيين تسعى لتكريسه في عقول الناس خدمة لمصالح الاستدمار البغيض بالدّرجة الأولى، وتحقيقاً لبعض مصالحهم ليس إلّا.

وقد هاجم الطّريقين الذين كانوا يسمّون أنفسهم بعلماء السنّة؛ وهو اسم يناقض أعمالهم تمام التناقض في ثلاثة مقالاتٍ متتالية تحت عنوان: (تعالوا نسائلكم)؛ ومّا جاء في أولها ما يلي: "... فهل يحسن بنا وقد أضربنا قرائحنا في تعلّم هذه السنّة المطهّرة، وبذلنا في العمل بها جهد المستطيع، وركبنا المخاطر في الدّعوة إليها. فهل يحسن بنا بعد هذا كلّه أن نسكت لهؤلاء عن هذه الدّعوة الباطلة، ونوليهم منّا ما تولّوا ونبلّغهم ريقهم، وهل يحسن بنا ألا يكون لنا في الدّفاع عنها ما كان منّا في الدّعوة إليها؟ إنّنا إذا لمقصّرون" (26).

ويوجّه دعوته للطّريقين في عدم التّليبس على النّاس باستغلال الشّدج من العامّة وجهلهم بالدّين؛ فيقول: "نقول لكم دعوا هذا العامّي على فطرته ليتلقّى الهداية الدّيّية على يد أهلها سليمة كفطرته - بيضاء كقلبه، ونقيّة كصدره - ونحاكمكم في هذا إلى كتاب الله وسنّة نبيّه وهدي السّلف الصّالح من أمّته، فلا تسلمون ولا تجادلون بالحسني؛ بل كلّما قرعتمك الحجّة، وعصّكم الدّليل رجعتم بنا إلى أصولٍ من طباعكم؛ وهي المباغته والمغالطة والقول بغير علمٍ، وهو شرٌّ ما يتخلّق به متخلّقٌ، وأوهن ما يعتمد عليه مجادلٌ" (27).

وما يمكن قوله أنّ ما يدعيه هؤلاء الطّريقون من أنّهم أصحاب السنّة ما هو إلاّ كذبٌ وهذا بغرض تغليط العامّة من النّاس واكتساب ودّهم بواسطة نشر البدع والخرافات بينهم ومحاولة كسب المزيد من الوقت بما يخدم مصالح الاستعمار الفرنسيّ البغيض، وبما يخدم بعض مصالحهم من حطام الدّنيا ليس إلاّ. ويستخلص من كلامه أنّه كان يدعو إلى العودة إلى الأصول الصّحيحة للمجتمع الجزائريّ من أجل الوقوف في وجه الاستعمار البغيض ومن ذلك ما يلي:

- العقيدة الإسلاميّة: ويكون ذلك عن طريق محاولة فهم القرآن الكريم والسنّة النّبويّة المطهّرة الفهم الصّحيح، والعمل بما جاء فيهما بما يكرّس حبّ الوطن، وتقويّة روح المواطنة.

- اللّغة العربيّة: وتمثّل اللّغة العربيّة ركناً هامّاً من مقومات الشّخصيّة الوطنيّة الجزائريّة؛ وهي لغة القرآن الكريم التي يجب إحيائها والعمل بها؛ وهو ما حدث فعلاً في المدارس التي أنشئت على يد الجمعيّة في العديد من المناطق من الجزائر لتربيّة الجيل الصّاعد وتنشئته النّشأة الصّحيحة على حبّ لغته.

- الوطن (الجزائر): وقد أشار إلى أنّ الاحتلال الفرنسيّ جاء يحمل السيّف بيده اليمنى للتمكّن، والصليب بيده الأخرى للتمكين؛ وهذا بغرض محو المقومات والمعالم الروحية لأفراد المجتمع الجزائريّ، ومحاولة طمس روح المواطنة لديهم بما يخدم مصالحه الجيوسياسية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ في هذه الفترة الزمنية العصبية من تاريخ بلادنا.

ومن ذلك نخلص إلى أنّ محاولة المساس بهذه العناصر الحساسة من مقومات الشخصية الوطنية لدى رمزٍ من رموز جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من طرف فرنسا وسياستها الاستعمارية هي خطوط حمراء لا يجب الاقتراب منها بأيّ شكلٍ من الأشكال، وفي أيّ ظرفٍ من الظروف.

لقد سعى أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى تحقيق مجموعة من الأهداف ويمكن اختصارها في النقاط التالية:

- أ - الحفاظ على الإسلام في الجزائر؛ وذلك عن طريق:
- تكوين هيئة من علمائها تأخذ دور الحاكم الشرعي لإقامة شعائر الدين بين أفراد المجتمع الجزائري المسلم ومتابعة أحواله الشخصية.
 - محاولة تحصين أفراد المجتمع الجزائري من مخاطر التبشير والتنصير عن طريق إنشاء الجرائد والمجلات؛ مثل: الشهاب والبصائر... إلخ، وعقد الكثير من اللقاءات مع البعض منهم لتبليغهم من هذه المخاطر.
 - السعي للأخذ بأيدي الجزائريين إلى الاعتماد على العلوم والمعارف؛ وفي مقدمتها الأخذ بكتاب الله وسنة نبيه.

ب- محاولة إحياء اللغة العربية بإنشاء الكثير من المدارس؛ مثل: مدارس التهذيب في ربوع الوطن؛ وهذا باعتبار أنّ اللغة هي أساس كلّ إصلاحٍ بعد أن أدرك شيوخ الجمعية مخاطر الجهل الذي يؤدي إلى ضعف الوازع الدينيّ في النفوس والابتعاد عن حبّهم لوطنهم.

ج- تربية الجيل الصاعد من فئة الشباب على التمسك بدينه وتاريخه وحبّ وطنه وأرضه.

د- الدفاع عن مقومات الهوية الوطنية بما يغرس روح المواطنة في نفوسهم أكثر فأكثر.

ه- السعي إلى تحقيق عمليّة التّوحيد بين أفراد المجتمع الجزائريّ في إطار مبدأ الأخوة، ومحو مشكل التّفرقة العنصريّة بينهم.

و- مقاومة السياسة الاستعماريّة، والوقوف في وجه الأساليب المستعملة لمحاولة طمس المعالم الحضاريّة والتّاريخيّة للمجتمع الجزائريّ؛ مثل: قانون التّجنيس والأهالي (الأنديجانا) ومحاولة نشر الفرنسة والتّبشير بالتّصنّيعيّة المحرّفة... إلخ.

ز- محاولة الحفاظ على الإنسان الجزائريّ بما يحقّق انتماءه الحضاريّ والتّاريخيّ والوطنيّ، وبما يدعّم حقّ المواطنة في نفسه.

وبهذا كانت المفاهيم التي تنادي بها جمعيّة العلماء للحفاظ على المجتمع الجزائريّ داخل نمط اجتماعيّ استعماريّ يسعى إلى المحافظة على مقومات شخصيّة الوطنيّة، والتّمسك بمعالمه الحضاريّة والتّاريخيّة وذلك بما يخدم هويّته الوطنيّة وحقّ المواطنة في بلده وأرضه.

خاتمة:

مثلا سبقت الإشارة في خطّة هذه المداخلة المتواضعة فإنّ مصطلح المواطنة مستمدّ من الجذر الأصليّ للكلمة؛ ألا وهو (الوطن: وهو المنزل تقيم به)؛ هذا الوطن الذي يرتبط به الفرد والجماعة بعلاقاتٍ مشتركةٍ وفق وجود عقد اجتماعيّ يكرس المصلحة العامّة والخاصّة معًا.

كما أنّ المواطنة تقوم على بعض الأسس؛ مثل حالة انتماء الأفراد والجماعة إلى هذا الوطن عن طريق حمل جنسيّته بطريقة قانونيّة... في إطار الهويّة الوطنيّة. كما أنّها تقوم على أساس التّمتع بالحقوق المدنيّة والسياسيّة والاجتماعيّة مع القيام ببعض الواجبات كاحترام النّظام العام له والدّفاع عنه عند اللّزوم.

استمد علماء الجمعية أصول الخطاب السياسيّ والإصلاحيّ من عناصر الهويّة الوطنيّة من عروبة وإسلام، وانتماءٍ لبقعةٍ جغرافيّةٍ محدودةٍ بحدود طبيعيّة وسياسيّة، هي الخطّ الأحمرّ الذي لا يمكن المساس به مهما كانت الظروف والأحوال.

ولذلك حاربت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين السياسات الاستعمارية التي كانت تسعى من خلالها فرنسا إلى إذابة أفراد المجتمع الجزائري فيها، وقد ساعدها في ذلك بعض الطرقيين الذين أرادوا تحقيق مصالح فرنسا الاستعمارية الطامحة إلى قتل روح المواطنة لدى أفراد المجتمع الجزائري في تلك الحقبة الزمنية البغيضة من تاريخ بلادنا.

الهوامش والإحالات

- (1) - حديث نبوي شريف، رواه أحمد، وابن ماجه، والترمذي، وصححه الحافظ بن حجر العسقلاني في فتح الباري (67/3)، والألباني في صحيح سنن الترمذي: (5/ 590)، (ح3925).
- (2) - حديث نبوي شريف، رواه الترمذي، (5/ 722)، (ح3926)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (3/590)، (ح3926).
- (3) - محمد بن مكرم بن علي (أبو الفضل) بن منظور: لسان العرب، دار صادر - بيروت، مج: 06 باب: وطن، 1976م، ط01، ص: 4868 (بتصرف).
- (4) - ينظر: المرجع نفسه، ص: 4868.
- (5) - ينظر: المرجع نفسه، ص: 4868 (بتصرف).
- (6) - أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر، 1985م، ص: 238 (بتصرف).
- (7) - وهذا العدد من الجزائريين يشير إلى أنهم أصبحوا بموجب هذا القانون حاملي الجنسية الفرنسية؛ غير أن أغلبهم كان من الجنود الذين كانوا يرغبون في الترقى إلى رتبة أعلى في السلك العسكري؛ والتي كانت بالفعل مخصصة للفرنسيين دون غيرهم. ينظر أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 238 (بتصرف).
- (7) - المرجع نفسه، ص: 240 (بتصرف).
- (8) - المرجع نفسه، ص: 138، 139 (بتصرف).
- (8) - إزاء هذا الواقع الأليم للمجتمع الجزائري وقف رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين له بالمصاد في مجلاتها مثل الشهاب والإصلاح والمغرب...؛ ومن بينهم الإبراهيمي طالما أن هذا القرار كان يهدد أمن الجزائر وسلامتها وإسلامها وعروبته.
- (9) - أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 46 (بتصرف).
- (10) - المرجع نفسه، ص: 51 (بتصرف).
- (11) - عبد الملك بومنجل: التثر الفتي عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، العلمة - الجزائر، ط1 2009م، ص: 64 (بتصرف).

- (12) - أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحيّ في الجزائر، ص: 126 (بتصرف).
- (13) - المرجع نفسه، ص: 128 (بتصرف).
- (14) - رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التّربيّة والتّعليم، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1969م، ص: 127.
- (***) - أمّا الرّكن الثّالث فهو (الجزائر)؛ وعلى هذا الأساس فقد كانت نشاطات الشّيخ موجّهة للحفاظ على مقوّمات الشّخصيّة الجزائريّة؛ والتي تقوم على ثلاث ركائز هي: (العروبة، الإسلام، الوطن) وهنا يمكن أن نعود إلى ما قاله في مطلع إحدى قصائده؛ والتي جاء فيها:
- شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
- (15) - أحمد الخطيب: (جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين)، ص: 130، 131 (بتصرف).
- (16) - رابح لونيسي: التّيّارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتّفاق والاختلاف بين (1920-1954) كوكب العلوم، الجزائر، 2009م، ص: 335 (بتصرف).
- (17) - المرجع نفسه، ص: 336 (بتصرف).
- (18) - المرجع نفسه، ق: 336 (بتصرف).
- (19) - المجلس الأعلى للغة العربيّة: الإمام الرّائد محمّد البشير الإبراهيمي، منور الأذهان وفارس البيان منشورات المجلس، الجزائر، 2009م، ص: 188 (بتصرف).
- (20) - عبد الملك بومنجل: النّثر الفنيّ عند البشير الإبراهيمي، ص: 64، 65 (بتصرف).
- (****) - من عادات الاستعمار أن يغطّي مطامحه الاستعماريّة بأسبابٍ واهيةٍ لتحقيق ما يصبو إليه من استغلالٍ للشّعوب المغلوبة على أمرها، واستثمار خيراتها وثرواتها بما يخدم مصالحه السّياسيّة والاقتصاديّة.
- (21) - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار البشير الإبراهيمي، ج5، (1954م - 1965م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1997م، ص: 145.
- (22) - عبد الملك بومنجل: النّثر الفنيّ عند البشير الإبراهيمي، 2009م، ص: 76 (بتصرف).
- (23) - المرجع نفسه، ص: 77 (بتصرف).
- (24) - المرجع نفسه، ص: 77.
- (25) - المرجع نفسه، ص: 78.
- (26) - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار البشير الإبراهيمي، ج1، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب - الجزائر، ط1 1978م، ص: 42.
- (27) - المصدر نفسه، ص: 45.

جهود علماء الجمعية في سبيل النهوض بالأمة الجزائرية

The Efforts of the Association's Scholars for the Advancement of the Algerian Nation.

ط.د/ الدراجي شطي

أ.د/ خديجة الشامخة

جامعة غرداية (الجزائر)

chetti.derradji@univ-ghardaia.dz

تاريخ القبول: 2021/09/29

تاريخ الإرسال: 2021/09/10

ملخص:

تعدّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أكثر الهيئات أثرا في تاريخ الجزائر، وذلك للدور العظيم الذي قام به علماءؤها في سبيل النهوض بالأمة الجزائرية، وعليه تهدف هذه الدراسة إلى إبراز جهود علماء الجمعية في سبيل النهوض بالأمة الجزائرية، حيث إن قراءة التاريخ ومحاولة استثماره في الحاضر والمستقبل، يعدّ أساس تطور الأمم ورفيها، ومنه نطرح التساؤلات الآتية:

- ما هو دور علماء الجمعية في نهضة الأمة الجزائرية؟
- ما هي الجهود المبذولة في سبيل ذلك؟
- هل كان لها ذلك الأثر المرجو الذي تطمح إليه الجمعية وكل الأمة الجزائرية آنذاك؟

ولإجابة على هذه التساؤلات رأينا تقسيم هذه الورقة البحثية إلا ثلاثة مباحث هي:

- 1- جهود علماء الجمعية في الإصلاح الديني.
- 2- دور علماء الجمعية في التربية والتعليم.
- 3- وسائل علماء الجمعية في نشر الوعي الوطني والقومي.

الكلمات المفتاحية: الجهود، جمعية العلماء، الأمة، الجزائر، الوطنية.

Abstract:

The Association of Algerian Muslim Scholars is one of the most influential bodies in The history of Algeria, for the great role played by its scholars in the advancement of the Algerian nation, and accordingly this study aims to highlight the efforts of the association's scholars in order to promote the Algerian nation, since reading history and trying to invest it in the present and the future, is important in the development of the nation, from which we ask the following questions:

What was the role of the association's scholars in the renaissance of the Algerian nation? What efforts were being made to do so? Did it have the desired effect that the Assembly and the entire Algerian nation aspired to at the time ?

To answer these questions, we saw the division of this research paper into only three investigations:

- 1- The efforts of the association's scholars in religious reform.
- 2- The role of the association's scholars in education.
- 3- The means of the association's scientists in spreading national and national awareness.

keywords: Efforts, Scholars association, Nation, Algeria, National.

مقدمة:

بعد ظهور النهضة العربية الحديث في المشرق العربي، وظهور الحركات الوطنية والقومية في جلّ تراب العالم العربي والإسلامي، كان لزاماً أن تولد حركة وطنية إصلاحية نهضوية في جزائرنا الحبيبة، حيث عمل الاستعمار الفرنسي في الجزائر على طمس الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، وجند كلّ وسائله في سبيل نشر الجهل والأمية والخوف والخنوع في أبناء هذا الوطن، علّه يستطيع القضاء على كلّ ما يمت بصلة إلى الروح الجزائرية العربية الإسلامية، فهدم المساجد وحولها إلى كنائس و حرب المدارس محاً معالم الثقافة والمعرفة في هذا الوطن، لذلك جاءت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كردة فعل على جرائم الاستعمار في حق الشعب الجزائري، فعزم علماؤها والعائدون متشبعين بالثقافة العربية الإسلامية - كالشيخ العلامة عبد الحميد ابن باديس والشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي - على استرجاع الهوية الوطنية العربية الإسلامية للشعب الجزائري حاملين لواء الإصلاح الذي

اعتمدوا فيه على ما نهلوا من علم ديني ولغوي، فأنشأوا المدارس والجمعيات والنوادي الثقافية، ووضعوا مشروعهم الإصلاحية الذي مسّ عدة جوانب في البناء الاجتماعي للوطن، كيف ذلك؟

1- دور علماء الجمعية في الإصلاح الديني:

لا يخفى على من أحاط علمًا بتاريخ الجزائر في العهد الفرنسي تلك الحالة التي كان يعيشها المجتمع الجزائري من جهل مفروض، والذي لم يقتصر على الجهل بالقراءة والكتابة والعربية لدى كثير من أبناء الشعب، بل تعداه إلى الجهل بالدين والعقيدة الصحيحة، وعليه جعل قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مسألة تعليم الأمة عقيدتها الصحيحة هدفا من أسمى الأهداف التي سعت إليها الجمعية، فقد «جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت، فوجد هذه المقومات راسخة الأصول، نامية الفروع، على نسبة من زمنها؛ فتعهد في الظاهر باحترامها، والمحافظة عليها... ولكنهم عملوا في الباطن على محوها بالتدرج وتم لهم - على طول الزمن بالقوة وبطرائق من التضليل والتغفيل - جزء مما أرادوا... فقد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل والتعليم بإفشاء الأمية»⁽¹⁾. وقد كان لهذه السياسة الاستعمارية أثر عميق في زعزعة عقائد الجزائريين، لذلك عزم علماء الجمعية على السير نحو التصحيح الديني، ورد الأمة الجزائرية إلى جادة الصواب، وهذا ما يوضحه الشيخ العربي التبسي في تقرير جمعية العلماء لرسالة الشيخ مبارك المليحي حيث قال: «إنّ الدعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي في العالم الإسلامي عامة، وتقوم بها جمعية العلماء في القطر الجزائري خاصة تتلخص في دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب ربهم وسنة نبيهم، والسير على منهاج سلفهم الصالح في أخلاقهم وعبادتهم القولية والاعتقادية والعملية وتطبيق ما هم عليه اليوم من عقائد وأعمال وآداب، على ما كان في عهد السلف الصالح»⁽²⁾. الأمر الذي يشير إليه - أيضا - الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - في قوله: «رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق وفساد في العقيدة وجمود في الفكر

وقعود عن العمل وانحلال في الوحدة وتعاكس في الوجهة وافتراق في السير. حتى خارت النفوس القويمة وفترت العزائم المتقدة»⁽³⁾. إذ نجد في هذا القول إشارة واضحة من الشيخ إلى الحال التي وصل إليها المجتمع، لذلك رأينا علماء الجمعية يركزون في أعمالهم على بث الوعي الديني في أوساط المجتمع، وتصحيح العقائد من خلال الدعوة إلى الكتاب والسنة ويواصل الشيخ قائلا: «فأخذنا على أنفسنا دعوة الناس إلى السنة النبوية المحمدية وتخصيصها بالتقدم والأحجية فكانت دعوتنا - علم الله - من أول يوم إليها والحث على التمسك والرجوع إليها... وقد زدنا من فضل الله أن أسسنا هذه الصحيفة الزكية. وأسميناها (السنة النبوية المحمدية) لتنتشر على الناس ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في سيرته العظمى، وسلوكه القويم، وهديه العظيم»⁽⁴⁾. وهنا يوضح الشيخ رحمه الله منهج الجمعية وأعضائها في عملها الإصلاحية الذي جعل الدين والعقيدة في مقدمة اهتماماته وهذا- أيضا - ما نلمسه في قول الشيخ: «رأينا واجبا علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة وهدى صالح سلف الأمة وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات فكان لزاما أن نؤسس لدعوتنا صحافة تَبَلِّغُهَا للناس فكان المنتقد وكان الشهاب»⁽⁵⁾. وعليه ما كانت هذه الصحف المذكورة إلى وسيلة من وسائل الجمعية للدعوة إلى الحق ومحاربة البدع والضلالات وربما نستشهد على حرص علماء الجمعية على تصحيح العقيدة بقول للشيخ ابن باديس في قضية الدعاء والاستغاثة بغير الله على أنه من الضلال المبين حيث قال: «ويدعو المخلوق خالقه ويستغيثه، في تيسير الأسباب العادية وفيما هو وراء تلك الأسباب من الألفاظ الخفية وما هو فوق الطاقة البشرية على هذا جاء قول الله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فتوجهوا إليه بالدعاء وطلب التخليص من المكروه بالنصر على الأعداء وقد كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بين ظهرانيهم فلم يستغيثوه لعلمهم أنّ الاستغاثة فيما وراء الأسباب لا تكون إلا لله»⁽⁶⁾.

نجد في هذا القول تركيز الشيخ على تصحيح عبادة من أعظم العبادات في الإسلام وهي الدعاء والاستغاثة، ليبين - رحمه الله - أنه لا ينبغي أن تصرف لغير الله عز وجل حتى لو كان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد أوضح الدكتور عمار الطالبي مذهب ابن باديس القائم على التصحيح الديني الذي هو أساس التصحيح الاجتماعي حيث قال: "والشيخ

ابن باديس من المدرسة التي ترى أنّ الإصلاح الاجتماعي يقوم على أساس أنّ الأخلاق تنبع من الداخل، وأنّ الوسيلة هي تطهير القلوب وتغيير النفوس، وهذا يؤدي إلى تغيير المؤسسات الاجتماعية. يقول ابن باديس: (إنّ الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا، وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، فالباطن هو أساس الظاهر)".

وهو يعتبر أنّ العناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، وأنّ صلاح الإنسان وفساده إنّما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها»⁽⁷⁾. وهنا نلمس إشارة منه إلى قول النبي ﷺ «ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»⁽⁸⁾.

وقد اعتمد الشيخ في تعليمه لتعاليم الدين الإسلامي على تفسير كتاب الله عز وجل وشرح أحاديث النبي ﷺ مركزا في ذلك على الجانب الروحي والتربوي وما يحمل النفس على الاستقامة والاعتدال⁽⁹⁾ كما نجد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله يبنه الأمة الجزائرية إلى ضرورة التمسك بالدين الإسلامي ومقوماته حيث يقول: «الجزائر هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلث من الأمة المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان الدين»⁽¹⁰⁾. وفي هذا المقتطف توضيح من الشيخ الإبراهيمي لأهمية الدين في بناء الأمة ويواصل رحمه الله قائلا: «فالأهم الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان، وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله أن تتفرق وإن كثرت فيها دواعي التفرق ويأبى لها دينها - وهو دين التوحيد- إلا أن تكون موحدة، وتأبى لها الفضائل الإسلامية إلا أن تكون مظهرا للفضيلة في هذا العالم الإنساني، فإذا كان في تلك الأمم من يضار الفضيلة أو يخونها في اسمها فما ذلك من الإسلام في شيء؛ وإنما هو انحراف مزاج سببه سوء الفهم أو غلبة وهم، أو دعوى طباع أو هو تقليد واتباع»⁽¹¹⁾. في هذا الكلام نلمس مدى إحساس الشيخ بضرورة الفهم الصحيح للدين الإسلامي الحنيف وتحكيمة في أمور الحياة ليستقيم حالها، وبند التقليد لغير المسلمين مما يحافظ على الهوية الإسلامية الصافية للأمة الجزائرية.

كما نلاحظ الشيخ الإبراهيمي - رحمه الله - يبنه إلى ضرورة اتباع السنة وترك البدع والضلالات لأنّ الإسلام واحد مشيرا بذلك لمن خالف السنة من خاصة الشعب الجزائري

المسلم وعاتمته، حيث يقول: «المسألة بيننا لا تتجاوز أحد أمرين: إما سنة نحن وهم سواء في امتثالها والإذعان لها. أو بدعة نحن وهم سواء في تجنبها وقتلها هذا باعتبار الإسلام الجامع بيننا. أما إذا كان الطرف الآخر لا يدين بما ندين فما كان لنا أن نأخذ من على غير ملتنا بما وجب علينا أخذ أنفسنا به»⁽¹²⁾. كما جاء في تقرير إلى لجنة الإصلاحات الإسلامية في الجزائر توضيح للهدف الأسمى للجمعية وعلمائها: «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تتشرف بحمل لواء الإصلاح الديني بالدعوة إلى نشره وتحقيقه، ذات برنامج عملي في تعليم الإسلام على حقيقته من أصلية - الكتاب والسنة - وفي نشر الفضائل الإسلامية والأخلاق القرآنية، وما يقتضيه ذلك من محاربة البدع والخرافات والجمود والردائل والمحرّمات»⁽¹³⁾. وعلى هذا النهج سار علماء الجمعية كالشيخ مبارك الميلي في رسالته "الشرك ومظاهره" والشيخ الطيب العقبي والشيخ العربي التبسي في مقالاتهم التي تزخر بها صحف الجمعية وجلّ علماء الجمعية ليتضح مدى الدور الذي قام به علماء الجمعية في الإصلاح الديني بالجزائر بعدما عمل الاستعمار على سلخ الأمة الجزائرية من دينها وعقيدها وهويتها.

2- دور علماء الجمعية في التربية والتعليم:

إنّ حرص علماء الجمعية على الإصلاح الديني والاجتماعي في أرض الجزائر - التي عاث فيها الاستعمار فسادا وعمل على نشر الجهل والامية في أوساط شعبها - لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال التربية والتعليم وعليه عملت الجمعية على إنشاء المدارس والنوادي في جميع أنحاء الوطن كالمعهد الباديبي بقسنطينة ودار الحديث بتلمسان وغيرها من المدارس والنوادي، وكتصوير لجرم المستدمر يقول عدنان مهدي: «جميعنا يعرف سياسة التجهيل التي ينتهجها أيّ مستعمر في أيّ بلد إلا أنّ ما اقترفته فرنسا في حقّ الشعب الجزائري لا يمكننا وصفه بأقل من الجريمة»⁽¹⁴⁾. هذا ما جعل علماء الجمعية يضعون في مقدمة أهدافهم تعليم أبناء الشعب الجزائري والرقي بمستواه العلمي والفكري فعملوا - كما سبقت الإشارة- على إنشاء المدارس ودور العلم، وقد كان لرئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد ابن باديس آنذاك سابقة في المجال من خلال ما حصّله خلال تعليمه بجامع

الزيتونة إذ نقد الشيخ -رحمة الله عليه- «طرق التدريس في جامع الزيتونة وبين أنها ليست وسيلة تؤدي إلى تحقيق الغرض من التربية كما يتصوره»⁽¹⁵⁾. وما هذا الكلام إلا دليل على تمرس الشيخ في التدريس، الأمر الذي جعله كفاء لتعليم أبناء الجزائر «وأول عمل تربوي تعليمي سجله ابن بايس في قسنطينة كان سنة 1332هـ فكان يعلم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها صباحا وعشية ثم بعد بضع سنوات أسس مع جماعة من الفضلاء المتصلين به، مكتبا للتعليم الابتدائي وذلك في مسجد سيدي بومعزة ثم انتقل إلى بناية الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست سنة 1917م وفي سنة 1349هـ - 1930م تطور مكتب الجماعة إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية ... وجاء في القانون: أن مقصود الجمعية نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف الدينية، والعربية، والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين، وبينت المادة الثالثة الوسائل:

1. تأسيس مكتب للتعليم
2. ملجأ للأيتام
3. ناد للمحاضرات
4. معمل للصنائع
5. إرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى»⁽¹⁶⁾. وهذه من بدايات حرص علماء الجمعية على تعليم أبناء الشعب الجزائري، فقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - ممثلة في أعضائها الذين كانوا خيرة شباب الجزائر آنذاك - الحصن المنيع الذي تولى الحفاظ على الهوية الوطنية والعربية الإسلامية للبلد، حيث يقول عدنان مهدي: «كانت: جمعية العلماء المسلمين: حاملة تكوين الجمعيات على مستوى الوطن وكان الهدف هو تكاتف الجهود لإنشاء المدارس العربية الإسلامية ولقد استقبلت هذه المدارس العديد من الطلبة في وقت فراغهم لتكوينهم على المحافظة على الدين واللغة العربية كما عمدت إلى إنشاء العديد من الأندية الثقافية التي كانت مركز لقاء جميع شرائح المجتمع على اختلاف أعمارهم»⁽¹⁷⁾. ومن الدروس المقدمة من طرف الشيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- في قسنطينة جاء في جريدة الصراط ما يلي: «فتحت الدروس العلمية بقسنطينة في غرة رجب وجاء الطلبة من العمالات الثلاث وتجاوز عددهم المائة والحمد لله

وها هي الدروس التي يقوم بها الأستاذ ابن باديس بنفسه للطبقة الثالثة الجزء الثاني من الدردير على مختصر مفتاح الوصول للشريف التلمساني، الدمنهوري على الجوهر المكنون المكوي على الألفية، التلخيص بمختصر السعد، درس التفسير العام»⁽¹⁸⁾. هذا نموذج عن الدروس التي كان يقدمها ابن باديس وكلها تصب في تعليم العربية وعلوم الدين.

وفي عهد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أوضح رحمه الله في بيان للمجلس الإداري للجمعية سنة 1943م أنّ الجمعية عازمة على مواصلة مشروعها التربوي التعليمي، في جميع ربوع الوطن وكانت تبسة أحد هذه النماذج، وطمان الشباب المتعطش للعلم، كما أوضح أنّ ذلك سيكون بقيادة الشيخ العربي التبسي مع ثلة من الأساتذة تحت إشرافه، مبيّنة الجمعية في الحفاظ على المدارس والتعليم العربي⁽¹⁹⁾.

وكما اهتم علماء الجمعية بتعليم الشباب فإنهم أيضاً قد اهتموا بتعليم المرأة؛ ذلك أنّ تعليم المرأة أمر ضروري لتطور المجتمع ولا يمكن بناء حضارة في ظلّ تجهيل المرأة على حدّ تعبير مالك بن نبي⁽²⁰⁾، وقد ذكر الدكتور عمار الطالبي اهتمام ابن باديس رحمه الله بتعليم المرأة فقال: «إنّ ابن باديس على بصيرة بما للمرأة من وظيفة اجتماعية تربوية عظيمة ولذلك فإنّه أوجب تعليمها وإنقاذها ممّا هي فيه من الجهالة العمياء، ونصح بتكوينها تكويناً يقوم على أساس العفة وحسن تدبير المنزل، والنفقة والشفقة على الأولاد، وحسن تربيتهم، كما أنّه حمّل مسؤولية جهل المرأة الجزائرية أولياءها، والعلماء الذين يجب عليهم أن يعلّموا الأمة رجالها ونساءها، وقرر أنّهم آثمون إنّما كبيراً إذ فرطوا في هذا الواجب. واستدل على وجوب تعليم المرأة بالعموميات القرآنية الكثيرة الشاملة للرجال والنساء، وبأحاديث شريفة، ومذهبه أنّ الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا بمخصص من إجماع أو نص أو ضرورة طبيعية، لأنّ النساء شقائق الرجال»⁽²¹⁾ وللحثّ على العلم والحرص على طلبه ومواصلة المسير كتب محمد البشير الإبراهيمي - رحمه الله - رسالة إلى الطلبة الجزائريين بالزيتونة يشجعهم فيها على إكمال المسير والنهل من بحور العلم ليكونوا أعمدة وطنهم وبناء عزه ومجده وحثهم على الاقتداء بالشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله تعالى⁽²²⁾.

كما يوجه -رحمه الله- كلمة إلى المعلمين ينههم فيها إلى المسؤولية الملقاة على عاتقهم فيقول: «إنكم تجلسون من كراسي التعليم على عروش ممالك، رعاياها أطفال الأمة، فسوسوهم بالرفق والإحسان، وتدرجوا بهم من مرحلة كاملة في التربية إلى مرحلة أكمل، إنهم أمانة الله عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم، سلمتهم إليكم أطفالا، لتردهم إليها رجالا، وقدمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الروح، وألفاظا لتعمروها بالمعاني، وأوعية لتملأوها بالفضيلة والمعرفة»⁽²³⁾. وهنا يحدد -رحمه الله- واجب المعلم نحو تلاميذه وأتمه قصد التحسيس بعظم المسؤولية المنوطة بالمعلمين.

إضافة إلى ذلك نرى الشيخ الإبراهيمي -رحمة الله عليه- يبيّن منزلة المثقف والمتعلم في الأمة فيقول: «والمثقفون في الأمم الحية هم خيارها وسادتها وقادتها وحرّس عزاها ومجدها. تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير وما زالت عامة الأمم، من أول التاريخ تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها»⁽²⁴⁾. في هذه الكلمات تبيان من الشيخ لمكانة العلم وأهله، ولا يخفى على عارف بتاريخ الشيخ مدى تبنّيه لقضية التربية والتعليم فجّلّ مقالات الشيخ المنشورة في البصائر وغيرها رأيناها فيها حاملا لواء الدفاع عن التربية والتعليم في أرض الوطن.

هذا موجز عن دور علماء الجمعية في التربية والتعليم على أرض الجزائر والذي لا يمكن حصره في بضع كلمات.

3- وسائل علماء الجمعية في نشر الوعي الوطني والقومي:

لقد كان علماء الجمعية على وعي ودراية بحالة الوطن الجزائري والأمة العربية، الأمر الذي جعلهم يحملون على عاتقهم مسؤولية توعية الأمة الجزائرية والعربية عامة بأهم القضايا الوطنية والقومية، وقد جعلوا من الأدب وسيلة لإيصال صوتهم للشعوب وإيصال صوت الشعوب من خلالها، لذلك سنحاول في هذا المبحث تتبع اهتمام علماء الجمعية في أدبهم - شعره ونثره- بتلك القضايا، كالدين واللغة والوطن ووحدة الأمة.

وفي هذا الصدد يشير محمد الصالح الجابري إلى معالجة طلبة الجزائر بالزيتونة - في أشعارهم - لقضايا الوطن والأمة والذين منهم أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قائلا: «يصح القول في البدء بأن البيئة الثقافية التونسية كانت منطلقا من المنطلقات الأساسية لظهور أبرز الشعراء الجزائريين المعاصرين، الذين جاؤوا إلى تونس مجرد طلاب علم وافدين على جامع الزيتونة، فإذا بهم يجدون في الصحافة والمجلات التونسية والوسط الثقافي التونسي مجالا رحبا لتفجير مواهبهم الشعرية، وكتابة مختلف أنماط القصائد، وخاصة منها القصائد القومية والنضالية»⁽²⁵⁾، وقد ذكر الجابري من بين هؤلاء محمد العيد آل خليفة والسعيد ناجي الزاهري ومحمد الأخضر السائحي، والصالح خريفي وغيرهم⁽²⁶⁾.

وللاستشهاد على إصرار علماء الجمعية على غرس الروح الوطنية والقومية في نفوس الجزائريين نسوق أبياتا مشهورة للشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله طالما تغنى بها أبناء الجزائر والتي يقول فيها:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ وَإِلَى الْغُرُوبَةِ يَنْتَسِبُ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ
أَوْ رَامَ إِذْمَاجًا لَهُ رَامَ الْمُحَالَ مِنْ الطَّلَبِ
يَا نَشْءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا وَبِكَ الصَّبَّاحُ قَدْ اقْتَرَبَ
خُذْ لِلْحَيَاةِ سِلَاحَهَا وَخُضِ الحُطُوبَ وَلَا تَهَبْ⁽²⁷⁾

في هذه الأبيات يوضح الشيخ رحمه الله ارتباط الجزائر بالأمة العربية والإسلام، كما يبحث على ضرورة تحرير الوطن مؤمنا بالشباب الجزائري الغيور على وطنه.

ويقول في أبيات أخرى يبحث من خلالها أبناء الشعب على بذل الغالي والنفيس في سبيل الوطن والأمة:

أشعبَ الجزائرِ روحَ الفِدا لَمَّا من عِرَّةٍ عَرِيَّةِ
بَنَيْتَ على الدينِ أركانها فكانتَ سلامًا على البشريَّةِ
خَلَدْتُمْ بها وبكم خَلَدَتْ بهذي الديارِ على الأبدِيَّةِ
فدوموا على العهدِ حتَّى الفَنَّا وحتى تَنَالُوا الحَقوقَ السَّنِيَّةِ

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله مشيدا بدور الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله في إرساء الشخصية الوطنية والعربية بين أبناء الجزائر: «عمل هذا المصلح طاقتة في سبيل أن يحتفظ الجزائريون برباطهم المقدس الذي يجمعهم على كلمة واحدة دينا ولغة ماضيا ومصيرا»⁽²⁸⁾.

ومن شعراء الجمعية الشاعر الفحل محمد العيد آل خليفة الذي جده يزهو بنزعتة الثورية الوطنية، حيث يقول في قصيدة له بعنوان "صرخة ثورية" ألقيت في إحدى حفلات مدرسة "الشبيبة" سنة 1932م:

تؤلفنا الملة المرتضا... ة وتجمعنا الرحم العربيه
شباب الجزائر طب بالاخا... ء فقد حزت في رعيه الأسبقيه
وظف حول مورده المستطاب... كما طافت النحل الخليه
أناديك للخير خير النداء... وأوصيك بالحق حق الوصيه
ذر الخوف تعرف ثنايا السلوك... فمن هاب خاب وضل الثنيه
رأيت المنايا سبيل المنى... فخاطر تصب منية أو منيه
إذا زلزلت بالخطوب البلاد... فلا خير في حذر أو تقيه
تولى زمان الرضى بالهوان... ووافى زمان الفدى والضحيه⁽²⁹⁾

نلاحظ في هذه الأبيات النزعة الثورية النابعة من حب الوطن والهوية العربية، حيث يؤكد الشاعر على أن الروح رخيصة في سبيل الوطن والحرية ولا خير في عيش الذل والهوان وللشاعر قصائد ثورية وقومية عديدة تنبي عن تلك الروح الوطنية والقومية لأبناء الجمعية.

ومن بين ما نذكره في الروح الوطنية ومشاركة الشعب مآسيه ما قاله الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في ذكرى 8 ماي، حيث قال: «لك الويل أيها الاستعمار! أهدا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجذك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهدا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام، ويجوع أهله وأهلك بطن، ويثب في العواصف التي إلى أهله بعد أن شاركك في النصر لا في الغنيمة ولعل فرحه بانتصارك مساو لفرحه بالسلامة - فيجد الأب قتيلًا، والأم مجنونة من الفزع، والدار مهدومة أو محرقة، والغلة

متلفة، والعرض منتهكا، والمال نهباً مقسماً، والصغار هائمين في العراء؟»⁽³⁰⁾. وكلها أسئلة استنكارية للمجازر التي ارتكبتها المستدمر الفرنسي في حقّ الشعب الجزائري توحى بالنزعة الوطنية الغيورة للشيخ، ولم يكن أدباء الجمعية بالقضية الوطنية، بل شاركوا إخوانهم العرب همومهم وقضاياهم ولعلّ من أعظم القضايا التي هزّت وجدانهم القضية الفلسطينية، حيث يقول الشيخ الإبراهيمي متحدثاً عن مكانة فلسطين في نفوس الشعب الجزائري المسلم: «يا فلسطين! إنّ في قلب كل مسلم جزائري من قضيتك جروحاً دامية، وفي حفن كلّ مسلم جزائري من محتكك عبرات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حنك كلمة مترددة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير؛ قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصغير... يا فلسطين! إذا كان حب الأوطان من أثر الهواء والتراب، والمآرب التي يقضيها الشباب، فإنّ هوى المسلم لك أن فيك أولى القبلتين، وأنّ فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله»⁽³¹⁾. نلمس هنا في كلمات الشيخ روحه القومية الإسلامية وإحساسه بمصائب إخوانه في فلسطين ويشير الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى دور صحافة الجمعية في تبني القضايا القومية فيقول: «خصصت الصحافة الافتتاحيات الضافية والأبواب الدائمة لدراسة طبيعة فلسطين وأهميتها التاريخية والقومية للعرب، وقد اشترك في الدعوة إليها والكتابة عنها كبار أدباء الجزائر ومفكروها أمثال: ابن باديس، والمدني، والإبراهيمي، والعقبي ومحمد العيد، وسحنون. وكتب عنها شيخ أدباء الجزائر محمد البشير الإبراهيمي سلسلة من المقالات الافتتاحية في (البصائر) كانت تفيض عاطفة وحمية، دعا فيها الشعب الجزائري إلى مزيد من البذل ومشاركة الشعب العربي هذه القضية القومية»⁽³²⁾.

هذه نماذج عن اهتمام علماء الجمعية بالقضايا الوطنية والقومية وحرصهم على بثّ الوعي الوطني والقومي في نفوس الشعوب العربية عامة والشعب الجزائري خاصة، سقناها كأمثلة لعدم اتساع المقام للإمام بجميع آثار هؤلاء الأفاضل.

خاتمة:

- بعد هذه الرحلة الماتعة في رحاب تاريخ علماء الجمعية، والوقوف على أهم موقفهم وأعمالهم في سبيل النهوض بالأمة الجزائرية وروحهم الإصلاحية التي كانت الحصن الحصين الذي احتمت به الجزائر وشعبها من ظلم الاستعمار، من آثارهم الخالدة نتوصل إلى الآتي:
- لقد كانت الجمعية بأعضائها الأشاوس سدًا منيعًا وقف دون فقدان الشعب الجزائري لهويته وثوابته.
 - إنَّ إيمان علماء الجمعية بقضيتهم الوطنية جعلهم يحققون نتائج عظيمة في إصلاح حال الأمة الجزائرية.
 - تُهج علماء الجمعية النابع من الروح الإسلامية الخالصة نموذج يجب أن يحتذى به في مشروعنا الإصلاحي حاضرا ومستقبلا.
 - إنَّ المشروع الإصلاحي يجب أن ينطلق من المجتمع ذلك أنّ الله لا يصلح ما يقوم حتى يصلحوا ما بأنفسهم.
 - لن يصلح حال الأمة اليوم إلا بما صلح به أولها وهذا ما آمن به علماء الجمعية.
 - وأخير ينبغي علينا العودة إلى هذا التراث المجيد بالنظر المتفحص والقراءة المعمقة الجادة علنا نستطيع استثماره في حاضرنا ومستقبلنا، كما نرجو من أهل المجال مزيدا من الاهتمام بهذا التراث الذي هو روحنا الخالصة وهويتنا النقية.

الهوامش والإحالات

- (1) - أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، دار الأمة، ط1، الجزائر، 2007، ص 21.22.
- (2) - مبارك بن محمد المليي: رسالة الشرك ومظاهره، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمان محمود، ط1، دار الراجعية، السعودية، 2001، ص28.
- (3) - عمار طالبي: آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ج1، م2، ص23.
- (4) - المرجع نفسه، ص25.
- (5) - المرجع نفسه، ص28.
- (6) - المرجع نفسه، ص34.
- (7) - المرجع نفسه، ص100.101.

- (8) - رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه 1/ 28 [52]، ومسلم في كتاب البيوع باب أخذ الحلال وترك الشبهات 3/ 1219 [1599].
- (9) - ينظر: عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، م1، ص125 وما بعدها.
- (10) - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص107.
- (11) - المرجع نفسه، ص ن.
- (12) - المرجع نفسه، ص289.
- (13) - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص133.
- (14) - عدنان مهدي: التعليم في الجزائر أصول وتحديات، دار المثقف، ط1، 2018م، الجزائر، ص21.
- (15) - عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، م1، ص207.208.
- (16) - المرجع نفسه، ص114.
- (17) - عدنان مهدي: المرجع السابق، ص27.
- (18) - جريدة الصراط: ع8، 1352هـ-1933م، ص3.
- (19) - ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، دار الغرب الإسلامي ط1، بيروت، 1997، ص131 وما بعدها.
- (20) - ينظر: سمير أبيش، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تعليم المرأة (1931-1956)، مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، ع6، 2017، ص124.
- (21) - عمار الطالبي: المرجع السابق، ص118.
- (22) - ينظر أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق، ص152.153.
- (23) - المرجع نفسه، ص113.
- (24) - المرجع نفسه، ص126.
- (25) - محمد الصالح الجابري: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات السهل، ط1، الجزائر، 2009، ص33.
- (26) - ينظر: المرجع نفسه، ص ن.
- (27) - عمار الطالبي: آثار ابن باديس، ج2، م1، ص571.
- (28) - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، ط5، 2007، الجزائر، ص114.
- (29) - محمد العيد آل خليفة: ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2010، ص380.
- (30) - أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص371.
- (31) - المرجع نفسه، ص491.
- (32) - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص108.109.



Folder 02
Issue 03
September 2021

El Ibrahimi for Letters and Humanities

An International Academic Peer-reviewed Journal
Issued by Bordj Bou Arreridj University, Algeria

ISSN 2710-7949
EISSN 893X-2716
Legal Deposit: January 2020